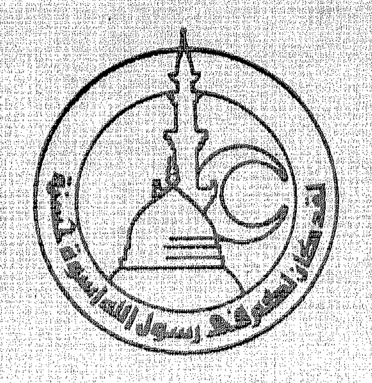


المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة محرم ١٤٠٠هـ

السيرة النبوية

تأليف

السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

عني بطبعه ومراجعته

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة صاحب السمو

الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني

أمير دولة قطر

اهداءات ٢٠٠٢

السفير فتحي الجويلي

دمنهور


السيرة النبوية

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا - لبنان - تلفون ٧٢٠٦٢٤



السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي

عني بطبعه ومراجعته
خادم العلم
عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع بأمر صاحب السمو
الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني
أمير دولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لله على جزيل نعمائه ، وكريم آلائه وصلاة وسلاماً على عبده ونبيه محمَّد بن عبدالله ، الذي أكرمه الله بالرسالة وحمَّله الأمانة ، وكان خير مبلغ ، وأصدق محدث ، صلىّ الله عليه وعلى آله وصحابته البررة والتابعين الذين حملوا عبء الأمانة من بعده وقدموها للبشرية هدية من السماء إلى أهل الأرض ليقيموا عدل الله فيها ، فكانوا خير مبلغين ، وبارك الله في دينه فعمَّ جميع أرجاء الأرض اليوم ، فما من قطر من الأقطار كافرة أو مؤمنة إلا وفيه من يقول (لا إله إلا الله محمد رسول) .

وبعد :

فرسول الله صلَّى الله عليه وسلم هو المدرسة العملية في الإسلام بعد القرآن الكريم فهو الرسول الذي حمل الرسالة ، وهو الذي علم البدو الأغرار الأجلاف وحملهم على النظام والطهارة ، ونزع من رؤوسهم غرور الجاهلية ، ومن عقولهم غلواء الكفر ، ومن قلوبهم أردان الشرك ، وغسلهم من كل الأوباق التي كانت تغمرهم ، وأخرج منهم رجالاً في نقاوة أبي

بكر ، وفقه عمر وزهد عثمان وشجاعة علي ، وغيرهم . . . وغيرهم كثير ، ممن تحفل بهم كتب رجال العلم والتاريخ الإسلامي .

نعم كان صلَّى الله عليه وسلم المدرسة الأولى العملية للإسلام . . . كان معلماً ، وكان مؤدباً ، وكان أباً رؤوفاً ، وكان شجاعاً لا يهاب الموت ، وكان صادقاً ، صدوقاً ، أميناً ، وفياً ، وكل صفات الخير والبر تجمعت فيه كيف لا وقد قال الله تعالى فيه (وإنك لعلى خلق عظيم : وقال جل من قائل (ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك) وقال صلَّى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) وقال : (إنما بعثت معلماً) .

وبعد :

فأستاذنا العلامة أبو الحسن علي الحسيني الندوي ـ أمد الله في عمره ، وزاد في علمه ، ونفعنا به ، من أولئك الأفذاذ الأعلام الذين توغلوا في دراسة (سيرة النبي صلَّى الله عليه وسلم) دراسة وافية ، وفهمها خير فهم ، وأتقن معالمها أحسن إتقان ، ومن ثم خرج علينا بمؤلفه هذا الذي نقدمه إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وغيره من المؤلفات الإسلامية المفيدة النافعة ، فقد أجاد حفظه الله في عرض السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، عرض المعلم الفاهم لوظيفته فألمَّ بأطرافها ودرس جميع معالمها درس

الأستاذ الممحص ، واعتمد على الروايات الصحيحة من كتب التاريخ الإسلامي اعتماد المدقق الخبير حتى وصل ـ حفظه الله ـ الى المستوى الذي نطمح نحن ويطمح جميع المخلصين إلى الوصول إليه لعرض الموضوع هذا العرض الرائع الذي نحن اليوم بصدده .

والكتاب سفر طيب ، برع فيه مؤلفه أيما براعة وقد قام ـ قبل أن يكتبه ـ بدراسة السيرة النبوية من مصادرها الأولى ، وقد فصل ذلك في كتابه (الطريق إلى المدينة) في فصله الأول تحت عنوان (الكتاب الذي لا أنسى فضله) حيث ذهب في رحلات عملية إلى أرض النبوة وجابها وفهم مناخها ، ومعالمها ودرسها على الواقع درساً واعياً .

أجل درس السيرة عن كتب سيرة ابن هشام ، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية وهما من أوائل وخير المراجع في السيرة النبوية ، وتعمق بعد ذلك في الدراسة سواء في القديم أو في الحديث ، وبدأ ينفعل بذلك أيما انفعال ، وظهر هذا جلياً في مقالاته وكتبه التي اتسمت جميعها باعتبار السيرة والسنة هما المنهج العملي بعد القرآن الكريم .

لقد بارك الله جلت قدرته ـ في دراسات أستاذنا أبي الحسن الندوي ، وفي علمه ، وتلاميذه أيضاً فأصبح علماً من أعلام المسلمين في النصف الثاني من هذا القرن ، فإذا ذُكِرَتْ شبه القارة الهندية اليوم فله فيها قصب السبق ، وفي تلاميذه

من أساتذة الجامعات والكتاب والصحفيين وغيرهم الخير الكثير .

ولقد استعرضنا ـ فيما استعرضنا من الكتب العدد الكثير لنتخير منها ، ما نستطيع أن نقدمه إلى المسلمين عامة هدية من سمو الأمير المفدى الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني حفظه الله بمناسبة المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فكان الكتاب ضمن ما اخترنا وها نحن اليوم نقدمه راجين من الله جلت قدرته أن ينفع به ، ليكون حجراً في حلق أولئك الذين يهاجمون السنة النبوية ، وحاشا أن يصلوا إلى ما يبتغون ، فمثلهم كمثل قول الشاعر العربي : ـ

كناطح صخرة يوماً ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

شكر الله للمؤلف حسن صنيعه وأثابه على عمله ووفقه إلى المزيد منه ليثري المكتبة العربية الإسلامية بهذه الذخيرة الطيبة وهذا الغذاء الدسم ، ليكون لنا نبراساً ونحن على أبواب القرن الخامس عشر الهجري لنعيد التقييم لحالنا ، فعسى أن تكون لنا رجعة إلى ديننا الحنيف ، إلى رسالة السماء التي حملها إلينا نبي الهدى صلَّى الله عيه وسلم ، وهي الإسلام ، فلن نعتز بغيره ، ولن نهتدي بدونه ولن تقوم لنا قائمة إلا بالاستمساك به ، والعض عليه بالنواجذ . . . وصدق الله العظيم : ـ (ومن

يبتغِ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) .

وصدق النبي الكريم :

من أعتز بغير الله أذله الله .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العامين . . .

وصلَّى الله على سيدنا محمَّد وعلى آله وصحابته ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين .

خادم العلم
عبدالله بن إبراهيم الأنصاري
مدير الشئون الدينية
الدوحة ـ قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

السيد أبو الحسن علي الحسني الندوي

أبو الحسن علي بن العلامة عبد الحي الحسني ولد في رائي بريلي بالهند في محرم الحرام ١٣٣٢هـ في أسرة محافظة على التوحيد والسنة والبعد عن البدع ، والدعوة الى الله والجهاد في سبيله ،

تثقف ثقافة إسلامية ، ودرس في ندوة العلماء ثم استفاد في بعض الفنون من كبار الأساتذة في ديوبند ولاهور .

صدر له أول كتاب بالعربية في ترجمة السيد الامام أحمد بن عرفان الشهيد وهو في السادسة عشرة من عمره نشره العلامة السيد رشيد رضا سنة ١٩٣١م ، عين أستاذ التفسير والأدب في ندوة العلماء فدرس بها عدة سنوات ورأس تحرير مجلة « الندوة » العلمية .

ألقى محاضرات في موضوع « الدين والمدنية » في

الجامعة الملية الإسلامية في ١٣٦١هـ وألف كتباً لطلبة المدارس العربية ، منها « مختارات من أدب العرب » وهو مقرر في كثير من الجامعات الهندية والعربية ، وكتاب « قصص النبيين » للأطفال و« القراءة الراشدة » .

أسس المجمع الإسلامي العلمي في لكهنئو سنة ١٣٧٨ هـ وقام بنشاط زائد في حركات الدعوة والإصلاح في الهند ، وزار معظم بلاد العالم العربي ودولاً أوربية ، وألقى محاضرات في الجامعات الكبرى في آسيا وأوربا وأمريكا .

ألف كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » سنة ١٣٦٤ هـ وصدر الكتاب من مصر عام ١٣٦٩ هـ (١٩٥٠م) ثم صدرت له طبعات متتالية ، وهو أكثر كتبه قبولاً وتأثيراً ، وظهر الكتاب بتقديم كبار الكتاب الإسلاميين .

عين وكيل ندوة العلماء ثم الأمين العام لندوة العلماء في ١٣٨٠ هـ ، ثم انتخب رئيس دارالعلوم لندوة العلماء ،

والشيخ الندوي عضو في المجمع العلمي العربي بدمشق منذ ١٩٥٧ م ، وعضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة منذ سنة ١٣٨٠ هـ والمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ، وهو رئيس لهيئة التعليم الديني في الولاية الشمالية في الهند منذ ١٩٥٩ م . وله أكثر من ستين (٦٠) مؤلفاً في العربية والأردية .

أهم مؤلفات الشيخ الندوي بالعربية : -

ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية ، الى الاسلام من جديد ، العرب والإسلام ، الأركان الأربعة في ضوء الكتاب والسنة ، النبوة والأنبياء في ضوء القرآن ، إذا هبت ريح الايمان ، روائع إقبال ، رجال الفكر والدعوة في الإسلام ، نحو التربية الإسلامية الحرة ، المسلمون في الهند ، المسلمون وقضية فلسطين ، الطريق الى المدينة ، ربانية لا رهبانية ، مذكرات سائح في الشرق الأوسط ، - وكتب هامة أخرى ، وقد صدرت معظم مؤلفاته في عدة طبعات كما نقلت الى عدة لغات من العالم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين وخاتم النبيين ، محمد وآله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد ! فقد كانت السيرة النبوية ـ على صاحبها الصلاة والسلام ـ المدرسة الأولى التي تعلم فيها مؤلف هذا الكتاب ، وقد دخلها في سن مبكرة ، لا يدخل فيها الأطفال في عامة الأحوال ، والفضل في ذلك يرجع إلى الجو الذي كان يسود بيته وأسرته ، فقد كانت السيرة تكوّن عنصراً أساسياً في الثقافة التي يتلقاها أبناء الأسرة وأطفال البيت ، والمكتبة الصغيرة البسيطة المؤلفة من منظوم ومنثور ، التي كانت تنتقل من يد إلى يد ، ثم إلى تربية أخيه الأكبر الدكتور السيد عبدالعلي الحسني ، وتوجيهه الحكيم ، فقرأ في صباه أفضل ما كتب في السيرة النبوية في « أردو » لغة مسلمي الهند ، وهي أغنى لغات العالم الإسلامي بعد اللغة العربية في موضوع السيرة ، وهي

تحتوى على أقوى وأجمل ما كتب فيها في العصر الأخير[1] .

ثم لما صار يشدو باللغة العربية عكف على كتب السيرة ، التي ألفت فيها ، وكانت في مقدمتها السّيرة النبوية لابن هشام ، و « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن قيّم الجوزيّة ولم يدرسهما دراسة علمية فحسب ، بل عاش فيهما زمناً طويلاً ، يذوق بهما حلاوة الإيمان ، ويغذي بما جاء فيهما من القصص والأخبار عاطفة الحبّ والحنان ، ومن المقرر أنّ السيرة أقوى العناصر التربوية وأكثرها تأثيراً في النفس والعقل بعد القرآن ، ثم قرأ ما وصلت إليه يداه من كتب السيرة المؤلفة قديماً وحديثاً ، وفي لغات مختلفة ، وكانت السيرة هي المادة الأولى التي يعتمد عليها في كتاباته ومحاضراته ، يستمد منها القوة في البيان ، والتأثير في العقول والقلوب ، والدلائل القوية ، والأمثلة البليغة ، لإثبات ما يريد إثباته ، وهي التي كانت ولا تزال تفتق قريحته ، وتشعل مواهبه ، وما من كتابة ذات قيمة من كتاباته إلاّ وعليها مسحة من جمال السيرة ، وفضل لدراستها والتأمل فيها ، وقد جمع ما كتب في جوانب السيرة المختلفة ، وعظمة البعثة المحمدية وما ألقاه من محاضرات وأحاديث ، في كتاب أسماه « الطريق إلى

---

(١) اقرأ قصة صلة المؤلف بكتب السيرة ، وتأثيرها في ثقافته وعقليته وسيرته في كتاب « الطريق إلى المدينة » المقال الأول بعنوان : « الكتاب الذي لا أنسى فضله » .

المدينة »[1] .

وقد عاش المؤلف هذه المدة الطويلة وقد ألّف عشرات من الكتب لا يفكر في إفراد كتاب في السيرة النبوية ، رغم أنه كان يشعر بمسيس الحاجة إلى كتاب كتب في أسلوب عصري علمي ، أستفيد فيه من خير ما كتب في القديم والحديث ، مؤسساً على مصادر السيرة الأولى الأصيلة ، مطابقاً لما جاء في القرآن والسنة الصحيحة ، لم يكتب في الأسلوب الموسوعي ENCYCLOPAEDIC الحاشد للمعلومات في غير نقد وتمحيص ، الأسلوب الذي اعتاده أكثر المؤلفين المتوسطين والمتأخرين وقليل من المؤلفين المتقدمين ، والذي كان مثار كثير من التساؤلات التي برأ الله السيرة الكريمة منها ، وأغنى المسلمين عنها ، قد نالته يد التنقيح والتحقيق من غير تقليد للاتجاهات العصرية ، وخضوع لكتابات المستشرقين وأقوال المشككين ، متمشياً مع المقررات الدينية التي تفهم في ضوئها الكتب السماوية وسير الأنبياء ، والمعجزات ، والأخبار الغيبية ، قائماً على مبدإ أنه سيرة نبي من الأنبياء ، مبعوث من الله ، مؤيد منه ، لا سيرة عظيم من العظماء ، أو زعيم من الزعماء ، يسوغ أن يقدّم إلى كل مثقف منصف من المسلمين وغير المسلمين من غير تحفظ أو استثناء ، أو حاجة إلى تأويل ، يعتمد فيه المؤلف على الحوادث والوقائع ، ومادة السيرة ،

(١) ظهرت لهذا الكتاب ثلاث طبعات من المدينة المنورة ـ لكهنؤ ـ ودمشق .

ويدعها تنطق بلسانها ، وتشق الطريق بنفسها إلى القلوب والعقول ، أكثر مما يعتمد على فلسفته للحوادث وتعليله للأخبار ، ومقدماته الطويلة العريضة ، فالسيرة النبوية غنية بجمالها وروعتها وسحرها على النفوس والعقول ، ووقعها منها موقع القبول ، من شفاعة شافع وتدليل حكيم ، وبراعة أديب ، وجل ما يحتاج إليه المؤلف ، هو جمال العرض ، وحسن الترتيب ، وجودة التلخيص .

ثم يتجلى فيه العقل والعاطفة جواراً بجوار ، فلا يكون فيه البحث العلمي والنقد التحليلي على حساب العاطفة والحب والايمان ، الذي لا بد منهما في تذوق السيرة والاستفادة منها وفهم قضاياها وأحكامها وحوادثها ، فإنه إذا تجرد الكتاب من العاطفة والحب والإيمان ، كان خشبياً مصنوعاً لا حياة فيه ، وكذلك يجب ألا يكون العنصر العاطفي العقائدي على حساب المتطلبات العقلية السليمة التي نماها هذا العصر بصورة خاصة ، وعلى حساب المنطق السليم الذي لم يتجرد منه عصر من العصور ، فيكون كتاب عقيدة وتقليد فحسب ، لا يطيق قراءته ولا يسيغ ما جاء فيه الا الأقوياء في الايمان ، والراسخون في الإسلام ، من الذين نشأوا في بيئة دينية خالصة لا شأن لها بالعالم الخارجي ، وبالثقافة العصرية ، وذلك وإن كانت موهبة من الله ، فإن سيرة نبي أرسل إلى الناس كافة ،

وأرسل رحمة للعالمين ، لا يجوز أن تجعل مقصورة على هذه الطبقة السعيدة المؤمنة ، محجورة على من لم تسمح ظروفهم بالنشوء في هذه البيئة المسلمة المؤمنة ، وأرادت حكمة الله أن يولدوا في بيئات غير إسلامية ، ثم يدركهم اللطف الالهي ، وتهب عليهم نفحة من نفحات هذه السيرة العطرة فينتقلون بقوتها وجاذبيتها إلى حظيرة الايمان ومعسكر الإسلام وليس حق غير المسلمين على هذه السيرة وحظهم فيها أقل من حق المسلمين الذين نشأوا في ظلال الإيمان والإسلام ، والدواء حاجة المريض أكثر من حاجة السليم ، والقنطرة يحتاج إليها من يعيش وراء النهر أكثر مما يحتاج إليها من يعيش دونه .

ثم لا يسع المؤلف في السيرة صرف النظر عن البيئة التي كان فيها وجودها وقيامها ، وعن العصر الذي كان فيه طلوعها وبزوغها ، فلا بد من وصف الجاهلية العالمية الضاربة أطنابها على الأرض كلها في القرن السادس المسيحي ، ومدى ما وصل اليه هذا العصر من الفساد والإنحطاط ، والقلق والاضطراب ، ووصف حالته الخلقية والاجتماعية ، والاقتصادية والسياسية وما تضافر عليه من عوامل الإفساد والإضلال والتدمير والابادة ، من حكومات جائرة ، وأديان محرّفة ، وفلسفات متطرّفة ، وحركات هدّامة ، وحين أراد المؤلف أن يكتب فصلاً في تفصيل وتوسع على العصر الجاهلي يقدم به كتابه « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » وجد في ذلك صعوبة لا ينساها حتى

اليوم ، واضطر إلى أن يجمع المعلومات من المراجع الأجنبية والكتب التي ألّفت في تاريخ البلاد والأمم ، والدول المعاصرة لنشوء الإسلام ، في اللغات الأوروبية ، فالتقطها من ثنايا هذه الكتب كما تلتقط حبات السكّر الدقيقة من أفواه النمل (حسب المثل الأردي) ، فجاء هذا الفصل الموسّع[1] ، الذي ينير الطريق لمن يقرأ كتب السيرة ، ويحاول أن يدرك عظمة البعثة المحمدية وضخامة المهمة التي اضطلعت بها والنتائج العظيمة الجسيمة التي أسفرت عنها ، وكان كل كتاب يؤلف في السيرة النبوية في العصر الحديث جديراً بهذا النوع من البحث والنمط في التحقيق ، والقاء الأضواء القوية العلمية على العصر الجاهلي والتصوير الدقيق الأمين لما كان يجيش به من فساد واضطراب ، وانهيار وانتحار .

وذلك شأن البيئة التي كانت فيها البعثة ، وظهور الإسلام ، والبلد الذي ظهرت فيه هذ الدعوة ، وولد فيه صاحب الرسالة ـ عليه الصلاة والسلام ـ وقضى فيه ثلاثاً وخمسين سنة من عمره ، وعاشت فيه الدعوة ثلاث عشرة سنة ، فلا بد أن يعرف الدّارس للسّيرة مدى ما وصل إليه العقل فيه والوعي والمدنية ، ومكانة هذا البلد الاجتماعية والسّياسية

(١) جاء هذا الفصل في ٥٠ صفحة ، في كتاب « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » بعنوان : « الإنسانية في احتضار » ، راجع الطبعة العاشرة ١٣٩٤ هـ ١٩٧٤ م طبع دار القلم الكويتية .

وحالته الدّينية والعقائدية ووضعه الاقتصادي والسّياسي ، وقوته الحربية والعسكرية حتى يعرف طبيعة هذا البلد وعقلية سكانه والعقبات التي كانت تعترض في سبيل انتشار الإسلام وشقه الطريق إلى الأمام .

وقل مثل ذلك وأكثر عن مدينة يثرب التي انتقل اليها الإسلام وهاجر اليها الرسول وأصحابه ، وأراد الله أن تكون مركز الإسلام الأول ، فلا يقدر مدى قيمة النجاح الذي حققه الإسلام وقدرته على التربية والبعث الجديد ، وحل المعضلات ، والجمع بين العناصر المتناقضة وعظمة المأثرة النبوية ، واعجازها في تأليف القلوب وتربية النفوس ، الا اذا عرف الإنسان وضعية هذه البيئة الغريبة المعقدة التي واجهها الرسول والمسلمون ، ولا تفهم كثير من الحوادث والأحكام التي يمر بها القارىء في كتب السيرة والحديث إلا اذا عرف حالة المدينة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وطبيعة أرضها وجغرافية هذا البلد وما حوله ، وما كان يتركب به من عناصر إنسانية وإقليمية ، وصلات أجزاء عمرانه بعضها ببعض ، والأعراف والمعاملات الشائعة قبل الهجرة وانتشار الإسلام فيه ، فإذا جهل القارىء كل هذا ، وبدأ رحلته في كتب السيرة شعر بأنه يمشي في نفق لا يبصر فيه ما حوله ، وكان على غير بيّنة من الأمر .

وكذلك القـول عن الحكومـات المعـاصرة والبـلاد المجاورة ، فلا يتبين القارىء خطورة الإقدام الذي قامت به الدعوة الإسلامية ، وقوة مغامرتها ، إلا إذا عرف حجم هذه الحكومات التي كانت تقوم حوله ، والتي خاطبها الإسلام ودعاها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ إلى الإيمان برسالته ، وقبول حكم الإسلام ، وما وصلت إليه من المدنيّة والثّقافة ، والقوة الحربية والرفاهية والعمران ، وما كان يتمتع به ملوكها من حول وطول ، وصولة وشوكة ، وقد ألقى العلم الحديث ضوءاً على تاريخ هذه الحكومات والبلاد والمجتمعات التي كانت تعيش فيها ورفع الستار عن كثير مما كان مجهولاً أو غامضاً أو ملتوياً في العصر القديم ، فكان من الواجب أن يستعين بكل ذلك المؤلف العصري في السيرة النبوية ، ويستعين بالحديث الأحدث مما كتب ونشر من كتب التاريخ والجغرافية ، والدّراسة المقارنة .

كان المؤلف يشعر بكل هذا مع اعتراف بجهود المؤلفين في هذا الموضوع ، وبقيمة ما صدر عن أقلامهم في فترات مختلفة ولغات مختلفة ، وفضله في الدعوة الإسلامية ، وتحبيب السيرة إلى نفوس القراء وتقريبها إلى أذهان الناشئة ، وكان يرى السعادة في تأليف كتاب جديد في السيرة النبوية لينخرط في سلك المؤلفين النوراني في هذا الموضوع الحبيب الجليل .

ولكنه كان يتهيّب الكتابة في هذا الموضوع في توسع وتفصيل ، لضيق وقته ، وضعف بصره ، ولأنه جرب أن كتاب سيرة لعظيم من العظماء فضلاً عن نبي من الأنبياء ، فضلاً عن سيّد الأولين والآخرين ، وأشرف المرسلين ، من أصعب الموضوعات التي يعالجها المؤلفون وأدقها ، وقد مارس موضوع تأليف السير والتراجم للشخصيات المشهورة وأعلام المسلمين من القدماء والمحدثين والمعاصرين عملياً، فقد اشتغل بكتابة السير وحياة العظماء من أئمة المسلمين وقادتهم ، والمصلحين والعلماء الربانيين ، ، بعدما شب عن الطوق ، وأمسك القلم ، وعرف الكتابة وقد كتب بقلمه آلافاً من الصفحات في سيرة هؤلاء العظماء وعاش بين التراجم والسّير منذ الصغر، فقرأ منها الكثير وكتب منها الكثير .

ومن هنا عرف دقّة هذا الموضوع ، وضخامة هذه المسؤولية ، فمن المؤلفين من تتغلب عليه نزعة أو اتجاه خاص ، فيخضع له من يترجمه من حيث يشعر ومن حيث لا يشعر ، فتأتي كتابته صورة لعقليته وعاطفته ، ممثلة لاتجاه خاص كان يسيطر على مؤلف الكتاب ، ومنهم من يريد أن يصوّر أحد العظماء فيصوّر نفسه ، ويريد أن ينظر إليه نظرة مجردة ، فيبدأ ينظر إليه من خلال ميوله وتجاربه ووجهة نظره ويسلط عليه مقاييسه الخاصة .

إن من درس علم النفس والأخلاق ، وعني بدراسة الشخصيات المعاصرة ، وعاش معها طويلاً عرف أن النزول في أعماق نفس إنسان والاحاطة بآفاقها ، وتصويرها تصويراً دقيقاً شاملاً من أصعب انواع المعرفة وأساليب البيان وأدقّها وأنه لا يُحسن ذلك بعض الإحسان ، ولا يقدر عليه بعض القدرة إلا من عرف شيئاً كثيراً من خوالج النفس وخواطرها ، وآمالها وآلامها ، وأحزانها وأشواقها والتهاب الرّوح ولوعة القلب ، قد رأى كيف يبيت هذا الإنسان ليله ويقضي نهاره ، وكيف يعاشر أهله ويعامل أصحابه ، قد رآه في السلم والحرب ، والرضا والغضب ، وفي العسر واليسر ، والضعف والقوة ، ومن أحوال النفس الانسانية ومشاعرها وأحاسيسها ، ومن مظاهر الجمال والكمال ما لم توضع له الفاظ بعد ، ولا تفي به ثروة لغوية مهما اتسعت ودقت .

والسّيرة النّبوية المحمدية تتميّز من بين سير أفراد البشر ـ وفيهم الأنبياء وغير الأنبياء ـ بدقتها وشمولها ، واستيعابها لدقائق الحياة وتفاصيلها وملامحها وقسماتها ، وذلك بفضل علم الحديث الذي لا يوجد له نظير ، لا في تاريخ الانبياء ولا في تاريخ العظماء ، وكتب السير والشمائل ، وما جمع وحفظ من الأدعية[1] والأذكار النبوية ، ومناجاته ﷺ لربه آناء الليل والنهار

(١) ليراجع مقال المؤلف في صلة الأدعية النبوية بالسيرة ؛ وقيمتها

وما حفظ ونقل من جوامع الكلم ، وما أثر عن الوصّافين الحاذقين من أصحابه وأهل بيته في صفته التي لم تحفظ كتب الآداب والتاريخ والأنساب ، صفة أكثر منها دقّة ، وأعظم منها استيعاباً للملامح البشرية والدقائق الخلقية[1] . ، ولذلك لم يكن الأمر في تأليف السيرة النبوية من الصعوبة والغموض ، والافتراض والقياس ، كما هو في سير العظماء الأبطال ، وأن سيرته ﷺ أكمل السير كما كانت أجملها ، وهي مؤسّسة على نصوص قرآنية ووثائق تاريخية ودقائق في الخَلق والخُلق ، وتفاصيل في العادات والعبادات ، والأخلاق والمعاملات ، لا يتصور فوق ذلك ، وهي أقرب إلى الحقيقة والواقع قرباً لا يتصور فوقه ولا يطمع في أكثر منه ، بعد أن مضى على هذه الحياة الطيّبة الكريمة مدّة طويلة .

ولكن رغم وجود هذا الفارق الكبير بين سيرته ﷺ وبين سير العظماء بل وبين سير الأنبياء ، ورغم دقتها التي لا دقة فوقها ، وشمولها الذي لا شمول فوقه ، لا بد من الاعتراف بأن

= وأهميتها في دراستها وأنها مرآة تجلت فيها خصائص النبوة وأسرارها وصلتها بالله وبالخلق ، والمعرفة الدقيقة لحقائق الحياة الانسانية ، وعلم النفس والأخلاق ودقائقها ؛ وقد نشر هذا المقال في رسالة مفردة في أردو ، ونقلها إلى العربية الأستاذ نور عالم الأميني الندوي ونشرتها المختار الإسلامي » القاهرة بعنوان : « دراسة للسيرة النبوية من خلال الأدعية المأثورة المروية » .

(١) اقرأ للتفصيل مقال المؤلف : « القدوة الدائمة للأجيال البشرية كلها ، وكيف امكن ذلك » في كتابه : « النبي الخاتم » .

تصوير حياته وأخلاقه ، واستيعاب المعجزات التي اشتملت عليها سيرته ودعوته وحياته الانفرادية والاجتماعية ، ومعاملته مع الله ومع الخلق ، وآيات الحسن والاحسان في تكوين خلقه وخُلُقه ، وفي حبّه ورأفته ، وفي دعائه وابتهاله وفي تألمه للإنسانية ومصيرها ، وفي منطقه وحكمته ، وفي جامعيته وكماله ، يكاد يكون مستحيلاً ، وأن ما جاء في كتب السير والشمائل ـ على جماله وروعته ـ هو بعض ما خصه الله به من جمال السّيرة وكمال الخلق والخلق لا كلّه ، وأن جل ما هنالك أنها محاولات وجهود يشكر عليها هؤلاء المؤلفون ويؤجرون عليها ، وهي ثروة عامة خالدة ، يجد فيها كل انسان وكل جيل من البشر ، وكل طبقة من طبقات الناس حظها من الهداية والنور والتقليد والاقتداء « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً [١] .

لكلّ ذلك كنت أتهيّب الكتابة في السّيرة النبويّة والتأليف فيها وأستعظمها وأستصغر نفسي ، وقد حثّني عدد من الفضلاء وكرام الأصدقاء [٢] على أن أؤلف كتاباً في السّيرة النبويّة في اللغة العربيّة أراعي فيه عقليّة الجيل الجديد وذوقه ومستوى

---

(١) سورة الأحزاب (٢١) .

(٢) في مقدمتهم صديق المؤلف فضيلة الشيخ محمد محمود الصواف عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة ، ومستشار وزارة المعارف في المملكة العربية السعودية .

فهمه ونفسيته ، وما جدّ من طلبات وحاجات وأسلوب كتابي ومنهج علمي ، فلكلّ عصر أسلوبه ولغته ، ومقادير وترتيبات في الأدوية والأغذية ، وذلك كما قدّمنا ، من غير إخضاع السّيرة النبويّة للأهواء والأغراض ، وللنظريّات العلميّة التي تتغيرّ صباح مساء ، والشبه والاعتراضات التي يدفع إليها التعصّب الدّيني أو الجهل العلميّ أو الغرض السّياسي .

وشرح الله صدري أخيراً لهذا التأليف ، فعكفت على هذا الموضوع وعشت فيه ، اقرأ كتب السّيرة والحديث ، وكلّ ما استعين به في هذا الموضوع من القديم والحديث ، وبدأت أكتب معتمداً على أصحّ ما كتب وأُلّف في هذا الموضوع ، وكان أكثر اعتمادي على كتب الصّحاح و « سيرة ابن هشام » ، و « زاد المعاد » لابن قيّم الجوزيه ، والسّيرة النبويّة لابن كثير (وهو ما جاء في كتابه الكبير « البداية والنهاية » ، ثم أفرد في كتاب مستقل جاء في أربعة أجزاء [١] ، واستعنت بما كتب في هذا الموضوع في العصر القديم والحديث ، وبالمراجع الأجنبيّة التي توضّح الكثير من السّيرة ، والتّاريخ المعاصر وتلقي ضوءاً على الحكومات والمجتمعات المعاصرة [٢] ، وحاولت أن يجمع الكتاب بين الجانب العلميّ وبين الجانب التربوي البلاغي ،

---

(١) طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه سنة ١٣٨٤ هـ (١٩٦٤ م) بتحقيق الأستاذ مصطفى عبدالواحد .

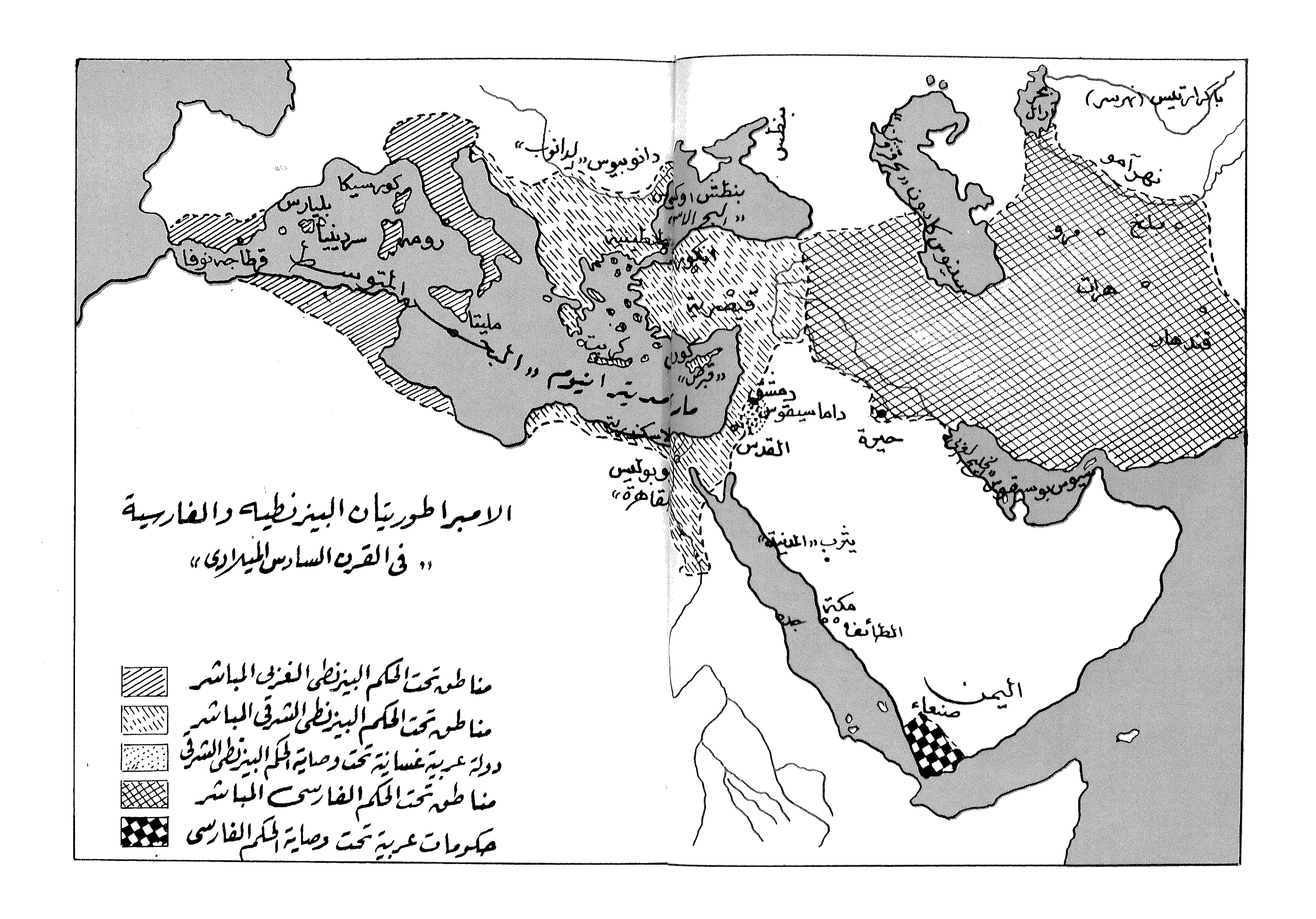
(٢) وفي آخر الكتاب قائمة للمراجع العربية والأجنبية .

لا يطغى أحدهما على الآخر ، وأن يشتمل على أكبر مقدار من القطع النابضة الدافقة بالحيوية والتأثير ، الآسرة للقلوب والنّفوس التي لا يوجد نظيرها في سيرة انسان ولا في تاريخ فرد أو جيل ، أو دعوة أو دين ؛ وذلك كلّه من غير تنميق أو تلوين ، أو تحبير أو تحسين ، فجمال الطبيعة والحقيقة لا يحتاج إلى تجميلات خارجية ، أو تزيينات صناعيّة .

وكان هذا الكتاب شغلي الشاغل ما بين شوال ١٣٩٥ هـ وشوال ١٣٩٦ هـ (أكتوبر ١٩٧٥ م - أكتوبر ١٩٧٦ م) لم أشتغل بغير هذا الموضوع إلا اضطراراً ، تتخلل ذلك فترات قليلة من المرض ورحلات طويلة في الشرق والغرب ، حتى يسّر الله إتمامه في غرة شوال سنة ١٣٩٦ هـ ، وها هو الآن بين يدي القرّاء .

وأرى عليّ لزاماً أن أشكر صديقين فاضلين لقيت منهما مساعدة كبيرة في تأليف هذا الكتاب وهما فضيلة الشيخ برهان الدين السنبهلي أستاذ الحديث والتّفسير في دار العلوم ندوة العلماء ، وقد أعانني في تخريج الأحاديث والبحث عنها ، والتّحقيق في بعض ما جاء في كتب السّيرة ، جزاه الله خير الجزاء ، والأستاذ محيي الدين أحمد [١] ، فقد ساعدني مساعدة

(١) وهو الذي وفق اخيراً لنقل هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية وهو ماثل للطبع .


الامبراطوريتان البيزنطيه والفارسية
« في القرن السادس الميلادي »
مناطق تحت الحكم البيزنطي الغربي المباشر
مناطق تحت الحكم البيزنطي الشرقي المباشر
دولة عربية غسانية تحت وصاية الحكم البيزنطي الشرقي
مناطق تحت الحكم الفارسي المباشر
حكومات عربية تحت وصاية الحكم الفارسي
كورسيكا
بليارس
سردينيا
روما
قرطاجة نوفا
مليتا
قيصرية
دمشق
داماسيقوس
القدس
حيرة
يثرب «المدينة»
مكة
الطائف
اليمن
صنعاء
مرو
بلخ
هرات
قندهار
نهر آمو
دانوبيوس «الدانوب»

غالية في دراسة المراجع الأجنبية ، والمؤلف شاكر لفضله ، معترف لجهوده وإخلاصه ، ولما كان هذا الكتاب كلّه إملاء لعجز المؤلف عن الكتابة مباشرة استعان ببعض الإخوان في كتابته ، وكان في مقدمتهم العزيزان محمد معاذ الأندوري الندوي وعلي أحمد الكجراتي النّدوي ، وساهم في ذلك الأستاذ نور عالم الأميني الندوي .

وقد كان للأستاذ محمد حسن الأنصاري فضل في وضع الخرائط التاريخية الجغرافية التي زيّن بها الكتاب وزاد في قيمته العلمية ، كما كان للأستاذ الكبير الدكتور محمد شفيع رئيس قسم الجغرافية في جامعة « عليكره » الإسلامية ومساعد نائب رئيس الجامعة ، وللقسم الجغرافي في الجامعة فضل في تحسينها وإكمالها ، والمؤلف شاكر للإخوان جميعاً .

والله أسأل أن ينفع بهذا الكتاب وأن يتقبله تقبلاً حسناً ، وأن يجعله ذخراً للآخرة ووسيلة لدراسة هذه السّيرة الطّاهرة والاستزادة منها والانتفاع بها ، وكفى للمؤلف شكراً ، وللكتاب قيمة إذا أثار كامن الحبّ والإيمان في نفس مؤمن ، وانجذاباً في قلب أحد من غير المسلمين إلى هذه السّيرة الطّاهرة العطرة وحملته على دراسة الإسلام وتفهمه ـ إنّه ولي التوفيق .

يوم الجمعة

٥/ ١١/ ١٣٩٦ هـ

٢٩/ ١٠/ ١٩٧٦ م .

أبو الحسن علي الحسني الندوي

رائي بريلي ـ الهند

العَصْرُ الجَاهِلي

نظرة اجمالية على الوضع الديني في القرن السادس المسيحي :

أصبحت الديانات العظمى ، وصحفها العتيقة ، وشرائعها القديمة - التي مثّلت في أزمان مختلفة دورها الخاص في مجال الديانة والأخلاق والعلم - فريسة العابثين والمتلاعبين ، ولعبة المحرفين والمنافقين ، وعرضة الحوادث الدامية والخطوب الجسيمة حتى فقدت روحها وشكلها ، فلو بعث أصحابها الأولون ، وأنبياؤها المرسلون ، أنكروها وتجاهلوها[1] .

أصبحت اليهودية مجموعة من طقوس وتقاليد لا روح

---

(١) اقرأ قصة ما تعرضت له صحف الأمم السابقة - صاحبة الديانات الشهيرة - من تحريف وتبديل وضياع وابادة أحياناً ؛ في ضوء الوثائق التاريخية ، وشهادات علماء هذه الديانات من أسفار العهد العتيق والعهد الجديد إلى « أوستا » الإيرانية ، و « ويدا » صحف الهند العتيقة في كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » المحاضرة السابعة عنوان : « الصحف السماوية السابقة ؛ والقرآن ، في ميزان العلم والتاريخ » ص/١٩٨ - ٢٠٦ (طبعة دار القلم ، دمشق بيروت) .

فيها ولا حياة ، وهي ـ بصرف النظر عن ذلك ـ ديانة سلالية ، لا تحمل للعالم رسالة ، ولا للأمم دعوة ، ولا للإنسانية رحمة .

وقد أصيبت هذه الديانة في عقيدة كانت لها شعاراً من بين الدّيانات والأمم وكان فيها سرشرفها ، وتفضيل بني اسرائيل على الأمم المعاصرة في الزمن القديم وهي عقيدة التوحيد التي وصّى بها ابراهيم بنيه ويعقوب ، فقد اقتبس اليهود كثيراً من عقائد الأمم التي جاوروها أو وقعوا تحت سيطرتها ، وكثيراً من عاداتها وتقاليدها الوثنية الجاهلية ، وقد اعترف بذلك مؤرخو اليهود المنصفون ، فقد جاء في « دائرة المعارف اليهودية » ، ما معناه :

« إن سخط الأنبياء وغضبهم على عبادة الأوثان تدل على أن عبادة الأوثان والآلهة ، كانت قد تسرّبت إلى نفوس الإسرائيليين ، ولم تستأصل شأفتها إلى أيام رجوعهم من الجلاء والنفي في بابل ، وقد قبلوا معتقدات خرافية ومشركة ، إن التلمود أيضاً يشهد بأن الوثنية كانت فيها جاذبية خاصة لليهود[1] » .

ويدل تلمود[2] بابل الذي يبالغ اليهود في تقديسه ، وقد

(١) Jewish Encyclopaedia Vol. XII. ص ٧ و XII, p. 568-69 .

(٢) كلمة تلمود معناها كتاب تعليم ديانة اليهود وآدابهم ؛ وهي مجموع حواش وشروح لكتاب « المشنا » (الشريعة) لعلماء اليهود في عصور مختلفة .

يفضلونه على التوراة وكان متداولاً بين اليهود في القرن السادس المسيحي وما زخر به من نماذج غريبة من خفة العقل وسخف القول ، والاجتراء على الله ، والعبث بالحقائق ، والتلاعب بالدين والعقل ، على ما وصل إليه المجتمع اليهودي في هذا القرن من الانحطاط العقلي وفساد الذوق الديني[1] .

أما المسيحية فقد امتحنت بتحريف الغالين ، وتأويل الجاهلين ، ووثنية الرومان المتنصرين[2] ، منذ عصرها الأول ، وأصبح كل ذلك ركاماً ، دفنت تحته تعاليم المسيح البسيطة ، واختفى نور التوحيد واخلاص العبادة لله وراء هذه السّحب الكثيفة .

يتحدث كاتب مسيحي فاضل عن مدى تغلغل عقيدة التثليث في المجتمع المسيحي ، منذ أواخر القرن الرابع الميلادي ، فيقول :

« تغلغل الاعتقاد بأن الاله الواحد مركب من ثلاثة أقانيم في أحشاء حياة العالم المسيحي وفكره ، منذ ربع القرن الرابع الأخير ، ودامت كعقيدة رسمية مسلّمة ، عليها الاعتماد

(١) اقرأ للتفصيل « اليهودي على حسب التلمود » «للدكتور روهلنج » وترجمته العربية في « الكنز المرصود في قواعد التلمود » للدكتور يوسف حنا نصرالله (من الفرنسية) .

(٢) راجع كتاب « الصراع بين الدين والعلم » للمؤلف الأوروبي الشهير « درابر draper » ص ٤٠ ـ ٤١ .

في جميع أنحاء العالم المسيحي ، ولم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرّها إلا في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي[1] » .

ويتحدث مؤرخ مسيحي معاصر عن ظهور الوثنيّة في المجتمع المسيحي في مظاهر مختلفة وألوان شتى ، وتفنن المسيحيين في اقتباس الشعائر والعادات والأعياد والأبطال الوثنية من أمم وديانات عريقة في الشرك بحكم التقليد أو الاعجاب أو الجهل ، جاء في « تاريخ المسيحية في ضوء العلم المعاصر» :

« لقد انتهت الوثنية ، ولكنها لم تلق إبادة كاملة ، بل إنها تغلغلت في النفوس واستمر كل شيء فيها باسم المسيحية وفي ستارها ، فالذين تجردوا عن آلهتهم وأبطالهم وتخلوا عنهم أخذوا شهيداً من شهدائهم ، ولقبوه بأوصاف الآلهة ، ثم صنعوا له تمثالاً ، وهكذا انتقل هذا الشرك وعبادة الأصنام إلى هؤلاء الشهداء المحليين ، ولم ينته هذا القرن حتى عمت فيهم عبادة الشهداء والأولياء ، وتكونت عقيدة جديدة ، وهي أن الأولياء يحملون صفات الألوهية ، وصار هؤلاء الأولياء والقدّيسون خلقاً وسطاً بين الله والإنسان يحمل صفة الألوهية

---

(١) ملخص ما جاء في دائرة المعارف الكاثوليكية الجديدة . مقال التثليث المقدس، ج ١٤ ؛ ص ٢٩٥ .

على أساس عقائد الأريسيين ، وأصبحوا رمزاً لقداسة القرون الوسطى وورعها وطهرها ، وغيّرت أسماء الأعياد الوثنية بأسماء جديدة ، حتى تحول في عام ٤٠٠ ميلادي عيد الشمس القديم إلى عيد ميلاد المسيح[١] » .

وجاء القرن السادس المسيحي ، والحرب قائمة على قدم وساق ، بين نصارى الشام والعراق وبين نصارى مصر ، حول حقيقة المسيح وطبيعته ، تحولت المدارس والكنائس والبيوت ، معسكرات متنافسة يكفر بعضها بعضاً ، ويقتل بعضها بعضاً ، كأنها حرب بين دينين متنافسين ، أو أمّتين متحاربتين[٢] ، فأصبح العالم المسيحي في شغل بنفسه عن محاربة الفساد ، وإصلاح الحال ، ودعوة الأمم إلى ما فيه صلاح للإنسانية .

أمّا المجوس فقد عرفوا من قديم الزمان بعبادة العناصر الطبيعية أعظمها النار ، وقد عكفوا على عبادتها أخيراً ، يبنون لها هياكل ومعابد ، وانتشرت بيوت النار هذه في طول البلاد وعرضها ، وكانت لها آداب وشرائع دقيقة ، وانقرضت كل عقيدة وديانة غير عبادة النار وتقديس الشمس ، وأصبحت الديانة عندهم عبارة عن طقوس وتقاليد يؤدونها في أمكنة

(١) Rev. James Houston Baxter in the History of Christianity in the light of Modern Knowledge,ı (Glasgow, 1929) p 407.

(٢) راجع « فتح العرب لمصر » لـ « الفرد بتلر » تعريب محمد فريد أبو حديد ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٧ .

خاصّة ، أما خارج المعابد فكانوا أحراراً ، يسيرون على هواهم ، وما تملي عليهم نفوسهم ، وأصبح المجوس لا فرق بينهم وبين من لا دين لهم ولا خلاق في الأعمال والأخلاق[١] .

يصف مؤلف « ايران في عهد السّاسانيين » الدانماركي الأستاذ : « آرتهر كرستين سين » طبقة رؤساء الدين ووظائفهم فيقول :

« كان واجباً على هؤلاء الموظفين أن يعبدوا الشمس أربع مرات في اليوم ، ويضاف إلى ذلك عبادة القمر والنار والماء ، وكانوا مكلفين بأدعية خاصة ، عند النوم والانتباه والاغتسال ولبس الزنار والأكل والعطس وحلق الشعر وقلم الأظفار ، وقضاء الحاجة وإيقاد السّرج ، وكانوا مأمورين بألا يدعوا النار تنطفىء وألا تمس النار والماء بعضهما بعضاً ، وألا يدعوا المعدن يصدأ ، لأن المعادن عندهم مقدسة[٢] .

وكان أهل ايران يستقبلون في صلاتهم النار ، وقد حلف « يزدجرد » ـ آخر الملوك السّاسانيين ـ بالشمس مرة ، وقال : « أحلف بالشمس التي هي الاله الأكبر » وقد كلف التائبون عن

---

(١) اقرأ كتاب « ايران في عهد الساسانيين » للبروفيسور « آرتهر كرستن سين » أستاذ الألسنة الشرقية في جامعة « كوبن هاجن » بالدنمارك ، المتخصص في تاريخ ايران ، و « تاريخ ايران » تأليف « شاهين مكاريوس » المجوسي .

(٢) « ايران في عهد الساسانيين » ؛ ص ١٥٥ .

المسيحية عبادة الشمس اظهاراً لصدقهم[1] .

وقد دانوا بالثّنوية في كل عصر وأصبح ذلك شعاراً لهم ، وآمنوا بآلهين إثنين أحدهما النور أو إله الخير ، ويسمونه ، « آهور مزدا » أو «يزدان » والثاني الظلام أو إله الشر ، وهو « أهرمن » ولا يزال الصراع بينهما قائماً والحرب دائمة[2] .

يذكر المؤرّخون للديانة الإيرانية مجموعة أساطير متصلة بالآلهة (Mythology) لا تقل في غرابتها وتفاصيلها الدقيقة . عن الميثولوجيا الاغريقي أو الهندي[3] .

أما البوذية ـ الديانة المنتشرة في الهند وآسيا الوسطى ـ فقد تحولت وثنية تحمل معها الأصنام حيث سارت ، وتبني الهياكل ، وتنصب تماثيل « بوذا » حيث حلّت ونزلت[4] ، ولم يزل العلماء يشكون في إيمان هذه الديانة ومؤسسها بالإله الخالق للسّماوات والأرض والإنسان ولا يجدون ما يثبت ذلك ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ .

(٢) نفس المصدر باب الدين الزرتشتي ديانة الحكومة ، ص ١٨٣ ـ ٢٣٣ .

(٣) « ايران في عهد الساسانيين » ؛ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٩ .

(٤) راجع كتاب « الهند القديمة » للأستاذ « أيشورا توبا » أستاذ تاريخ الحضارة الهندية في جامعة « حيدر آباد » الهند ، وكتاب « اكتشاف الهند «The Discovery of India» لمؤلفه « جواهر لال نهرو » رئيس وزراء الهند الأسبق ص ٢٠١ ـ ٢٠٢ .

ويحارون في قيام هذه الديانة العظيمة بغير الإيمان بالله[1] .

أما البرهمية ـ دين الهند الأصيل ـ فقد امتازت بكثرة المعبودات والآلهة والآلهات ، وقد بلغت الوثنية أوجها في القرن السادس فبلغ عدد الآلهة في هذا القرن إلى ٣٣٠ مليون[2] وقد أصبح كل شيء رائع ، وكل شيء هائل ، وكل شيء نافع ، إلها يُعبد ، وارتقت صناعة نحت التماثيل في هذا العهد ، وتأنق فيها المتأنقون .

يقول الأستاذ الهندكي الفاضل « سي ، وي ، ويد » في كتابه « تاريخ الهند الوسطى » وهو يتحدّث عن عهد الملك هرش (٦٠٦ـ٦٤٨ م) ، وهو العهد الذي يلي ظهور الإسلام في الجزيرة العربية :

« كانت الديانة الهندكية والديانة البوذية وثنيتين سواء بسواء ، بل ربما كانت الديانة البوذية قد فاقت الديانة الهندكية في الإغراق في الوثنية ، كان ابتداء هذه الديانة ـ البوذية ـ بنفي الاله ، ولكنها بالتدريج جعلت « بوذا » الاله الأكبر ، ثم أضافت اليه آلهة أخرى مثل Bodhistavas على مرّ الزمن ، لا سيما أرسخت الوثنية قدميها في المدرسة البوذية الفكرية التي

(١) إقرأ مقالة « بوذا » في دائرة المعارف البريطانية .

(٢) راجع « الهند القديمة » لمؤلفه « آر ، سي ، دت ، » ج ٣ ؛ ص ٢٧٦ ، و« الهندكية السائدة » لمؤلفه L. S. S, O'Malley ص ٦ـ٧ .

تسمى « مهايانا » بالتأكيد ، وقد بلغت أوجها في الهند ، حتى أصبحت كلمة « بوذا » (Buddha) مرادفة لكلمة « الوثن » أو « الصّنم » في بعض اللغات الشرقية[١] .

مما لا شك فيه أن الوثنية كانت منتشرة في العالم المعاصر كله ، لقد كانت الدنيا كلها من البحر الأطلسي إلى المحيط الهادىء غارقة في الوثنية ، وكأنما كانت المسيحية والديانات السامية والديانة البوذية تتسابق في تعظيم الأوثان وتقديسها ، وكانت كخيل رهان تجري في حلبة واحدة[٢] » .

ويقول أستاذ هندكي فاضل آخر في كتابه الذي سماه : « الهندكية السائدة » :

« إن عملية « خلق الآلهة » لم تنته على هذا ، فلم تزل تنضم آلهة صغيرة في فترات تاريخية مختلفة إلى هذا « المجمع الإلهي » في عدد كبير ، حتى أصبح منهم حشد يفوق الحد والإحصاء ، كان كثيرمنهم آلهة سكّان الهند القدامى ، ألحقوا بآلهة الديانة الهندكية، يذكر أن عدد هؤلاء الآلهة قد بلغ ٣٣٠

---

(١) مثل الفارسية واللغات المنشقة عنها كالأردية ، فهي تعبر عن الوثن أو الصنم بكلمة « بت » وهذا التعبير منتشر في الشعر والأدب وكلام الناس في ايران والهند .والناس في الهند يطلقون على « بوذا » كلمة « بدها » فيقولون « جوتهم بدها » ، وكلمة « بت » متقاربتان نطقاً (المؤلف)

(٢) : C.V. Vaidya: History of Mediavel Hindu India Vol. I (Poona 1921)

مليون[1] » .

أما العرب الذين آمنوا في الزمن القديم بدين إبراهيم ، وقام في أرضهم بيت الله الحرام ، فقد ابتلوا في العصر الأخير لبعد عهدهم من النبوة والأنبياء ، والانحصار في شبه جزيرتهم ، بوثنية سخيفة لا يوجد لها نظير إلا في الهند البرهمية الوثنية ، وترقوا في الشرك فاتخذوا من دون الله آلهة ، واعتقدوا أن لهم مشاركة في تدبير الكون ، وقدرة ذاتية على النفع والضرر ، والإيجاد والإفناء ، وانغمست الأمة في الوثنية وعبادة الأصنام بأبشع أشكالها ، فكان لكل قبيلة أو ناحية أو مدينة صنم خاص ، بل لكل بيت صنم خصوصي[2] .

وكان في جوف الكعبة ـ البيت الذي بناه ابراهيم عليه السلام لعبادة الله وحده ـ وفي فنائها ، ثلاثمائة وستون صنماً[3] . وتدرجوا من عبادة الأصنام والأوثان إلى عبادة الحجر ، من أي جنس كان ، وكانت لهم آلهة من الملائكة والجنّ والكواكب ، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله ، وأن الجنّ شركاء الله ، فآمنوا بقدرتهم وتأثيرهم وعبدوهم[4] .

---

(١) L.S.S. O'Malley, C.I.E.I. I.C.S.: Popular Hinduism, The Religion of the Masses (Cambridge, 1935) pp. 6-7.

(٢) اقرأ كتاب « الأصنام » للكلبي ؛ ص ٣٣ .
(٣) الجامع الصحيح للبخاري ، كتاب المغازي ، باب فتح مكة .
(٤) كتاب الأصنام ، ص ٤٤ .

إطلالة على البلاد والأمم :

هذا شأن الدّيانات التي ظهـرت في زمانهـا للدّعـوة إلى الله ، أما البلاد المتمدنة التي قامت فيها حكومات عظيمـة ، وشاعت فيها علوم كثيرة ، وكانت مهد الحضـارة والصناعـات والآداب ، فقد كانت بلاداً مسخت فيها الديانات ، وفقـدت أصالتها وقوتها ، وفقد المصلحون ، وغاب المعلّمون .

الأمبراطورية الرومانية الشرقية :

فالدولة الرومـانية الشرقية[1] ، ازدادت فيهـا الإتـاوات وتضاعفت الضرائب ، حتى أصبح أهل البلاد يفضلـون على حكومتهـم كل حكومـة أجنبية ، وحدثـت اضطرابـات إثــر اضطرابات وثـورات إثـر ثورات ، وقـد هلك عام ٥٣٢ م في اضطراب واحد في عهد جيستن الأول(justin ı) ثلاثون ألف شخص في القسطنطينية[2] ـ عاصمة المملكة ـ وأصبح الهـمّ

(١) الأمبراطورية الرومانية الشرقية هي المعروفة بالأمبراطورية البيزنطية ويعرفها العرب بالروم ، وكانت تحكم في العصر الذي نتحدث عنه ، دول يونان وبلقان ، وآسيا الصغرى ؛ وسوريا وفلسطين ، وحوض البحر الأبيض المتوسط بأسره ؛ ومصر ، وكل أفريقيا الشمالية ، وكانت عاصمتها القسطنطينية ، وكان ابتـداء الأمبراطـورية المذكورة سنـة ٣٩٥ ؛ وانتهاؤهـا بغلبـة العثمانيين على القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م .

(٢) تاريخ العالم للمؤرخين Historian's History of the world. Vol. VII P.73

الوحيد اكتساب المال من أي وجه ، ثم إنفاقه في التطرف ، وقد أمعنوا في طرق التسلية ، حتى وصلوا فيها إلى الوحشية[1] .

جاء في كتاب « الحضارة ماضيها وحاضرها » تصوير لما كان عليه المجتمع البيزنطي سن التناقض والاضطراب والهيام بالتمتّع والتسلية ، وإن وصلت إلى حد القسوة والهمجية ، فيقول المؤلفان الفاضلان :

« كان هناك تناقض هائل في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم ، وعمت الرهبانية ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني ، ولكن نرى هؤلاء ـ في جانب آخر ـ حريصين أشد الحرص على كل نوع من أنواع اللهو واللعب ، والطرب والترف ، فقد كانت هناك ميادين رياضية واسعة تتسع لجلوس ثمانين ألف شخص ، يتفرجون فيها على مصارعات بين الرجال والرجال أحياناً ، وبين الرجال والسباع أحياناً أخرى ، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين : لون أزرق ولون أخضر ، لقد كانوا يحبّون الجمال ، ويعشقون العنف والهمجية ، وكانت ألعابهم دموية ضارية أكثر الأحيان ،

(١) إقرأ كتاب « سقوط دولة روما وانحطاطها » لايدوارد جيبون ـ ٣ ـ ٥ .

وكانت عقوباتهم فظيعة تقشعر منها الجلود ، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف ، والمؤامرات والمجاملات الزائدة ، والقبائح والعادات السيئة[1] » .

أما مصر ـ إحدى ولايات الدولة البيزنطية الغنية ـ فكانت عرضة لاضطهاد ديني فظيع ، واستبداد سياسي شنيع ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر ، التي كانت مصدراً كبيراً لرخاء الدولة وغناها ، وقد اتخذها الروم شاة حلوباً يحسنون حلبها ، ويسيئون علفها[2] .

أما سوريا ـ ولاية الأمبراطورية البيزنطية الأخرى ـ فكانت مطية المطامع الرومانية وكان الحكم حكم الغرباء الذي لا يعتمد إلا على القوّة ، ولا يشعر بشيء من العطف على الشعب المحكوم، وكثيراً ما كان السوريون يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كانت عليهم من ديون وقد كثرت المظالم والسخرات والرقيق[3] .

---

(١) M. Taylor: Civilisation. Past and Present,
T. Walter: Wallbank and Alastain.

(٢) « فتح العرب لمصر» لمؤلفه : « الفرد بتلر » ، و « تاريخ العالم » للمؤرخين ـ ج ـ٧ .

(٣) اقرأ للتفصيل « خطط الشام » للأستاذ كرد علي ـ ج١ ، ص ١٠١ .

الأمبراطورية الإيرانية[1] :

كانت الزرتشتية ـ وهي التي خلفت المزدكية ـ ديانة ايران القديمة ، ومن المرجح أن « زرتشت » صاحب هذه الديانة ظهر في القرن السابع قبل الميلاد ، وكانت مؤسسة منذ أول يومها على الحرب القائمة بين النور والظلام ، وبين روح الخير وروح الشر ، أو بين إله الخير وبين إله الشرّ .

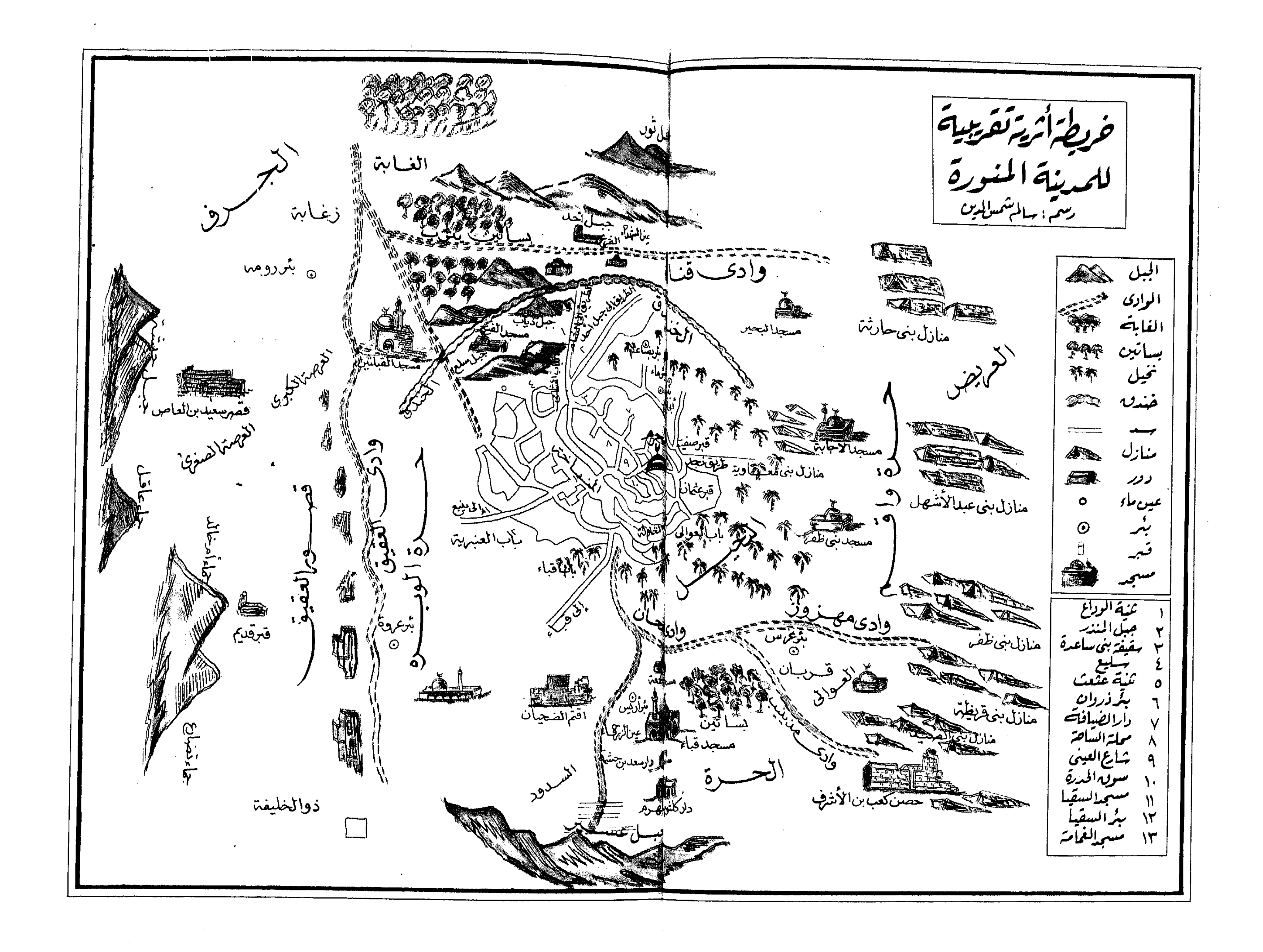
وجاء « ماني » في أوائل القرن الثالث المسيحي مجدّداً لهذه الديانة ، مضيفاً إليها[2] ، وتبعه « شاه بور » ـ الذي خلف

---

(١) كانت أعظم من الأمبراطورية الرومانية الشرقية ـ بعد انشقاقها عن الامبراطورية الرومانية الكبرى مساحة وأبهة وثروة . وقد تأسست على يد « أردشير » في سنة ٢٢٤ م ، وكانت تحكم حين بلغت أوجها ، أسيرية ، وخوزستان ، وميديه ، وفارس وأذربيجان وطبرستان وسرخس وجوزجان وكرمان ومرو وبلخ ، وسغد ، وسيستان ، وهرات ، وخراسان وخوارزم ، والعراق واليمن من الجزيرة العربية ، وقد دخلت بعض ولايات الهند مثل كجه ، وكاتهياوار ؛ ومالوه ، في حكمها في بعض الفترات ، وقد اتسعت هذه الأمبراطورية اتساعاً كبيراً من القرن الرابع المسيحي ، وقد أوغلت في الشمال والشرق وبلغت إلى أقصى حدودها .

وقد كانت طيسيفون (المداين) عاصمة الأمبراطورية ، ومقر الأمبراطور الإيراني ،وكانت مجموع مداين كما يبدو من اسمها العربي ، وقد بلغت أوجها في الرقي والمدنية والبذخ ، في القرن الخامس إلى ما بعد (راجع للتفصيل) « ايران في عهد الساسانيين » للبروفيسور آرتهركرستن سين) .

(٢) اقرأ لمعرفة تعليمات ماني ودعوته وفلسفته ، الباب الرابع من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » (النبي ماني وديانته) ص ٢٣٣ ـ ٢٦٩ .



خريطة أثرية تقريبية للمدينة المنورة
رسم : سالم شمس الدين
الجبل
الوادى
الغابة
بساتين
نخيل
خندق
سد
منازل
دور
عين ماء
بئر
قبر
مسجد
١ ثنية الوداع
٢ جبل المنذر
٣ سقيفة بنى ساعدة
٤ سليع
٥ ثنية عثعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافة
٨ محلة الساحة
٩ شارع العينى
١٠ سور المدينة
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامة
الجرف
الغابة
زغابة
بئر رومة
وادى قناة
جبل أحد
مسجد الجبير
منازل بنى حارثة
العريض
مسجد القبلتين
العرصة الكبرى
العرصة الصغرى
قصر سعيد بن العاص
قصور العقيق
وادى العقيق
مسجد الإجابة
منازل بنى عبد الأشهل
مسجد بنى ظفر
باب العنبرية
باب العوالى
وادى مهزور
منازل بنى ظفر
بئر عروة
وادى بطحان
بئر غرس
قربان
العوالى
منازل بنى قريظة
أطم الضحيان
بساتين
مسجد قباء
الحرة
حصن كعب بن الأشرف
ذو الخليفة
قبر قديم
السدود
جبل عير

أردشير (٢٤١ م) مؤسس الدولة الساسانية ، واحتضن دعوته ، ثم أصبح معارضاً له ، فقد كان « ماني » يدعو إلى حياة العزوبة لحسم مادة الفساد والشر من العالم ، ويعلن أن امتزاج النور بالظلمة شر يجب الخلاص منه ، فحرم النّكاح استعجالاً للفناء ، وانتصاراً للنور على الظلمة ، بقطع النسل ، وقضى أعواماً في النفي ، ثم عاد إلى إيران ، وقتل في عهد بهرام الأول ، ولكن تعاليمه لم تمت بموته ، بل بقيت تؤثر في التفكير الإيراني ، والمجتمع الإيراني مدة طويلة .

وظهر مزدك في أوائل القرن الخامس المسيحي ، فدعا إلى إباحة الأموال والنساء ، وجعل الناس شركاء فيها ، وقويت دعوته ، وكان الناس يدخلون الرجل في داره ، فيغلبونه على منزله وأمواله ، لا يستطيع الامتناع منهم ، وقد جاء في وثيقة إيرانية تاريخية تعرف بـ « نامة تنسر » تصوير لذلك العصر الذي انتشرت فيه الدعوة المزدكية ، وكانت لها السيطرة والنفوذ :

« وانتهكت الأعراض ، وعم خلع العذار ، لقد نشأ جيل لا كرامة فيه ولا عمل ، ولم يكن له رصيد ولا ماض مجيد ، وليس له هم لمصير الشعب ، ولا إشفاق عليه ، ولا يتصف بكمال ومهارة ، كانت تسيطر عليهم اللامبالاة والبطالة ، وكانوا بارعين في النميمة ، والخبث ، والافتراء ، والبهتان، وقد اتخذوا ذلك وسيلة لكسب القوت والوصول إلى

الثروة والجاه[1] » .

ويقول « آرتهر كرستن سين » :

« كانت النتيجة أن انتشرت ثورات الفلاحين ، وكان النّهابون يدخلون في قصور الأغنياء وينهبون ما يجدون فيها من أموال وأثاث ، ويلقون القبض على النساء ، ويستولون على الأملاك والعقارات ، فأصبحت الأراضي والمزارع مقفرة خربة ، لأن هؤلاء الملاّك الجدد لم يكن لهم عهد ولا معرفة بالفلاحة[2] » .

ظهر من ذلك أنه كان في إيران القديمة استعداد عجيب دائماً لقبول الدعوات المتطرفة المغالية ، وكانت دائماً تحت تأثير ردود فعل عنيفة ، وكانت تتأرجح بين « أبيقورية[3] » جامحة وتنسك مغال حيناً ، وبين احتكار سلالي ، أو طبقي ، أو ديني ، وشيوعية متطرفة وفوضوية مطلقة حيناً آخر ، أفقدها هذا التأرجح الاتزان والاقتصاد والهدوء .

وكانت الأحوال سيئة جداً في هذه الأمبراطورية ـ الإيرانية الساسانية ـ في القرن السّادس المسيحي ، فكانت

(١) (نامة تنسر) طبع مينوي ، ص ١٣ .
(٢) (إيران في عهد الساسانيين) ص ٤٤٧ .
(٣) مذهب « أبيقور » الفيلسوف الأغريقي الذي قال بأن المتعة هي الخير الأسمى .

تحت رحمة الملوك الذين كانوا يحكمون بالوراثة ، ويرون أنفسهم فوق الناس وفوق بني آدم ، وكانوا يخاطبون بكلمة « الإله » وتضاف إليهم كلمة الألوهية بطريق مكشوف ، وكان الأمبراطور « الإنسان الأول » وكان لا يسمى باسمه عند الخطاب ، وكان يعتبر من نسل الآلهة[1] .

وكانت موارد البلاد كلها ملكاً لهؤلاء الملوك ، وقد تطرّفوا في اكتناز الأموال ، وادّخار الطُّرَف ، والأشياء الغالية ، والتأنق في المعيشة ، والتمتع بالحياة ، وقد وصل الولوع بالتلذذ ، وترفيه الحياة ، والمسابقة في مظاهر الغنى والعظمة ، إلى حد الخيال والشعر لا يتصوره إلا من توسع في دراسة تاريخ إيران القديمة ، وشعرها وأدبها[2] ، واطلع على تفاصيل مدينة « طيسيفون » وإيوان كسرى ، وبهار كسرى[3] (بساط الربيع) ، وتاج كسرى ، وما كان يختص بملوكهم من خدم وحشم ، وزوجات وجوار ، وغلمان وطُهاة ، ومربّين للطيور والسّباع ، وأوان وقنص ، التفاصيل الأسطورية التي يدهش لها الانسان[4] ، وقد بلغ ذلك إلى حد أن يزد جرد آخر ملوك

---

(١) إيران في عهد الساسانيين ص ٣٣٩ .

(٢) اقرأ على سبيل المثال : « ايران في عهد الساسانيين » ص ١٦١ - ١٦٢ .

(٣) راجع تاريخ الطبري ، ج٤ ؛ ص ١٧٨ .

(٤) راجع تاريخ ايران لـ « شاهين مكاريوس » طبع ١٨٩٨ ، ص ٩٠ .

إيران لما خرج من عاصمته ـ المداين ـ هارباً ينجو بنفسه في الفتح الإسلامي العربي ، أخذ معه ـ وهو في حالة الفرار ـ ألف طاه ، وألف مغنّ ، وألف قيّم للنمور ، وألف قيّم للبزاة ، وحاشية أخرى ، وكان يستقل هذا العدد ، ويعتبر نفسه لاجئاً حقيراً ، ويتصور أنه في حالة يرثى لها من قلة الحاشية ، وفقدان أسباب الترفيه والتسلية[1] .

هذا بجانب ما كان يعانيه الشّعب من بؤس وشقاء ، وتعب وعناء ، وتذمّر وبكاء ، فكان أفراد هذا الشعب في جهد من العيش للحصول على ما يسدّ رمقهم، ويستر عورتهم ، يرزحون تحت أثقال الضرائب والأتاوات ، ويرسفون في القيود والأغلال ، ويعيشون عيش البهائم ، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية[2] ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروب طاحنة مدمّرة ، قامت في فترات من التاريخ ودامت سنين طوالاً بين المملكة الشرقية الساسانية والمملكة الغربية البيزنطية ، لا مصلحة للشعب فيها ولا رغبة[3] .

---

(١) راجع للتفصيل « إيران في عهد الساسانيين » ص ٦٨١ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع الباب الخامس من كتاب : « إيران في عهد الساسانيين » (مملكة الشرق ومملكة الغرب) ص ٢٦٩ ـ ٣٣٣ .

الهند :

أما الهند التي برزت في العصر القديم في العلوم الرياضية وعلم الفلك والطب والتعمق في الفلسفة ، فقد اتفقت كلمة المؤرخين لها أن أحط أدوارها ديانة ، وخلقاً ، واجتماعاً ، ذلك العهد الذي يبتدىء من مستهل القرن السادس الميلادي[1] ، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد وأصبحت لا عيب فيها ، لأن الدين قد أضفى عليها لوناً من القدس والتعبد[2] ، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة ، وكان الرجل قد يخسر امرأته في القمار[3] ، وإذا مات زوجها صارت كالموؤدة لا تتزوج ولا تستحق احتراماً ، وانتشرت عادة إحراق الأيامى نفوسهن على وفاة أزواجهن ، خاصة في الطبقات الشريفة والأرستقراطية ، إظهاراً للوفاء ، وفراراً من الشقاء ، وتسمى هذه العادة بـ « ستي » ولم تزل زوالاً كلياً إلا بعد الاحتلال الانجليزي[4] ، وامتازت الهند من بين جاراتها وأقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب ، والامتياز بين الإنسان والإنسان ، وكان نظاماً قاسياً لا هوادة فيه ولا مرونة ، مدعماً بالدين والعقيدة ، خاضعاً لمصلحة الآريين المحتلين والبراهمة المحتكرين للدّيانة والقداسة ، قائماً

(١) راجع « الهند القديمة » ج٣ ، لمؤلفه آرسي ؛ دت (R. C. DUTT)

(٢) ستيارته بركاش لديانند سرسوتي ص ٣٤٤ .

(٣) اقرأ استهلال قصة مهابهارت (الملحمة الهندية الكبرى) .

(٤) اقرأ رحلة الرحالة الفرنسي برنير وتاريخ الراجوات والأمراء في القرون الوسطى .

على أساس الحِرَف والصنائع وتوارثها ، والعنصرية والسّلالية ، وكان ذلك تابعاً لقانون مدني سياسيّ دينيّ ، وضعه المشرّعون الهنديّون الذين كانت لهم صفة دينية ، أصبح القانون العام للمجتمع ودستور الحياة ، وهو يقسم سكان الهند في أربع طبقات :

(١) طبقة الكهنة ورجال الدين ، وهم « البراهمة » .

(٢) ورجال الحرب والجندية وهم « شترى » .

(٣) ورجال الفلاحة والتجارة وهم « ويش » .

(٤) ورجال الخدمة وهم « شودر » ، وهم أحط الطبقات ، فقد خلقهم خالق الكون من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها .

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركهم فيها أحد ، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله ، ولا يجوز فرض جباية عليه ، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال ، أما « شودر » فليس لهم أن يقتنوا مالاً ، أو يدخروا كنزاً ، أو يجالسوا برهمياً ، أو يمسوه بيدهم ، أو يتعلموا الكتب المقدسة[١] .

وكانت الهند في حالة فوضى وتمزّق تحكمها إمارات وحكومات تعدّ بالمئات،تضعفها حروب ومنافسات ، ويسود

---

(١) راجع للتفصيل القانون المدني الأجتماعي المسمى بـ (منو شاستر » الابواب : ١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠ ـ ١١ .

الاضطراب وسوء الادارة واختلال الأمن وإهمال شؤون الرعية والاستبداد .

وكانت تعيش في عزلة عن العالم ، يسيطر عليها الجمود ، والتّزمت ، والتّطرف ، في العادات والتقاليد ، والتفاوت الطبقي ، والتعصب الدّموي والسلالي ، يتحدث مؤرخ هندوكي أستاذ التاريخ في إحدى جامعات الهند ، عن عصر سابق لدخول الإسلام في الهند ، فيقول :

« كان أهل الهند منقطعين عن الدنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالمية ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمّت فيهم أمارات الانحطاط والتّدهور ، كان الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفن المعماري ، والتصّوير ، والفنون الجميلة الأخرى » .

« كان المجتمع الهندي راكداً جامداً ، كان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات ، وتمييز معيب بين أسرة وأسرة ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ويشدّدون على أنفسهم في أمور الطّعام والشرّاب ، أمّا المنبوذون فكانوا يعيشون - مضطرين - خارج بلدهم ومدينتهم [1] » .

---

(١) Viduadhar Mahajan : Muslim Rule in India, (New Delhi, 1970) P.33.

الجزيرة العربية :

أما العرب فساءت أخلاقهم ، فأولعوا بالخمر والقمار ، وبلغت بهم القساوة والحميّة المزعومة إلى وأد البنات ، وشاعت فيهم الغارة وقطع الطريق على القوافل ، وسقطت منزلة المرأة ، فكانت تورث كما يورث المتاع أو الدابة ، ومن المأكولات ما هو خاص للذكور محرّم على الأناث ، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد ، ومنهم من كان يقتل أولاده خشية الإنفاق ، وخوف الفقر والإملاق (١) .

وكانت العصبيّة القبلية والدّموية شديدة جامحة ، وأغرموا بالحرب حتى صارت مسلاة لهم وملهى ، وهانت عليهم إراقة الدّماء ، فتثيرها حادثة تافهة ، وتدوم الحرب أربعين سنة ويقتل فيها ألوف من النّاس (٢) .

أوروبا :

أما الأمم الأوروبية ـ المتوغلة في الشّمال والغرب ـ

(١) راجع القرآن الكريم ، وكتب الحديث ، وشعر العرب الجاهلي ، المدون في الحماسة والسبع المعلقات ؛ وغيرها .

(٢) راجع الشعر الجاهلي ، والكتب التي ألفت في أيام العرب وأخبارهم ، .

فكانت تعيش في ظلام الجهل والأميّة والحروب الدامية، وكانت بعيدة عن جادّة قافلة الحضارة الإنسانية ، والعلوم والآداب ، لا شأن للعالم بها ولا شأن لها بالعالم .

كانت أجسامهم قذرة ، ورؤوسهم مملوءة بالأوهام [١] ، وكانوا يزهدون في النّظافة واستعمال الماء ، ويغالي الرّهبان منهم في تعذيب الأجسام ، والفرار من الإنسان [٢] ، وكانوا يبحثون في أنّ المرأة حيوان أم إنسان ، ولها روح خالدة أم ليست لها روح خالدة ، وأن لها حق الملكية ، والبيع والشراء ، أم ليس لها شيء من ذلك ؟

يقول Robert Briffault :

« لقد أطبق على أوروبا ليل حالك من القرن الخامس إلى القرن العاشر ، وكان هذا اللّيل يزداد ظلاماً وسواداً ، وقد كانت همجية ذلك العهد أشد هولاً ، وأفظع من همجيّة العهد القديم ، لأنّها كانت أشبه بجثة حضارة كبيرة قد تعفّنت ، وقد انطمست معالم هذه الحضارة ، وقضي عليها بالزّوال ، وقد كانت الأقطار الكبيرة التي ازدهرت فيها هذه الحضارة وبلغت أوجها في الماضي ، كإيطاليا ، وفرنسا ، فريسة

(١) تاريخ الفلسفة للبروفيسور ثيلي (Thily) .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « تاريخ الأخلاق الأوروبية » لمؤلفه الشهير Lecky ج٢ ، باب « من قسطنطين إلى شارلمان » .

الدّمار والفوضى والخراب [١] .

ظلام مطبق ويأس قاتل :

وقصارى القول أنّ القرن السادس المسيحي ـ الّذي كانت فيه البعثة المحمّدية ـ وما يليه من فترة زمنية ، كان من أحطّ أدوار التاريخ ، ومن أشدها ظلاماً ويأساً من مستقبل الإنسانية وصلاحيتها للبقاء والازدهار .

وقد أحسن المؤلّف الانجليزي المعروف هـ ـ ج ـ ولس H G Wells تصوير هذا العصر ، فقال ـ وهو يبحث الظروف السائدة في عهد الحكومتين : السّاسانية والبيزنطية في القرن السّادس للميلاد .

«كانت العلوم والفلسفة والسياسة في حالة احتضار في عهد هذين النظامين المتحاربين والمتجهين الى الانحطاط، فقد كان الجيل الأخير من فلاسفة أثينا عاضّاً على المؤلفات الأدبية العتيقة بالنواجذ، بكل احترام وحبّ، ولو بدون فهم لها، فلما انقرض هذا الجيل، لم تبق طبقة ولا أفراد أحرار شجعان، يتزعمون حرّية الفكر وحرّية التعبير، ولا الذين يحتفظون ـ على الأقل ـ بتراث فكر حرّ، وبحث نزيه جِدّي، على دأب القدماء والسّابقين لهم، وبجانب ما كان للفوضى السياسي والاجتماعي

(١) The Making of Humanity, p. 164.

من دور كبير في القضاء على مثل هذه الطبقة ، كان من العوامل التي ساعدت على شلل الفكر الانساني، وتجمد القرائح البشرية، أن هذا العصر كان عصر العصبيّة وعدم التسامح في ظلال الحكومتين الايرانية والبيزنطية، فقد كانت هاتان الحكومتان دينيتين نوعا ما، وقد كانتا فرضتا قيودا على العقل البشري.

وبعد ما قصّ الكاتب قصة زحف الامبراطورية الإيرانية على الامبراطورية البيزنطية ثم انتصار البيزنطيين على الإيرانيين في شيء من التوسع، عاد الى وصف التدهور الاجتماعي والخُلقي السائد في أواخر القرن السادس المسيحي ، فقال:

«كان يسوغ لمتتبع - غير محنّك ناضج الفكر - للأوضاع السائدة في أوائل القرن السابع المسيحي، أن يتنبأ بسهولة وبثقة بأن اوربا ، وآسيا ستقعان تحت رحمة المغول الوحوش في غضون بضعة قرون قادمة، فلم تكن في اوربا الغربية أمارات للأمن والنظام وحكم القانون، وقد كانت المملكتان: البيزنطية والإيرانية، مشغولتين في حرب ابادة وتدمير، بينما كانت الهند في حالة توزّع وبؤس [1]».

(١) A short History of the World (london, 1924) p. 140-41, 144.

ظهر الفساد في البر والبحر

وبالجملة فقد كانت الإنسانية في عصر البعثة في طريق الانتحار، وكان الإنسان في هذا القرن قد نسي خالقه، فنسي نفسه ومصيره، وفقد رشده، وقوّة التمييز بين الخير والشر، والحسن والقبيح، وكان الناس في شغل شاغل وفكر ذاهل، لا يرفعون الى الدين والآخرة رأسا، ولا يفكرون في الروح والقلب، والسعادة الأخروية وخدمة الإنسانية، وإصلاح الحال لحظة، وربما كان اقليم واسع ليس فيه أحد يهمه دينه ويعبد ربه، لا يشرك به شيئا، ويتألم للإنسانية ومصيرها البائس، وصدق الله العظيم:

﴿ ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا، لعلهم يرجعون [1] ﴾.

لماذا بعث النبي في جزيرة العرب؟

وقد اقتضت حكمة الله أن تَطلُع هذه الشمس التي تبدّد الظلام، وتملأ الدنيا نورا وهداية، من أفق جزيرة العرب الذي كان اشد ظلاما، وكان اشد حاجة الى هذا النور الساطع.

وقد اختار الله العرب، ليتلقوا هذه الدعوة اولا، ثم يبلغوها

---

(١) سورة الروم ٤١ .

الى أبعد أنحاء العالم، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية، لم تكتب عليها كتابات دقيقة عميقة، يصعب محوها وإزالتها، شأن الرّوم، والفرس، وأهل الهند، الذين كانوا يتيهون ويزهون بعلومهم وآدابهم الرّاقية، ومدنياتهم الزاهية، وبفلسفاتهم الواسعة، فكانت عندهم عقد نفسية وفكرية، لم يكن من السهل حلها، أما العرب فلم تكن على ألواح قلوبهم الا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة، ومن السهل الميسور محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها، وبالتعبير العلمي المتأخر كانوا أصحاب «الجهل البسيط» الذي تسهل مداواته، بينما كانت الأمم المتمدنة الراقية في هذا العصر مصابة «الجهل المركب» الذي تصعب مداواته وازالته.

وكانوا على الفطرة، وأصحاب ارادة قوية، اذا التوى عليهم فهم الحق حاربوه، واذا انكشف الغطاء عن عيونهم، أحبوه واحتضنوه، واستماتوا في سبيله.

يعبّر عن هذه النفسية العربية خير تعبير، ما قاله سهيل بن عمرو، حين سمع ما جاء في كتاب الصلح في الحديبية «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله»: «والله لو كنا نعلم أنك رسول الله، ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك[1]»، وما قاله عكرمة

---

[1] صحيح مسلم كتاب الجهاد واليسر، باب الحديبية.

ابن أبي جهل حين حمي الوطيس في معركة اليرموك، واشتد عليه الضغط: «قاتلت رسول الله ﷺ في كل موطن وأفر منكم اليوم؟! ثم نادى من يبايع على الموت، فبايعه من بايعه، ثم لم يزل يقاتل حتى أثبت جراحا وقتل شهيداً[1]»

وكانوا واقعيين جادين، أصحاب صراحة وصرامة، لا يخدعون غيرهم ولا أنفسهم، اعتادوا القول السديد، والعزم الأكيد، يدل على ذلك دلالة واضحة ما روي في قصة بيعة العقبة الثانية، التي تلتها الهجرة الى المدينة، قال ابن اسحاق:

«لما اجتمعت الأوس والخزرج في العقبة ليبايعوا رسول الله ﷺ قال العباس بن عبادة الخزرجي: يا معشر الخزرج! هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فان كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبةً، وأشرافكم قتلا، أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على نهكة[2] الأموال وقتل الأشراف فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فانا نأخذه على مصيبة الاموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله ان نحن وفينا؟ قال: الجنة، قالوا: أبسط يدك،

---

(١) راجع تاريخ الطبري ج ٤، ص ٣٦.
(٢) نقصها.

فبسط يده فبايعوه [1].

وقد صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبايعوا رسوله، وقـد قال سعد بن معاذ على لسانهم يوم بدر:

«فوالله لإن سرت حتى تبلـغ البَـرْك من غمـدان لنسـيرنّ معك، والله لان استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك [2]».

وقد تجلى هذا الصدق في العزم، والجدّ في العمل، وروح الامتثال للحق، في الجملة التي تؤثر عن عقبة بن نافع القائد العربي المسلم، فقد خاض البحر الاطلسي بجيشه وخيله، ثم قال: «يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهدا في سبيلك [3]».

اما اليونان والرّومان، وأهـل ايران، فقـد اعتـادوا مجـاراة الأوضاع، ومسايرة الزمان، لا يهيجهم ظلم، ولا يستهويهم حق، ولا تملكهم فكرة ودعوة، ولا تستحوذ عليهم استحواذا يتناسون فيه أنفسهم، ويجازفون فيه بحياتهم ولذاتهم.

---

(١) سيرة ابن هشام؛ االقسم الأول، ص ٤٤٦، (طبع مصطفى البابي الحلبي الطبعة الثانية).

(٢) زاد المعاد ج١، ص ٣٤٢ - ٣٤٣. سيرة ابـن هشـام؛ ق١ ص ٦١٥، والقصة في الصحيحين.

(٣) الكامل لأبن الأثير، ج٤، ص ٤٦

وكان العرب بمعزل عن أدواء المدنية والترّف، التي يصعب علاجها، والتي تحول دون التّحمس للعقيدة والتفاني في سبيلها.

وكانوا أصحاب صدق وأمانة وشجاعة، ليس النفاق والمؤامرة من طبيعتهم، وكانوا مغاوير حرب، وأحلاس خيل، وأصحاب جِلادة وتقشف في الحياة، وكانت الفروسية هي الخلق البارز الذي لا بدّ أن تتصف به أمة تضطلع بعمل جليل، لأن العصر كان عصر الحروب والمغامرات، والفتوّة والبطولة.

وكانت قواهم العملية والفكرية، ومواهبهم الفطرية، مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال عقيم «بيزنطي» ومذاهب كلامية دقيقة، وحروب اقليمية سياسية، فكانت أُمّة بِكرا، دافقة بالحياة والنشاط، والعزم والحماس.

وكانوا أمة نشأت على الهيام بالحرية والمساواة، وحبّ الطبيعة، والسذاجة لم تخضع لحكومة أجنبية، ولم تألف الرقّ والعبودية، واستعباد الإنسان للإنسان، ولم تتمرّس الغطرسة الملوكية الإيرانية او الرومانية، واحتقارها للإنسان والإنسانية، فكان الملوك في ايران ـ المملكة المجاورة للجزيرة ـ فوق مستوى الإنسان والإنسانية، فكان الملك اذا احتجم، أو فصد له، أو تناول دواء، كان ينادي في الناس ألا يمارس انسان من رجال البلاط، أو سكان العاصمة عملا، ويكفوا عن كل صناعة أو

ممارسة لنشاط[1]، واذا عطس فلا يسوغ لأحد من رعاياه أن يدعو له، واذا دعا أن يؤمن عليه، لأنه فوق مستوى البشر، واذا زار احدا من وزرائه أو أمرائه في بيته كان يوما مشهودا خالدا، يؤرخ به في رسائله ويصبح تقويما جديدا، ويعفى عن الضريبة الى مدة معينة، ويتمتع باستثناءات أو مسامحات وتكريمات، لأن الملك شرفه بالزيارة[2].

هذا فضلا عن الآداب الكثيرة التي يتقيّد بها رجال البلاط، وأركان الدولة، وأفراد الشعب، ويحافظون عليها محافظة دقيقة، من الوقوف بحضرته، والتكفير له[3]، وقيام كقيام العبّاد أمام الربّ في الصّلوات، وهو تصوير حال كانت عليه ايران السّاسانية في عهد أفضل ملوكها بالاطلاق، وهو كسرى الأول المعروف بأنوشروان العادل (٥٣١ ـ ٥٧٩) فكيف في عهد الملوك الذين اشتهروا في التاريخ بالظلم والعسف والجبروت؟

---

(١) « ايران في عهد الساسانيين »، ص ٥٣٥ ـ ٥٣٦.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٤٣.

(٣) كفر له: خضع بأن يضع يده على صدره ويطأطىء رأسه ويتطامن تعظيماً، وكانت عادة متبعة في ايران؛ ومن هنا شاع هذا التعبير؛ ودخل في لغة العرب؛ جاء في « لسان العرب » والكفر تعظيم الفارسي لملكه والتكفير لأهل الكتاب أن يطأطىء أحدهم رأسه لصاحبه كالتسليم عندنا، وقال في شرح شطر بيت لجرير: فضعوا السلاح وكفروا التكفيرا؛ كما يكفر العلج للدهقان يضع يده على صدره ويتطامن له (« لسان » ج ٧، ص ٤٦٦، مادة كفر).

وقد كانت حرية إبداء الرأي والملاحظة ـ فضلا عن النقد مفقودة تقريبا في المملكة الإيرانية الواسعة، وقد حكى الطبري حكاية طريفة عن عهد أفضل ملوكها وأعدلهم «كسرى أنو شيروان العادل» تدل كل الدلالة على مدى ما وصل اليه الحكم الإيراني من الاستبداد والحظر على ابداء الرأي الحرّ والتعليق الجريء في البلاط الإيراني، يقول:

«أمر الملك قباذ بن فيروز في آخر ملكه بمسح الارض سهلها وجبلها، ليضع الخراج عليها، فمسحت، غير أن قباذ هلك قبل ان يستحكم له امر تلك المساحة، حتى اذا ملك ابنه كسرى أمر باستتمامها وإحصاء النخل والزيتون والجماجم، ثم أمر كتابه فاستخرجوا جعل ذلك، وأُذن للناس إذنا عاما، وأمر كاتب خراجه ان يقرأ عليه الجعل التي استخرجت من أصناف غلات الأرض وعدد النخيل والزيتون والجماجم، ، فقرأ ذلك عليهم، ثم قال لهم كسرى: إنا قد رأينا أن نضع على ما أحصي من جريان هذه المساحة من النخل والزيتون والجماجم وصنائع، ونأمر بانجامها في السنة في ثلاثة أنجم، ونجمع في بيوت أموالنا من الاموال ما لو أتانا من ثغر من ثغورنا أو طرف من أطرافنا فتق أو شيء نكرهه واحتجنا الى تداركه أو حسمه، ببذلنا فيه مالاً كانت الاموال عندنا مُعدّة موجودة، ولم نرد استئناف اجتبائها على تلك الحال، فما ترون فيما رأينا من ذلك، وأجمعنا عليه؟ فلم يشر عليه أحد منهم فيه بمشورة ولم ينبس

بكلمة، فكرر كسرى هذا القول عليهم ثلاث مرات، فقام رجل من عرضهم وقال لكسرى: أتضع ايّها الملك ـ عمرك الله ـ الخالد من هذا الخراج على الفاني من كرم يموت، وزرع يهيج، ونهر يغور، وعين أو قناة ينقطع ماؤها؟ فقال له كسرى: يا ذا الكلفة المشئوم! من أي طبقات الناس انت؟ قال: أنا رجل من الكتاب، فقال كسرى اضربوه بالدُّويّ حتى يموت، فضربه بها الكتاب خاصة تبرؤا منهم الى كسرى من رأيه وما جاء منه، حتى قتلوه، وقال الناس: نحن راضون [1]».

ولم يكن الرّومان يختلفون عن الإيرانيين كثيرا، وان لم يبلغوا شأوهم في الوقاحة وامتهان الإنسانية وإهدار كرامتها، فقد روى المؤرخ الاوربي Victor Chopart في كتابه «العالم الروماني» ما ترجمته:

«كانت القياصرة آلهة، ولم يكن ذلك عن طريق الوراثة، بل كان كل من تملك زمام البلاد كان إلها، وان لم تكن هناك أمارة تدل على وصوله الى هذه الدرجة، ولم يكن لقب «أغسطس» الملوكي المفخم ينتقل من امبراطور الى امبراطور بموجب دستور أو قانون، ولكن لم يكن من شغل مجلس الشيوخ الروماني الا أن يؤكد صحة كل حكم يصدر بحد السيف، ولم تكن هذه

(١) تاريخ الطبري ج ٢، ١٢١ ـ ١٢٢؛ وروى القصة بطولها مؤلف « ايران في عهد الساسانيين » نقلاً عن الطبري.

الامبراطورية الا صورة لدكتاتورية عسكرية [1]».

ولم يكن السجود للملوك نادرا، فقد حكى أبو سفيان بن حرب في القصة التي رواها عن هرقل قيصر الروم حين بلغه كتاب رسول الله ﷺ يدعوه فيه الى الاسلام، وقد جاء في آخر هذه القصة:

«فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الايمان، قال: ردوهم علي، وقال: اني قلت مقالتي آنفا أختبر بها شدّتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل [2]».

أما الهند فقد بلغ فيها اهدار كرامة الانسان، وازدراء الطبقات التي اعتبرها الشعب الآري المحتل للبلاد، والقانون المدني الذي وضعه مشرعوه مخلوقا خسيسا، لا يتميز عن الحيوان الداجن إلا بأنه يمشي على اثنين، ويحمل صورة الآدمي، وان كانوا سكان البلاد الأصليين، مبلغا يصعب تصوره، فقد نص هذا القانون على أنه «اذا مد أحد من المنبوذين الى برهمي يدا أو عصا، ليبطش به، قطعت يده، واذا رفسه في غضب فدعت

---

(١) The Roman World, (London, 1928) P.418

(٢) رواه البخاري الصحيح ؛ باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ

رجله [1] واذا ادعى أنه يعلّمه سقي زيتا فائرا [2]، وكفارة قتل الكلب، والقطة، والضفدع، والوزغ، والغراب، والبومة، ورجل من الطبقة المنبوذة سواء [3]».

اذا قورن ذلك بما اعتاده العرب من الحرية، وعزة النفس، والاقتصاد في التعظيم والادب قبل ظهور الاسلام، ظهر فرق هائل بين طبيعة الأمّتين، ووضع المجتمعين: العجمي والعربي، فكانوا يخاطبون ملوكهم بقولهم: «أبيت اللعن» و«عم صباحا» وقد بلغت هذه الحرية والتماسك والاحتفاظ بالكرامه بالعرب الى حد كانوا يمتنعون في بعض الاحيان عن الخضوع لمطالب بعض ملوك العرب وأمرائهم، ومما يستطرف في ذلك أن أحد ملوك العرب طلب من رجل من بني تميم في الجاهلية فرسا له، يقال لها «سكاب» فمنعه إيّاها وقال أبياتا أولها:

أبيت اللعن أنّ سكاب علق ... نفيس لا تعار ولا تباع

وآخرها:

فلا تطمع أبيت اللّعن فيها ... ومنعكها بشيء يستطاع [4]

---

(١) «منوشاستر» الباب العاشر.

(٢) نفس المصدر.

(٣) D.C. Dutt ANCIENT INDIA, p. 324-343,

(٤) ديوان الحماسة ص ٦٧ ـ ٦٨.

وقد سرت هذه الحرية، والاعتداد بالنفس، والأنفة من التذلل الى جميع طبقات الشعب، وعمّت الذكور والإناث، يدل على ذلك ما ذكره المؤرخون العرب عن سبب قتل عمرو ابن كلثوم الفارس المشهور والشاعر الفحل، لعمرو بن هند ملك الحيرة، فقد ذكروا ان عمرو بن هند ملك الحيرة ارسل الى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأله ان يزير أمّه أمّه، فأقبل عمرو من الجزيرة الى الحيرة في جماعة من بني تغلب، وأقبلت ليلى بنت مهلهل في ظعن من بني تغلب، وأمر عمرو بن هند برواقه، فضرب فيما بين الحيرة والفرات، ودخل عليه عمرو بن كلثوم في رواقه، ودخلت ليلى وهند في قبة من جانب الرواق، وقد كان عمرو بن هند أمر أمه ان تنحي الخدم اذا دعا بالطّرف، وتستخدم ليلى، فدعا عمرو بمائدة، ثم دعا بالطّرف فقالت هند: «ناوليني يا ليلى ذلك الطبق»! فقالت ليلى: «لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها» فأعادت عليها وألحت، فصاحت ليلى: «واذلاه يا لتغلب» فسمعها عمرو بن كلثوم، فثار الدم في وجهه، ووثب الى سيف لعمرو بن هند معلق بالرواق، فضرب به رأس عمرو بن هند، وانتهب بنو تغلب ما في الرواق وساروا نحو الجزيرة، وقال في ذلك عمرو بن كلثوم قصيدته المشهورة التي عدت من المعلقات السبع [1].

---

(١) مقتبس من كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ص ٣٦ .

ولّما دخل المغيرة بن شعبة رسول المسلمين على رستم، وهو في أبهته وسلطانه، جلس معه ـ على عادة العرب ـ على سريره ووسادته، فوثبوا عليه، وانزلوه ومغثوه، فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم، إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضا، الا أن يكون محاربا لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان احسن من الذي صنعتم ان تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الامر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني[١]»

وفي جزيرة العرب، وفي مكّة كانت الكعبة، التي بناها ابراهيم واسماعيل ـ عليهما السلام ـ ليعبد الله فيها وحده ولتكون مصدر الدعوة للتوحيد الى آخر الابد.

«إن أوّل بيت وضع للّناس الذي ببكّةَ[٢] مباركاً وهدى للعالمين»[٣].

وقد بقيت كلمة «وادي بكة» في التوراة على ما دخل فيها من التحريف والتغيير، الا أن المترجمين حولوها الى «وادي البكاء»

(١) الطبري ج ٤، ص ١٠٨ .

(٢) بكة لغتان فيه وكثيراً ما يقع التبادل بين الميم والباء في اللغة العربية، كلازم ولازب ، نميط ونبيط .

(٣) سورة آل عمران ٩٦ .

وجعلوها اسم نكرة بدل علم ، وقد جاء في مزامير داود ما نصه :

«طوبى لأناس عزهم بك ، طرق بيتك في قلوبهم ، عابرين في وادي البكاء يصيرونه ينبوعا» (مزامير (١) ٨٤ ـ ٥ ـ ٦ ـ ٧) .

وقد انتبه علماء اليهود بعد قرون الى أن هذه الترجمة كانت خاطئة ، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية اعتراف بأنه واد مخصوص لا ماء فيه ، وأن في ذهن من صدرت عنه هذه العبارة صورة لوادٍ له اوضاع طبيعية عبر عنها بهذه الكلمة (٢) .

وقد كان ناقلو هذه الصحف الى الانجليزية اكثر امانةً ودِقّة في الترجمة من الذين قاموا بالترجمة العربية ، فقد تركوا كلمة « بكة » كما كانت في الاصل ، وكتبوها بالحرف الاستهلالي ، كما تكتب الاعلام ، ففي الترجمة الانجليزية كما يلي (٣) .

Blessed is the man whose strenght is in the Thee In Whose heart are the ways of them. Who passing through the Valley of Baca make it a Well. (Psalm 84 (5-6).

وكانت بعثته ﷺ استجابة لدعاء ابراهيم واسماعيل عند رفعهما لقواعد الكعبة ، وكان دعاؤهما كما نقله القرآن :

---

(١) الكتاب المقدس في مطبعتها في ساحة استور من مدينة نيويورك ؛ لندن ١٨٠٤ م .

(٢) Jewish Encyclopaedia Vol. 11 p. 415.

(٣) مستفاد من « التفسير الماجدي » للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي ، وكتاب « رحمة للعالمين » ج ١ ، للقاضي سليمان المنصور فوري .

«ربّنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم اياتِكَ ويعلّمهم الكتابَ والحِكْمةَ ويزكّيهم إنّك أنت العزيز الحكيم [1]».

وقد جرت سنة الله باستجابة أدعية المخلصين المبتهلين فضلا عن الأنبياء والمرسلين ـ والصحف السماوية والاخبار الصادقة مشحونة بأمثلتها، وقد جاء في التوراة نص يدلّ على استجابة هذا الدعاء الذي دعا به ابراهيم، فقد جاء في سفر التكوين ما لفظه.

« على اسماعيل استجبت لك هو ذا أباركه وأكبره وأكثره جدّا، فسيلد اثني عشر رئيسا وأجعله لشعب كبير».

ولذلك صح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقول عن نفسه: «أنا دعوة ابراهيم وبشرى عيسى»[2].

وفي التوراة على ما أصابها من التحريف ـ شواهد على أن هذا الدعاء قد استجيب، فقد جاء في كتاب التثنية (١٨ ـ ١٥) على لسان نبي الله موسى ما نصه:

«يقيم لك الرب الهك نبيا من وسطك من اخوتك مثلي، له تسمعون».

وقد دلت كلمة «اخوتك» على أن المراد بها هم بنو اسماعيل

---

(١) سورة البقرة ١٣٩ .

(٢) رواه الإمام أحمد في سنده .

الذين هم أبناء عمومة بني اسرائيل، وقد جاء ما يؤيد هذا، بعد آيتين (١٨ ـ ١٧) من نفس الصحيفة، وهو كما يلي:

«قال لي الرب قد احسنوا فيما تكلموا؛ أقيم لهم نبيا من وسط اخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به» (سفر الثنية ١٧ ـ ١٨).

وكلمة «أجعل كلامي في فمه» يعين محمدا ﷺ فهو النبي الوحيد الذي جاء بكلام الله نصا وفصا، وأعلن الله عن ذلك بقوله: ﴿ ما ينطق عن الهوى ان هو الا وحي يوحى[1] ﴾، وبقوله ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه! ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد[2] ﴾.

أما صحف أنبياء بني اسرائيل، فلا تدّعي أنّها من كلام الله لفظا ومعنى، ولا يتحرّج علماء هذه الطوائف من اضافة تأليفها الى الأنبياء، فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية ما يلي:

«إنّ الكتب الخمسة الاولى من الكتاب المقدس (العهد القديم) كما تقول الأخبار اليهودية القديمة، من تأليف النبي موسى، باستثناء ثماني آيات أخيرة جاء فيها الحديث عن موت موسى، وما زال الرّبيّون يعنون بتناقضات واختلافات وردت

---

(١) سورة النجم ٣.

(٢) سورة حم السجدة ٤٢.

في هذه الصحف ، وما زالوا يصلحونها بحكمتهم ولباقتهم[1] » .

وأما الاناجيل الاربعة التي تسمى «العهد الجديد» فهي أبعد من ان تكون كلاما إلهيّا لفظا ومعنى ، يقتنع بذلك كل من اجال النظر فيها وتصفحها ، وفي الحقيقة هي بكتب السيرة والأخبار أشبه منها بالكتب المنزلة من الله ، المبنية على الوحي والالهام [2] .

ثم ان موقع الجزيرة العربية الجغرافي ، يجعلها جديرة بان تكون مركزا لدعوة تعم العالم ، وتخاطب الأمم [3] ، فهي مع

---

(١) Jewish Encyclopaedia - p. 589

(٢) راجع للتفصيل كتاب المؤلف « النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » فصل الصحف السماوية السابقة والقرآن في ميزان العلم والتاريخ » ؛ ص ١٩٨ - ٢١٣ الطبعة الرابعة .

(٣) اعلن الدكتور حسين كمال الدين رئيس قسم الهندسة المدنية بكلية الهندسة بجامعة الرياض في حديث صحفي نشر في القاهرة أنه توصل إلى ما يشبه النظرية الجغرافية التي تؤكد أن مكة المكرمة في مركز اليابس في الكرة الأرضية أي مركز الأرض وقد بدأ بحثه برسم خريطة تحسب أبعاد كل الأماكن على الأرض عن مدينة مكة المكرمة ـ وذلك لتصميم جهاز عملي رخيص يساعد على تحديد القبلة ـ فجأة اكتشف على الخريطة أن مكة المكرمة تقع في وسط العالم .

ومن خلال بحثه هذا توصل إلى معرفة الحكمة الالهية في اختيار مكة المكرمة لتكون مقرا لبيت الله الحرام ومنطلقا للرسالة السماوية . « الأهرام » ١٥/ ١/ ١٣٩٧ -٨ الموافق ٥/ ١/ ١٩٧٧ العدد ٣٣٩٨ السنة ١٠٣ .

كونها جزءا من قارة آسيا تقع بمقربة من قارة افريقيا، ثم قارة اوربا، وكل منها مركز الحضارات، والثقافات، والديانات والحكومات، القوية الواسعة، وتمر بها القوافل التجارية التي تصل بين بلاد مختلفة، وقد تصل بين قارات تحمل من بلد ما يستطرف وينتج فيه الى بلد يفتقر اليه.

وتقع هذه الجزيرة بين قوتين متنافستين: قوة المسيحية وقوة المجوسية، وقوة الغرب وقوة الشرق، قد ظلّت رغم ذلك كله محتفظة بحريتها وشخصيتها، ولم تخضع لاحدى الدولتين إلا في بعض أطرافها، وفي قليل من قبائلها، وكانت في خير موقف لتكون مركزا لدعوة انسانية عالمية، تقوم على الصعيد العالمي وتتحدث من مستوى عال، بعيدة عن كل نفوذ سياسي وتأثير اجنبي.

لذلك كله اختار الله الجزيرة العربية، ومكة المكرمة، لتكون مبعث الرسول ومهبط الوحي، ونقطة انطلاق للاسلام في العالم.

« الله أعلم حيث يجعل رسالته »[(١)].

فترة حالكة مؤيسة

وبالرغم من هذه المواهب التي أكرم الله بها العرب، والمزايا التي امتازت بها الجزيرة العربية، التي تجلت بها حكمة الله في

(١) الأنعام ١٣٤

اختيارها مهدا للبعثة المحمدية وظهور الاسلام لم تكن في الجزيرة العربية أمارات يقظة ، أو آثار قلق ظاهر، وما كان «الحنفاء [١]» والباحثون عن الحق، الذين لا يجاوز عددهم رؤوس الأصابع؛ الا كعدد ضئيل من اليراع، يطير في ليلة شاتية، مطيرة، شديدة الظلام، فلا يهدي تائها، ولا يدفىء مقرورا.

وكانت هذه الفترة ـ التي بعث فيها محمد ﷺ من أشدّ الفترات التي مرت بها الجزيرة العربية ظلمة وانحطاطا، وأبعد من كل أمل في الاصلاح، وأصعب مرحلة واجهها نبي من الأنبياء وأدقّها.

وقد أحسن أحد الكتاب الانجليز في السيرة النبوية SIR WILLIAM MUIR وهو معروف بتحامله على الاسلام وصاحب رسالته عليه الصلاة والسلام،تصوير هذه الفترة، والانكار على ما قاله بعض الكتاب الاوروبيين، أن البركان كان متهيئا للانفجار، فجاء محمد ﷺ في أوانه ومكانه، فناوله شرارة من النار، فانفجر ، يقول:

«لم تكن الأوضاع الاجتماعية في الجزيرة العربية صالحة

---

(١) الذين نبذوا الوثنية ، وتمسكوا بعقيدة التوحيد التي دعا إليها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام .

لقبول أي تغير، أو نهضة عندما كان النبي ﷺ شابا، ولعل اليأس عن اصلاح القوم لم يصل ذروته مثل ما وصل في عصره، ولكن حينما تضعف الثقة بسبب واحد لنتيجة خاصة، تفتعل له اسباب اخرى، وتعتبر أسبابا لحدوث هذه النتيجة.

من ذلك ما يقوله بعض الناس، ان محمّدا ﷺ حين نهض معه العرب كلهم لإيمان جديد، ووقفت الجزيرة العربية وقفة رجل واحد، ثم يستنتجون من ذلك أن الجزيرة العربية كلّها كانت متهيئة متحمسة اذ ذاك لتحوّل مفاجىء عظيم. ولكن التاريخ عندنا يكذّب هذه النتيجة، اذا تأملنا في تاريخ العرب قبل ظهور الاسلام بقلب هادىء، فلم تنجح جهود المسيحيين المتواصلة، ودعوتهم وموعظتهم المستمرة خلال خمسة قرون إلا في كسب عدد قليل جدّا من بعض القبائل، فتمرّ موجة صغيرة على سطح بحر الحياة العربية الهادىء؛ نتيجة لتلك الجهود الحقيرة الضعيفة، التي قام بها دعاة المسيحية تتخللها حينا بعد حين موجات اكثر قوة وعمقا، يتجلى فيها تأثير الدّعوة اليهودية، ولكن موجات الوثنية العربية والأوهام الإسماعيلية كانت أعنف وأطغى، كان هذا التيار الجاهلي الوثني يضرب جدران الكعبة».

وقال في مكان آخر من هذا الكتاب:

«وكانت اوضاع العرب قبل البعثة المحمدية بعيدة عن كلّ

تغيير ديني، كما كانت بعيدة كلّ البعد عن وحدة الصفوف واجتماع الشمل، وكان دينهم يقوم على أساس وثنية سخيفة تعمقت جذورها، واصطدمت بصخرتها محاولات نصارى مصر والشام للإصلاح، فباءت بالفشل [١]».

وبهذه الحقيقة التاريخية التي تشبه لغزة علمية يشيد العالم الغربي الشهير Bosworth Smith في إيجاز ولكن في قوّة ووضوح:

«إن مؤرخا يمتاز من بين زملائه بالاتجاه الفلسفي يقرر بأنه لم تكن من بين الثورات التي تركت ارتسامات خالدة على تاريخ البشرية العمراني ـ ثورة أبعد من القياس والأمل عند العقل البشري من ظهور الاسلام في العرب، فقد كان حادثا لم يكن يتوقع حدوثه.

إننا مضطرون الى أن نسلم أن علم التاريخ ـ اذا كان هنالك شيء يستحق أن يسمى علم التاريخ ـ يبقى حائرا مرتبكا في العثور على حلقات الأسباب والعلل التي يجب عليه البحث عنها (بحكم منصبه ووظيفته) لحدوث هذا الانقلاب [٢]».

---

(١) « حياة محمد » لسير وليم موير Sir William Muir: Life of Mohamet. Vol. 1, (London, 1885) p. CCXXXVVI

(٢) Bosworthsmith: Mohammad and Mohammedanism, London, 1976.

الحاجة الى نبي مرسل

كانت الاوضاع الفاسدة والدرجة التي وصل اليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي، اكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلّمون من أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية اصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية إزالة أُنقاض جاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلّمين، وإقامة بناء شامخ مشيّد البنيان، واسع الأرجاء يسع العالم كله ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد «أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في النّاس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها [1]»، قضية اقتلاع جرثومة الفساد واستئصال شأفة الوثنية، واجتثاثها من جذورها، بحيث لا يبقى لها عين ولا أثر، وترسيخ عقيدة التوحيد في أعماق

---

(١) سورة الانعام ١٢٢

النفس الإنسانية ترسيخا، لا يتصور فوقه، وغرس ميل الى إرضاء الله وعبادته، وخدمة الإنسانية، والانتصار للحق، يتغلب على كلّ رغبة، ويقهر كل شهوة، ويجرف بكل مقاومة، وبالجملة الأخذ بحجز الإنسانية المنتحرة التي استجمعت قواها للوثوب في جحيم الدنيا والآخرة، والسلوك بها على طريق أولها سعادة يحظى بها العارفون المؤمنون، وآخرها جنة الخلد التي وعد المتقون، ولا تصوير أبلغ وأصدق من قول الله تعالى في معرض المنّ ببعثة محمدﷺ :

واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا، وكنتم على شفا حفرة من النّار فأنقذكم منها (١)﴾

انه لم يعرف في تاريخ البشرية كلّه عمل أدقّ وأعقد ، ومسئولية أعظم وأضخم، من مسئولية محمدﷺ كنبي مرسل، كما أنه لم يعرف غرس أثمر مثل غرسه، وسعيٌ تكلّل بالنجاح مثل سعيه، إنها أعجوبة العجائب، ومعجزة المعجزات، وقد شهد بذلك أديب ، وشاعر فرنسي في قوة وبلاغة، ووضوح وصراحة، يقول «لامارتين(٢)»:

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

(٢) لا مارتين (Lamartine) ١٧٩٠ - ١٨٦٩ م

«إن إنسانا لم ينهض أبدا ـ متطوعا أو غير متطوع ـ لمثل هذا الهدف الأسمى، لأن هذا الهدف كان فوق طاقة البشر، لقد كان تحطيم تلك الحواجز من الأوهام والاحلام، التي حالت بين الانسان وخالقه، والأخذ بيد الإنسان الى عتبة ربّه، وتحقيق عقيدة التوحيد النقية العقلية المعقولة، الساطعة في ضباب هذه الوثنية السائدة والالهة المادية، هو ذلك الهدف الأسمى والأعلى، انه لم يحمل إنسان مثل هذه المسئولية الضخمة، والمهمة العظيمة الجليلة، التي تخرج عن طوق البشر، بمثل هذه الوسائل الحقيرة الضئيلة . . .

الى أن قال:

«وأروع من ذلك أنه هزّ تلك الأصنام والآلهة، والأديان، والتصورات، والعقائد والنفوس الإنسانية هزة عنيفة، انه بنى على أساس ذلك الكتاب الذي يعتبر كل كلمة منه مصدر التشريع، قومية ربانية، ألّفت بين أفراد كل جيل وسلالة، ولغة، إن الميزة الخالدة لهذه الأمة، التي كوّنها لنا محمدﷺ أنها شديدة المقت والتقزز من الآلهة الباطلة، شديدة الحب لله الواحد الذي يتنزّه عن المادة وشوائبها، وهذا هو الحب الذي يدفعه الى الثأر والانتصاف من كل إهانة توجه الى الذات الالهية وهذا الحب يعتبر أساس سائر الفضائل عند هذه الامة.

«لقد كان اخضاع ثلث العالم لهذه العقيدة الجديدة من

مأثرته بلا ريب، لكن الأصح أنه كان معجزة العقل لا معجزة فرد واحد، إن الاعلان بعقيدة التوحيد في زمن كانت تئنّ فيه الدنيا تحت وطأة أصنام لا حصر لها، كان معجزة مستقلة بذاتها.

«وما لبث محمد ﷺ أن أعلن هذه العقيدة أمام الملأ، حتى أقفرت المعابد القديمة من عبّادها فلا داعي فيها ولا مجيب، وتكهرب ثلث العالم بحرارة الايمان [1].»

انما كان يحتاج هذا الانقلاب الشامل، وهذا البعث الجديد للانسانية الى رسالة جديدة، من أعظم الرسالات، والى رسول يرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدّين كله، وصدق الله العظيم:

﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكّين حتى تأتيهم البيّنة رسول من الله يتلو صحفا مطهّرة فيها كتب قيّمة ﴾ [2].

---

(١) لامارتين (Lamartine) في كتابه « Histoire de la Turquie » ج٢ ؛ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ (باريس ١٨٥٤) مقتبس من كتاب « Islam in the World » للدكتور « زكي علي » ص ١٥-١٦ ، (لاهور - ١٩٤٧ م) .

(٢) سورة البينة : ١

قبل البعثة

جزيرة العرب[1]

تحديد جزيرة العرب

ليس بين أشباه الجزر شبه جزيرة، تنيف على شبه جزيرة العرب في المساحة، فهي أكبر شبه جزيرة في العالم ويطلق علماء العرب عليها تجوزا اسم (جزيرة العرب)، تحيط بها المياه من أطرافها الثلاثة، وهي اقليم في الجنوب الغربي من آسيا، يحده من الشرق الخليج العربي المعروف عند اليونان باسم «الخليج الفارسي»، ومن الجنوب المحيط الهندي، أما حده الغربي فهو البحر الأحمر، كما يسمى في الخارطات الحديثة، المعروف باسم «الخليج العربي» Sinus Arabicus في

---

(١) اقتصرنا في هذا الفصل على ما يهم القارىء للسيرة النبوية معرفته من طبيعة هذه البلاد، ووضعها الجغرافي، ومكانتها في تاريخ الديانات والأمم، وطبائع أهلها، فلا يشق طريقه ـ في دراسة السيرة ـ منعزلاً عن البيئة التي أدت فيها رسالتها، جاهلاً لها كل الجهل، وهو مقتبس مما كتب عن الجزيرة قديماً وحديثاً؛ وقد استفدنا من كتاب «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي (١-٩) كثيراً، وموضع تفصيل أكثر في هذا الموضوع، هي الكتب التي ألفت في جغرافية جزيرة العرب، وصفتها وخططها، وتاريخ الحضارة العربية والأدب العربي، وهي كثيرة.

الخارطات اليونانية واللاتينية، وبـ «بحـر القلـزم» في الكتـب العربية القديمة، وحده الشمالي خط وهمي يمتد (في اصطـلاح العلماء العرب) من خليج العقبة حتى مصب شط العـرب في الخليج العربي.

وقد قسم الاسلاميون جزيرة العرب على خمسة أقسام:

١ ـ الحجاز، والحجاز يمتد من أيلة (العقبـة) الى اليمـن، وسمي حجازا ـ فيما يقولون ـ لأنه سلسلة جبال تفصل تهامه ـ وهي الارض المنخفضة على طول شاطىء البحر الأحمـر ـ عن نجد ٢ ـ وتهامة، وقد وصفناها، ٣ واليمن، ٤ ـ ونجد، وهو الجزء المرتفع الذي يمتد من جبـال الحجـاز، ويسـير شرقـا الى صحراء البحرين، وهو مرتفع فسيح، فيه صحراوات وجبال ٥ ـ والعروض، وهي تتصل بالبحرين شرقا، وبالحجـاز غربـا، وسميت بالعروض لاعتراضهـا بـين اليمـن ونجـد. وتسمـى باليمامة أيضا (١).

طبيعة الجزيرة، وأهلها:

وقد تغلبت الصحراوية على شبه الجزيرة، وظهـر الجفـاف عليه لعوامـل طبيعية وحـوادث جيلـوجية، وبسبـب الموقـع

---

(١) يرجح الرواة أقدم رواياتهم في هذا التقسيم إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنه.

الجغرافي، فكان ذلك كله سببا في قلة نفوس جزيرة العرب في الماضي وفي الحاضر، وفي سبب عدم نشوء مجتمعات حضرية، وحكومات مركزية كبيرة فيها، وفي سبب تفشي البداوة، وغلبة الطبيعة الأعرابية على أهلها، وبروز روح الفردية عند أهلها، وتقاتل القبائل بعضها مع بعض، لذلك انحصرت الحضارة في الاماكن الممطورة، والأماكن التي خرجت فيها المياه الجوفية عيونا وينابيع، أو قاربت المياه فيها سطح الارض فأمكن حفر الآبار فيها، فالحياة في جزيرة العرب، هي هبة الماء، فكانت القوافل تؤمه واليه كانت الطبيعة تقذف بالأعراب من كل مكان، وكانوا لا يرتبطون بالأرض ارتباط المزارع بارضه، فلا يستقرّون في مكان الا اذا وجدوا فيه الكلأ والماء، فاذا جف الكلأ، وقل الماء ارتحلوا الى مواضع جديدة.

ولذلك صارت حياتهم حياة قاسية، يتمثل مجتمعهم في القبيلة ، فالقبيلة هي الحكومة والقومية في نظر البدوي، وكانت هذه الحياة لا تعرف الراحة والاستقرار، ولا تعترف الا بمنطق القوة، حياة جلبت المشقة لأصحابها، والمشقّة لمن يقيم على مقربة منهم من الحضر، فهم في نزاع دائم فيما بينهم، ثم هم في نزاع مع الحضر.

ولكن العربي في ناحية أخرى مخلص، مطيع لتقاليد قبيلته، كريم يؤدي واجبات الضيافة، والمحالفة في الحروب، كما يؤدي

واجبات الصداقة، مخلصا في أدائها، بحسب ما رسمه العرف، وقد نطق به شعرهم، وزخر به أدبهم، من حكم وأمثال ومثل، وقيم، والعربي يحب المساواة، ويعشق الحرية، وهو رجل جاد، صارم، قل في مجتمعه الإسفاف، محافظ، متمسك بحياته، معتز بما كتب له، وان كانت حياة خشونة وصعوبة، والممعن في البداوة منهم ضعيف الايمان بدين، قل أن يؤمن إلا بتقاليد قبيلته، وما ورثه عن آبائه، مثله الأعلى في الأخلاق تركز فيما سماه المروءة، وتغنى بها في شعره وأدبه.

مراكز عمران وحضارة

وفي تلك المواضع التي توفرت فيها المياه، من مطر، وعيون، وآبار، ظهرت الحضارة على شكل قرى ومستوطنات، وأسواق موسمية، كان لها أثر خطير في حياة العرب عموما، ونشأت مجتمعات، لها طبيعة خاصة، وشخصية مستقلة، متأثرة بطبيعة الارض، وطبيعة الجو، وطبيعة الحِرَف والصّناعات، وطرق العيش التي يمارسها هذا المجتمع، فكان في مكة مجتمع خاص، له طابع متميز، وكذلك لأهل الحيرة ولأهل يثرب، وكان مجتمع اليمن من أغنى المجتمعات العربية وأرقاها، لأوضاعه الخاصة، وتاريخه الحضاري القديم، والسياسي الحديث، فتفوق في إنتاج الغلة، وتربية الحيوان، واستخراج المعادن، وأقام له قصورا وحصونا، واستورد آلات تساعده في

ممارسة الصناعات، وتيسير الحياة، من العراق وبلاد الشام، ومن افريقية.

طبقات العرب

إتفق الرواة وأهل الأخبار، او كادوا يتفقون على تقسيم العرب من حيث القِدَم الى طبقات، ١ ـ عرب بائدة، ٢ ـ وعرب عاربة، ٣ ـ وعرب مستعربة، واتفقوا، او كادوا يتفقون على تقسيم العرب، من حيث النّسب الى قسمين، قحطانية، منازلهم الاولى في اليمن، وعدنانية، منازلهم الاولى في الحجاز، كذلك يقسم النسّابون عدنان الى فرعين كبيرين، ربيعة ومضر، وكان بين القحطانية والعدنانية منافسة قديمة، كما كان بين ربيعة ومضر عداء شديد، ظل قرونا طويلة، واتفقوا على ان القحطانية هم الاصل، والعدنانية الفرع [١] منهم اخذوا العربية وبلسانهم تكلم أبناء اسماعيل بعد هجرتهم الى الحجاز، واسماعيل هو الجد الاكبر للعرب المستعربة، أي العرب العدنانيين، وللنسب عند العرب شأن كبير، وقد أقرّ به

---

(١) يرى بعض المحققين في هذا العصر أن العدنانيين هم أصل العرب، ولبها، والعرب العاربة الأولى، عكس ما يراه ويزعمه اكثر أهل الأخبار؛ ويقولون إن كل ما روي من هذا التقسيم لم يرو من النصوص الجاهلية؛ وإنما ورد متواتراً من الكتب المدونة في الإسلام، وأكثرها مبنية على أقوال الرواة المنتمين إلى الأصول القحطانية اليمنية، والله أعلم.

أهل الخِبْرة من العجم فقد قال رستم قائد قواد الفرس لأهل مجلسه حين استخفوا بالمغيرة بن شعبة رسول المسلمين، واحتقروه لرثاثة ثيابه، وتبذّله: «ويلكم . . إنّ العرب يستخفون بالثياب والمأكل، ويصونون الأحساب [1]».

وحدة اللغة

وكان خليقا بهذا القطر الواسع، الذي يكاد يكون شبه قارة، ان تتعدد فيه اللغات وتتنوع، لبعد المسافة بين مواطن القبائل وبين جنوبي الجزيرة وشماليها، وقلة اتصال أهل الجنوب بأهل الشمال، وأهل الشرق بأهل الغرب، وبحكم العصبية القبلية والسّلالية السائدة عليهم، وتأثّر القبائل المتاخمة للروم والفرس بلغاتهم، وقد كثر عدد اللغات في أوربا الوسطى، وفي شبه القارة الهندية، كثرة هائلة، ولا يزال عدد اللغات المعترف بها في دستور الهند يبلغ ١٥ لغة اقليمية، تختلف فيما بينها اختلاف لغات مستقلة، قائمة بذاتها، حتى يحتاج أبناؤها للتفاهم الى ترجمان، أو لغة أجنبية كالانجليزية.

ولكن امتازت الجزيرة العربية على سعتها، وترامي أطرافها وتشتت قبائلها، بوحدة اللغة، كانت ولا تزال أداة تفاهم والتقاء لجميع أبناء هذه الجزيرة، حضرهم وبدوهم والقحطانيّ

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير، ج/ ٧، ص/ ٤٠ .

منهم والعدناني[٣]، وهي اللغة العربية على اختلاف لهجاتها، وفروقها الاقليمية التي تقتضيها طبيعة اللغات وفلسفتها، وطبيعة الأقاليم والأجواء، وطبيعة الانعزال والانطواء، فاللغات تختلف في لهجاتها بمسافات، قد تطول وقد تقتصر، وكانت هذه الوحدة اللغوية التي امتازت بها هذه الجزيرة من أهم أسباب تيسير مهمة الدعوة الإسلامية، وسرعة انتشار الإسلام فيها، ومخاطبة الوحدات العربية المنتشرة، في لغة واحدة، هي اللغة العربية الفصحى، وبكتاب واحد هو القرآن العربي المبين.

جزيرة العرب في تاريخ الأمم والديانات

قد تبين من الآثار العتيقة أن بلاد العرب كانت مأهولة بالناس، منذ العصور «الباليوثية» Palaeolithic أي العهود الحجرية المتقدمة، ومن أقدم الآثار التي عثر عليها آثار من أيام العصور المعروفة بـ Chellian أي الادوار الأولى من ادوار حضارة العصر الحجري وقد جاء ذكر العرب في مواضع من اسفار التوراة، تشرح علاقات العبرانيين بالعرب، وما ذكر في التوراة عن العرب، يرجع تاريخه الى ما بين ٧٥٠، والقرن الثاني قبل المسيح، وقد وردت في التلمود اشارات الى العرب كذلك.

وفي كتب «جوسفوس فلافيوس» الذي عاش بين سنة ٣٧ و ١٠٠ للمسيح تقريبا معلومات ثمينة عن العرب، واخبار

مفصّلة عن العـرب والأنبـاط ، ووردت في الكتـب اليونـانية واللاتينية المؤلفة قبل الاسلام ـ على ما فيها من خطأ ـ أخبـار تاريخية جغرافية كبـيرة الخطـورة، ووردت فيهـا أسماء قبائـل عربية كثيرة، لولاها لم نعرف عنها شيئا، وتعد الاسكندرية من اهم المراكز التي كانت تُعنَى عناية خاصّة بجمع الأخبـار عن بلاد العرب، وعادات سكانها، وما ينتج فيها لتقديمها الى من يرغب فيها من تجار البحر المتوسط.

ومن أقدم من ذكر العرب من اليونانيين «أخيلس» (٥٢٥ ـ ٤٥٦ قبل المسيح) و«هيرودوتس» (٤٨٠ ـ ٤٢٥ ق ـ م) وهناك طائفة من الكتاب الذين تركوا لنا آثارا وردت فيها إشارات الى العرب، والبـلاد العـربية، منهـم بطليمـوس الـذي عاش في الإسكندرية في القرن الثاني للمسيح، وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات، منها «كتاب المجسطي» المعروف في اللغة العربية

وفي الموارد النصرانية مادة غزيرة عن تاريخ العرب في الجاهلية والإسلام، وان كانت خاصة بما له صلة بالنصرانية وانتشارها، ومراكز نشاطها.

والعرب في التوراة، هم الأعـراب، أي سكان البـوادي، لذلك فان النعـوت الـواردة فيهـا عنهـم، هي نعـوت لعـرب البادية، وكذلك في كتـب اليونـان، والرومـان، والأنـاجيل، نعوت قصدت بها الأعراب، وقـد كانـوا يغـيرون على حدود

امبراطوريتي الرّومان واليونان، ويسلبون القوافل، ويأخذون الأتاوات من التجار والمسافرين، وقد وصف ديدوروس الصقلي العرب بأنهم يعشقون الحرية، فيلتحفون السماء ويعتقدون بالارادة الحرة، والحريَّة المطلقة، وبذلك يصفهم هيرودوتس، فيقول: إنهم يقاومون اي قوة تحاول استرقاقهم، واستذلالهم ، فالحرية عند العرب ، هي اكبر شعار وميزة يمتاز بها العرب في نظر الكتبة اليونان، واللاّتين.

وكذلك الصّلات بين العرب والهند، ومعرفة احداهما بالأخرى، والتبادل التجاري والثقافي بين البلدين قديم ووثيق، وسابق على الاسلام والفتح الاسلامي بكثير، وكانت الهند من أعرف الاقطار الاسيوية بالعرب، وأقربها اليها، لعوامل جغرافية، واقتصادية، كما تدل على ذلك المصادر الهندية والعربية، والاكتشافات الحديثة [١].

صلة الجزيرة بالنبوءات ، والأديان السماوية

والجزيرة العربية مهد نبوات كثيرة، ومبعث عدد من الأنبياء وقد جاء في القرآن : ﴿ واذكر أخا عاد اذ أنذر قومه بالأحقاف، وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا الا الله اني

---

(١) اقرأ للتفصيل كتاب « الصّلات بين العرب والهند . للعلامة السيد سليمان الندوي ، وهو أحسن وأوسع ما كتب في هذا الموضوع .

أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ﴾ [1].

والمراد به نبي الله هود الذي أرسل الى عاد، وعاد من العرب البائدة على قول المؤرخين، وكان موطنها «الأحقاف»، والحقف كثيب مرتفع من الرمال، وكانت منازل عاد على المرتفعات المتفرقة في جنوب الجزيرة، وهي الآن تقع في الجنوب الغربي من الربع الخالي، قريبا من «حضرموت»، لا عمران فيها ولا حياة، وكانت جنات ومنتزهات، معمورة بأقوام جبابرة يسمون قوم عاد، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية جلبت عليهم طوفانا من الرمال [2].

وقد دلت الآية على أن هودا لم يكن هو الأول أو الآخِر من الأنبياء الذين بعثوا في هذه البلاد، بل سبقه أنبياء ولحقوا به، فقد قال: ﴿ وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ﴾.

وكذلك صالح نبي ثمود، كان مبعثه في جزيرة العرب، فان ثمودا كانت تسكن الحجر، الذي بين الحجاز وتبوك، وقد ولد اسماعيل في مكة، وعاش فيها ومات، واذا صح ان مدين تدخل في جزيرة العرب في اطارها الواسع، فقد كان شعيب الذي أرسل اليها من العرب فقد كانت مدين في اطراف أرض

---

(١) سورة الأحقاف ٢١ .

(٢) اقرأ سورة الحاقة آية ٥ـ٧ .

العرب من ناحية الشام، قال أبو الفداء : «كان أهل مدين قوماً عربا، يسكنون مدينتهم مدين التي هي قريبة من أرض معان من اطراف الشام، مما يلي من ناحية الحجاز، قريبا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة [1].

وكانت أرض العرب مأوى لكثير من أصحاب الرسالات والدعوات، الذين ضاقت عليهم الارض بمارحبت، وتنكرت لهم أوطانهم، فلم يجدوا مأوى الا في هذه الأرض البعيدة عن نفوذ الملوك الجبارين ، والرؤساء الظالمين، كما كان الشأن مع ابراهيم في مكة، وموسى في مدين، هذا عدا الديانات التي لقيت اضطهادا في مهدها، فأوت الى مواطن في الجزيرة، فهاجر عدد كبير من اليهود، حين لقوا اضطهادا من الرومان الى أرض اليمن، ومدينة يثرب، ولجأت النصرانية الى ارض نجران فرارا من حكم القياصرة الذين اضطهدوها [2].

اسماعيل في مكة

قصد سيدنا ابراهيم مكة، وهي في واد محصور بين جبال جرداء، ليس فيه ما يعيش عليه الناس، من ماء، وزرع،

(١) قصص الأنبياء للشيخ عبدالوهاب النجار : ص ٢٧٥ ؛ ج١ .

(٢) استفدنا في هذا البحث الأخير من كتاب : « خاتم النبيين ﷺ » للعلامة محمد أبو زهرة ؛ ج١ ، فصل « أرض النبوة الأولى هي أرض العرب».

وميرة، ومعه زوجه هاجر، وولده اسماعيل، فرارا من الـوثنية المنتشرة في العالم، ورغبة في تأسيس مركز يعبد فيه الله، ويدعو الناس اليه، ويكون منـارا للهـدى، ومثابـة للنـاس، ونقطـة انطلاق لدعوة التوحيد، والحنيفية السمحـة والدين الخالص[1] .

تقبل الله هذا العمل الخالص ، وبارك في هذا المكان واجرى الله الماء لهذه الأسرة المباركة الصغيرة، المؤلفة من أم وابن وقد تركهما ابـراهيم في هذا المكان القاحـل المنعـزل عن العالـم - وكان بئر زمزم، وبارك الله في هذا الماء.

وكان إبراهيم لا يزال في جهاد، ودعوة، وانتقال من مكان الى مكان، يدعو الناس الى الله، ويعود الى مكة، فيقضي فيها أياما، ثم يغادرها.

ونشأ اسماعيل، وأراد إبراهيم ذبـح ابنـه اسماعيل، وهـو غلام يسعى ، ايثارا لحب الله تعالى على حبه، وتحقيقا لما رآه في المنام، واستسلم إسماعيل لهذا الأمر ورضي به، وفداه الله بذبح عظيم[2]، وسلمه ليكون عون أبيه في الدعوة الى الله، وليكون جدّ آخِر نبي وأفضل الرسل، وجدّ أمّة تضطلع بأعباء الدعوة

(١) القرآن الكريم سورة البقرة وسورة ابراهيم .
(٢) القرآن الكريم ، سورة الصافات .

الى الله والجهاد في سبيلها.

وعاد ابراهيم الى مكة، واشترك الاب والابن في بناء بيت الله، وكان دعاؤهما أن يتقبل الله هذا البيت ويبارك فيه، وأن يعيشا على الاسلام، ويموتا عليه، ولا ينقطع بموتهما بل ترثه ذريته، فتحتضنه، وتغار عليه، وتدعو اليه، وتؤثره على كل عزيز، فتنتشر هذه الدعوة في العالم، وأن يبعث الله فيها نبيا من ذريته، يجدد دعوة جده ابراهيم، ويتم ما بدأه.

«واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، ربنا تقبّل منا إنّك أنت السّميع العليم، ربّنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمّة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا وتب علينا إنّك أنت التّوّاب الرّحيم، ربّنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكّيهم، إنّك أنت العزيز الحكيم» . [1].

ودعا ابراهيم أن يظل هذا البيت آمنا دائما، وأن يسلم الله أولاده من عبادة الأصنام، التي لم يكن هو أشد كراهة لشيء، ولا أكثر تقزّزا، ولا أخوف لشيء على ذريته منها.

فقد رأى مصير الأمم ومصير الأسر، بعد الانبياء الذين بعثوا فيها، وبعد الجهود الجبارة والدعوات القوية التي قاموا بها،

---

(١) سورة البقرة ١٢٧ - ١٢٩ .

وكيف أصبحت بعد مفارقتهم للدنيا فريسة الشياطين المفسدين، والدّجالين المضلّلين من عبّاد الاوثان ودعاة الجاهلية.

وتمنى ان يكون اولاده وأولاد أولاده على اتصال دائم بدعوته وجهاده، يذكرون قصة محاربته للوثنية، وخلعه للأوثان، وتحطيمه لها، ومصارمته للوالد السادن لبيت الاصنام، وفراقه للأهل والوطن، وأن يذكروا سر اختيار هذا المكان القاحل، الذي لا يصلح للزرع، وازدهار المدنية، ويعرفوا سر إيثاره على المدن الكبيرة، والأمكنة الصالحة للفلاحة والتجارة، وأسباب العيش، وأن يعوض عن ذلك بأن يعطف عليهم القلوب ويهوي اليهم الأفئدة، ويسوق اليهم الرزق الكريم، ويجبي اليهم ثمرات كل شيء.

« وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا البلد آمناً واجنبني وبنيّ أن نعبد الأصنام، ربّ إنّهنّ أضْلَلْن كثيراً من النّاس، فمن تبعني فإنّه منّي، ومن عصاني فإنّك غفور رحيم، ربّنا إنّي أسكنت من ذرّيتي بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرّم، ربّنا ليقيموا الصّلاة فاجعل أفئدة من النّاس تهوي إليهم، وأرزقهم من الثّمراتِ لعلّهم يشكرون[1] ».

---

(١) سورة ابراهيم ٣٥ - ٣٧.

قبيلة قريش :

وتحقق كلّ ذلك ، فبارك الله في ذريتهما ، وتوسعت الأسرة الإبراهيمية العربية ، فقد صاهر إسماعيل جرهم[١] - وكانوا من العرب العاربة - وبارك الله في ذرية إسماعيل ، حتى كان منه عدنان ، وتناقلت العرب العدنانية أنسابها ، وهو أكثر الأنساب العربية صحة وحفظاً وتداولاً .

وكثر أولاد عدنان ، اشتهر منهم معد بن عدنان ، ونبغ في أولاده مضر ، ونبغ من أولاده فهر بن مالك .

وسمي أولاد فهر بن مالك بن النضر « قريشاً » وغلب هذا الاسم على جميع الأسماء فاشتهرت هذه القبيلة بـ « قريش » وأقر أهل العرب كلهم بعلو نسب قريش ، والسيادة ، وفصاحة اللغة ، ونصاعة البيان ، وكرم الأخلاق ، والشجاعة ، والفتوة ، وذهب ذلك مثلاً لا يقبل نقاشاً ولا جدلاً[٢] .

---

(١) قيل : إن جرهم كانت اولى القبائل العربية التي أقامت بمكة ، وقد استهواها للمقام هناك وجود ماء لا ينقطع ، وجاء في بعض الروايات أنها كانت هناك قبل أن يترك ابراهيم زوجه هاجر وابنه اسماعيل في هذا الوادي .

(٢) أقرأ للتفصيل سيرة أبن هشام ؛ ق١ ، وكتب السيرة والأنساب -

قصيّ بن كلاب وأولاده :

ومن أولاد فهر قصيّ بن كلاب .

وظلّ أمر مكة لجرهم ، حتى غلبهم على ذلك خزاعة ، وكانت سدانة البيت فيهم ، إلى أن عظم شأن قصي بن كلاب ، وظهر فضله فانتقلت إليه ، وانضمت له قريش ، وأجلوا خزاعة عن مكة وتم له أمر مكة ، وكان سيداً مطاعاً ، كانت إليه حجابة البيت ، وعنده مفاتيحه فلا يدخل أحد إلا باذنه ، وسقاية زمزم ، والرفادة[1] ، والندوة التي يجتمعون فيها للمشورة ، والرأي واللواء في الحرب ، فحاز شرف مكة كله .

وتنّبل في أولاده عبد مناف ، وكان هاشم أكبر أبناء والده عبد مناف ، وكان كبير قومه ، وكانت عنده السقاية والرفادة ، وهو والد عبد المطلب : جد الرسول ﷺ ، وقد ولي عبد المطلب السقاية والرفادة بعد عمه المطلب بن عبد مناف ، وشرف في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم[2] .

---

(١) الرفادة : طعام كانت قريش تجمعه كل عام لأهل الموسم ؛ ويقولون : هم أضياف الله تعالى .

(٢) أقرأ للتفصيل السيرة النبوية لإبن هشام ، في ١ (أولاد عدنان) .

بنو هاشم :

وكان بنو هاشم واسطة العقد في قريش ، واذا قرأنا ما حفظه التاريخ وكتب السير من أخبارهم وأقوالهم ـ وهو قليل من كثير جداً ـ استدللنا به على ما كان يمتاز به هؤلاء من مشاعر الإنسانية الكريمة ، والاعتدال في كلّ شيء ، ورجاحة العقل ، وقوة الايمان بما للبيت من مكانة عند الله ، والبعد عن الظلم ، ومكابرة الحقّ ، وعلو الهمّة ، والعطف على الضعيف والمظلوم ، والسخاء والشجاعة ، وما تشتمل عليه كلمة « الفروسية » عند العرب ، من معان كريمة وخلال حميدة ، السيرة التي تليق بأجداد الرسول الكريم ، ﷺ ، وتتفق مع ما كان يفضله ويدعو إليه ، من مكارم الأخلاق ، غير أنهم عاشوا في زمن الفترة ، وسايروا أبناء قومهم ، في عقائد الجاهلية وعباداتها .

الوثنية في مكة : تاريخها ومصادرها :

وبقيت قريش متمسكة بدين إبراهيم الخليل وبدين جدها إسماعيل متمسكة بالتوحيد ، وبعبادة الله وحده ، حتى كان عمرو بن لحيّ الخزاعي ، فكان أوّل من غير دين إسماعيل ، فنصب الأوثان ، وأحدث في الحيوانات من التعظيم والتسييب والتحريم ما لم يأذن به الله ، ولم تعرفه شريعة إبراهيم ، وكان قد خرج من مكة إلى الشام ، فرأى أهلها يعبدون الأصنام ، ففتن بها ، وجلب بعضها إلى مكة ،

فنصبها ، وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها[1] ، ولا غرابة في أنه مرّ في طريقه إلى الشام من « بتراء » التي ضبطها المؤرخون والجغرافيون القدامى بـ « بطراء » و « بطرة » ، وهي تقع الآن في جنوب المملكة الأردنية الهاشمية ، وكانت القصبة العربية الصخرية المشهورة عند اليونان والرومان ، قيل إنّه أنشأها الأنباط ، وهم من أصل عربي ، قبل آلاف من السنين ، وقد بلغوا في المدنية والصناعة شأواً بعيداً ، وكان بينهم شعراء وأطباء وتجار كبار ، وكانوا يرحلون إلى مصر والشام وبلاد الفرات وروما ، ويجوز أن يكونوا يمرون بالحجاز في طريقهم إلى وادي الفرات ، وكانوا مع ذلك منغمسين في الوثنية السافرة ، ينحتون الأصنام ويعبدونها ، قيل إن « اللات » التي هي في مقدمة الأصنام التي كان يعبدها أهل شمالي الحجاز ، استوردوها من « بتراء » وجعلوها في أصنامهم الرئيسية[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق١ ، ص ٧٦ ـ ٧٧ ، وقد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال : « رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار ، كان أول من سيب السوائب » ؛ رواه البخاري ومسلم وأحمد ؛ وفي حديث رواه محمد بن إسحاق : أنه كان أول من غيرّ دين اسماعيل ؛ فنصب الأوثان ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، ووصل الوصيلة ، وحمى الحامي ، (راجع السيرة النبوية لابن كثير ، ج١ ؛ ص ٦٤ ـ ٦٥) .

(٢) وقد زارها المؤلف ، ولاحظ كثرة المعابد الوثنية المحفورة في الجبل في ١٩ /٨ /١٩٧٣ م ، أثناء جولته في غرب آسيا ؛ عضواً في وفد لرابطة العالم الإسلامي في مكة .

ويؤيّد ذلك ما جاء في كتـاب « تـاريخ سوريا » لمؤلفـه « فيليب حتّي » P. K. Hitti حول المناطق النبطية أي شرقي الأردن حالياً ، يقول :

« وكان زعيم هؤلاء الآلهـة « ذو الشرا » ، وكان يشبـه عموداً مستطيلاً أو حجراً أسود مربعاً . . . وكانت « اللات » الإلهة الخاصـة للعـرب متصلـة بـ « ذي الشرا » ومـن الإلهـات النبطية الأخرى التي ورد ذكرها في كتابة من الكتابات الأثرية ، هي « مناة » و « العزّى » وقد ورد ذكر « هبل » أيضاً في تلك الكتابات[1] » .

ولا يعزين عن البـال أن هذا العصر كان عصر انتشـار الوثنيات حول الجزيرة العربية ، ومنها حوض البحـر الأبيض المتوسط ، فلم تظهر دعوة المسيح وحواريه بعد ، التي عارضت الوثنية ، وقلّلت من حدّتها ونشاطها ، أما اليهودية فقد كانت ديانة سلالية محصورة في بني إسرائيل ، لـم تؤذن لدعوة غير بني إسرائيل إلى التوحيد .

ويؤيد ذلك ما جاء في كتاب « العرب قبل محمد » لمؤلفه « De Lacy O'Leary » .

« ولا يبعد عن الصحة أن يقال : إن عبادة التماثيل إنما

(١) P. K. Hitto : History of syria. (London, 1951) p. 382-83,

كانت من « منح » سوريا وفدت إلى الجزيرة عن طريق التقاليد الشامية اليونانية المنتشرة في سوريا ، ولعلّها لم تكن سائدة في سائر أنحاء العرب[١] » .

وكذلك كانت الوثنية منتشرة في وادي الفرات وشرقي الجزيرة العربية ، وكان بين الجزيرة وهذه المنطقة اتصالات تجارية وعلاقات ودية ، فلا يستبعد أن يكون لهذه المنطقة نصيب في انتشار الوثنية في الجزيرة ، وقد صرح « Georges Roux » في كتابه « العراق القديم » بأن الكتابات الأثرية في العراق تدل على أن الوثنية كانت منتشرة فيها في القرن الثالث المسيحي فيما بعد ، وهي كانت مسكناً للآلهة ، منها أجنبية ومنها محلية[٢] .

وقيل إن عبادة الأصنام نشأت في قريش تدريجياً ، فقد توصلوا من تعظيم حجارة الحرم التي كانوا يحملونها معهم إذا ظعنوا من مكة ، تعظيماً للحرم ، ومحافظة على ذكراه ، إلى أن صاروا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ، حتى خلف الخلوف ، فنسوا ما كانوا عليه ، وعبدوا الأوثان ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ، وفيهم ـ على ذلك ـ بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من

(١) «Arabia Before Mohammad» (London, 1927) p. 196-97

(٢) راجع للتفصيل Ancient Iraq, (1972) p, 283-84,

تعظيم البيت والطواف به والحج والعمرة[1] .

وتاريخ الأمم والديانات في الانتقال من مرحلة إلى مرحلة ، ومن الوسائل إلى الغايات ، والمقدمات إلى النتائج ، يؤيد ما ذهب إليه هؤلاء من تعليل بدء الوثنية في العرب بصفة عامة وفي قريش بصفة خاصة ، وتاريخ بعض الشعوب الإسلامية وطوائفها في التدرج إلى عبادة الصّور والضّرائح ومغالاتها في التعظيم والتقديس، يؤيد كذلك ، لذلك ألحّت الشريعة الإسلامية على سد الذرائع المؤدية إلى الشرك والغلوّ في الأشخاص والآثار[2] .

(١) راجع للتفصيل في أسماء الأصنام وأخبارها ومواطنها وأسباب اتخاذها كتاب « الأصنام » للكلبي و « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » تأليف العلامة السيد محمود شكري الآلوسي ، الجزء الثاني ؛ (ذكر شيء من أخبار الأصنام وسبب اتخاذ العرب لها) ص ٢٠٠ـ٢١٥ .

(٢) ودلائله في الشريعة والأحاديث الصحيحة أكثر من أن تحصى ، منها الحديث المشهور « لا تتخذوا قبري عيداً » وحديث « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد » وحديث « لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح بن مريم » وغيرها ، وهي حكمة النهي عن تصوير ذي روح في الإسلام والتشديد فيه .

وقد تدرجت أمم في القديم من الحب والتعظيم إلى التصوير ونحت التماثيل ، ومنها إلى العبادة السافرة ، قال ابن كثير في تفسير آية « وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » عن محمد بن قيس قال : كانوا قوماً صالحين بين آدم ونوح وكان لهم اتباع يقتدون بهم ، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين يقتدون بهم : « لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة اذا ذكرناهم ؛ فصوروهم ، فلما ماتوا وجاء آخرون دب اليهم إبليس ، فقال : إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر ، فعبدوهم .

حادثة الفيل :

ووقع حادث عظيم لم يحدث مثله في تاريخ العـرب ، وكان دليلاً على ظهور حادث أكبر ، وعلى أن الله يريد بالعرب خيراً وأن للكعبة شأنـاً ليس لغيرهـا من بيوت الـدنيا ومـراكز العبادة ، وقد نيطت بها رسالة ودور في تاريخ الدّيانات ومصير الإنسانية ، لا بد أن تؤديه وأن تقوم به .

إيمان قريش بمكانة البيت عند الله :

ويتجلى هذا الإيمان بأن لهذا البيت مكانة عند الله ، وأنه حاميه ومانعه ، في حديث دار بين عبدالمطلب ـ جدّ الرّسـول وسيّد قريش ـ و « أبرهة » ـ ملك الحبشـة ـ وقـد أصـاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه ، وقد أعظمـه أبرهـة ، ونـزل له عن سريره ، فأجلسـه معـه ، وسألـه عن حاجتـه ، فقال : حاجتي أن يرد عليّ الملك مائتي بعير أصابها لي .

فلما قال له ذلك ، زهـد فيه الملك ، وتفادتـه عينـه ، وقال : أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك ، وتتـرك بيتـا هو دينك ودين آبائك ، قد جئت لهدمه ، لا تكلمني فيه ؟!

قال له عبدالمطلب : إنّي أنا ربّ الإبل ، وإنّ للبيت ربّا سيمنعه .

قال : ما كان ليمتنع مني .

قال : أنت وذاك[1] .

إذن فلا سلطان عليها لزاحف ، ولا سبيل إليها لمهاجم ، وإنّ الله بالغ أمره في بيته ودينه .

وكان من خبره أن أبرهة الأشرم عامل النجاشي (ملك الحبشة) على اليمن بنى بـ « صنعاء » كنيسة عظيمة ، سماها « القليس » وأراد أن يصرف اليها حج العرب ، وغار على الكعبة أن تكون مثابة للناس ، يشدّون إليها الرحال ، ويأتون من كل فج عميق ، وأراد أن يكون هذا المكان لكنيسته .

وعزّ ذلك على العرب الذين رضعوا بلبان حب الكعبة وتعظيمها ، لا يعدلون بها بيتاً ، ولا يرون عنها بديلاً ، وشغلهم ذلك ، وتحدّثوا به ، فخرج كناني ، ودخل الكنيسة ، وأحدث فيها ، فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه[2] .

---

(١) سيرة أبن هشام ق ١ ، ص ٤٩ ـ ٥٠ .

(٢) يمكن أن يكون السبب في حملة ابرهة أهم وأوسع من حادث أريد به تنجيس معبد ، وأن يكون قصد أبرهة فتح مكة لربط اليمن ببلاد الشام ، وتوسيع حكم النصرانية ، ونفوذها في الجزيرة العربية ، وكان ذلك في صالح الروم والحبش ، وهم نصارى على السواء ، وكانت هذه الخطة ا مهما كانت الدوافع اليها ، تؤدي إلى خراب البيت الذي قدر له أن يكون هدى ومثابة=

ثم سار وخرج معه بالفيل ، وتسامعت به العرب ، فنزل عليهم كالصّاعقة ، وأعظموه ، وفزعوا له ، وأرادوا كفه عن ذلك ومحاربته ، فرأوا أن لا طاقة لهم بأبرهة وجنوده فوكلوا الأمر إلى الله تعالى ، وكانوا على ثقة بأن للبيت ربًّا سيحميه .

وانحازت قريش إلى شعف الجبال والشعاب ، تخوفاً عليهم من معرة الجيش ، ينظرون ماذا سيصنع الله بمن اعتدى على حرمته ، وقام عبدالمطلب ، ومعه نفر من قريش ، فأخذوا بحلقة باب الكعبة ، يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده .

وأصبح أبرهة متهيئاً لدخول مكة ، وهو مجمع لهدم البيت ، وهيأ فيله وكان اسم الفيل « محموداً » وبرك الفيل في طريق مكة ، وضربوا الفيل ليقوم ، فأبى ، ووجهوه راجعاً إلى اليمن ، فقام يهرول .

وهنالك أرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر ، مع كل طائر منها أحجار يحملها ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وخرج أهل الحبشة هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا ،

= للناس ، ومصدر النبوة الأخيرة ؛ وتجريد مكة من سيادتها الروحية ، وذلك ما لا يرضاه الله ، ويجوز أن يكون الروم هم المحرضين لأبرهة على فتح مكة ، لمآربهم السياسية ، ومنها إضعاف نفوذ الفرس المنافس الوحيد للنفوذ الرومي على بلاد العرب .

وخرجوا يتساقطون بكل طريق ، وأصيب أبرهة في جسده ، وخرجوا به معهم ، تسقط أنامله ، أنملة أنملة ، حتى قدموا به صنعاء » فمات شرميتة[1] .

وذلك ما حكاه القرآن ، يقول :

« ألم تر كيف فعل ربّك بأصحاب الفيل ، ألم يجعل كيدهم في تضليل ، وأرسل عليهم طيراً أبابيل[2] ، ترميهم بحجارة من سجّيل[3] ، فجعلهم كعصف مأكول[4] » .

وقع حادثة الفيل ودلالتها :

فلما ردّ الله الحبشة من مكة واصابهم ما اصاب ، اعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم اهل الله ، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وازدادوا تعظيما للبيت، وإيمانا بمكانه عند الله [5] .

وكان ذلك آية من الله، ومقدّمة لبعثة نبي يبعث في مكة، ويطهر الكعبة من الأوثان، ويعيد اليها ما كان لها من رفعة وشأن، وتكون لدينه صلة عميقة دائمة بهذا البيت، ودل هذا

---

(١) اقرأ لتفصيل حادثة الفيل ، سيرة ابن هشام ، ق١ ؛ ص ٤٣ ـ ٥٧ .

(٢) الأبابيل : الجماعات .

(٣) السجيل : الشديد الصلب .

(٤) سورة الفيل ١ـ٥ .

(٥) سيرة أبن هشام ؛ ق ١ ، ص ٥٧ .

الحادث على قرب ظهور هذا النبي وبعثته.

واستعظم العرب هذا الحادث، وكان جديرا بذلك، فأرخوا به، وقالوا وقـع هذا في عام الفيل وولـد فلان في عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل يصادف سنة ٥٧٠ م.

مَكّة زمَن البعْثة وَعِندظُهُورالإسْلام

مكّة مدينة لا قرية

يتخيّل كثير من الناس ممن لا علم لهم بأحوال العصر الذي كانت فيه البعثة ، وليس لهم اطلاع واسع على أيام العرب وأخبارهم وشعرهم وعوائدهم ، أن مكة كانت قرية صغيرة . وكانت الحياة فيها في طور الطفولة العقلية والاجتماعية والحضارية ، وكانت أشبه بمسكن للقبائل ، فيه مضارب من الشعر ، تسود فيها حياة الخيام ، بين معاطن الإبل ، ومرابض الغنم ومرابط الخيل ، متناثرة في حواشي الوادي وشعاب الجبال ، يتبلغ أهلها ببلغة من العيش ، ويتعيشون على الخبز القفار أو لحم الإبل الذي لم يحسن شواؤه ولم يكمل استواؤه ، ويلبسون اللباس الخشن الذي يتخذونه من أصواف الإبل وأوبارها ، لا شأن لهم بتوسع في المطاعم والمشارب ، أو تأنق في اللباس ، أو لين من العيش ، ورقة في الشعور ، وتوسع في الخيال .

إن هذه الصورة القاتمة لمكة لا تتفق مع الواقع التاريخي

ومع ما تناثر في كتب التاريخ ودواوين الأدب والشعر الجاهلي ، من وصف مكة وما كان عليه أبناؤها ، في منتصف القرن السادس المسيحي من آداب وأعراف وعادات ومظاهر كثيرة في الحياة ، قد انتقلت من طور بدائي بدوي إلى طور بدائي مدني ، ولا تتفق مع ما وصفها القرآن بنعوت وأسماء لا تليق بقرية صغيرة ، وحياة بدوية ، فقد سماها « أمّ القرى » في قوله : « وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، لتنذر أمّ القرى ، ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير[1] » وقوله : « والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين[2] » . وقوله : « لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد[3] » .

والحقّ أن مكة قد انتقلت في منتصف القرن الخامس الميلادي ، من طور البداوة إلى طور الحضارة ، وإن كانت حضارة بالمعنى المحدود ، وخضعت لنظام يقوم على اتفاق

(١) سورة الشوري ٧ .
(٢) سورة التين ١-٣ .
(٣) سورة البلد ١-٢ .
(٤) سورة البلد ١-٢ .
ولا ينافي ذلك قوله تعالى : « وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (سورة الزخرف- ٣١) ، فكثيراً ما يطلق لفظ القرية على البلد قال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » ، تفسير ابن كثير ؛ ج٦ ، ص ٢٢٥ ، طبع دار الأندلس) .

تطوعي وتفاهم جماعي وتوزع للمسؤوليات والمهام ، وكان ذلك على يد قصيّ بن كلاب جد الرسول الخامس ، وكان عمران مكة بطبيعة الحال محصوراً في نطاق ضيّق ، وكانت مكة بين الأخشبين ، وهو جبل « أبي قبيس » المشرف على الصفا ، والآخر الجبل الذي يقال له « الأحمر » ، وكان يسمى في الجاهلية بـ « الأعرف » ، وهو الجبل المشرف وجهه على قعيقعان ، إلا أن وجود البيت في هذا الوادي ، وما كان يتمتع به جيرانه وسدنته بصفة خاصة وسكان الوادي بصفة عامة ، من شرف ومكانة وأمن ، كان مغرياً لكثير من القبائل العربية ، وخصوصاً المجاورة ، للانتقال إلى جوار البيت ، فازداد العمران ، وتوسع النطاق على مر الزمان، وحلت البيوت المرصوفة بالحجر ، أو المبنية بالطين والحجر محل الخيام والأخبية ، وانطلقت الحركة العمرانية مما يلي المسجد الحرام إلى بطحاء مكة في أعلاها وأسفلها ، وكانوا يبنونها أول الأمر بحيث لا تستوي على سقوف مربعة احتراماً للبيت ثم هان عليهم ذلك بالتدريج ، فلم يروا بذلك بأساً ، وتوسعوا فيه ، إلا أنهّم كانوا لا يرفعون بيوتهم عن الكعبة .

وزعم بعض أهل الأخبار أن أهل مكة كانوا يبنون بيوتهم مدورة تعظيماً للكعبة ، وأول من بنى بيتاً مربعاً « حميد ابن زهير » ، فاستنكرته قريش .

وكانت بيوت أثريائها وساداتها مقامة بالحجر ، وبها

عدد من الغرف ، ولها بابان متقابلان ، ليتمكن النساء من الخروج من الباب الآخر ، عند وجود ضيوف في الدار .

نشأة مكّة الجديدة وصاحبها :

كانت نشأة مكة الجديدة على يد قصيّ بن كلاب ، فهو الذي جمع قريشاً ، وأسكنهم مكة ، وخط لهم الرباع[1] ، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم ، واختط بنوه من بعده مكة رباعاً ، فكانوا يقطنونها ، ويبيعونها وأقامت على ذلك قريش ، ليس بينهم اختلاف ولا تنازع .

تنظيم حياة وتوزيع مناصب ومسؤليات :

تملّك قصي على قومه وأهل مكة ، وكانت إليه الحجابة ، والسقاية[2] ، والرفادة [3] ، والندوة ، واللواء .

وهو الذي أسس دار الندوة لاصقة بالمسجد الحرام ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة ، وهي دار قصيّ بن كلاب ،

---

(١) ذكرها أبو الوليد الأزرقي (م ٢٢٣ هـ) في كتابه « أخبار مكة » بتفصيل والرباع : المنازل وما حولها ، واحدها ربع بالفتح .

(٢) معني سقاية الحاج انهم كانوا يملؤون للحجاج حياضاً من الماء يحلونها بشيء من التمر والزبيب ، فيشرب الناس منها إذا وردوا مكة .

(٣) الرفادة : طعام كان يصنع للحجاج على طريق الضيافة ، وكانت قريش تساعد قصياً على ذلك بما تقدمه له من الخرج الذي تخرجه كل سنة (الخضري - ٣٦) .

وهي دار الشورى لقريش ودار الحكم والمجتمع في مكة ، فما تنكح امرأة ، ويتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواءً لحرب قوم من غيرهم إلا في هذه الدار ، وما تدرع جارية إذا بلغت إلا في هذه الدار ، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه ، ثم ينطلق بها إلى أهلها . وكان أمره في قومه في حياته ومن بعد موته كالدّين المتّبع لا يعمل بغيره ، ولم يكن يدخل دار الندوة من غير بني قصّي إلا ابن أربعين سنة ، ويدخلها بنو قصّي جميعاً ، وحلفاؤهم كبيرهم وصغيرهم ، وكانت دار الندوة خاصة بهاشم وأمية ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وتيم ، وعدي ، وأسد ، ونوفل ، وزهرة ، وهؤلاء عشرة رهط من عشرة أبطن .

وانقسمت المناصب بعد موته ، فكان في بني هاشم السقاية ، وفي بني أمية العقاب راية قريش ، وفي بني نوفل الرفادة ، وكان في بني عبد الدار اللواء والسدانة مع الحجابة ، وكان في بني أسد المشورة ، فلم يكن رؤساء قريش يتفقون على أمر حتى يعرضوه عليه ، فإن وافقه ولّاهم عليه وإلا تخير وكانوا له أعواناً .

وكانت المسؤوليات موزعة بين رجال من قريش ، أقرت لهم بالفضل وحصافة الرأي ، فكانت إلى أبي بكر الصديق ـ وهو من بني تيم ـ الأشنان وهي الديات والمغرم ، فكان إذا

احتمل شيئاً ، فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه ، وإن احتمل غيره ، خذلوه ، وكان إلى خالد بن الوليد ـ وهو من بني مخزوم ـ القبة والأعنة ـ أما القبة فإنهم كانوا يضربونها ثم يجمعون إليها ما يجهزون به الجيش ، وأما الأعنة فإنه كان على خيل قريش في الحرب ، وكان إلى عمر بن الخطاب ـ وهو من بني عدي ـ السفارة ، وذلك أنهم كانوا إذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً ، وإن نافرهم حيّ بمفاخره جعلوه منافراً ورضوا به ، وكان إلى صفوان بني أمية وهو من بني جمح ـ الأيسار ، وهي الأزلام ، فكان لا يسبق بأمر هام حتى يكون هو الذي يسيره على يديه ، وكان إلى الحارث بن قيس الحكومة والأموال المحجرة التي سموها لآلهتهم ، وكانوا يتوارثون هذه المكارم كابراً عن كابر .

النشاط التجاري وحركة التصدير والاستيراد :

وكانت لقريش رحلتان تجاريتان ، إحداهما إلى الشام في زمن الصيف ، والأخرى إلى اليمن في زمن الشتاء ، وكانت أشهر الحج عندهم أشهراً حرماً ، يعقدون فيها أسواقهم التجارية بجانب البيت وداخل حدود الحرم ، والناس يُهرعُون إلى هذه الأسواق ويؤمونها من جهات الجزيرة ، البعيدة ، ليقضوا منها حاجتهم ، ويتزودوا لقومهم ، وقد ذكرت أسواق كانت في مكة يستدل بها على ما وصلوا إليه من مدنية وتطور ،

منها سوق العطارين ، ومنها سوق الفاكهة ، وسوق الرطب ، وكان مكان للحجامين والحلاقين ، وكانت رحبة واسعة كانت تباع فيها الحنطة ، والسمن ، والعسل ، والحبوب ، يحملها العير من الخارج ، وكانت اليمامة ريف مكة[1] ، وكان زقاق للحذائين ، وسوق للبزازين .

وكانت لأهل مكة متنزهات ينتجعها المكيون في الأصائل ، من شهور القيظ ، وكان المتنعمون فيهم يشتون بمكة ويصطافون بالطائف ، وكان كثير من فتيانهم اشتهروا بالأناقة في الحياة والتجمل في اللباس ، وكانت كسوة بعضهم تُقوّم بمئات من الدراهم .

وقد نشطت الحركة التجارية في مكة ، فكان تجارها يجولون في بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا ، ويحملون من كل بلد ما يستطرف ويستظرف فيها ، وما تشتد إليها الحاجة في بلادهم . فكانوا ينقلون من أفريقيا الصمغ ، والعاج ، والتبر ، وخشب الأبنوس ، ومن اليمن الجلود ، والبخور والثياب ، ومن العراق التوابل ، ومن حاصلات الهند الذهب ، والقصدير ، والحجارة الكريمة ، والعاج وخشب

---

(١) لذلك لما منع ثمامة بن آثال ـ سيد بني حنيفة ـ حمل الحنطة إلى مكة بعد ما اسلم ، جهدت قريش وكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخلي اليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ (زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٧٧ ، ورواه مسلم في صحيحه) .

الصندل ، والتوابل ، والزعفران ، ومن مصر والشام الزيوت والغلال والأسلحة والحرير والخمور ، كانوا يرسلون إلى بعض الملوك والأمراء ما يستطرف من بضائع مكة ، وكان من أعجب ما يختار منها الأَدَم ، وهي الجلود ، كما فعلت قريش حين بعثت إلى النجاشي ـ ملك الحبشة ـ عبدالله بن ربيعة وعمرو بن العاص بن وائل ، ليستردا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة ، فأرسلوا معهما من الهدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان الأدم .

وكانت من النساء تاجرات ، لهن نشاط في إرسال القوافل التجارية إلى الشام وغيرها ، اشتهرت فيهن خديجة بنت خويلد ، والحنظلية أم أبي جهل ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « للرّجال نصيب ممّا اكتسبوا وللنّساء نصيب مما اكتسبن » .[1]

الحالة الاقتصادية والعملة والمكاييل :

وهكذا فاقت مكة في التجارة ، وأثرى كثير من أبنائها ، وتضخّمت رؤوس أموالهم ، يدل على ذلك أنّ عِير قريش التجارية التي كانت عائدة من الشام عند غزوة بدر بلغت ألف بعير ، وبلغ المنقول على أثقالهم خمسين ألف دينار .

وكانوا يتعاملون بالعملة الرومانية البيزنطية والعملة

(١) النساء ٣٢

الإيرانية الساسانية[1] ، وكانوا يستعملون الموازين في أسواقهم

(١) يبدو من الاستقراء الكثير ، وتتبع ما كتب في الموضوع ، أن العملة في العصر الجاهلي ، وفي صدر الإسلام كانت على نوعين : (١) دراهم ، (٢) دنانير ، أما الدراهم فكانت على نوعين كذلك ، نوع عليه نقش فارس ، وتسمى بغلية ؛ وسوداء دامية ، والآخر عليه نقش الروم ، وتسمى غالباً طبرية وبيزنطية ؛ وكانت كلها من الفضة ؛ وكانت مختلفة الأوزان ؛ ولهذا كان أهل مكة في الجاهلية يتعاملون بها وزناً لا عداً ؛ ويتلخص من أقوال العلماء ؛ أن الدرهم ـ وهو الذي اعتبره الشرع خمس وخمسون حبة من الشعير الوسط ، في الوزن وتزن العشرة من الدراهم سبعة مثاقيل من الذهب ، ووزن المثقال من الذهب الخالص اثنتان وسبعون حبة ، وعلى ذلك حكى ابن خلدون الإجماع .

وكانت النقود الفضية هي الشائعة ، والكثيرة الاستعمال عند العرب في عصر النبوة ، ولهذا قال عطاء : « انما كان اذ ذاك الورق ولم يكن الذهب » (مصنف ابن ابي شيبة جـ٣ ، ص ٢٢٢) .

أما الدنانير فكانت من الذهب ، وكانت في الجاهلية وأول الإسلام ، بالشام ، وعند عرب الحجاز ، كلها رومية تضرب ببلاد الروم عليها صورة الملك ، واسم الذي ضربت في أيامه مكتوبة بالرومية ، كما قال ابن عبدالبر في التمهيد ، وكلمة « الدينار » معربة من Denarius ، وكانت عملة رومية قديمة ، ولا يزال لها رواج في بعض البلاد الأوروبية وقد جاء ذكرها في الإنجيل مراراً ، وكان الدينار يزن مثقالاً ، ووزن المثقال من الذهب الخالص كما قدمنا اثنتان وسبعون حبة من الشعير الوسط ، والمشهور أنه لم يتغير في جاهلية ولا إسلام ، وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن الدينار البيزنطي يزن ٤٢٥ من الجرامات ، وأثبت المستشرق ـ زمباور ـ في هذا الكتاب أن المثقال المكي (كذلك) يبلغ وزنه ٤٢٥ من الجرامات (راجع مادة « دينار » ؛ ج ٩ ص ٢٧٠) والنسبة بين الدرهم والدينار ، هي نسبة ٧ : ١٠ فالدرهم ١٠/٧ من المثقال .

أما المعادلة في الثمن ، فقد ثبت من كتب السنة ، ومذاهب الفقهاء ،=

والمكاييل ، منهـا الصّـاع ، والمدّ ، والرّطـل ، والأوقيّة ، والمثقال ، ويعرفون من مفردات أثقالها أنواعاً كثيرة ، وعندهم علم بالحساب اعتمد عليه القرآن في ذكر السهام والفرائض .

أثرياء قريش ومترفوها :

وكانت بيوت وأسر اشتهرت بالثـراء وسعـة في المال ، ورقّة في العيش ، يمتاز فيها بنو أمية وبنو مخـزوم ، وكان ممـن اشتهر في الثراء وجمع الأموال واقتنائها وتنميتهـا ، الـوليد بن المغيرة وعبدالعزّى (أبو لهب) ، وأبـو أحيحـة بن سعيد بن العاص ابن أمية ، وهو الذي أسهم بثلاثـين ألف دينـار في

= وتقرّر تاريخيا أن الدينار يصرف في ذلك العصر بعشرة دراهم وقد جاء في سنن أبي داود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : كانت قيمة الدية على عهد الرسول ﷺ ٨٠٠ دينار أو ٨٠٠٠ درهم ؛ وبذلك عملت الأمة من الصحابة فمن بعدهم حتى استقر الإجماع على ذلك ويدل على ذلك دلالـة صريحـة ما جاء في الأحاديث المشهورة من التصريح بنصاب الدراهم ؛ أو بمقدار الواجب فيهـا ، وما ذهب إليه الجمهور الأكبر من الفقهاء ، أن نصاب الذهب عشرون دينـاراً فثبت من ذلك أن الدينار الواحد في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام كان يساوي في الثمن عشرة دراهم ويعادلها ، وقد قال الإمام مالك في الموطأ : السنة التي لا اختلاف فيها عندنا ، ان الزكاة تجب في عشرين ديناراً عيناً ، كما تجب في مائتي درهم » (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » ، للآلوسي « التراتيب الإدارية لعبدالحي الكتاني ، « فقه الـزكاة » ليوسف القرضـاوي ، التفسـير الماجـدي ، وأكثره من فقه الزكاة) .

القافلة التي كان يقودها أبو سفيان ، وعبد بن أبي ربيعة المخزومي ، واشتهر منهم عبدالله بن جدعان التيمي الذي كان يشرب في كأس من الذهب ، وكان يطعم عدداً كبيراً من المساكين والجيعان ، وكان العباس ابن عبدالمطلب من أثرياء قريش ، ينفق أمواله في الناس ، ويتعامل بالربا ، حتى جاء الإسلام ، وأعلن رسول الله ﷺ ، إلغاء الأموال الربوية ، وبدأ ذلك بعمه العباس بن عبدالمطلب ، وأعلن في حجة الوداع « وأوّل ربا أضعه ربا العباس بن عبدالمطلب » .

وكان منهم مترفون لهم مجالس سمر ، ولهم أرائك منصوبة وموائد ممدودة ، ونواد للشراب يلهون فيها ويسكرون .

وكانت عامة مجالس أشرافهم أمام البيت ، ينشدون فيها الشعر ، ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية ، مثل لبيد بن ربيعة صاحب المعلقة المشهورة ، وقد ذكر أن عبدالمطلب بن هاشم كان يوضع له فراش في ظل الكعبة ، وكان بنوه يجلسون حول فراشه في ذلك ، حتى يخرج اليه لا يجلس عليه أحد من بنيه اجلالا له .

الصّناعات والثّقافة والآداب في مكّة :

ولم تكن للصّناعات مكانة كبيرة عند أهل مكة ، بل

كان عندهم نوع احتقار لها ، وتعيّر منها ، ولم يباشرها في عامة الأحوال إلا الموالي وأبناء العجم ، إلا أنه قد وجدت بعض صناعات كانوا مضطرين إليها ، ومارسها بعض أبناء مكة العرب ، فقد روي أن خباب بن الأرت كان قينا يعمل السيوف ، وكانوا يلجأون في صناعة البناء ـ وكان لا بد منه ـ إلى عمال من الرّوم أو الفرس .

وكان منهم كتّاب يعرفون الكتابة والقراءة ، وإن كانت الأميّة غالبة عليهم ، ولذلك سماهم القرآن بـ « الأميين » ، فقال : « هو الذي بعث في الأميّين رسولاً منهم »[1] .

وكانت مكة وأهلها مثلاً في الجزيرة العربية في سلامة الذوق والظرف والأناقة ، شأن العواصم والمدن الرئيسية في كل قطر ، عريقة في الآداب ، أما لغتهم فكانت هي الميزان وهي المرجع وعليها الاعتماد في سائر أطراف الجزيرة ، وكانوا أبلغ العرب وأفصحهم وأصحّهم تعبيراً ونطقاً ، وأبعدهم عن الهجنة أو الرّطانة وتأثير الاختلاط بالعجم ، وكان حظهم من تناسب الأعضاء واعتدال الخلْق والخلُق والهندام وحسن الشارة ، أكثر من أهل النواحي الأخرى ، حتى كانوا شامة بين الناس ، يجمعون بين الصفات التي يسمى مجموعها بـ « الفتوة » و « المروءة » ، وتغنّى بهما شعراء العرب

(١) الجمعة اية ٢

وخطباؤهم ، لذلك كانوا أئمة الناس في الشرّ والخير .

وكان أكثر عنايتهم بالأنساب وأخبارها ، ثم بالشعر ، ثم بالنجوم ، والأنواء ، والعيافة وشيء يسير من الطب يقوم على التجربة ، والتناقل ، وشيء كثير من حِلْية الخيل والمعرفة الدقيقة بأعضائها وصفاتِها ، والتّفرّس بالرجال والخيل ، وشاعت فيهم طرق للعلاج ، كالكي ، والبتر ، والفصد ، والحجامة ، وتناول الأدوية .

القوة الحربية :

أما قوة مكة الحربية ، فكانت قريش تؤثر السلم والهدوء في عامة الأحوال ، إذا تركت وشأنها ، شأن الشعوب والمجتمعات التي أكبر اعتمادها في الكسب والمعاش على التجارة ، ومسير القوافل ، وتنظيم الأسواق ، وتوجه الرّوّاد من كل صوب إلى بلدها ، والتقائهم التقاءً يفيدها اجلالاً دينياً ، وفائدة اقتصاديّة ، ويدر عليها الأرزاق الكريمة ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : « فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

لذلك كانت قريش ـ مالم تُتَحدّ عقيدتها ولم تُثَر غيرتها الدينية أو القبلية ـ تؤمن بمبدأ « التّعايش السّلميّ » ، ولكنها

---

(١) قريش ٤ ، ٤

رغم كل ذلك كانت قوة حربية يحسب لها الحساب ، وكانت شجاعتها مضرب المثل ، وكانت مشهورة بالفروسية العربية ، و« الغضبة المضرية » معروفة في جزيرة العرب وآدابها وأمثالها .

ولم تكتف قريش بقوتها الذاتية في الحروب ، ولكنها كانت تستخدم قوة الأحابيش ، وهم بطون من القبائل العربية الضاربة حول مكة ، من كنانة وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة تحالفوا مع قريش ، وكان لقريش عدد كبير من العبيد والموالي ، الذين كانوا يقاتلون في صفوفها ، فكانت تستطيع أن توجه إلى القتال بضعة آلاف مقاتل وقد استطاعت أن تجمع عشرة آلاف مقاتل في غزوة الأحزاب ، وهي أكبر قوة حربية عرفها تاريخ الجزيرة العربية في العصر الجاهلي .

كبرى مدن الجزيرة وعاصمتها الرّوحية والاجتماعية :

وبهذا المركز الديني ، والمكانة الاقتصادية ، وقيادة النشاط التجاري ، والتقدم في المدنية والآداب ، أصبحت مكة كبرى مدن الجزيرة العربية ، وبدأت تنافس صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة ، بل إنها تفوقت عليها ، بعد ما حدث باليمن من استيلاء الحبشة عليها ، وتملك الفرس لها ، في منتصف القرن السادس المسيحي ، وفقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشيء الكثير من العظمة والأبّهة ، فأصبحت مكّة بعد ذلك كله هي عاصمة جزيرة العرب الروحية والاجتماعية من غير منافس ولا مشارك .

النّاحية الخلقية :

وكانت النّاحية الخلقية ضعيفة ـ غير الأعراف والآداب والقِيَم الجاهليّة التي كانوا يؤمنون بها ويعضون عليها بالنواجذ ـ فقد فشا فيهم القمار ، والميسر ، وافتخروا به ، وفشت فيهم الخمر وانتشرت القيان ، ومجالس اللهو ، وحفلات العزف ، يقدم فيها الشراب ، وفشا فيهم بعض الفواحش ، وقد وجد الظلم والقسوة ، وغمط الناس ، وبطر الحق ، وأكل أموال الناس بالباطل .

ولا تصوير للحالة الخُلقية التي كان يعيشها أهل الجزيرة بصفة عامة وأهل مكّة بصفة خاصة ، أبلغ وأصدق من تصوير جعفر بي أبي طالب الهاشمي ـ وهو ابن مكة الأصيل ـ للحياة العربية والأخلاق الجاهلية أمام النجاشي ، وقد جاء فيه :

« أيهّا الملك ! كنّا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف[1] » .

الناحية الدينية :

وكانت الناحية الدينية أضعف ـ بحكم بُعدِ العهد

(١) راجع سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ، ص ٣٣٦ .

بالنّبوّات ، وفشوّ الجهل ، وانتشار الوثنية ، التي اقتبسوها من الأمم المجاورة فَغلَوْا فيها ـ من الناحية الأدبية والحضارية ، فأغرقوا في الوثنية ، وأولعوا بالأصنام ، فكان في جوف الكعبة وفنائها ثلاثمائة وستون صنماً ، وكان كبيرها عندهم « هبل » وهو الذي نادى به أبو سفيان بعد وقعة أحد ، فقال : « أعل هبل » وكان على بئر في جوف الكعبة ، وهي التي يجمع فيها ما يهدى للكعبة ، وكان بالعقيق الأحمر على صورة الإنسان مكسور اليد اليمنى أدركه قريش كذلك فجعلوا له يداً من ذهب ، وكان أمام البيت صنمان « إساف » و « نائلة » ، وموضعهما عند الكعبة أحدهما يلصق الكعبة والآخر بموضع زمزم فنقلت قريش الذي يلصق الكعبة الى الآخر ، فكانوا ينحرون ويذبحون عندهما ، وكان على الصفا صنم ، يقال له « نهيك مجاود الريح » وعلى المروة صنم ، يقال له « مطعم الطير »

وكان في كلّ دار من مكة صنم يعبدونه ، وكانت « العزّى » قريباً من عرفات ، وكان عليها بيت ، وكانت اعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يستقسمون عند أصنامهم بالأزلام ، وكانت « الخلصة » بأسفل مكة ، وكانوا يلبسونها القلائد ويهدون اليها الشعير والحنطة ، ويصبون عليها اللبن ، ويذبحون لها ، ويعلقون بيض النعام بها ، وكانت الأصنام يطاف بها في مكة ، فيشتريها أهل البادية ويخرجون بها

إلى بيوتهم .

وكذا وصلوا ـ رغم ما طبعوا عليه من الفتّوة وخلال المروءة وكثير من الأخلاق العربية الكريمة ـ إلى درجة سخيفة راعنة من الوثنية وعبادة الأصنام والتمسك بالخرافات والأوهام ، وجهل المفاهيم الدينية الصحيحة ، والبعد عن الإبراهيمية الحنيفية السمحة ، درجة لم يصل إليها إلا النادر من الشعوب والأمم .

هذه مكّة في منتصف القرن السادس المسيحي عند بعثة الرسول الأعظم ﷺ ، وطلوع شمس الإسلام من أفقها المظلم ، وصدق الله العظيم : « لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون[1] » .

---

(١) اعتمدنا في كتابة هذا الفصل على إشارات عابرة في كتب التفسير والحديث ومعلومات مبعثرة جاءت في كتاب : « الأصنام » للكلبي (م ١٤٦ هـ) ، و« السيرة النبوية » لإبن هشام (م ٢١٣ هـ) ؛ و« أخبار مكة » للإمام أبي الوليد محمد الأزرقي (م ٢٢٣ هـ) ، وبلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » للسيد محمود شكري الآلوسي (م ١٣٤٢ هـ) واستفدنا من كتاب « تاريخ مكة » للأستاذ أحمد السباعي ، وكتاب « مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، للأستاذ أحمد أبراهيم الشريف .

مِن الوِلادةِ الكريمة إلى البعثةِ العظيمة

عبدالله وآمنة :

كان لعبد المطّلب ـ سيّد قريش ـ عشرة أبناء ، كانوا شامة بين الناس ، وعبدالله واسطة العقد[1] ، وزوجه أبوه « آمنة » بنت وهب ـ سيد بني زهرة ـ وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً[2] .

ولم يلبث عبدالله أن مات ، وأم رسول الله ﷺ حامل به وقد رأت من الآثار والآيات ما يدل أن لابنها شأناً[3] .

ولادته الكريمة ونسبه الزكي :

وولد رسول الله ـ ﷺ ، يوم الاثنين اليوم الثاني عشر من

---

(١) ابن هشام ق ١ ، ص ١٠٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ١١٠ .
(٣) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ١٥٨ .

شهر ربيع الأول ، عام الفيل (٧٥٠ المسيحي) (١) فكان أسعد يوم طلعت فيه الشمس .

وهو محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

وينتهي نسب عدنان إلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام(٢) .

فلما وضعته أمّه ﷺ ، أرسلت إلى جدّه عبدالمطلب أنّه قد ولد لك غلام ، فأتاه ، فنظر إليه ، وحمله ، ودخل به الكعبة ، قام يدعو الله(٣) ، ويحمده وسماه « محمداً » وكان هذا الإسم غريباً فتعجب منه العرب(٤) .

---

(١) هذه هي الرواية المشهورة ؛ وقد حقق العالم الفلكي الكبير محمود باشا المصري أن ولادته ـ ﷺ كانت يوم الأثنين التاسع من شهر ربيع الأول لأول عام من حادثة الفيل ، ٢٠ أبريل سنة ٥٧١ م.

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ١ـ٢ ، وجميع كتب السيرة والتاريخ والأنساب واقتصرنا على سياق نسبه ﷺ إلى عدنان فإنه لا خلاف في ذلك .

(٣) سيرة ابن هشام ، ق١ ، ص ١٥٩ ـ ١٦٠ .

(٤) ابن كثير ؛ ج ١ ، ص ٢١٠ ، وابن هشام ق ١ ، ص ١٥٨ .
يستفاد من « الروض الأنف » للسهيلي و« الفصول » لابن فورك ، أنه لم يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم الشريف قبل محمد بن عبدالله بن عبد

رضاعته ﷺ :

أرضعته ثويبة جارية عمّه أبـي لهـب بضعـة أيام ، ثم التمس عبدالمطلـب لحفيده اليتيم ، الـذي كان أحـبّ أولاده اليه ، مرضعاً من البادية ، على عادة العـرب ، وكان العـرب يؤثرون البادية لرضاعة الأطفال ونشأتهم الأولى ، لما في هواء البـادية من الصّفـاء ، وفي أخـلاق البـادية من السلامـة والاعتـدال ، والبعـد عن مفاسـد المدنية ، ولأن لغـة البـادية سليمة أصيلة .

وجاءت المراضع من قبيلة بني سعد ، وكانت لها شهرة في المراضع وفي الفصاحة ، وأدركت حليمـة السعـدية[1] ، هذه السعادة ، وكانت خرجت من بلدها تلتمس الرضعاء ، وكان العام عام جدب ، وهم في ضيق وشدة ، وعرض رسـول الله ﷺ ، على جميع المراضع فزهدن فيه ، وذلك لأنهنّ كنّ يرجِّين

المطلب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ الا ثلاثة ، طمع آباؤهم حين سمعوا من أهل الكتاب ذكر نبي يبعث في جزيرة العرب يسمى بمحمد ؛ وعرفوا قرب زمانه ؛ وكانت أزواجهم حاملات ؛ فنذر كل واحد منهم إذا ولد له ذكر أن يسميه « محمداً » ففعلوا ذلك ، وقد ذكر عدد اكثر من هذا ، وعندي أن القضية تحتاج إلى تمحيص أكثر ، فقد استغرب هذه التسمية كل من سمعها من قريش ، والرواية تحتاج الى نقد فني .

(١) السعدية : نسبة إلى سعد بن بكر بن هوازن ، وهي بنت أبي ذؤيب ، وزوجها الحارث بن عبدالعزى

المعروف من أبي الصبي ، فقلن : يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه وجده ؟!

وهكذا فعلت حليمة ، فانصرفت عنه أوّل مرّة ، ثم انعطف قلبها عليه ، وألهمها الله حبه وأخذه ، ولم تكن وجدت غيره ، فرجعت إليه ، فأخذته ، وذهبت به إلى رحلها ، ولمست البركة بيدها ، فكان لكل شيء في رحلها شأن غير الشأن ، ورأت البركة في اللّبان والألبان ، والشارف والأتان ، وكل يقول : لقد أخذت يا حليمة ! نسمة مباركة ، وحسدتها صواحبها .

ولم تزل تتعرّف من الله الزّيادة والخير ، حتى مضت سنتان في بني سعد ، وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان وقدمت به ﷺ ، على أمه ، وطلبت أن تتركه عندها بعض الوقت ، فردته إليها[1] .

وجاء ملكان وهو في بني سعد ، فشقا بطنه ، واستخرجا من قلبه علقة سوداء ، فطرحاها ثم غسلا قلبه ، حتى أنقياه ورداه كما كان[2] .

---

(١) اقرأ حكاية حليمة للرضاعة الطويلة البليغة الحبيبة في سيرة ابن هشام ق ١ ؛ ص ١٦٢ - ١٦٦ .

(٢) راجع القصة في كتب السيرة ، وقد رواها مسلم في صحيحه عن أنس ابن مالك في كتاب الإيمان ، باب « الإسراء برسول الله ﷺ .

ورعى رسول الله ﷺ ، الغنم مع إخوته من الرضاعة ونشأ على البساطة والفطرة ، وحياة البادية السامية ، واللغة الفصيحة التي اشتهر بها بنو سعد بن بكر ، وكان يقول لأصحابه فيما بعد : « أنا أعربكم ، أنا قرشي ، واسترضعت في بني سعد بن بكر[1] » .

وفاة آمنة وعبدالمطّلب :

فلما بلغ ﷺ ، ست سنين ، خرجت به أمه إلى مدينة يثرب ، تزيره خئولة جده فيها ، وتزور قبر بعلها الحبيب عبدالله بن عبدالمطلب[2] ، وفي عودتها إلى مكة أدركها الموت بمكان بين مكة والمدينة، اسمه « الأبواء » ، واجتمعت له وحشة فراق الأم الحنون ووحشة الغربة ، وذلك الشأن معه من يوم ولد ، وفيها من أسرار التربية الإلهية ما لا يعلمها الا الله ،

قال شيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم المعروف بولي الله الدهلوي (م ١١٧٦ هـ) ، في كتابه الفريد « حجة الله البالغة » : و« ظهرت الملائكة ، فشقت عن قلبه ؛ فملأته ايماناً وحكمة ، وذلك بين عالم المثال والشهادة فلذلك لم يكن للشق عن القلب اهلاكاً ، وقد بقي منه أثر المخيط ؛ وكذلك كل ما اختلط فيه عالم المثال والشهادة » (حجة الله البالغة ج٢ ص ٢٠٥) .

(١) ابن هشام ؛ ق ١ ، ص ١٦٧ .

(٢) وكان النبي ﷺ يذكر أموراً في زيارته تلك ، نظر إلى دار بني النجار بعد الهجرة ، فقال : هنا نزلت بي أمي ؛ وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار (شرح المواهب اللدنية ج ١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٨) .

وعادت به أم أيمن بركة الحبشية الى مكة وسلمته الى جده عبد المطّلب ، فكان مع جده ، وكان به حفياً ، يجلسه على فراشه في ظل الكعبة ويلاطفه .

فلما بلغ رسول الله ﷺ ثماني سنين ، مات عبد المطّلب[1] ، فذاق مرارة اليتم مرة ثانية كانت أشد من الأولى ، فانه ﷺ لم ير أباه ، ولم ينعم بعطفه وحنوّه ، فكان الشعور بفقده شعوراً عقلياً تقليدياً ، وكان الشعور بفقد عبد المطلب شعوراً حسياً تجريبياً ، والفرق بينهما واضح .

مع عمّه أبي طالب :

كان رسول الله ﷺ بعد عبد المطلب مع عمّه أبي طالب ، وهو أخو عبد الله من أب وأم ، وكان عبد المطلب يوصيه به فكان إليه ومعه ، وكان أرفق به وأكثر حدباً عليه من أبنائه : علي ، وجعفر ، وعقيل[2] .

يقال إن أبا طالب خرج في ركب تاجراً إلى الشام ، وكان رسول الله ﷺ ، إذ ذاك ابن تسع سنين[3] ، فتعلق بعمه ، فرقّ له ، واستصحبه في هذه الرّحلة ، فلما نزل الركب « بصرى »

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٧٩

(٣) على الأصح.

من أرض الشام وبها راهب يقال له ، « بحيرى » في صومعة له ، اهتم بهم ، وصنع لهم طعاماً ، ولم يكن هذا من شأنه ، لما رأى صنع الله به والخوارق من العادات ، فلما رأى رسول الله ﷺ احتفى به وتأكد من آثار النبوة فيه ، ونبه أبا طالب على علوّ مكانته ، وقال : ارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه اليهود ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فرجع به أبو طالب إلى مكة سالماً .

وقد جاءت هذه القصة مطولة في سيرة ابن هشام وغيرها وتكلم في صحتها كثير من النقاد والمحدثين رواية ودراية ، قد جاء في « سيرة النبي » للعلامة شبلي النعماني أنّ جميع روايات هذه القصة مرسلة ، فإن كل من روى هذه القصة من الصحابة ، إنما سمعها من غيره ولم يسمّه ، وقد قال الترمذي بعدما روى هذا الحديث : حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ومن رواته عبد الرحمن بن غزوان وقد تكلم فيه أكثر أهل الصّناعة ، فقال العلامة الذهبي : كان يروي الأحاديث المنكرة ، وأشدها نكارة الرواية التي جاء فيها قصة بحيرى ومما يقدح في هذا الحديث أنه قد جاء فيه أن أبا طالب أرسل رسول الله ﷺ ، مع بلال ، قال العلامة ابن القيم في « زاد المعاد » ووقع في كتاب الترمذي وغيره أنه بعث معه بلالا ، وإنه من الغلط الواضح فإن بلالا إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً ، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر » (زاد

المعاد ، ج ١ ص ١٨) .

(انتهى كلام العلامة النعماني) .

مثال غريب من التعصّب الديني والامعان في الافتراض والتّخمين :

وانتهز المستشرقون والمغرضون هذه الفرصة ـ وهي لقاء رسول الله ﷺ ، بحبر من أحبار النصارى ، شخصيته ومكانته في العلم مجهولتان ـ فصنعوا من الحبة قبة ، وأسسوا عليها بناءً شامخاً ، من تلقي رسول الله ﷺ لتعاليم التوحيد النقية من عالم نصراني ، وأغرب من هذا أن الفرنسي ألف كتاباً في هذا الموضوع ، اسماه « مؤلف القرآن » حاول أن يثبت « بحيرى » لقن محمداً ﷺ ، القرآن كله ، في هذا اللقاء القصير .

﴿ هذا ـ إن صحت الرواية ـ لا يقوله عاقل رزق من سلامة العقل والإنصاف ذرة ، فكيف يعقل أن غلاماً لا يجاوز عمره تسع سنوات ـ على الأصح واثنا عشر عاماً ـ على الأكثر ـ تلقى من شيخ لا يعرف لغته ، ولم يجلس إليه إلا ما يستغرقه وقت الجلوس على مائدة ، المسائل الدقيقة والتفاصيل العميقة في نقد عقيدة الشرك والمسيحية الممسوخة في القرن السادس المسيحي ، التي لم يهتد إليها كبار النقاد والمصلحين في المذهب

البروتستانتي وكبار المصلحين في العالم المسيحي ، والتمييز الدقيق بين عقائد الفرق المسيحية وأقوالها ، وتعرض القرآن لحوادث لم تحدث إلا بعد ثلاثين وأربعين سنة ، حين أصبحت عظام بحيرى نخرة . . . ، كاندحار الروم أمام الفرس في الأعوام الأولى من القرن السابع المسيحي (٦٠٢ - ٦١٦) إلى أخر نقطة من تراجع الجيوش وتقلّص الحكومات ، حتى كادت الأمبراطورية البيزنطية تلفظ نفسها الأخير ، وتصبح مستعمرة ساسانية حقيرة ، وانقطع كل أمل في نهوض الدولة البيزنطية وعودتها إلى أوجها الأول ، ثم انتصار الروم البيزنطيين الرائع ، النافي لكل تقدير وتخمين ، على الفرس الظافرين المنتصرين ، حتى أوغلت الجيوش الرومية في قيادة هرقل في إيران وغرزت أعلام الفتح في قلب البلاد ، وأثخنت الشعب الإيراني قتلاً وجراحاً ، وأهانت المعابد والمقدسات الدينية ، وعادت من أسوار العاصمة ظافرة مرفوعة الرأس ، وذلك كله في ظرف تسع سنين[1] وهو ما أعلنه القرآن بقوله :

« ألم غلبت الرّوم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذٍ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم وعد

---

(١) اقرأ مقال المؤلف المسهب « نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق » المنشور في مجلة البعث الإسلامي عدد ٤ ج ١٥ ، رمضان ١٣٩٠ هـ نوفمبر ١٩٧٠ م .

الله لا يخلف الله وعده ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون.ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون[1] .»

وهي نبوّة لا يقدر عليها إلا العليم القدير الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ولم يكن شيء أغرب خيالاً ، وأبعد منالاً من هذه النبوة التي أعلنها القرآن عند فرح قريش المشركين بانتصار المجوس المشركين على أهل الكتاب المسيحيين ، وشماتتهم بهزيمة الروم المنكرة ، فقال « وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » والبضع ما دون العشر ـ واستبعدته قريش كل الاستبعاد ، حتى قامروا على ذلك استبعاداً له يقول المؤرخ الانكليزي الشهير جبون Edward Gibbon إن محمّداً تنبّأ حين بلغت فتوح الإيرانيين أوجها وقمتها ، أنّ الرّايات الرومية سترتفع بالفتح والانتصار في بضع سنين ، ولم يكن شيء أبعد عن القياس من هذه النبوة التي أعلنها محمد ، لأن السنين الاثنتي عشرة الأولى من حكم هرقل كانت تعلن بتمزق الأمبراطورية الرومانية ، ونهايتها القريبة [2] » .

ولكن تحققت هذه النّبوة بشكل غريب خارق للعادة ،

---

(١) سورة الروم الآية ١ـ٧ .

(٢) تاريخ انحطاط روما وسقوطها ج ٣ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣ طبع ١٨٩٠ .

وذلك في سنة ٦٢٥ م (العام الثاني من الهجرة النبوية عند غزوة بدر) يقول « جبون » في اسلوبه الأدبي القوي المعروف :

« كما أن ضباب الصبح والأصيل ينقشع ويتبدد بنور الشمس البازغة الوهّاج ، كذلك تحول الأمير الرقيق المترف الذي لم يكن يعرف إلا الشباب والهوى ، والذي كان قد قدم أركاديوس في عصره [١] فارساً منتصراً يقود الجيوش ويفتح البلاد كسيزر[٢] لقد أنقذت كرامة هرقل وروما بطريقة غريبة رائعة ، وعاد إليهما اعتبارهما وقيمتهما[٣] .

هذا إلى نبوّات أخرى وإعلانات بعيدة عن القياس والقرائن كالفتح المبين بعد صلح الحديبية (المهين في نظر كثير من المسلمين وغير المسلمين)[٤] ، ودخول الناس في الاسلام أفواجاً[٥] وظهوره على الدين كلّه بعد ما كان المسلمون مستضعفين في الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس وقيام دولتهم وشوكتهم[٦] وبقاء القرآن محفوظاً متلوّاً ، مبيّناً مفسّراً يتلوه

---

(١) الملك الرومي الخليع المستهتر الذي أصبح مثلاً في تاريخ اوروبا للتمتع المسرف والترف الفاحش .

(٢) الأمبراطور الرومي الذي اشتهر بفتوحة العظيمة وامتداد ملكه .

(٣) انحطاط روما وسقوطها ج ٣ ص ٣٠٤ طبع ١٨٩٠ .

(٤) اقرأ سورة الفتح .

(٥) سورة النصر .

(٦) سورة النور .

ويحفظه أكبر عدد من البشر[1] إلى غير ذلك من النبوات الغريبة ، و . . الإعلانات المتحدية للعقل والقياس والأخبار الغيبية التي زخر بها القرآن[2] .

ولا يصنع من هذه الحبة قبة إلا من أعماه التعصب الديني ، والاسترسال في الخيال والامعان في الافتراض والتخمين وإن الذي يفعل ذلك يستحق في نظر المؤلف جائزة نوبل أو شبهها ، في الإتيان بالبعيد المضحك للعقلاء والتطرف وإبعاد النّجعة في العداء ، ولولا ورود هذه القصة في عامة كتب السيرة لما أوردناها في هذا الكتاب ولما تعرضنا لبحثها ونقدها .

التربية الالهية :

وشب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ محفوظا من الله تعالى ، بعيدا من أقذار الجاهلية وعاداتها ، فكان أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقا ، وأشدهم حياءً ، وأصدقهم حديثا ، وأعظمهم أمانة ، وأبعدهم عن الفحش والبذاءة ، حتى ما اسمه في قومه إلاّ « الأمين »[3] ، يعصمه الله تعالى من أن يتورط فيما لا يليق بشأنه ، من عادات الجاهلية ، ومما لا

---

(١) سورة القيامة وسورة الحجر .

(٢) اقرأ للتفصيل عنوان « الأخبار الغيبية والنبوءات » في المجلد الثالث للسيرة النبوية للعلامة السيد سليمان الندوي .

(٣) سيرة ابن هشام ق ١ ص ١٨٣ .

يرون به بأسا ، ولا يرفعون له رأسا ، وكان واصلا للرحم ، حاملا لما يثقل كواهل الناس ، مكرما للضّيوف ، عونا على البر والتقوى[1] وكان يأكل من نتيجة عمله ، ويقنع بالقوت .

ولما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أربع أو خمس عشرة سنة ، هاجت حرب الفِجَار بين قريش وبين قيس ، وشهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أياما ، وكان ينبل[2] على أعمامه وبذلك عرف الحرب ، وعرف الفروسية والفتوة[3] .

ولما شب عن الطوق اتجه الى العمل ، فرعى الأغنام ، وفيه كسب شريف ، وتربية نفسية ، وترويض على العطف على الضعفاء ، وسياسة للأوابد ، واستنشاق للهواء النقي الصافي ، وتقوية للجسم ، وفوق ذلك كله إنه اتباع لسنة الأنبياء ، فقد روي عنه أنه قال بعد النبوة : « ما من نبي الا وقد رعى الغنم ، قيل : وأنت يا رسول الله ؟ ! ، قال : وأنا » .

---

(١) اقرأ شهادة خديجة ـ رضي الله عنها ـ لرسول الله ﷺ حين رجع من حراء وخشي على نفسه ، في الجامع الصحيح للبخاري في باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

(٢) ينبل : يعني كان يرد عليهم نبل عدوهم إذا ما رماهم .

(٣) سيرة ابن هشام . ق ١ ، ص ١٨٦ .

وقد رعى الغنم في بني سعد مع إخوته من الرضاعة ، فلم يكن بعيدا عنه ولا جاهلا له ، وقد ثبت في الصحاح أنه كان يرعى الغنم في مكة على قراريط[1] يأخذها من أهلها .

زواجه ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خديجة :

ولما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خمسا وعشرين سنة ، تزوج خديجة بنت خويلد ، وهي من سيدات قريش ، وفضليات النساء ، رجاحة عقل ، وكرم أخلاق ، وسعة مال ، وكانت أرملة ، توفي زوجها أبو هالة ، وكانت اذ ذاك في الأربعين من سنها ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في الخامسة والعشرين من عمره[2] .

وكانت خديجة امرأة تاجرة ، تستأجر الرجال في مالها ،

---

(١) قد جاء في « سيرة النبي » ـ الجزء الأول ـ للعلامة شبلي النعماني : « قد اختلف العلماء في معنى كلمة « قراريط » ، فذهب شيخ ابن ماجة سويد بن سعيد إلى أنها جمع قيراط وهو جزء من الدرهم أو الدينار وعلى ذلك فمعنى الحديث عنده أن النبي ﷺ كان يرعى الغنم على الأجرة ومن هنالك ساقه البخاري في باب الإجارة ، وذهب ابراهيم الحربي إلى أنه إسم مكان يعينه قرب الأجياد ، وقد رجحه ابن الجوزي ، وأكد صحة رأيه العلامة العيني بدلائل قوية راجحة ، وإليه مال صاحب « نور النبراس » بعد بحث مطول مفصل .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ١٨٧ ـ ١٩٠ ، وسيرة ابن كثير ، ج ١ ص ٢٦٢ ـ ٢٦٥ .

وتضاربهم بشيء تجعله لهم ، وكانت قريش قوما تجارا ، وقد كانت اختبرت صدق حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكرم أخلاقه ، ونصيحته ، حين خرج في مال لها الى الشام تاجرا ، وبلغها من كبر شأنه في هذه الرحلة ، فعرضت عليه نفسها ، وكانت قد رفضت طلب كثير من أشراف قريش ، وخطبها اليه عمه حمزة ، وخطب أبو طالب الخطبة ، فكان الزواج(١) .

وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وولدت له ولده كلهم الا ابراهيم(٢)

قصّة بنيان الكعبة ودرء فتنة عظيمة :

ولما بلغ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ خمسا وثلاثين سنة ، اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وقد أرادوا ذلك ليسقفوها وكانت حجارة بعضها على بعض ، من غير طين يركب بعضها ببعض ، وكانت فوق القامة ، وكان لا بد من هدم وبناء جديد .

فلما بلغ البنيان موضع الركن ، اختصموا في الحجر الأسود ، كل قبيلة تريد أن ترفعه الى موضعه دون الأخرى ،

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ١٨٩ ـ ١٩٠ .
(٢) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ص ١٩٠ ؛ وكتب السيرة الأخرى .

وكل قبيلة تريد أن يكون لها هذا الشرف ، حتى آل الأمر الى الحرب وكانت في أهون من هذا بكثير في الجاهلية .

وأعدوا للقتال ، وقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، وتعاقدوا ، هم وبنو عدي ، على الموت ، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة .

وكانت آية الموت والشر ، ومكثت قريش على ذلك أياما ، ثم اتفقوا على أن أول من يدخل من باب المسجد يقضي بينهم ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا ، هذا محمد .

ودعا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ بثوب وأخذ الحجر ووضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ، ففعلوا ، حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه[1] .

وهكذا درأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحرب عن قريش ، بحكمة ليست فوقها حكمة ، وكانت مقدّمة درئه للحروب والشرور عن الشعوب والأمم بعد النبوة ، بحكمته ، وتعاليمه ، ورفقه ، وتلطفه في الأمور ، والاصلاح بين

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ، ١٩٢ ـ ١٩٧ .

الناس ، فيكون رحمة للعالمين كما كان رحمة للمتخاصمين والمتحاربين في قوم بسطاء أميين .

حلف الفضول :

وشهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ حلف الفضول وكان أكرم حلف سمع به ، وأشرفه في العرب ، وكان سببه أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل أحد أشراف قريش ، فحبس عنه حقه ، فاستدعى عليه الزّبيدى أشراف قريش ، فأبوا أن يعينوا على العاص بن وائل لمكانته ، وانتهروه ، واستغاث الزبيدى أهل مكة واستعان بكل ذي مروءة .

وهاجت الغيرة في رجال من ذوي المروءة والفتوة ، فاجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاما ، وتعاقدوا ، وتعاهدوا بالله ، ليكوننّ يدا واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدّى اليه حقه ، فسمّت قريش ذلك الحلف « حلف الفضول » وقالوا : لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ، ثم مشوا الى العاص بن وائل ، فانتزعوا منه سلعة الزبيدى ، فدفعوها اليه[1] .

وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مغتبطا بهذا

---

(١) سيرة ابن كثير ، ج ١ ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩ .

الحلف ، متمسكا به حتى بعد البعثة يقول :

« لقد شهدت في دار عبد اللـه بن جدعـان حلفـا ، لو دعيت به في الاسلام لأجبت ، تحالفوا أن يردوا الفضول على أهلها وأن لا يعز [1] ظالم مظلوما [2] .

قلق غامض وعدم ترقّب لنبوة أو رسالة :

وكان يجد في نفسه قلقا غامضا ، لا يعرف مصدره ، ولا مصيره ، ولا يخطر بباله لحظة ما الله مكرمه به من الوحي والرسالة ، ولا يحلم بذلك في يوم من الأيام ، يقول اللـه تعالى :

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدي الى صراط مستقيم [3] » .

وقال :

« وما كنت ترجو أن يلقى اليك الكتاب الا رحمة من ربك ، فلا تكوننّ ظهيرا للكافرين [4] » .

---

(١) يعز : يغلب .

(٢) سيرة ابن كثير ج١ ، ص ٢٥٨ .

(٣) سورة الشورى ـ ٥٢ .

(٤) سورة القصص ٨٦ .

وكان من حكمة الله تعالى وتربيته ، أن نشأ رسول الله ﷺ ، أمياً ، لا يقرأ ولا يكتب ، فكان أبعد عن تهمة الأعداء ، وظنة المفترين ، وإلى ذلك أشار القرآن بقوله :

« وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون[1] » .

وقد لقبه القرآن بالأمي فقال :

« الذين يتبعون الرسول النبيّ الأمّي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل[2] » .

(١) سورة العنكبوت ٤٨ .

(٢) سورة الأعراف ـ ١٥٧ .

بَعْدَ البِعْثَة

تباشير الصّبح وطلائع السّعادة :

وأتمّ رسول الله ﷺ أربعين سنة من عمره ، والدّنيا واقفة على شفا حفرة من النار ، والإنسانية تخطو بخطى سريعة إلى الانتحار ، هنالك ظهرت تباشير الصبح وطلائع السعادة ، وآن أوان البعثة ، وتلك سنة الله إذا اشتد الظلام ، وطالت الشقوة .

وبلغ قلق رسول الله ﷺ ، مما كان يراه من جهل وجاهلية ، وخرافة ووثنية ـ وتطلعه إلى الارشاد والهداية ، من فاطر الكون وخالق السّموات والأرض ذروته كأن حادياً يحدوه ، فحبب إليه الخلاء ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده ، وكان يخرج من مكة ، ويبعد ، حتى تحسر عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة وبطونها وأوديتها ، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ! ويلتفت رسول الله ﷺ ، حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ، فلا يرى إلا الشجر والحجارة[1] .

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ . وقد جاء في صحيح مسلم قوله ﷺ « اني لا أعرف حجراً بمكة ، ، كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن » (كتاب الفضائل باب فضل نسب النبي) .

وكان أول ما بدىء به ، الرؤيا الصادقة في النوم ، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح[1] .

في غار حراء :

وكان يخلو ـ غالباً ـ بغار « حراء » ، فيمكث فيها ليالي متواليات وكان يتزود لذلك وكان يتعبد ويدعو على الطريقة الإبراهيمية الحنيفية والفطرة السليمة المنيبة إلى الله[2] .

مبعثه ﷺ :

وكان في إحدى المرّات إذ جاءه اليوم الموعود لبعثته ، وكان ذلك في رمضان (١٧ من رمضان[3] ، في السنة الحادية والأربعين من ميلاده ، ٦ أغسطس ٦١٠ م) ، في يقظة ووعي ، فجاءه الملك وهو بحراء ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال رسول الله ﷺ ، فأخذني فغطني ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ، فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثانية ، حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني ،

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ؛ باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » .

(٢) اقرأ حديث عائشة ـ رضي الله عنه باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » .

(٣) ابن كثير ، ج ١ ـ ص ٣٩٢ ، رواية عن أبي جعفر محمد الباقر .

فقال ، اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارىء ، فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني ، فقال : « اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الإنسان من عَلق ، إقرأ وربّك الأكرم الذي علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم(١) » .

وكان ذلك أول يوم من أيام النبوة ، وأول وحي من القرآن .

في بيت خديجة « رضي الله عنها » :

وفزع منه رسول الله ﷺ ، فإنّه لم يعهده ولم يسمع به ، وقد طالت الفترة ، وعهد العرب بالنبوة والأنبياء بعيد ، وخاف على نفسه ، ورجع إلى بيته ترتعد فرائصه وقال :

زمّلوني ، زمّلوني ، لقد خشيت على نفسي .

وسألت خديجة ـ رضي الله عنها ـ عن السبب ، فقص عليها القصة ، وكانت عاقلة فاضلة ، سمعت بالنبّوة والأنبياء والملائكة ، وكانت تزور ابن عمها ورقة بن نوفل ، وكان قد تنصّر ، وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والانجيل ، وكانت تنكر من أهل مكة ما ينكره أهل الفطرة السّليمة والأذهان المستقيمة .

---

(١) نفس المصدر وسورة العلق ١ ـ ٥

وكانت من أعرف الناس بأخلاق رسول الله ﷺ ، لمكانها منه ، وعشرتها له ، واطّلاعها على السر والعلانية ، وقد رأت من أخلاق رسول الله ﷺ ، وشمائله ما يؤكد انه الرجل الموفق والمؤيّد من الله ، المصطفى من خلقه ، المرضي في سيرته وسلوكه ، وإن من كانت هذه أخلاقه وسيرته ، لا يخاف عليه لمة من الشيطان ، أو أن يكون به مسّ من الجن ، وإن ذلك يتنافى مع ما عرفته من حكمة الله ورأفته وسننه في خلقه ، فقالت في ثقة وإيمان وفي قوة وتأكيد :

« كلا ! والله ما يخزيك الله أبداً ، إنّك لتصل الرحم ، وتحمل الكلّ ، وتَكسِبُ المعدوم ، وتَقْري الضيف ، وتعين على نوائب الحق[1] » .

بين يدي ورقة بن نوفل :

وقد قالت ذلك خديجة ، اعتماداً على العقل السليم ، والفطرة الصحيحة ، وعلى تجاربها في الحياة ، ومعرفتها للناس .

ولكنّ الأمر كان اعظم من هذا ، وكان يحتاج إلى رجل له خِبْرة بالدّيانات وتاريخها ، والنبوّات وسننها ، ومعرفة بأهل الكتاب الذين عندهم أخبار الأنبياء وعلمهم .

---

(١) باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » صحيح البخاري .

فرأت أن تستعين في ذلك بابن عمها العالم « ورقة بن نوفل » فانطلقت برسول الله ﷺ ، إليه .

وأخبر رسول الله ﷺ ، ورقة خبر ما رأى ، فقال ورقة : « والذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأمة ، ولقد جاءك النّاموس الأكبر الذي جاء موسى ، وأنّ قومك سيكذبونك ، ويؤذونك ، ويخرجونك ، ويقاتلونك » .

وتعجب رسول الله ﷺ حين قال ورقة : إنّهم سيخرجونك ، لأنه كان يعرف منزلته عند قريش ، فلا ينادونه ولا يخاطبونه إلا بـ « الصادق » وبـ « الأمين » ، فقال متعجباً : « أومخرجيَّهم ؟! » .

قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قطّ بمثل ما جئت به إلا عاداه الناس وحاربوه ، وإن أدركت ذلك اليوم ، وطالت بي الحياة ، نصرتك نصراً قوياً[1] » .

وفتر الوحي زماناً ، ثم تتابع ، وبدأ القرآن ينزل .

إسلام خديجة وأخلاقها :

وآمنت به خديجة ، فكانت أول من آمن بالله وبرسوله ،

---

(١) مقتبس من حديث عائشة ، الجامع الصحيح للبخاري ، باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ » ، وسيرة ابن هشام ؛ ق ١ ص ٢٣٨ .

وكانت بجواره ، تؤازره ، وتثبته ، وتخفف عنه ، وتهون عليه أمر الناس .

إسلام علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة :

ثمّ أسلم عليّ بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان في حجر رسول الله ﷺ ، قبل الإسلام ، أخذه من أبي طالب في أيام الضائقة ، وضمّه إليه(١) .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ، وكان قد تبنّاه رسول الله ﷺ (٢) .

فكان إسلام هؤلاء شهادة أقرب الناس إليه ، وأعرفهم به ، وبصدقه ، وإخلاصه ، وحسن سيرته . وأهلُ البيت أدرى بما فيه .

إسلام أبي بكر بن أبي قحافة وفضله في الدّعوة إلى الإسلام :

وأسلم أبو بكر بن أبي قحافة ، وكانت له منزلة في قريش ، لعقله ومروءته واعتداله ، وأظهر إسلامه ، وقد كان رجلاً محبّباً سهلاً ، عالما بأنساب قريش وبأخبارها ، وكان

---

(١) سيرة أبن هشام ـ ق ١ ، ص ٢٤٥ .
(٢) أيضاً ص ٢٤٧ .

تاجراً ، ذاخلق ومعروف ، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام ، من وثق به من قومه ، ممن يغشاه ويجلس إليه[١] .

إسلام أشراف من قريش :

وأسلم بدعوته أشراف من قريش ، لهم مكانة وسؤدد ، منهم عثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبدالرحمن بن عوف ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة بن عبيدالله ، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ ، فأسلموا[٢] .

وتلاهم رجال من قريش ، لهم شرف ومكانة ، منهم ابو عبيدة أبن الجراح ، والأرقم بن أبي الأرقم وعثمان بن مظعون ، وعبيدة بن الحارث بن المطّلب بن عبد مناف ، وسعيد بن زيد ، وخبّاب بن الأرت ، وعبدالله بن مسعود ، وعمّار بن ياسر ، وصهيب ، وغيرهم - رضي الله عنهم -[٣] .

ودخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء ، حتى فشا ذكر الإسلام بمكة ، وتحدث به[٤] .

---

(١) سيرة أبن هشام ق ١ ، ص ٣٤٩ - ٢٥٠ .
(٢) أيضاً ص ٢٥٠ - ٢٥١ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٢ - ٢٥٥ .
(٤) نفس المصدر ص ٢٦٢

الدعوة جهاراً على جبل « الصفا » :

وكان رسول الله ﷺ يخفي أمره ، ومضى على ذلك ثلاث سنوات ، ثم أمره الله تعالى بإظهار دينه ، وقال :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين[1] » وقال : « وأنذر عشيرتك الأقربين ، وأخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين[2] » ، و« وقل أني أنا النذير المبين[3] » .

فخرج رسول الله ﷺ ، وصعد على جبل « الصفا » ونادى بأعلى صوته ، « يا صباحاه » ، وكانت صيحة معروفة مألوفة ، كلما أحس إنسان بخطر عدوّ ، يغير على بلد ، أو على قبيلة ، على غفلة منها ، نادى : « يا صباحاه » ، فلم تتأخر قريش في تلبية هذا النداء ، واجتمعوا إليه بين رجل يجيء إليه وبين رجل يبعث إليه رسوله .

فقال رسول الله ﷺ : « يا بني عبد المطلب ، يا بني فهر ، يا بني كعب ! أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم ، صدقتموني ؟ » .

كان العرب واقعيّين عمليّين ، إنهم رأوا رجلاً جربوا

---

(١) سورة الحجر ٩٤ .
(٢) سورة الشعراء ٢١٤ ـ ٢١٥ .
(٣) سورة الحجر ٨٩ .

عليه الصدق والأمانة والنصيحة ، قد وقف على جبل يرى ما أمامه ، وينظر إلى ما وراءه ، وهم لا يرون إلا ما هو أمامهم ، فهداهم ذكاؤهم وانصافهم إلى تصديق هذا المخبر الأمين الصادق ، فقالوا : نعم .

الحكمة البليغة في الدعوة والتعليم :

ولما تمّت هذه المرحلة الطبيعية البدائية ، وتحققت شهادة المستمعين ، قال رسول الله ﷺ ، : « فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .

وكان ذلك تعريفاً بمقام النبوة ، وما ينفرد به من علم بالحقائق الغيبية والعلوم الوهبية ، وموعظة وانذاراً ، في حكمة وبلاغة لا نظير لهما في تاريخ الدّيانات والنّبوّات ، فلم تكن طريق أقصر من هذا الطريق ، ولا أسلوب أوضح من هذا الأسلوب .

فسكت القوم ، ولكن أبا لهب قال : « تبا لك سائر اليوم ، أما دعوتنا إلا لهذا ؟![1] » .

---

(١) أصل الحكاية في ابن كثير : ج ١ : ص ٤٥٥ - ٤٥٦ ، رواية عن الإمام أحمد بن حنبل عن ابن عباس ، قال وأخرجاه من حديث الأعمش به نحوه .

إظهار قومه العداوة وحدب أبي طالب عليه :

ولما أظهر رسول الله ﷺ ، الدعوة للإسلام، وصدع بالحق كما أمره الله تعالى ، لم يبعد منه قومه ، ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم ، وعابها ، فلما فعل ذلك ، أعظموه وناكروه ، وأجمعوا خلافه وعداوته .

وحدب على رسول الله ﷺ ، عمه أبو طالب ، ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ ، في دعوته وصدعه بالحق ، لا يرده عنه شيء ، ومضى أبو طالب يحدب عليه ويذود عنه .

فلما طال ذلك ، مشى رجال من قريش إلى أبي طالب ، فقالوا : يا أبا طالب ! إن ابن أخيك قد سبّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفّه أحلامنا ، وضلّل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه ، من دين وعقيدة .

فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً ، وردهم رداً جميلاً ، فإنصرفوا عنه[1] .

بين رسول الله ﷺ ، وأبي طالب :

وأكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ ، وحض بعضهم

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥ باختصار .

بعضاً عليه ، ومشوا إلى أبي طالب مرة أخرى ، فقالوا : يا أبا طالب ! إنّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلة فينا ، وقد رجوناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، فإنا والله لا نصبر أكثر مما صبرنا ، على شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا ، فإما أن تكفّه عنا وإمّا أن ننازله وإيّاك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

وعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام رسول الله ﷺ ، فبعث إلى رسول الله ﷺ ، فقال له :

« يا ابن أخي ! ان قومك قد جاؤوني ، فقالوا لي كذا وكذا ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق

لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري :

وظن رسول الله ﷺ ، أن أبا طالب قد اضطرب في أمره ، وضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال :

« يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » .

واستعبر رسول الله ﷺ ، فبكى ، ثم قام ، فلما ولى ناداه

أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ! فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال : اذهب يا ابن اخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً[1] .

تعذيب قريش للمسلمين :

ومضى رسول الله ، ﷺ ، يدعو إلى الله ، ويئست قريش منه ومن أبي طالب ، ونزل غضبهم على من كان أسلم من أبناء قبائلهم ، وليس لهم من يمنعهم .

فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب ، والجوع ، والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتدَّ الحرّ .

وكان بلال الحبشي ـ وقد أسلم ـ يخرجه مولاه « أمية » ابن خلف ، إذا حميت الظّهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة ، فتوضع على صدره ، ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد اللّات والعزّى ، فيقول ـ وهو في ذلك البلاء ـ أحد ، أحد .

فمر به أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ فأعطى أمية

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص ٢٦٥ ـ ٢٦٦ .

غلاماً أسود أجلد منه ، وأقوى ، وأخذ منه بلالاً وأعتقه[1] .

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمّه ـ وكانوا أهل بيت إسلام ـ إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمرّ بهم رسول الله ، ويقول : صبراً آل ياسر! موعدكم الجنة ، فأمّا أمّه فقتلوها ، وهي تأبى إلا الإسلام[2] .

وكان مصعب بن عمير فتى مكة ، شباباً وجمالاً وتيهاً ، وكان أبواه يحبّانه ، وكانت أمّه غنية كثيرة المال ، تكسوه أحسن ما يكون من الثياب وأرقّه ، وكان أعطر أهل مكة ، يلبس الحضرمي من النعال ، وكان رسول الله ﷺ ، يذكره ويقول : ما رأيت بمكة أحسن لمةّ ولا أرقّ حلّة ، ولا أنعم نعمة ، من مصعب بن عمير.

وبلغ مصعب بن عمير أن رسول الله ﷺ ، يدعو إلى الإسلام في دار أرقم بن أبي الأرقم ، فدخل عليه ، فأسلم ، وصدّق به ، فخرج ، فكتم إسلامه خوفاً من أمّه وقومه ، فكان يختلف إلى رسول الله ﷺ ، سرّاً ، فبصُر به عثمان بن طلحة يصلي فأخبر أمّه وقومه ، فأخذوه وحبسوه ، فلم يزل

(١) نفس المصدر ؛ ق ١ ؛ ص ٣١٧ ـ ٣١٨ .
(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٣١٩ ـ ٣٢٠ .

محبوساً حتى خرج إلى أرض الحبشة في الهجرة الأولى ، ثم رجع مع المسلمين ، حين رجعوا ، فرجع متغيّر الحال ـ قد حرج ـ يعني غلظ ـ فكفت أمّه عنه من العذل[1] .

وكان بعض المسلمين قد دخل في جوار بعض المشركين ، من أشراف قريش ورؤسائهم ، وكانوا يمنعونهم ويحمونهم ، وكان عثمان بن مظعون قد دخل في جوار الوليد بن المغيرة ، ثم أبت غيرته ذلك ، فردّ عليه جواره ، وكان وفياً كريم الجوار ، وقال : قد أحببت ألاّ أستجير بغير الله ، ودار بينه وبين أحد المشركين حديث أغضب المشرك ، فقام إليه ولطم عينه ، فخضرها والوليد بن المغيرة قريب يرى ذلك ، فقال : أما والله يا ابن أخي ! إن كانت عينك عما أصابها لغنية ، لقد كنت في ذمة منيعة ، قال عثمان : بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب اختها في الله ، وإني لفي جوار من هو أعزّ منك وأقدر ، يا أبا عبد شمس[2] .

ولما أسلم عثمان بن عفّان ـ رضي الله عنه ـ أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية ، فأوثقه رباطاً وقال : أترغب عن ملة آبائك إلى دين محدث ، والله ! لا أحلك أبداً حتى

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ٣ ، ص ٨٢ ، والاستيعاب ج ١ ، ص ٢٨٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص/ ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

تدع ما أنت عليه من هذا الدين ، فقال عثمان : والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه ، فلما رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1] .

ويقول خبّاب بن الأرت : لقد رأيتني يوماً أخذوني فأوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها ، ثم وضع رجل رجله على صدري ، فما اتقيت الأرض ـ أو قال برد الأرض ـ إلا بظهري ، قال ثم كشف عن ظهره ، فإذا هو قد برص[2] .

محاربة قريش لرسول الله ﷺ ، وتفننهم في الإيذاء :

فلم تلق قريش نجاحاً في صرف هؤلاء الفتيان الذين أسلموا ، عن دينهم ، ولم يَلِنْ رسول الله ﷺ ، ولم يحابِهم ، اشتد عليهم ذلك ، فأغروا برسول الله ﷺ ، سفهاءهم ، فكذبوه وآذوه ، ورموه بالسحر والشعر ، والكهانة والجنون ، وتفننوا في إيذاء رسول الله ﷺ ، وذهبوا فيه كل مذهب .

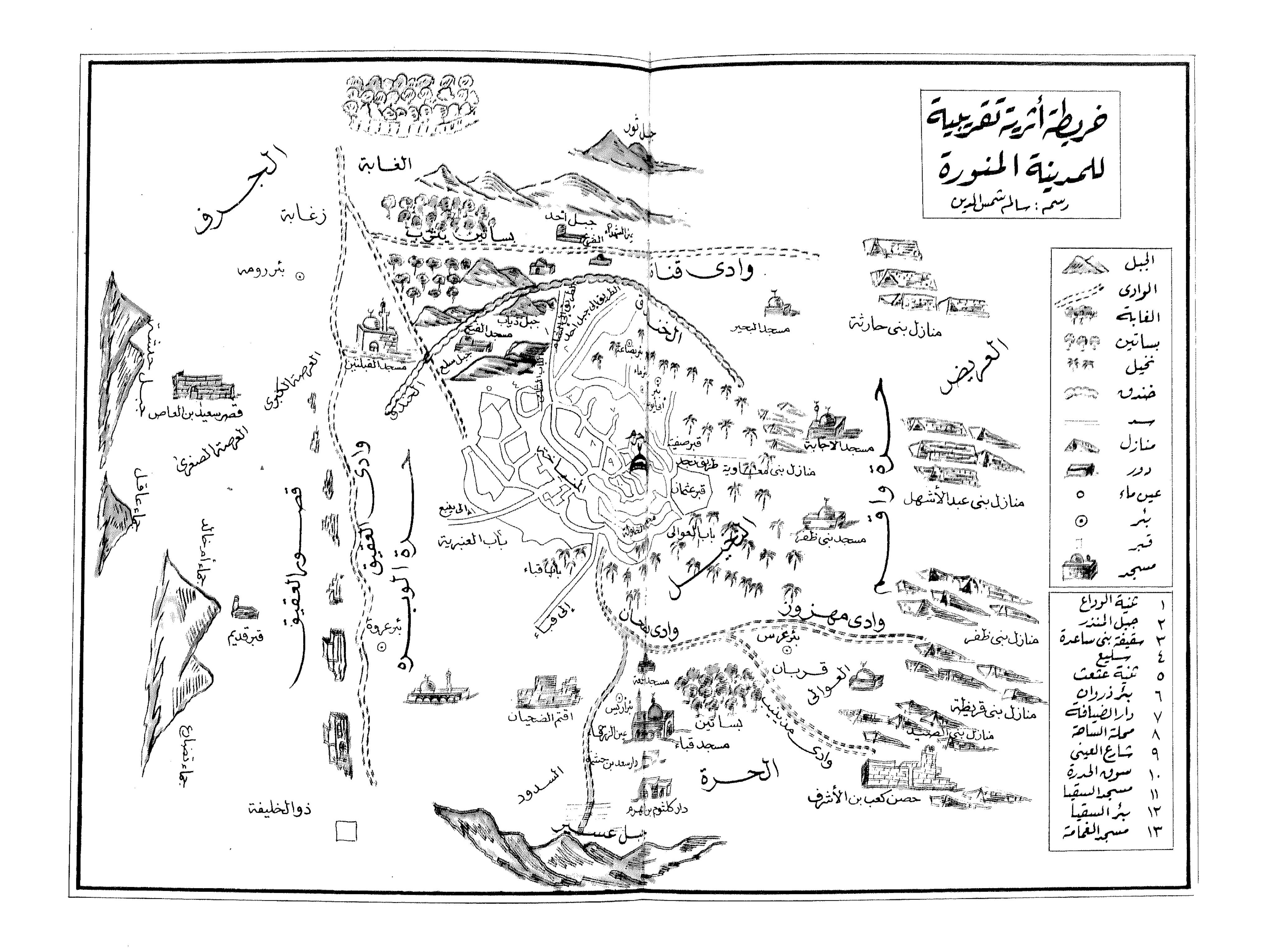
وكان أشرافهم مجتمعين يوماً في الحجر[3] ، إذ طلع

---

(١) طبقات ابن سعد ؛ ج ٣ ، ص ٣٧ .

(٢) طبقات ابن سعد ، ج ٣ ص ١١٧ .

(٣) الحجر : بكسر الحاء وسكون الجيم ، هو الفضاء الواقع بين الحطيم وحائط البيت ، ويسمونه بـ « حجر إسماعيل » أيضاً ، والحطيم قوس من البناء طرفاه إلى زاوية البيت الشمالية والغربية ، وكان « الحجر » أولاً داخلاً في الكعبة ، فلما هدم السيل الكعبة بنتها قريش من جديد ، وذلك قبل مبعثه ﷺ ، بنحو خمس سنين ، فقصرت بهم النفقة ؛ فبنوا الكعبة على ما هي عليه الآن .



خريطة أثرية تقريبية
للمدينة المنورة
رسم : سالم شمس الدين
الجبل
الوادي
الغابة
بساتين
نخيل
خندق
سد
منازل
دور
عين ماء
بئر
قبر
مسجد
١ ثنية الوداع
٢ جبل المنذر
٣ سقيفة بني ساعدة
٤ سليع
٥ ثنية عثعث
٦ بئر ذروان
٧ دار الضيافة
٨ محلة الساحة
٩ شارع العيني
١٠ سور المدينة
١١ مسجد السقيا
١٢ بئر السقيا
١٣ مسجد الغمامة
جبل ثور
الغابة
الجرف
زغابة
بئر رومة
جبل أحد
بساتين يثرب
وادي قناة
مسجد البحير
منازل بني حارثة
العريض
مسجد القبلتين
جبل ذباب
مسجد الفتح
جبل سلع
العرصة الكبرى
العرصة الصغرى
قصر سعيد بن العاص
الخندق
بئر بضاعة
مسجد الإجابة
منازل بني معاوية
قبر عثمان
منازل بني عبد الأشهل
مسجد بني ظفر
باب العوالي
باب العنبرية
باب قباء
إلى قباء
وادي العقيق
قصور العقيق
بئر عروة
حرة الوبرة
قبر قديم
ذو الخليفة
وادي بطحان
وادي مهزور
بئر غرس
قربان
العوالي
منازل بني ظفر
منازل بني قريظة
منازل بني النضير
وادي مذينيب
حصن كعب بن الأشرف
مسجد قباء
بساتين
بئر أريس
أطم الضحيان
دار كلثوم بن الهدم
دار سعد بن خيثمة
الحرة
السدود
جبل عسير

عليهم رسول الله ﷺ ، ومرّ بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القــول ، وعــادوا بذلك ثلاث مرات ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ؟ ، أمـا والـذي نفسي بيده ، لقـد جئتكم بالذّبح ، فأُسكت القوم ، فلا حَرَاك بهم ، وصـاروا يلاطفونه بالقول .

فلما كان من الغد ، وهـم في مقامهـم ، طلـع عليهـم رسول الله ﷺ ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطـوا به ، وأخذ رجل منهم بمجمع ردائه ، فقام أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجـلاً أن يقـول: ربـي الله ؟! ، فانصرفوا عنه ، ورجع أبو بكر يومئذ وقد صدعـوا فرق رأسه ، وقد جروه بلحيته .

وخرج رسول الله ﷺ ، يوماً فلم يلقه أحد من الناس ، إلا كذّبه وآذاه ، لا حرّ ولا عبد ، فرجع رسول الله ﷺ ، إلى منزله ، فتدثر من شدة ما أصابه ، فأنزل الله تعالى عليه : « يا أيها المدثر »[1] .

ما فعل كفّار قريش بأبي بكر :

وقـام أبـو بكر يومـاً في النـاس ، يدعــو إلى الله وإلى

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩١ ، ورواه البخاري مختصراً في باب « ما لقي رسول الله ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة »

رسوله ، وثار المشركون على أبي بكر فوُطىء ، وضُرب ضرباً شديداً ، وجعل عتبة بن ربيعة يضربه بنعلين مخصوفتين يحرفهما بوجهه حتى ما يعرف وجهه من أنفه .

وحملت بنو «تيم» أبا بكر ، وهم لا يشكّون في موته ، وتكلم آخر النهار ، فقال : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ودنت منه أم جميل وهي ممن أسلم فسألها عن رسول الله ﷺ ، قالت : هذه أمك تسمع، قال: فلا شيء عليك منها ، قالت : سالم صالح ، قال : فإن لله عليّ ألا أذوق طعاماً وأشرب شراباً أو آتي رسول الله ﷺ فأمهلتا ، حتى إذا هدأت الرِّجل ، وسكن الناس ، خرجتا به يتكىء عليهما ، حتى أدخلتاه ورق له رسول الله ﷺ ، رقة شديدة فدعا رسول الله ﷺ ، لأمه ، ودعاها إلى الله ، فأسلمت[1] .

حيْرَة قريش في وصف رسول الله ﷺ :

وحارت قريش في أمر رسول الله ﷺ ، بماذا يصفونه ، وكيف يحولون بينه ، وبين من يقصده ، أو يستمع إليه ، من الوافدين من بعيد ، واجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة ـ وكان ذا سنّ فيهم وقد حضر الموسم ـ فقال لهم : يا معشر قريش ! إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ،

(١) سيرة ابن كثير ج ١ ، ص ٤٣٩ ـ ٤٤١ .

وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذِّبَ بعضكم بعضاً ، ويردَّ قولكم بعضه بعضاً ، ودار بينهم حديث طويل وأخذ وردّ .

ولم يرض الوليد بما عرضوه ، ونقضه ، فرجعوا إليه وقالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟! ، قال : إن أقرب القول فيه لأن تقولوا : ساحر جاء بسحر ، يفرّق به بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرّقوا عنه بذلك ، فجعلوا يجلسون بسبُل الناس ، حين قدموا الموسم ، لا يمرّ أحد ألا وحذّروه إياه ، وذكروا له أمره[1] .

قسوة قريش في إيذاء رسول الله ﷺ ، ومبالغتهم في ذلك :

وتفنّن قريش ، وقَسوْا في إيذاء رسول الله ﷺ ، فلم يرعوا فيه قرابة ، وتخطوا حدود الإنسانية .

فبينا النبي ﷺ ، ساجد - ذات يوم - في المسجد ، وحوله

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ - باختصار .

ناس من قريش ، إذ جاء عقبه بن أبي معيط بسلاجزور[١] ، فقذفه على ظهر النبيﷺ ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته « فاطمة » ـ عليها السلام ـ فأخذته من ظهره ، ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبيﷺ[٢] .

اسلام حمزة بن عبد المطّلب :

ومرّ أبو جهل برسول اللهﷺ ، ذات يوم عند « الصّفا » فآذاه وشتمه فلم يكلمه رسول اللهﷺ ، فانصرف عنه .

ولم يلبث حمزة بن عبد المطلب أن أقبل متوشحاً[٣] قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان أعزّ فتى في قريش ، وأشدّ شكيمة ، وأخبرته مولاة عبدالله بن جدعان بما جرى لرسول الله ﷺ ، فاحتمل حمزة الغضب ، ودخل المسجد ، ورأى أبا جهل جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس ، فضربه بها ، فشجّه شجّةً منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه ، أقول ما يقول ، فسكت أبو جهل ، وأسلم

---

(١) سلا : وهو اللفافة يكون فيها الولد في بطن الناقة وسائر الحيوان ، وهي من الآدمية المشيمة .

(٢) رواه البخاري في باب « ذكر ما لقي النبيﷺ وأصحابه من المشركين بمكة » .

(٣) متوشحاً متقلداً .

حمزة وعزّ ذلك على قريش لمكانته وشجاعته[1] .

ما دار بين عتبة وبين رسول الله ﷺ :

ولمّا رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ، يزيدون ويكثرون ، استأذن عتبة بن ربيعة قريشاً ، أن يأتي رسول الله ﷺ ، فيكلّمه ، ويعرضَ عليه أموراً ، لعلّه يقبل بعضها ، فيعطونها ، ويكفّ عنهم ، وأذنت له قريش ، واستخلفته .

وجاء عتبة إلى رسول الله ﷺ ، فجلس إليه ، وقال : يا ابن أخي ، إنّك منا حيث قد علمت ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقّت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبْتَ به آلهتهم ودينهم ، وكفّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرضْ عليك أموراً تنظر فيها ، لعلّك تقبل منها بعضها .

فقال رسول ﷺ : قل يا أبا الوليد ! أسمع .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً ، جمعنالك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً ، سوّدناك علينا ، حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا ، وإن كان الذي

---

(1) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٢ .

يأتيك رئياً[1] تراه ، لا تستطيع ردّه عن نفسك ، طلبنا لك أطباء ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه .

فلما فرغ عتبة ، قال رسول الله ﷺ : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم .

قال : فاسمع منّي .

قال : أفعل .

فقرأ رسول الله ﷺ ، آيات من سورة « فصّلت » إلى السّجدة ، فلما سمع عنه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره ، معتمداً عليهما ، يسمع منه ، فلما انتهى رسول الله ، ﷺ ، إلى السجدة منها ، سجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه : فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم ، قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟! قال : ورائي أني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش! أطيعوني ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، وقالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، قال : هذا رأيي

(١) رئيا : ما يتراءى للإنسان من الجن .

فيه ، فأصنعوا ما بدا لكم[1] .

هجرة المسلمين إلى الحبشة :

ولما رأى رسول الله ﷺ ، ما يصيب أصحابه من البلاء ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن لها ملكاً ، لا يظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه .

فخرجت عند ذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة في الإسلام ، وكانوا عشرة رجال ، أمّروا عليهم عثمان بن مظعون .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب ، وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج بنفسه ، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً[2] .

تعقب قريش للمسلمين :

ولما رأت قريش أن هؤلاء قد أمِنُوا واطمأنّوا بأرض الحبشة ، بعثوا عبدالله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص بن

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ؛ ص ٢٩٣ - ٢٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢١ - ٣٣٠ .

رائل ، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته[1] ، مما يستطرف من متاع مكة ، وقدما على النجاشي ، وقد استمالا البطارقة ، وأرضياهم بهداياهم ، وتكلما في مجلس الملك ، فقالا : إنه لجأ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين مبتدع ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا اليك أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم إليهم ، فهم أبصر بهم وأقرب اليهم ، وقالت البطارقة حوله : صدقا أيها الملك ، فأسلمهم إليهما .

فغضب النجاشي ، وأبى أن يقبل كلامهم ، ويسلم من لجأ إليه وإلى بلاده ، وحلف بالله ، وأرسل إلى المسلمين ، فدعاهم ، ودعا أساقفتهم[2] ، وقال للمسلمين : ما هذا الدّين الذي قد فارقتم فيه قومكم ؟ ولم تدخلوا في ديني ودين أحد من هذه الملل ؟

تصوير جعفر بن أبي طالب للجاهلية وتعريفه بالإسلام :

وقام جعفر بن أبي طالب ـ وهو ابن عم رسول الله ﷺ ، فقال له :

---

(١) البطارقة : جمع بطريق ، وهو القائد الحاذق بالحرب .

(٢) الأساقفة : علماء النصارى ، والواحد الأسقف .

« أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القويّ منا الضعيف ، فكنا على ذلك ، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحّده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه ، وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئاً ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحْلَلْنا ما أحلّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردّونا إلى عبادة الأوثان ، من عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث » .

«فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا ألاّ نظلم عندك أيها الملك !» .

وسمع النجاشي كل ذلك في هدوء ووقار ، ثم قال :

هل معك ما جاء به صاحبكم عن الله من شيء ؟

قال جعفر : نعم .
قال النجاشي : فاقرأه علي .

فقرأ جعفر صدراً من سورة مريم ، فبكى النجاشي ، حتى اخضلّت[1] ، لحيته ، وبكى أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم .

خيبة وفد قريش :

ثم قال النجاشي : إنّ هذا والذي جاء به عيسى ، يخرج من مشكاة واحدة ، ثم أقبل على رسولي قريش ، فقال : انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكم .

وأطلق عمرو بن العاص آخر سهم من سهام جعبته ، وهو سهم مسموم ، فغدا على النجاشي من الغد ، وقال له : أيها الملك ! إنهم ليقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً ، فأقبل الملك على المسلمين ، فقال : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ .

قال جعفر بن أبي طالب نقول فيه ما جاء به نبينا ﷺ ،

---

(١) اخضلت : ابتلت

هو عبدالله ورسوله ، وروحه ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم العذراء البتول ، فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما زاد عيسى بن مريم على ما قلت مقدار هذا العود .

ورد المسلمين رداً كريماً ، وأمّنهم ، وخرجا من عنده مقبوحين[1] ، فأقام المسلمون بخير دار مع خير جار .

إسلام عمر بن الخطاب :

وأيّد الله الإسلام والمسلمين ، بإسلام عمر بن الخطاب العدوي القرشي ، وكان رجلاً مهيباً ، ذا قوة وشكيمة ، وكان رسول الله ﷺ ، حريصاً على إسلامه ، يدعو الله لذلك .

وكان من خبر إسلامه أن أخته « فاطمة » بنت الخطاب أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وكانا يخفيان إسلامهما من عمر ، لهيبته وشدته على الإسلام والمسلمين ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة يقرئها القرآن .

فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه ، يريد رسول الله ـ ﷺ ـ ورهطاً من أصحابه ، قد ذكر له أنهم اجتمعوا في بيت عند « الصفا » فلقيه نعيم بن عبد الله ـ وهو من قومه بني عدى ،

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٨ باختصار .

وكان قد أسلم ـ فقال له : أين تريد يا عمر ! قال أريد محمداً هذا الصابىء ، الذي فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : لقد غرّتك نفسك يا عمر ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك ، فتقيم أمرهم ؟ قال عمر : وأي أهل بيتي ؟ !

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمدا على دينه ، فعليك بهما .

ورجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خبّاب بن الأرت ، ومعه صحيفة ، فيها « طه » يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حسّ عمر ، تغيّب خباب في مخدع لهم[1] ، وأخذت فاطمة الصحيفة وجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب ، فلما دخل ، قال : ما هذه الهينمة[2] ؟ ، قالا له ما سمعت شيئاً ، قال : بلى ، والله ، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه .

وبطش عمر بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة ، لتكفّه عن زوجها ، فضربها فشجها .

---

(١) المخدع البيت الصغير الذي يكون في البيت الكبير .

(٢) الهيمنة : صوت كلام لا يفهم .

فلما فعل ذلك ، قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك !

ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ، ندم على ما صنع ، وتوقف وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤنها آنفاً ، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ، وكان عمر قارئاً ، فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها ، قال : لا تخافي ، وحلف لها بآلهته ، فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي ! إنك نجس على شركك وانه لا يمسّها إلا الطاهر .

فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها « طه » ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام ، وأكرمه ! .

فلما سمع ذلك خبّاب ، خرج إليه ، وقال له : يا عمر ! والله اني لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإني سمعته أمس ، وهو يقول : اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام (يعني أبا جهل) أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

عند ذلك قال له عمر : فدلّني يا خباب على محمد ، حتى آتيه فأسلم ، قال خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه

نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه ، فتوشحه ، ثم عمد إلى رسـول الله - ﷺ - وأصحابـه ، فضرب عليهـم البـاب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله - ﷺ - فنظر من خلل الباب ، فرآه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله - ﷺ - وهـو فزع ، فقـال : يا رسـول الله ! هذا عمـر بن الخطاب ، متوشحاً السيف ، فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفـه ، فقـال رسـول الله - ﷺ - إئـذن له ، فأذن له الرجل .

ونهض إليه رسول الله - ﷺ - حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته[1] ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبـذه به جبـذة شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ، فقال عمر : يا رسول الله ! جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء به من عند الله .

قال : فكبر رسول الله - ﷺ - تكبيرة عرف منهـا أهـل البيت من أصحاب رسول الله - ﷺ - ، أن عمر قد أسلم[2] .

وعزّ المسلمون في أنفسهم ، حينما أسلـم عمـر ، وقـد

---

(١) الحجزة : موضع شد الأزار .
(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٣٤٢ - ٣٤٦ .

أسلم حمزة من قبل ، وعرفوا وقع ذلك في نفوس الكفار من قريش ، وأثره في حياة مكة ، ولم يكونوا على خطأ ، فلم يستثقل المشركون إسلام أحد ولم يحسبوا له حساباً ، مثل ما فعلوا عند إسلام عمر - رضي الله عنه - .

وأعلن عمر إسلامه ، وشاع ذلك في قريش ، وقاتلوه وقاتلهم، حتى يئسوا منه[1] .

مقاطعة قريش لبني هاشم والإضراب عنهم :

وجعل الإسلام يفشو في القبائل ، فاجتمعت قريش ، وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب ، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم ، ولا يبيعوهم شيئاً ، ولا يبتاعوا منهم ، فلما اجتمعوا لذلك ، كتبوه في صحيفة ، ثم تعاهدوا ، وتواثقوا على ذلك، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

في شعب أبي طالب :

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب ، فدخلوا معه في شعبه[2] ، وذلك في سنة سبع

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص ٣٤٩ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

من النبوة .

وخرج من بني هاشم أبو لهب بن عبدالمطلب ، وكان مع قريش ، وأقام بنو هاشم على ذلك حتى جهدوا من ضيق الحصار ، وأكلوا ورق السّمُر ، وأطفالهم يتضاغَوْن من الجوع ، حتى يُسمع بكاؤهم من بعيد ، وقريش تحول بينهم وبين التجار ، فيزيدون عليهم في السّلعة أضعافاً ، حتى لا يشتروها .

ومكثوا على ذلك ثلاث سنوات ، لا يصل إليهم شيء إلا سرّاً ، ممن أراد صلتهم من قريش ، ورسول الله - ﷺ - على ذلك يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، وسرّاً وجهاراً ، وبنو هاشم صابرون محتسبون .

نقض الصّحيفة وإنهاء المقاطعة :

وقام نفر من قريش ، من أهل المروءة والضمائر ، في مقدمتهم هشام بن عمرو بن ربيعة ، فكرهوا هذا التعاقد الظالم ، وعافته نفوسهم ، وكان هشام رجلاً واصلاً ، وكان ذا شرف في قومه ، فمشى إلى رجال من قريش ، أنس فيهم الرّقة والرجولة ، فاستثار حميتهم وإنسانيتهم لنقض الصحيفة والخروج من هذا التعاقد الظالم ولما كانوا خمسة اجتمعوا وتعاقدوا على نقض الصحيفة فلما كانت قريش في أنديتها من

غد ، قام زهير بن أبي أمية وكانت أمه « عاتكة » بنت عبد المطلب ، وأقبل على الناس .

قال:يا أهل مكة ! أنأكل الطعم ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى ، لا يباع ولا يبتاع منهم ؟! والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة الظالمة .

وتدخل أبو جهل في الحديث ، فلم يفد ، وقام المطعم ابن عدي إلى الصحيفة ليشقّها ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا « باسمك اللهم » وكان النبي - ﷺ - قد أخبر بذلك أبا طالب ، ومُزقت الصحيفة وبطل ما فيها(١)

وفاة أبي طالب وخديجة :

ومات أبو طالب وخديجة في عام واحد - العام العاشر من النبوة - وهما من عرفنا من حسن الصحبة والوفاء والنصر والتأييد ، ولم يسلم أبو طالب ، وتتابعت على رسول الله ﷺ ، المصائب(٢) .

وقع القرآن في القلوب السليمة :

وقدم الطفيل بن عمرو الدوسي مكة ، وكان رجلاً

---

(١) نفس المرجع ، ص ٣٧٣ - ٣٧٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ص ٤١٥ - ٤١٦ .

شريفاً ، وشاعراً لبيباً ، فحالت قريش بينه وبين رسول الله ، وخوّفوه من الدنوّ إليه ، وسماع كلامه ، وقالوا : انا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئاً .

يقول الطفيل : والله ما زالوا بي حتى أجمعت ألا أسمع منه شيئاً ، ولا أكلمه ، حتى حشوت في أذني قطناً ، وغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ ، قائم يصلي عند الكعبة ، فقمت منه قريباً ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، قال ـ فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب شاعر ، ما يخفى علي الحسن من القبيح فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ، فإن كان الذي يأتي به حسناً ، قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

ودخل الطفيل على رسول الله ، ﷺ ، في بيته ، وحكى له القصة ، فعرض عليه رسول الله ، ﷺ ، الإسلام ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم ، ورجع إلى قومه داعياً إلى الإسلام ، وأبى أن يساكن أهله حتى يسلموا ، فدخلوا في الإسلام جميعاً ، ودعا دوسا إلى الإسلام ، وفشا الإسلام فيهم[(١)] .

وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ يعبد ربه في داره ، ولا

(١) نفس المرجع ، ص ٣٨٢ ـ ٣٨٤ ملخصاً .

يستعلن بصلاته ، ثم بدا له فابتنى مسجداً بِفِنَاء داره ، وكان يصلي فيه ويقرأ القرآن ، فيتقذف[٢] ، عليه نساء المشركين وأبناؤهم ، وهم يعجبون منه وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكّاءً ، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن .

وأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدّغنّة الذي أجاره ، فقدم عليهم ، فقالوا : إنّا كنّا أجرنا أبا بكر بجوارك ، على أن يعبد ربه في داره ، فقد جاوز ذلك ، فابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقراءة فيه ، وانا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فأنهه فإن أحب أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره ، فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن بذلك ، فسله أن يرد إليك ذمتك ، فانا كرهنا أن نخفرك[٢] ، ولسنا مقرّين لأبي بكر الاستعلان .

فلما أخبره ابن الدّغنّة بما قالت قريش ، قال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله[١] .

الخروج إلى الطائف ، وما لقي فيها من الأذى :

ولما مات أبو طالب نال رسول الله ﷺ ، من قريش من

---

(١) أي يزدحمون حتى يسقط بعضهم علي بعض .

(٢) الأخفار هو نقض العهد .

(٣) رواه البخاري في الصحيح عن عائشة (باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه ـ ملخصاً .

الأذى ، ما لم تكن تطمع فيه قريش ، في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً .

ولما اشتد أذى قريش ، وانصرافهم عن الإسلام ، وزهدهم فيه ، خرج رسول الله ﷺ ، إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف وأن يدخلوا في الإسلام ، وكان له أمل في أهل الطائف[١] ، ولا غرابة في ذلك فإنه رضع في بني سعد وهم بمقربة من الطائف وفيهم مراضعه وحواضنه .

وكانت الطائف تلو مكة في الأهمية واتساع العمران ورفاهية السكان ونَقَل القرآن مقالة الخصوم من قريش فقال : « وقالوا : لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[٢] .

وكانت مستقر عبادة اللاّت وكان صنماً يعبد ويحج إليه ، وكانت تضارع في ذلك مكة التي كانت مستقر عبادة « هبل » صنم قريش الأكبر.

وكانت مصيفاً للمتنعمين ، وظلّت كذلك إلى العهد الإسلامي ، فما بعده ، يقول الشاعر الأموي عمر بن أبي

---

(١) من المرجح أن رسول الله ﷺ توجه إلى الطائف في أخريات شوال من السنة العاشرة (« خاتم النبيين » للعلامة المرحوم أبي زهرة ج ١ ، ص ٥٨٠) .
(٢) سورة الزخرف ٣١ .

ربيعة :

تشتــو بمــكة نعمة ومصيفهــا بالطائف

وكان أهل الطائف أصحاب أملاك وبساتين ، وثـراء ورخاء ، أورثتهـم الكبـر والبطـر وجعلتهـم مصداقـاً لقولـه تعالى :

« وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنـا بمـا أرسلتم به كافرون ، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً ، ومـا نحن بمعذبين[١] » .

فلما قدم رسول الله ﷺ ، الطائف ، عمد إلى نفر منهم سادة ثقيف وأشرافهـم ، فجلس إليهـم ، ودعاهـم إلى الله ، فكان ردّهم شر ردّ ، واستهزأوا به ﷺ ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبّونه ويصيحون به ، ويرجمونه بالحجارة ، فعمد إلى ظلّ نخلة ، وهو مكروب ، فجلس فيه ، وكان ما لقي في الطائف أشد ما لقيه من المشركين ، وقعد له أهل الطائف صفين على طريقـه ، فلما مرّ ، جعلـوا لا يرفـع رجليه إلا رموهـا بالحجارة ، حتى أدموه ، وهما تسيلان الدماء ، وفـاض قلبـه ولسانه بدعاء شكا فيه إلى الله ضعف قوتـه ، وقلـة حيلتـه ،

---

(١) سورة سبأ ٣٤ ، ٣٥ .

وهوانه على الناس ، واستعاذ بالله تعالى وبنصره وتأييده، فقال :

« اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلّة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ! أنت رب المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملّكته أمري ؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحلّ علي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » .

فأرسل الله إليه ملك الجبال ، يستأذنه في أن يطبق الجبلين اللذين بينهما الطائف ، فقال له رسول الله ﷺ : بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً[1] .

ولما رآه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وما لقي ، تحركت لهما المروءة ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً يقال له « عدّاس » فقالا له : خذ قطفاً من العنب ، فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به

---

(١) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الجهاد والسير ، باب « ما لقي النبي ﷺ من أذى المنافقين والمشركين » .

إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه ، ففعل « عدّاس » ، وأسلم بما سمعه من حديث رسول الله ﷺ ، ورأى من أخلاقه[1] .

وانصرف رسول الله ﷺ ، من الطائف إلى مكة ، وقومه أشد ما كانوا عليه من خلاف وعداء ، وسخرية واستهزاء .

الاسراء والمعراج :

ثم أسري برسول الله ﷺ ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ومنه إلى ما شاء الله من القرب والدنوّ ، والسّير في السّماوات ، ومشاهدة الآيات ، والاجتماع بالأنبياء :

« ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى[2] » .

فكانت ضيافة كريمة من الله ، وتسلية وجبراً للخاطر ، وتعويضاً عما لقيه في الطائف ، من الذِّلّة والهوان ، والجفاء والنكران .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٤١٩ ! ٤٢٢ ، وسيرة ابن كثير ، ج٢ ، ص ١٤٩ ـ ١٥٣ ؛ وزاد المعاد ج١ ، ص ٣٠٢ (مجموعا ملخصاً) .

(٢) القرآن الكريم سورة الإسراء وسورة النجم ، وكتب الحديث والسيرة .

فلما أصبح غدا على قريش ، فأخبرهم الخبر ، فأنكروه ذلك ، واستعظموه ، وكذبوه ، واستهزأوا ، وأما أبو بكر فقال : والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ؟ فوالله انه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار ، فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه(١) .

معاني الإسراء والمعراج العميقة ومراميها البعيدة:

ولم يكن الإسراء مجرّد حادث فردي بسيط رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى وتجلت له ملكوت السّماوات والأرض مشاهدة وعياناً بل زيادة إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرّحلة النبويّة

---

(١) سيرة ابن كثير ج ٢ : ص ٩٦ ، وسيرة أبن هشام ، ق ١ ، ٣٩٩ .
ذهب جمهور أهل السنة إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح ، وأن أقوى القرائن والدلائل على ذلك أن النبي ﷺ عندما أعلن ذلك بين قريش فتن بعض الذين أسلموا ، وارتد من ارتد ، كما رواه ابن كثير ، ولو كان بالروح أو رؤيا رآها النبي ﷺ ، لما كان في ذلك غرابة ، فالإنسان العادي يرى في المنام ما لا يصدقه الواقع ولا يخطر بخلد أحد ، ولقد ألف الناس في كل زمان ومكان الرؤى الغريبة والأحلام العجيبة ، ولا يسارعون إلى تكذيبها ؛ وقد روي منها كل غريب وشحنت به كتب الديانات وأخبار العظماء والنساك ، ولو كان ذلك مجرد عروج روحي ؛ أو قصة منام ، لبادر النبي ﷺ إلى اخبارهم بأن ذلك وحي أوحى به إليه ، أو رؤيا رآها في المنام ، فضموه إلى ما كانوا يسمعون منه صباح مساء ، من وحي يوحى إليه وملك يأتيه فيكلمه ، فما أثار ذلك تلك الدهشة التي أثارها والتساؤلات الكثيرة التي بعثها ، فما هو بشيء جديد بالنسبة إليه .
ومن شاء التوسع في هذا الموضوع وتحقيق ما اشتمل عليه من اسرار وحقائق وحكم إلهية ، واشارات لطيفة ؛ وفوائد تشريعية ؛ في ضوء الكتاب والسنة والعقل السليم فعليه بفصل « الإسراء إلى المسجد الأقصى ومنه إلى سدرة المنتهي في كتاب حجة الله البالغة » ، ج ٢ ، لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالرحيم الدهلوي المتوفى سنة ١١٧٦ هـ ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

الغيبيّة على معان عميقة دقيقة كثيرة ، وإشارات حكيمة بعيدة المدى ، فقد ضمّت قصّة الإسراء وأعلنت السّورتان الكريمتان اللّتان نزلتا في شأنه وتسمّى سورة « الإسراء » وسورة « النجم » أن محمّداً - ﷺ - هو نبيّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال بعده ، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلّى الأنبياء خلفه ، فكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه ، وصلاحيّتها لاختلاف المكان والزّمان ، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين شخصيّة النبيﷺ ووصف إمامته وقيادته وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها وآمنت به وبيان رسالتها ودورها الّذي ستمثله في العالم ، ومن بين الشعوب والأمم .

جاء الإسراء خطًّا فاصلاً بين النّاحية الضيّقة الموقّتة وبين الشّخصيّة النّبوية الخالدة العالمية ، فإن كان الرّسول - عليه الصّلاة والسلام - زعيم أمّة ، أو قائد إقليم ، أو منقذ عنصر ، أو مؤسّس مجد ، لم يكن في حاجة إلى الإسراء والمعراج ، ولم يكن في حاجة إلى سياحة في عالم الملكوت ، ولم يكن في حاجة إلى أن تتّصل بسببه الأرض بالسّماء اتّصالاً جديداً ، لقد كان له في أرضه الّتي يعيش فيها وفي محيطه الذي يكافح فيه ، وفي مجتمعه الذي يسعى لإسعاده غنى وسعة ، لا يفكّر في غيره ، ولا يتجاوز إلى رقعة أخرى من الأرض

فضلاً عن السّماوات العلى ، وسدرة المنتهى ، وفضلاً عن المسجد الأقصى الذي يبعد عن بلده بعداً كبيراً والذي كان في ولاية الدّيانة المسيحيّة وحكومة الأمّة الرّومية القويّة .

وجاء الإسراء ، وأعلن أنّ محمداً ﷺ ، ليس من طراز القادة والزّعماء الّذين لا تتجاوز مواهبهم ، وجهودهم ، ودوائر كفاحهم حدود الشّعوب والبلاد ، ولا تسعد بهم إلاّ الشّعوب الّتي يولدون فيها ، والبيئات التي ينبعون منها ، إنما هو من جماعة الأنبياء والرّسل الّذين يحملون رسالات السّماء إلى الأرض ، ويحملون رسالات الخالق إلى الخلق ، وتسعد بهم الإنسانيّة على اختلاف شعوبها وطبقاتها وعهودها وأجيالها .

فرض الصلوات :

وفرض الله عليه وعلى أمّته خمسين صلاة في كل يوم ، وما زال رسول الله ﷺ ، يسأله التّخفيف ، حتى جعلها الله خمس صلوات في كلّ يوم وليلة ، من أدّاهنّ إيماناً واحتساباً كان له أجر خمسين صلاة [١] .

---

(١) حديث طويل رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الصلاة ، باب « كيف فرضت الصلاة » .

عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل :

وبدأ رسول الله ﷺ ، يعرض نفسه في المواسم على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الإسلام ، وإلى أن يمنعوه من الأعداء ، ويقول : يا بني فلان ! إني رسول الله إليكم، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا به ، وتصدّقوا به ، وتمنعوني حتى أُبيِّن عن الله ما بعثني به .

فإذا فرغ رسول الله ﷺ ، من قوله ، قام أبو لهب ، فقال : يا بني فلان ! إن هذا إنّما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعُزَّى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة والضّلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه [١] .

الطّريق إلى الإسلام :

وكان الطّريق إلى رسول الله ﷺ ، وإلى الإسلام مفروشاً بالأشواك ، محفوفاً بالمخاوف والأخطار ، لا يهتدي إليه الباحث عن الحق إلّا إذا خاطر بنفسه ، وجازف بحياته ، يدل على ذلك ما حكاه ابن عبَّاس ، ـ رضي الله عنه ـ من قصّة قدوم أبي ذرّ الغفاري إلى مكّة ولقائه للرّسول ﷺ ، ودخوله في الإسلام :

---

(١) سيرة أبن هشام ، ق ١ ، ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

« عن ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ لما بلغ أبا ذرّ مبعث النبيﷺ ، قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي ، فاعلم لي علم هذا الرّجل الذي يزعم أنّه نبي يأتيه الخبر من السّماء ، واسمع من قوله ثم ائتني ، فانطلق الأخ ، حتى قدمه وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذرّ ـ رضي الله عنه ـ فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق وكلاماً ما هو بالشعر ، فقال : ما شفيتني ممّا أردت .

فتزوّد وحمل شنّة له ، فيها ماء ، حتى قدم مكّة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبيﷺ ، ولا يعرفه ،وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فرآه عليّ فعرف أنّه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء ، حتى أصبح ، ثمّ احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبيﷺ ، حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه فمر به علي ـ رضي الله عنه ـ فقال : أما آن للرّجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه ، فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

حتّى إذا كان اليوم الثّالث ، فعاد علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الّذي أقدمك ؟ قال : إنْ أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنّني ، فعلت ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبيﷺ ودخل معه ، وسمع من

قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي ﷺ : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمري ، قال : والذي نفسي بيده لأصرخنّ بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد ، فنادى بأعلى صوته : أشهد أنْ لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله ، ثم قام القوم ، فضربوه حتى أضجعوه ، وأتى العبّاس ، فأكبّ عليه ، قال : ويلكم ألستم تعلمون أنّه من « غفار » وأنّ طريق تجّاركم إلى الشّام عليهم ، فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها فضربوه ، وثاروا إليه ، فأكبّ العبّاس عليه [1] » .

بدء إسلام الأنصار

وخرج رسول الله ﷺ في الموسم ، فبينما هو عند العقبة ، إذ لقي رهطاً من الخزرج من الأنصار ، فدعاهم إلى الله عزّ وجلّ ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكانوا جيران اليهود في المدينة ، وكانوا يسمعونهم يخبرون بنبيّ قد أظلّ زمانه ، فقال بعضهم لبعض : يا قوم ! تعلّموا والله إنّه النبي الذي توعدكم به اليهود ، فلا يسبقنّكم إليه ، فأجابوه ، وصدّقوه ، وقالوا : إنّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشّر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ؛ « باب إسلام أبي ذر رضي الله عنه » .

بك ، فسنقدم عليهم ، فندعوهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الّذي أجبناك إليه ، من هذا الدّين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك [١] .

وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وآمنوا ، وصدّقوا ، فلما قدموا المدينة ذكروا لإخوانهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام ، حتى فشا فيهم ، فلم تبق دار من دور الأنصار إلاّ وفيها ذكر من رسول الله ﷺ [٢] .

بيعة العقبة الأولى

حتّى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم من الأنصار ، اثنا عشر رجلاً ، فلقوه بالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على التوحيد والتعفّف من السرقة والزّنا وقتل الأولاد والطّاعة في المعروف .

فلما همّ القوم بالانصراف بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلّمهم الإسلام ، ويفقّههم في الدّين ، فكان يسمى « المقرىء » بالمدينة ونزل على أسعد بن زرارة ، وكان يصلي بهم [٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .
(٢) نفس المرجع ؛ ص ٤٢٨ ـ ٤٢٩ .
(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٤ ملخصاً .

سبب تهيؤ الأنصار للإسلام

وكان من صنع الله تعالى لرسوله وللإسلام ، أن هيَّأ الله الأوس والخزرج [1] وهما قبيلتان عربيّتان عظيمتان في مدينة يثرب ـ لتقدّرا هذه النعّمة التي لا نعمة أعظم منها ، وتسبقا أهل عصرهما ، وأبناء الجزيرة ، إلى الترحيب بالإسلام والدّخول فيه ، حين تنكّرت له قبائل العرب وفي مقدّمتها وعلى رأسها قريش « والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » [2].

وقد ساعدت على ذلك عدّة عوامل : هي من خلق الله تعالى وتيسيره وصنعه ، كانت فارقة بين قريش وأهل مكة ، وقبائل يثرب العربيّة ، منها ما طبعها الله عليه من الرّقة واللّين وعدم المغالاة في الكبرياء وجحود الحق ، وذلك يرجع إلى الخصائص الدّموية والسُّلاليَّة التي أشار إليها رسول الله ﷺ حين وفد وفدٌ من اليمن ، بقوله « أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً » وهما ترجعان في أصلهما إلى اليمن ، نزح أجدادهم منها في الزّمن القديم ، يقول القرآن مادحاً لهم :

« والذين تبوأوا الدّار والإيمان من قبلهم ، يحبّون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة ممّا أوتوا ،

(١) الأوس والخزرج من الأزد ، الذين ينتمون إلى شعب قحطان ، وقد عطف ثعلبة ابن عمرو وجدهم نحو الحجاز بعد خراب سد مأرب سنة ١٢٠ ق.م. ثم سار نحو المدينة ، كما سيأتي .

(٢) البقرة ـ ٢١٣

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة »[1] .

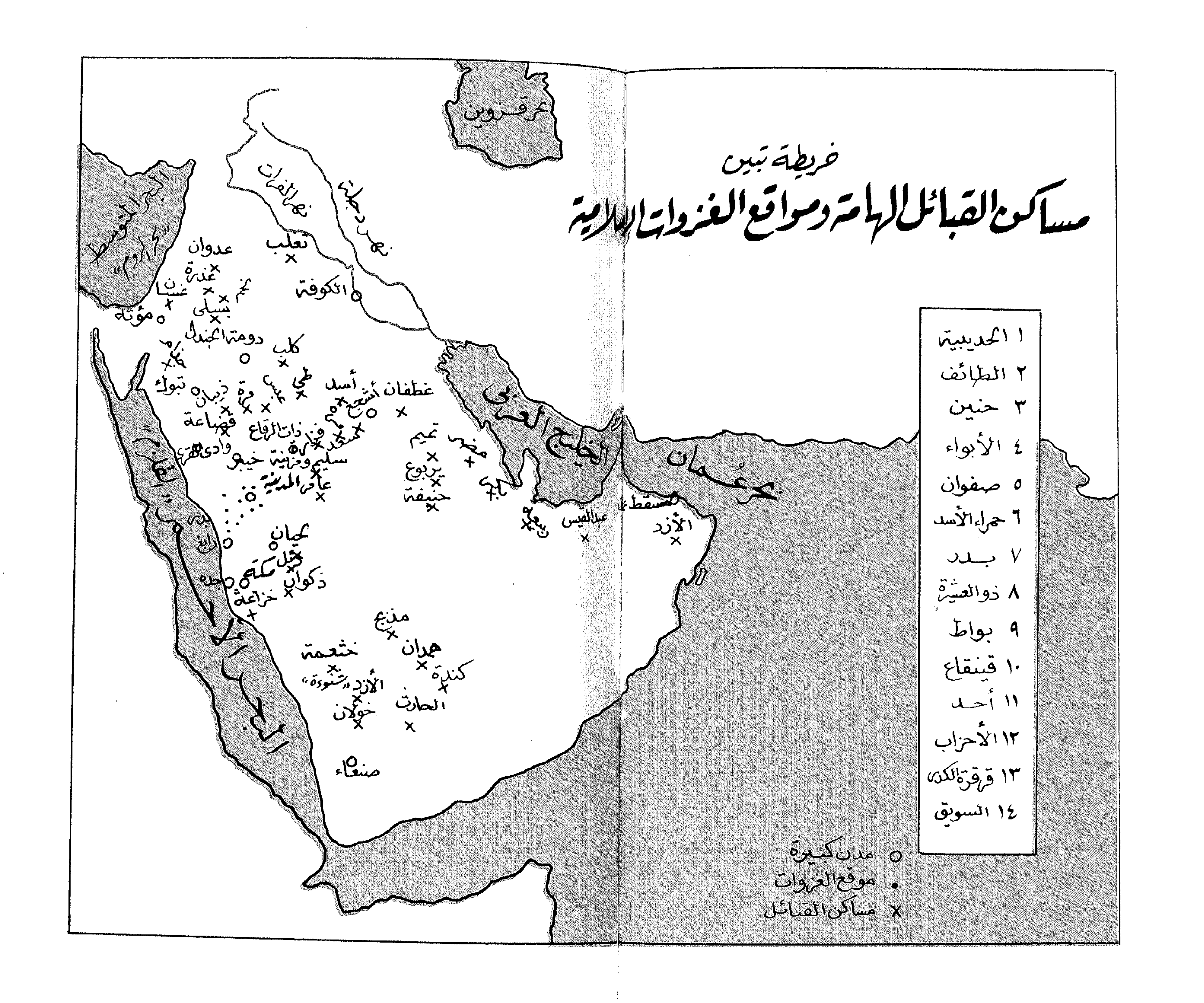
ومنها أنهما انهكتهما الحروب الداخلية ، وما يوم بعاث ببعيد[2] ، وقد اكتووا بنارها ، وذاقوا مرارتها ، وعافوها ، ونشأت فيهم رغبة في اجتماع الكلمة ، وانتظام الشمل ، والتفادي من الحروب ، وذلك ما عبّروا عنه بقولهم : « إنّا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشرّ ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فإن يجمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك » ، قالت عائشة رضي الله عنها « كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله تعالى لرسوله » .

ومنها أنّ قريشاً ، وسائر العرب قد طال عهدهم بالنبوّات ، والأنبياء ، وأصبحوا يجهلون معانيها بطول العهد ، وبحكم الأميّة والإمعان في الوثنية ، والبعد عن الأمم التي تنتسب إلى الأنبياء وتحمل الكتب السّماوية ـ على ما دخل فيها من التّحريف والعبث ـ وذلك ما يشير إليه القرآن بقوله

---

(١) سورة الحشر ٩

(٢) « يوم بعاث » : آخر الحروب المشهورة بين الأوس والخزرج ، وبعاث موضع في نواحي المدينة وكانت هذه الحرب من إيعاز اليهود في المدينة ، ودخل مع القبيلتين قبائل من اليهود والعرب ، ومكثوا أربعين يوماً يتجهزون للحرب والتقوا في بعاث ، واقتتلوا قتالاً شديداً ، وصبروا جميعاً ، وانهزمت الأوس في أول النهار ثم دارت الدائرة على الخزرج ، ووضعت الأوس فيهم السلاح ، ثم انتهوا عنهم ، وأحرقت الأوس دور الخزرج ، وأكثرت الأنصار الأشعار في « يوم بعاث » (عن ابن الأثير ملخصاً) وذلك قبل الهجرة بخمس سنين في أصحّ الرّوايات (فتح الباري ؛ ج ٧ ، ص ٨٥) .



خريطة تبين
مساكن القبائل الهامة ومواقع الغزوات الإسلامية
بحر قزوين
البحر المتوسط
«بحر الروم»
نهر الفرات
نهر دجلة
الخليج العربي
بحر عُمان
البحر الأحمر
١ الحديبية
٢ الطائف
٣ حنين
٤ الأبواء
٥ صفوان
٦ حمراء الأسد
٧ بدر
٨ ذو العشيرة
٩ بواط
١٠ قينقاع
١١ أحد
١٢ الأحزاب
١٣ قرقرة الكدر
١٤ السويق
مدن كبيرة
موقع الغزوات
مساكن القبائل
تغلب
الكوفة
عدوان
غسان
مؤتة
دومة الجندل
كلب
تبوك
طيء
أسد
غطفان
قضاعة
ذات الرقاع
تميم
خيبر
المدينة
يربوع
حنيفة
عبد القيس
الأزد
مسقط
مذحج
همدان
خثعمة
كندة
الحارث
خولان
صنعاء
خزاعة
ذكوان

« لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم فهم غافلون »[1].

أمّا الأوس والخزرج فكانوا يسمعون اليهود يتحدّثون عن النبوءة والأنبياء ويتلون صحف التّوراة ويفسّرونها ، بل كانوا يتوعّدونهم به ، ويقولون إنّه سيبعث نبيّ في آخر الزّمان ، نقتلكم معه قتل عاد وإرم[2] ، في ذلك يقول الله تعالى :

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا ، كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين[3] » .

وبذلك لم تكن بين أبناء الأوس والخزرج وسكّان المدينة من العرب المشركين تلك الفجوة العميقة الواسعة من الجهل والنّفور من المفاهيم الدّينية والسّنن الإلهية الّتي كانت بينها وبين أهل مكة وجيرانهم من العرب ، بل قد عرفوها وألفوها عن طريق اليهود ، وأهل الكتاب الذين كانوا يختلطون بهم بحكم البلد والجوار والصّلح والحرب والمحالفات ، فلماّ تعرَّفوا برسول الله ﷺ وقد حضروا الموسم ودعاهم إلى الإسلام ، ارتفعت الغشاوة عن عيونهم ، وكأنّهم كانوا من هذه الدعوة على ميعاد .

---

(١) يس - ٦

(٢) تفسير ابن كثير ؛ ج١ ، ص ٢١٧ .

(٣) سورة البقرة ٨٩ .

خصائص مدينة يثرب

وكان من حكمة الله تعالى في اختيار المدينة ، داراً للهجرة، ومركزاً للدّعوة ، عدا ما أراده الله من إكرام أهلها ، وأسرار لا يعلمها إلا الله ، أنّها امتازت بتحصن طبيعي حربي ، لا تزاحمها في ذلك مدينة قريبة في الجزيرة ، فكانت حرة[1] الوبرة ، مطبقة على المدينة من النّاحية الغربيّة ، وحرّة واقم ، مطبقة على المدينة من النّاحية الشرّقيّة ، وكانت المنطقة الشّمالية من المدينة ، هي النّاحية الوحيدة المكشوفة (وهي التي حصّنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس في غزوة الأحزاب) وكانت الجهات الأخرى من أطراف المدينة محاطة بأشجار النّخيل والزّرع الكثيفة ، لا يمرّ منها الجيش ، إلاّ في طرق ضيّقة لا يتّفق فيها النّظام العسكري ، وترتيب الصفوف .

وكانت خفارات عسكرية صغيرة ، كافية بإفساد النّظام العسكري ومنعه من التقدّم ، يقول ابن اسْحاق : « كان أحد جانبي المدينة عورة ، وسائر جوانبها مشككة بالبنيان والنخيل ، لا يتمكن العدو منها » .

(١) و « الحرة » أو « اللابة » منطقة سوداء من الحجارة النخرة المحترقة أو المؤلفة من السائل البركاني يمتنع فيها المشي بالأقدام ، ومشي الإبل والخيل ـ فضلاً عن مرور الجيش ـ وقد ذكر العلامة مجد الدين الفيروز آبادي (م ٨٢٣ هـ) في كتابه « المغانم المطابة في معالم طابة » في حرف الحاء ، حرات كثيرة تحيط بالمدينة من عدة جوانب يدنو بعضها ؛ ويبعد بعضها ؛ وتحميها من الغزو من الخارج أو تحدث صعوبات وعراقيل في تحرك الجيوش (راجع الكتاب ، ص ١٠٨ ـ ١١٤) .

ولعلّ النبي ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية في اختيار المدينة بقوله لأصحابه قبل الهجرة « إني رأيت دار هجرتكم ، ذات نخل بين لابتين وهما الحرّتان » فهاجر من هاجر قبل المدينة (١) .

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء وفروسيّة وقوّة وشكيمة ألفوا الحريّة ، ولم يخضعوا لأحد ، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة ، إتاوة أو جباية ، وقد جاء ذلك صريحاً في الكلمة التي قالها سعد بن معاذ ـ سيِّد الأوس ـ لرسول الله « قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرّك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلاّ قرى أو بيعاً (٢) » .

يقول ابن خلدون : « ولم يزل هذان الحيّان قد غلبوا اليهود على يثرب ، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك ، ويدخل في مِلَّتهم من جاورهم من قبائل مضر (٣) » .

وجاء في « العقد الفريد » : ومن الأزد الأنصار ، وهم الأوس والخزرج وهما ابنا حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم أعزّ النّاس أنفساً ، وأشرفهم همماً ، ولم يؤدّوا إتاوة قط إلى

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « هجرة النبي ﷺ » .
(٢) سيرة أبن هشام ؛ ق ١ ، ص ٢٢٣ .
(٣) تاريخ ابن خلدون ج ٢ ، ص ٢٨٩ .

أحد من الملوك [1] » .

وكان بنو عديّ بن النّجار أخواله دنيا ، فأمّ عبد المطّلب ابن هاشم إحدى نسائهم ، فقد تزوّج هاشم بسلمى بنت عمرو أحد بني عديّ بن النّجار ، وولدت لهاشم عبد المطّلب ، وتركه هاشم عندها ، حتى صار غلاماً دون المراهقة ، فذهب إليه عمّه المطّلب ، فجاء به إلى مكّة ، وكانت الأرحام يحسب لها حساب كبير في حياة العرب الاجتماعية ، ومنهم أبو أيّوب الأنصاري الذي نزل رسول الله ﷺ في داره في المدينة .

وكان الأوس والخزرج من قحطان ، والمهاجرون ، ومن سبق إلى الإسلام في مكّة وما حولها من عدنان ، ولمّا هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقام الأنصار بنصره ، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسد واحد ، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة في الجاهليّة ، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلاً إلى قلوبهم ، لإثارة الفتنة والتعزّي بعزاء الجاهلية باسم الحميّة القحطانية أو العدنانيّة .

فكانت لكلّ ذلك مدينة يثرب أصلح مكان لهجرة

---

(١) العقد الفريد ، ج ٣ ؛ ص ٣٣٤ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة)

الرّسولﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً ، حتى يقوى الإسلام ، ويشقّ طريقه إلى الأمام ، ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدّن .

إنتشار الإسلام في المدينة

وجعل الإسلام يفشو في منازل الأنصار ـ الأوس والخزرج ـ وأسلم سعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وهما سيّدا قومهما ، من بني عبد الأشهل من الأوس ، بحكمة من أسلم قبلهما ، وتلطفِهم وبحسن دعوة مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ وأسلم بنو عبد الأشهل عن آخرهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون (١) .

بيعة العقبة الثّانية

ورجع مصعب بن عمير إلى مكّة في العام القابل ، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجّاج قومهم من أهل الشرّك ، حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول اللهﷺ العقبة ، فلما فرغوا من الحجّ ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا في الشّعب ، عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً ، وامرأتان من النّساء ، وجاء رسول اللهﷺ ومعه عمّه العبّاس بن عبد المطّلب ، وهو يومئذ على دين قومه .

---

(١) سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ص ٤٣٦ ـ ٤٣٨ مختصراً .

وتكلّم رسول الله ﷺ وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ثم قال : أبايعكم علي أن تمنعوني ممّا تمنعون منه نساءكم وأبناءكم ، فبايعوه ، واستوثقوا منه ألاّ يدعهم ، ويرجع إلى قومه ، فوعد بذلك رسول الله ﷺ فقال : أنا منكم وأنتم منّي ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، واختار رسول الله ﷺ منهم اثني عشرنقيباً : تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس [1] .

الإذن بالهجرة إلى المدينة

ولما بايع رسول الله ﷺ هذا الحيّ من الأنصار على الإسلام ، والنّصرة له ، ولمن اتّبعه ، فأوى إليهم عدد من المسلمين ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة ، والهجرة إليها واللّحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إنّ الله عزّ وجلّ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها » ، فخرجوا أرسالاً .

وأقام رسول الله ﷺ بمكّة ينتظر الإذن من الله في الخروج من مكّة والهجرة إلى المدينة .

ولم تكن هجرة المسلمين من مكّة هيّنة سهلة تسمع بها قريش وتطيب بها نفساً بل كانوا يضعون العراقيل في سبيل

(١) نفس المصدر ص ٤٤١ ـ ٤٤٣ .

الانتقال من مكّة إلى المدينة ، ويمتحنون المهاجرين بأنواع من المحن ، وكان المهاجرون لا يعدِلون عن هذه الفكرة ، ولا يؤثرون البقاء في مكة ، مهما دفعوه من قيمة ، فمنهم من كان يضطرّ إلى أن يترك امرأته وابنه في مكّة ، ويسافر وحده كما فعل أبو سلمة ، ومنهم من كان يضطرّ إلى أن يتنازل عن كلّ ما كسبه في حياته وجمعه من ماله ، كما فعل صهيب .

قالت أم سلمة ـ رضي الله عنها ـ لما أجمع أبو سلمة ـ رضي الله عنه ـ الخروج إلى المدينة ، رحل لي بعيره ، ثم حملني عليه وجعل معي ابني سلمة بن أبي سلمة في حجري ، ثم خرج يقود بي بعيره ، فلما رأته رجال بني المغيرة قاموا إليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ قالت : فنزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوني منه .

قالت : وغضب عند ذلك بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة وقالوا : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا فتجاذبوا ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده وانطلق به بنو عبد الأسد ، وحبسني بنو المغيرة عندهم ، وانطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، ففُرّق بيني وبين ابني وبين زوجي ، فكنت أخرج كلّ غداة ، فأجلس في الأبطح ، فما أزال أبكي حتى أمسي سنة أو قريباً منها ، حتى مرّ بي رجل من بني

عمّي أحد بني المغيرة ، فرأى ما بي ، فرحمني ، فقال لبني المغيرة : ألا تخرجون هذه المسكينة ، فرّقتم بينها وبين زوجها وبين ولدها ؟ فقالوا : الحقي بزوجك إن شئت ، فردّ بنو الأسد إليّ عند ذلك ابني ، فارتحلتُ بعيري ، ثم أخذتُ ابني فوضعته في حجري ، ثم خرجت أريد زوجي بالمدينة ، وما معي أحد من خلق الله ، حتّى إذا كنت بـ « التنعيم » لقيت عثمان بي أبي طلحة أخا بني عبد الدّار ، فقال : إلى أين يا ابنة أبي أميّة ؟ قلت أريد زوجي بالمدينة ، قال : أو ما معك أحد ؟ قلت : ما معي أحد إلا الله وابني هذا ، فقال : والله ما لك من منزل، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي ، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قطّ أرى أنّه كان أكرم منه ، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي ، ثم استأخر عني ، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري ، فحطّ عنه ، ثم قيّده في الشجر ، ثم تنحّى إلى شجرة ، فاضطجع تحتها ، فإذا دنا الرّواح ، قام إلى بعيري فقدّمه ، فرحله ، ثم استأخر عني وقال : اركبي ، فاذا ركبت فاستويت على بعيري ، أتى فأخذ بخطامه ، فقادني حتى ينزل بي ، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة ، فلماّ نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بـ « قباء » قال : زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة بها نازلاً ـ فادخليها على بركة الله ، ثم انصرف راجعاً إلى مكة ، فكانت تقول : ما أعلم أهل بيت في الإسلام ، أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة ، وما رأيت

صاحباً قط أكرم من عثمان بن طلحة[1] ولما أراد صهيب الهجرة ، قال له كفّار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الّذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك !

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، أتخلّون سبيلي ؟

قالوا : نعم .

قال : إني قد جعلت لكم مالي .

وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب » [2] .

وهاجر عمر بن الخطاب ، وحمزة ، وزيد بن حارثة ، وعبد الرحمن بن عوف ، والزّبير بن العوام ، وأبو حذيفة وعثمان ابن عفان ، وآخرون رضي الله عنهم أجمعين ـ وتتابعت الهجرة ولم يتخلف مع رسول الله ﷺ بمكّة غير من حُبس وفتن ، إلا عليّ بن أبي طالب ، وأبو بكر بن أبي قحافة ـ رضي الله عنهما [3] .

---

(١) وأسلم عثمان بن طلحة هذا بعد الحديبية ، وهاجر ، ودفع إليه رسول الله ﷺ يوم الفتح مفاتيح الكعبة (ابن كثير ، ج٢ ، ٢١٥-٢١٧) .

(٢) ابن كثير نقلاً عن ابن هشام ؛ ج ٢ ، ص ٢٢٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ق ١ ؛ ص ٤٧٠ ـ ٤٧٩ .

تآمر قريش على رسول الله ﷺ الأخير، وخيبتهم فيما أرادوا

ولما رأت قريش أنّ رسول الله ﷺ قد صارت له أصحاب وأنصار في المدينة ولا سلطان لهم عليها ، تخوّفوا من خروج رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وعرفوا أنّه إذا كان ذلك ، فلا حيلة لهم فيه ، ولا سبيل لهم عليه ، فاجتمعوا في « دار النّدوة » وهي دار قصّي بن كلاب ، وكانت قريش لا تقضي أمراً إلاّ فيها ، يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ واجتمع فيها أشراف قريش .

واجتمع رأيهم أخيراً على أن يؤخذ من كل قبيلة فتى شابّ صاحب جلادة ونسب ، فيهاجموا رسول الله ﷺ ويضربوا ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرّق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ، وتفرّق القوم على ذلك ، وهم مجمعون له .

وأخبر الله رسوله بهذه المؤامرة ، فأمر عليّ بن أبي طالب أن ينام على فراشه متسجّياً ببردته ، وقال : لن يخلص إليك شيءٌ تكرهه .

واجتمع القوم على بابه ، وهم متهيّئون للوثوب ، وخرج رسول الله ﷺ وأخذ حفنة من تراب في يده ، وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه فلا يرونه ، فجعل ينثر ذلك التّراب على

رؤوسهم وهو يتلو آيات من سورة « يس » من أوّلها إلى قوله تعالى : « فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وأتاهم آت ، فقال : ما تنتظرون ههنا ؟ قالوا : محمّداً ، قال : خيّبكم الله ، قد والله خرج وانطلق لحاجته .

وتطلّعوا ، فرأوا عليًّا نائماً على الفراش ، فلم يشكّوا في أنّه رسول الله ﷺ فلما أصبحوا قام عليّ رضي الله عنه عن الفراش ، فخجلوا ، وانقلبوا خائبين (1) .

هجرة الرّسول ﷺ إلى المدينة

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر ، فقال له : إنّ الله قد أذن لي في الخروج والهجرة ، فقال أبو بكر : الصّحبة يا رسول الله ، قال : الصّحبة ، وبكى أبو بكر - رضي الله عنه - من الفرح ، وقدّم أبو بكر راحلتين ، كان قد أعدّهما لهذا السّفر ، واستأجر عبدالله بن أريقط ، ليدلّهما على الطّريق .

تناقض غريب

وكانت قريش - رغم عدائها لرسول الله ﷺ ورميه عن قوس واحدة - عظيمة الثّقة بأمانته وصدقه ، وفتوّته ، فليس بمكّة أحد عنده شيء يخشى عليه إلا وضعه عند رسول الله ﷺ

(1) سيرة ابن هشام ، ق 1 ، 480 - 483 .

لثقته به ، فكانت عند رسول الله ﷺ الشيء الكثير من هذه الودائع ، فأمر عليًا ـ رضي الله عنه ـ بأن يتخلّف بمكّة حتى يؤدّيها عنه [1] وصدق الله العظيم :

« قد نعلم إنَّه ليحزُنُك الّذي يقولون فإنهّم لا يكذّبونك ، ولكنّ الظّالمين بآيات الله يجحدون » [2] .

درس من الهجرة

وقد أثبتت الهجرة النبويّة أنّ الدّعوة والعقيدة يتنازل لهما عن كل حبيب وعزيز وأليف وأنيس وعن كل ما جبلت الطّبائع السّليمة على حبّه وإيثاره ، والتمسّك به والتزامه ، ولا يتنازل عنهما لشيء .

وقد كانت مكّة ـ فضلاً عن كونها مولداً ومنشأ للرّسول وأصحابه ـ مهوى الأفئدة ومغناطيس القلوب ، ففيها الكعبة البيت الحرام الّذي جرى حبّه منهم مجرى الرّوح والدّم ، ولكنّ شيئاً من ذلك لم يمنعه وأصحابه من مغادرة الوطن ، ومفارقة الأهل والسّكن ، حين ضاقت الأرض على هذه الدّعوة والعقيدة وتنكّر أهلها لهما .

وقد تجلّت هذه العاطفة المزدوجة ـ عاطفة الحنين

---

(١) نفس المرجع ، ص ٤٨٤ ـ ٤٨٥ .
(٢) سورة الأنعام ٣٣ .

الإنساني وعاطفة الحبّ الإيماني - في كلمته التي قالها مخاطباً لمكّة « ما أطيبك من بلد وأحبّك إليّ ، ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنت غيرك »[1] .

وذلك عملاً بقول الله تعالى :

« يا عبادي الّذين آمنوا إنّ أرضي واسعة فإيّاي فاعبدون[2] » .

إلى غار ثور

وخرج رسول الله ﷺ وأبو بكر من مكّة مستخفين ؛ وأمر أبو بكر ابنه عبدالله بن أبي بكر أن يتسمّع لهما ما يقول النّاس فيهما بمكّة ، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاراً ويريحها عليهما ليلاً ، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام .

من روائع الحبّ

ولم يزل الحبّ منذ فطر الله الإنسان ملهماً للدّقائق العجيبة ، باعثاً على الإشفاق على من تعلّق به القلب وأحبّته النّفس ، وهذا كان شأن أبي بكر مع رسول الله ﷺ في هذه

---

(١) رواه الترمذي عن ابن عبّاس مرفوعاً في باب « فضل مكة » .
(٢) سورة العنكبوت ٥٦ ، والسورة مكية .

الرّحلة ، وقد روي أنه لمّا انطلق رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر ، كان يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتّى فطن رسول الله ﷺ فقال : يا أبا بكر ما لك تمشي ساعة خلفي وساعة بين يدي ؟ ، فقال : يا رسول الله ! أذكر الطّلب فأمشي خلفك ، ثم أذكر الرّصد فأمشي بين يديك [1] .

فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر : مكانك يا رسول الله حتّى أستبرىء لك الغار ، فدخل فاستبرأه حتّى إذا كان ، ذكر أنّه لم يستبرىء الجحرة ، فقال : مكانك يا رسول الله ! حتى أستبرىء فدخل فاستبرأ ، ثم قال : انزل يا رسول الله ، فنزل [2] .

ولله جنود السّماوات والأرض

ودخلا الغار وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت ، فنسجت ما بين الغار والشّجرة التي كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله ﷺ وأبا بكر ، وأمر الله حمامتين وحشيّتين ، فأقبلتا تدفّان حتى وقعتا بين العنكبوت وبين الشّجرة [3] ، ولله جنود السّماوات والأرض » .

---

(١) البداية والنهاية ، لابن كثير ؛ ج ٣ ؛ ص ١٨٠ ، نقلاً عن البيهقي برواية عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) البداية والنهاية ، ج ٣ ، ص ١٨٠ .

(٣) رواه الحافظ أبن عساكر بسنده عن جماعة من الصحابة .
أبن كثير ؛ ج ٢ ؛ ص ٢٤٠ ـ ٢٤١) .

أدقّ لحظة مرت بها الإنسانية

واقتفى المشركون أثر رسول الله ﷺ وكانت أدقّ لحظة مرّت بها الإنسانية في رحلتها الطّويلة ، وكانت لحظة حاسمة : فإمّا امتداد شقاء لا نهاية له ، وإمّا افتتاح سعادة لا آخر لها وقد حبست الإنسانية أنفاسها ، ووقفت خاشعة حين وصل الباحثون إلى فم الغار ، ولم يبق بينهم وبين العثور على منشودهم إلاّ أن ينظر أحدهم إلى تحت قدميه .

ولكنّ الله حال بينهم وبين ذلك ، فاختلط عليهم الأمر ، ورأوا على باب الغار نسج العنكبوت [1] ، وإلى ذلك أشار الله تعالى بقوله : « فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها [2] » .

لا تحزن إنّ الله معنا

وبينما هما في الغار ، إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله ! لو أنّ أحدهم رفع قدمه ، رآنا : قال : ما ظنّك باثنين الله ثالثهما [3] ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

(١) رواه الأمام أحمد في مسنده عن ابن عباس (ابن كثير ، ج ٢ ، ص ٢٣٩) والبزار في مسنده .

(٢) سورة التوبة ٤٠ .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « قوله تعالى : ثاني اثنين اذهما في الغار ؛ كتاب التفسير .

« ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إنّ الله معنا [1] » .

ركوب سراقة في أثر الرّسول ﷺ وما وقع له

وجعلت قريش في رسول الله ﷺ حين فقدوه ، مائة ناقة ، لمن يردّه عليهم ومكثا في الغار ثلاث ليال ثم انطلقا ، ومعهما عامر بن فهيرة ودليل من المشركين ! استأجره رسول الله ﷺ فأخذ بهم على طريق السواحل .

وحمل سراقة بن مالك بن جعشم الطّمع على أن يتبع رسول الله ﷺ ويرده على قريش ، فيأخذ مائة ناقة منهم ، فركب على أثره يعدو ، وعثر به الفرس ، فسقط عنه فأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، وعثر به الفرس مرة ثانية ، فسقط عنه ، وأبى إلا أن يتبعه ، فركب في أثره ، فلما بدا له القوم رآهم . وعثر به الفرس مرة ثالثة ، وذهبت يداه في الأرض ، وسقط عنه ، وتبعهما دخان كالإعصار .

وعرف سراقة حين رأى ذلك أنّه رسول الله ﷺ في حماية الله تعالى ، وأنّه ظاهر لا محالة ، فنادى القوم ، وقال : أنا سراقة بن جعشم ، انظروني أكلّمكم ، فوالله لا يأتيكم مني شيء تكرهونه ، فقال رسول الله ﷺ لأبي بكر : قل له : وما

(١) سورة التوبة ٤٠ .

تبتغي منا ؟ قال سراقة : تكتب لي كتاباً يكون آية بيني وبينك ، فكتب عامر بن فهيرة كتاباً في عظم أو رقعة [1] .

نبوة لا يسيغها العقل المادّي

وفي هذه الحال التي اضطرّ فيها نبي الله إلى الهجرة ، والخروج من مكّة ، والقوم يطاردونه ويتّبعون آثاره ، نظر رسول الله ﷺ إلى اليوم البعيد الذي يطأ فيه اتباعه تاج كسرى وعرش قيصر ، ويفتحون خزائن الأرض ، فتنبّأ في هذا الظّلام الحالك بهذا النور الباهر ، وقال لسراقة : « كيف بك إذا لبست سواري كسرى ؟ » .

إن الله قد وعد نبيّه بالنّصر والفتح المبين ، ولدينه بالظّهور العامّ والفتح التام ، وقال : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ، ليظهره على الدّين كلّه ولو كره المشركون [2] » .

وقد أنكر ذلك قصار النّظر وضعاف العقول ، واستبعدته قريش ، ولكنّ عين النبوّة ترى البعيد قريباً « إنّ الله لا يخلف الميعاد » .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ١ ، ص ٤٨٩ - ٤٩٠ ؛ والجامع الصحيح للبخاري الجزء الأول ، باب هجرة النبي ﷺ إلى المدينة باختلاف بعض الألفاظ .

(٢) سورة التوبة : ٣٣ .

وكان كذلك ، فلما أتى عمر رضي الله عنه بسواري كسرى ومنطقته وتاجه ، دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها [١] .

وعرض عليه سراقة الزّاد والمتاع ، فلم يقبله رسول الله ﷺ ولم يزد أن قال : أخف عنا [٢] .

رجل مبارك

ومرّا في مسيرهما بأمّ معبد الخزاعيّة ، وكانت عندها شاة خلّفها الجهد عند الغنم ، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها ، وسمّى الله ودعا ، فدرّت ، فسقاها وسقى أصحابه ، حتى رووا ، ثمّ شرب ، وحلب فيه ثانياً ، حتى ملأ الإناء ، فلما رجع أبو معبد ، سأل عن القصّة ، فقالت : لا والله إلاّ أنّه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت ، ووصفته له وصفاً جميلاً ، قال : والله إني لأُراه صاحب قريش الّذي تطلبه [٣] .

ولم يزل يسلك بهما الدّليل ، حتى قدم بهما « قباء » ، وهي في ضواحي المدينة ، وذلك في الثاني عشر من ربيع الأول ، يوم الاثنين [٤] فكان مبدأ التاريخ الإسلامي .

---

(١) « الاستيعاب في معرفة الأصحاب » لابن عبدالبر ج ٢ ، ص ٥٩٧ .
(٢) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « هجرة النبي ﷺ » .
(٣) زاد المعاد ، ج ٢ ص ٣٠٩ .
(٤) الجامع الصحيح للبخاري ، باس « هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة » .

تصوير المدينة عند الهجرة

اختلاف بين المجتمع المكّي والمجتمع المدني

ولكي نأخذ صورة إجمالية صحيحة عن مدينة يثرب ـ الّتي اختارها الله دار هجرة للرسول ، ومنطلق الدّعوة الإسلامية في العالم ، ومهد أوّل تجمّع إسلامي يقوم بعد ظهور الإسلام ـ يجب أن نعرف وضعها المدني ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، وصلة القبائل المقيمة فيها ، بعضها ببعض ، ومركز اليهود فيها ، الاجتماعي ، والاقتصادي ، والحربي ، والواقع الذي كانت تعيشه هذه المدينة الخصبة ، الغنية ، التي التقت فيها ديانات ، وثقافات ، ومجتمعات مختلفة ، بخلاف مكّة ذات الطبيعة الواحدة ، والطابع الموحّد ، والدّين المشترك ، وإلى القارىء بعض أضواء .

اليهود

المرجّح في ضوء التّاريخ أن غالبية اليهود حلّوا بالجزيرة العربية بصفة عامّة ، ومدينة يثرب بصفة خاصّة ، في القرن الأول الميلادي ، يقول الدكتور اسرائيل ولفنسون :

« وبعد حرب اليهود والرّومان سنة ٧٠ م التي انتهت

بخراب بلاد فلسطين ، وتدمير هيكل بيت المقدس ، وتشتّت اليهود في أصقاع العالم ، قصدت جموع كثيرة من اليهود بلاد العرب كما حدثنا عن ذلك المؤرّخ اليهودي « يوسي فوس » الّذي شهد تلك الحروب ، وكان قائداً لبعض وحداتها . . وتؤيّد المصادر العربيّة كل هذا [1] » .

وكانت في المدينة ثلاث قبائل من اليهود ، بلغ عدد رجالها البالغين أكثر من ألفين . وهي : قينقاع » ، و« النّضير » و« قريظة » ، ويقدّر أنّ رجال « قينقاع » المحاربين ، بلغ عددهم سبعمائة ، كما كان عدد رجال النّضير مثل هذا العدد ، وكان الرجال البالغون من قريظة ما بين سبعمائة وتسعمائة [2] .

وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة

(١) « تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام « للدكتور اسرائيل ولفنسون » (أبو ذؤيب) ، ص ٩ ؛ مطبعة الاعتماد القاهرة ١٩٢٧م .

(٢) استفيد في هذا التقدير مما جاء في سيرة ابن هشام من الأعداد عند الحوادث والحروب ، كجلاء بني النضير ، وقتل الرجال من بني قريظة ، وغير ذلك من القرائن .

و « قينقاع » و« النضير » و« قريظة » هي القبائل اليهودية الأم ، ولها توابع يلتحقون بها ، وينسبون إليها كبني هدل التابعين لبني قريظة ، كان منهم بعض كبار الصحابة الذين أسلموا من أهل الكتاب ، وكبني زنباع وهم فرع من فروع بني قريظة ، وقد جاءت أسماء لجماعات يهودية في العقد الذي تم بين رسول الله ﷺ وبين اليهود ، كيهود بني عوف ، ويهود بني النجار ، ويهود بني ساعدة ، ويهود بني ثعلبة ، وبني جفنة ، وبني الحارث ، وغيرها ، وقد جاء في هذا العقد بعد ذكر هذه الجماعات « أن بطانة يهود كأنفسهم » ، وذلك الذي حمل السمهودي صاحب كتاب « وفاء الوفا في أخباردار المصطفى » « على أن يقول : « إن يهود كانوا نيفا وعشرين قبيلة » ؛ (وفاء الوفا ؛ ص ١١٦) .

متوتّرة ، وقد يكون بعضهم حرباً على بعض ، يقول إسرائيل ولفنسون :

« قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقيّة اليهود ، سببها أن بني قينقاع كانوا قد اشتركوا مع بني الخزرج في يوم « بُعاث » وقد أثخن بنو النّضير وبنو قريظة في بني قينقاع ، ومزّقوهم كلّ ممزّق ، مع أنهّم دفعوا الفدية عن كلّ من وقع في أيديهم من اليهود ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهوديّة بعد يوم « بُعاث » ، حتّى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع ، فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم بقوله :

« وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثمّ أقررتم وأنتم تشهدون ، ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرّم عليكم إخراجهم » [١] .

وكانوا يعيشون في أحياء وقرى مختلفة خاصّة بهم ، فكانت بنو قينقاع يسكنون داخل المدينة في محلّة خاصّة بهم ،

---

(١) سورة البقرة ٨٤ ، ٨٥، « اليهود في بلاد العرب » ، ص ١٢٩ .

بعد أن طردهم إخوانهم بنو النّضير وقريظة من مساكنهم التي كانت خارج المدينة وكانت مساكن بني النّضير بالعالية بوادي « بُطحان » على بعد ميلين أو ثلاثة من المدينة ، وكانت عامرة بالنّخيل ، والزّروع ، وكانت بنو قريظة يسكنون في منطقة مهزور التي تقع على بعد بضعة أميال من جنوب المدينة (١) .

وكانت لهم حصون ، وآطام ، وقرى ، يعيشون فيها متكتّلين مستقلين ، لم يتمكنوا من إنشاء حكومات يحكمها اليهود ، بل كانوا مستقلين في حماية سادات القبائل ورؤسائها ويؤدّون لهم إتاوة في كلّ عام ، مقابل حمايتهم لهم ، ودفاعهم عنهم ، ومنع الاعراب من التعدّي عليهم ، وقد لجأوا إلى عقد المحالفات معهم ، وكان لكلّ زعيم يهودي حليف من الأعراب ومن رؤساء العرب (٢) .

وكانوا ينعتون انفسهم بأنّهم أهل العلم بالأديان والشّرائع ، وكانت لهم مدارس يتدارسون فيها أمور دينهم ، وأحكام شريعتهم ، وأيّامهم الماضية ، وأخبارهم الخاصّة برسلهم وأنبيائهم ، كما كانت أماكن خاصة يقيمون فيها عباداتهم وشعائر دينهم ، وكانت تسمى (المدراس) (٣) وكان

---

(١) بنو أسرائيل في القرآن والسنة » الدكتور محمد سيد الطنطاوي ص ٧٧ .

(٢) ملخص من « تاريخ العرب قبل الإسلام ص ٢٣ للدكتور جواد علي .

(٣) تحقق من المصادر اليهودية أن هذه المدارس كانت مركزاً للتعليم الديني العالي وكانت كالكليات أو الجامعات في عصرنا ، راجع (دائرة المعارف اليهودية) .

المكان الذي يتجمع فيه اليهود لتبادل المشورة في سائر أحوالهم الدينية والدنيوية .

وكانت لهم تشريعاتهم ونظمهم الخاصّة بهم ، أخذوا بعضها عن كتبهم ، وبعضها وضعه لهم كهّانهم وأحبارهم من عند أنفسهم وكانت لهم أعيادهم الخاصّة بهم ، وأيّام خاصّة ، يصومون فيها ، كيوم عاشوراء [1] .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات ، وتعاطي الرّبا ، وكانت لهم من طبيعة منطقة المدينة الزّراعية فرصة إلى ذلك ، لأن الزّراع عادة يحتاجون إلى اقتراض الأموال لحين الحصاد [2] .

وكانت المراهنة لا تقتصر على الرّهائن المالية ، بل تخطتها إلى مراهنة النّساء والولدان وقد جاء في قصة قتل كعب بن الأشرف النّضري التي رواها الامام البخاري - رحمه الله - في صحيحه ، أنه قال له محمد بن مسلمة : قد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين ، فقال : نعم ، إرهنوني ، قالوا : أيّ شيء تريد ؟! قال: ارهنوني نساءكم ، قالوا : كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال : فارهنوني ابناءكم ، قالوا : كيف نرهنك أبناءنا فيسبّ أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ،

(١) « بنو اسرائيل في القرآن والسنة » ، ص ٨٠ - ٨١ .
(٢) بنو اسرائيل في القرآن والسنة » .

هذا عار علينا ، ولكنّا نرهنك اللأمة [١] .

ومن طبيعة هذه المراهنات ، خصوصاً إذا كانت في الأبناء والنّساء ، نشوء الحقد والكراهة بين الرّاهنين والمرتهنين ، لا سيّما وأهل العرب اشتهروا بالغيرة الشّديدة على نسائهم وشدّة الأنفة .

وقد ترتّب على سيطرة اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة وضواحيها أنْ قوي نفوذهم المالي ، وصاروا يتحكّمون في الأسواق تحكماً فاحشاً ، ويحتكرونها لمصلحتهم ومنفعتهم ، فكرههم السّواد الأعظم من النّاس بسبب أنانيّتهم واشتطاطهم في أخذ الرّبا ، وحصولهم على غنى وثراء بطرق يأنف العربيّ عن سلوكها والتّعامل بها [٢] ، ولما طبعوا عليه من الجشع ولسياستهم التوسعيّة ، يقول « لولاكي اولوري » في كتابه « العرب قبل محمّد » :

« ساءت العلاقات بين أولئك البدو (المدنيّين [٣] واليهود المستعمرين في القرن السابع الميلادي ،فانهّم كانوا قد وسعوا مناطقهم المزروعة إلى مراعي هؤلاء البدو » .

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي ، باب « قتل كعب بن الأشرف » ، وقد سرد القصة ابن هشام باختلاف يسير في السيرة النبوية ، ق ٢ ، ص ٥١ .

(٢) « بنو اسرائيل في القرآن والسنة » ؛ ص ٧٩ .

(٣) المراد بهم القبائل العربية ، مثل الأوس والخزرج ومن جاورهم من العرب في ضواحي المدينة(Arabia Before Mohamad London 1927 P. 174 .

وكانت علاقة اليهود بالأوس والخزرج ـ سكّان المدينة العرب ـ خاضعة للمنفعة الشّخصية والمكاسب الماديّة ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ، كما حصل ذلك في كثير من الحروب الّتي أنهكت الأوس والخزرج ، وكان يهمّهم فقط أن تكون لهم السيطـرة الماليّة على المدينة ، وحديثهم عن النبي المرتقب شجّع الأوس والخزرج على الدّخول في الإسلام [1] .

أما لغة اليهود في بلاد العرب ، فقـد كانـت العـربية بطبيعة الحال ، ولكنّها لم تكن خالصة ، بل كانـت تشوبهـا الرّطانة العبريّة ، لأنهّم لم يتركوا استعمال اللّغة العبرية تركاً تاماً ، بل كانوا يستعملونها في صلواتهم ودراساتهم [2] .

امـا الجانـب الدينـي والدّعـوى فيقـول الدكتــور اسرائيل ولفنسون :

« لاشك أنّه كان في المقدرة اليهودية أن تزيد في بسط نفوذها الديني بين العرب ، حتى تبلغ منزلة أرقى ممـا كانـت عليه لو توافرت عند اليهود النية على نشر الدعوة الدينية بطريقة مباشرة ،

---

(١) مستفاد من كتاب « بنو اسرائيل في القرآن والسنة » للدكتور محمد سيد طنطاوي من ص ٧٣ إلى ١٠١ .

(٢) « مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول ، للأستاذ أحمـد ابراهيم الشريف ص ٢٠٣ .

ولكن الذي يعلم تاريخ اليهود يشهد بأن الأمة الاسرائيلية لم تمل بوجه عام الى إرغام الأمم على اعتناق دينها وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور على اليهود [١]».

ولكن مما لا شك فيه أن عددا من العرب المنتمين الى الأوس والخزرج وغيرهما من القبائل العربية الأصيلة، دانوا باليهودية عن رغبة منهم، أو بتأثير المصاهرة والزواج، أو بحكم النشأة في البيئة اليهودية، وقد كان في يهود العرب جميع هذه الأنواع، وقد ثبت أن التاجر اليهودي الكبير والشاعر المشهور كعب بن الأشرف الذي يعرف بالنضري كان من قبيلة «طي» تزوج أبوه في بني النضير، فنشأ كعب بن الأشرف يهوديا متحمسا، قال ابن هشام: «وكان رجلا من طيء، ثم أحد بني نبهان، وكانت أمه من بني النضير [٢]»، وكان بعض من لا يعيش له ولد من العرب ينذر، اذا ولد له ابن وعاش هودوه، فكان في المدينة عدد من العرب الذين دخلوا في اليهودية عن هذا الطريق، روى الامام أبو داؤد السجستاني بسنده عن ابن عباس قال: «كانت المرأة تكون مِقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد، أن تهوده، فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى: ﴿ لا اكراه في الدين قد تبين الرشد

(١) «اليهود في بلاد العرب» لإسرائيل ولفنسون ص ٧٢.
(٢) ابن هشام ق ٢ ـ ص ٥١.

من الغي، ﴾ «قال أبو داود: «المقلاة التي لا يعيش لها ولد»[1]».

الأوس والخزرج

تنتمي بطون الأوس والخزرج - سكان المدينة العرب - الى القبائل الأزدية اليمنية، وكانت موجات هذه الهجرة من اليمن الى يثرب متفرقة في أوقات مختلفة، وكانت لعوامل متعددة منها اضطراب أحوال اليمن وغزو الأحباش، واهمال أمر الإرواء، بخراب سدّ «مأرب»، وعلى هذا فالأوس والخزرج أحدث عهدا في المدينة من اليهود[2].

وقد سكنت بطون الأوس في المنطقة الجنوبية والشرقية وهي منطقة العوالي من يثرب، بينما سكنت بطون الخزرج المنطقة الوسطى الشمالية، وهي سافلة المدينة، وليس وراءهم شيء في الغرب الى خلاء حرة الوبرة[3].

انقسم أمر الخزرج الى أربعة أبطن، وهم: مالك، وعدي، ومازن، ودينار، كلها من بني النّجار المعروف بـ «تيم اللات»، وقد سكنت بطون بني النجار في المنطقة الوسطى التي حول مسجد النبي ﴿ﷺ﴾.

---

(١) راجع سنن أبي داود، كتاب الجهاد، باب «في الأسير يكره على الإسلام» ج ٢.

(٢) راجع «مكة والمدينة ص ٣١٥ - ٣١٦.

(٣) «مكة والمدينة» ص ٣١١.

وقد سكن الأوس المناطق الزراعية الغنية في المدينة وجاوروا أهم قبائل اليهود وجموعهم، واستوطن الخزرج مناطق أقل خصبا، وقد جاورهم قبيلة يهودية كبيرة واحدة، وهي القينقاع[1].

ليس من السهل الحصول الآن على احصاء دقيق عن عدد رجال الأوس والخزرج، ولكن الباحث المتتبع للحوادث يستطيع تحديد قوتهم الحربية من المعارك التي خاضوها بعد الهجرة، فقد بلغ عدد محاربيهم في يوم فتح مكة أربعة آلاف مقاتل[2].

وكان العرب في وقت الهجرة النبوية أصحاب الكلمة العليا في يثرب، وبيدهم كان توجيه الأمور بها، ولم يستطع اليهود مقابل ذلك أن يجمعوا كلمتهم، ويقفوا صفا واحدا في وجه خصومهم، فتفرقت بطونهم، ودخل بعضها في محالفات مع الأوس، ودخل بعضها في محالفات مع الخزرج، وكانوا في القتال أقسى على بني جنسهم من العرب، واستحكم عداء بين بني القينقاع وبني النضير وبني قريظة، جعل بني قينقاع يتركون أرضهم وزرعهم، ويقتصرون على الصناعة[3].

---

(١) « مكة والمدينة »، ص ٣١٣ .

(٢) « إمتاع الأسماع بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع » لتقي الدين أبي محمد المقريزي ١/ ٣٦٤ (طبع القاهرة - ١٩٤١ م) .

(٣) مكة والمدينة ص ٣٢٢ .

ووقعت كذلك بين الأوس والخزرج حروب كثيرة، أولاها حرب سمير، وآخرها حرب بُعاث قبل الهجرة بخمس سنوات[1] وقد عمل اليهود بجانبهم على الدّسّ بين الأوس والخزرج وتشجيع عوامل الفرقة، وإذكاء روح التحاسد، حتى يشغلوهم بأنفسهم عنهم [2]، وقد أدرك العرب منهم ذلك فلقبوهم بـ« الثعالب ».

الوضع الطبيعيّ

كانت يثرب عند الهجرة النبوية منقسمة الى عدة دوائر، تسكنها بطون عربية ويهودية، وكل دائرة تابعة لبطن من البطون، وكانت الدائرة تنقسم الى قسمين: يشتمل القسم الأول على الاراضي الزراعية بمنازلها وسكانها، ويشتمل القسم الثاني على الأطم أو الآطام [3].

وقد بلغ عدد آطام اليهود في يثرب تسعة وخمسين أطماً [4]، ويقول الدكتور ولفنسون في وصف هذه الآطام:

«كانت أهميّة الآطام عظيمة في يثرب، فكان يفزع اليها

---

(1) « مكة والمدينة » ص ٣٢٢ - ٣٢٣ .

(2) راجع القصة التي رواها ابن هشام ق ١ ص ٥٥٥ .

(3) مستفاد من كتاب « تاريخ اليهود في بلاد العرب » للدكتور اسرائيل ولفنسون ص ١١٦ .

(4) « وفا الوفاء في أخبار دار المصطفى »ﷺ للسمهودي ، ج ١ ص ١١٦ .

افراد البطن عند هجوم العدو ويأوي إليها النساء والأطفال والعجزة ، حين يذهب الرجال لمقاتلة الأعداء، وقد كانت الآطام تستعمل كالمخازن تجمع فيها الغلال والثمار، ذلك أنها كانت معرضة في أماكنها المكشوفة للنهب والسلب، وكان الأطم مربعا لكنز الأموال والسلاح، وكان للقوافل المثقلة بالبضائع أن تنزل بالقرب منه، كما كانت تقام على أبوابه الأسواق.

وكانت الآطام تشتمل ـ كما تظن ـ على المعابد وبيوت المدراس، اذ كانت فاخرة الأثاث، كثيرة الأدوات، مملوءة بالأسفار، فكان يجتمع فيها الزعماء للبحث والمشاورة حيث يقسمون بالكتب المقدسة، حين يهمون بابرام العقود والاتفاقات [١]».

ويقول الدكتور في تفسير كلمة «أطم»: «أنها مأخوذة من اللغة العبرية، فيقال: أطم عينيه: أغمضها ، وأطم أذنيه سدهما ، والأطم في الجدران والحيطان: هي النوافذ المغلقة من الخارج ، والمفتوحة من الداخل، ويستعمل في السور أي الحائط الضخم»، يقول الدكتور :

«وعلى ذلك يمكننا أن نفترض أن اليهود أطلقوا على الحصن

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ص ١١٦ ـ ١١٧ .

اسم أطم ، لأنه كان في امكانهم أن يغلقوا أبوابه ، وان كانت له نوافذ من الخارج وتفتح من الداخل [1] » .

ومن هذه الأحياء والدوائر المحصنة كانت تتكون مدينة يثرب ، فهي في الحقيقة مجموعة من القرى تقاربت وتجمعت ، فتكونت منها المدينة ، والى ذلك أشار القرآن بقوله :

«ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى» ، وبقوله :

﴿ لا يقاتلونكم جميعا الا في قرى محصنة أو من وراء جدر ﴾ [2]

وحرّة واقم التي تحدّ المدينة من الشرق ، كانت أكثر عمرانا من الوبرة ، وحين هاجر النبي ﴿ ﷺ ﴾ الى يثرب ، كانت حرة واقم مسكونة بأهم قبائل اليهود من بني النضير وقريظة ، وعدد من عشائر اليهود الأخرى ، كما كانت تسكنها أهم البطون الأوسية بنو عبد الأشهل وبنو ظفر وبنو حارثة ، وبنو معاوية ، وفي منازل بني الأشهل كان يقوم حصنهم واقم ، الذي سمي الحرّة باسمه [3] .

الحالة الدينية والمكانة الأجتماعية

كان أهل العرب تابعين لقريش ، وأهل مكة في العقيدة

(١) نفس المصدر السابق ص ١١٧ .
(٢) « مكة والمدينة » ؛ ص/ ٤=٢ .
(٣) « منزل الوحي » للدكتور محمد حسين هيكل ، ص ٥٧٧ .

والديانة، ينظرون الى قريش كسدنة للبيت، وقادة في الدين، وقدوة في الاعتقاد والعبادة، خاضعين للوثنية السائدة على جزيرة العرب، يعبدون من الأصنام ما تعبدها قريش وأهل الحجاز، إلاّ أن علاقتهم ببعض الأصنام كانت أقوى من علاقتهم ببعضها، فكانت مناة لأهل المدينة، وكانت أقدم الأصنام، وكان الأوس والخزرج أشد اعظاما لها من غيرهم، وكانوا يهلّون لها شركا بالله تعالى، وكانت حذو «قديد» الجبل الذي بين مكة والمدينة من ناحية الساحل، كما كانت اللات لأهل الطائف، والعزّى لأهل مكّة وكان أهل هذه المدن أكثر تعصبا وحمّية لها من غيرها، وكان من اتخذ في داره صنما من أهل المدينة من خشب أو غيره يسميه «مناة» أيضا، كما فعل ذلك عمرو بن الجموح سيد من سادات بني سَلِمة قبل أن يسلم[1]، وقد جاء في حديث رواه الامام أحمد عن عروة عن عائشة في تفسير قوله تعالى «ان الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت او اعتمر فلا جناح عليه أن يطّوف بهما»[2]، قالت:ان الانصار قبل أن يسلموا كانوا يهلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلّل، وكان من أهلّ لها يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﴿ﷺ﴾

---

(١) مستفاد من « بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب » « للعلامة السيد محمود شكري الألوسي ؛ ج ١ ص ٢٣٤٦ ص ٢٠٨ .

(٢) البقرة ١٥٨ .

فقالوا: يا رسول الله انا كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل: ﴿ إن الصّفا والمروة من شعائر الله ﴾ الآية، ولم نطلع على صنم لهم خاص في المدينة اشتهر كاللاّت ومناة، والعزّى، أو كهبل، يعكفون على عبادته، ويشد اليه الرحال من خارج المدينة، ويبدو أن الأصنام لم تنتشر في المدينة انتشارها في مكة، فقد كان لكل بيت في مكة صنم خاص، وكانت الأصنام يطاف بها وتباع، فكانوا في الوثنية عيالا على أهل مكة وأتباعا لهم.

وكان لأهل المدينة يومان يلعبون فيهما، فلما قدم النبي ﷺ المدينة قال لهم: « قد أبدلكم الله تعالى بهما خيرا منهما، يوم الفطر والأضحى[1] »، وقد ذكر بعض شرّاح الحديث أنهما النيروز والمهرجان، وكأنّهم أخذوهما من الفرس[2].

وكانت قريش تعترف بشرف الأوس والخزرج، وهم بنو قحطان العرب العاربة، وكانوا يصاهرونهم، ويتزوجون فيهم، وقد تزوّج هاشم بن عبد مناف وهو سيد قريش في بني النّجار، تزوّج سلمى بنت عمرو بن زيد من بني عدي بن النّجار وهم من الخزرج الا أنهم كانوا يرون لأنفسهم فضلا عليهم، وقد قال عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، والوليد بن

(١) الحديث في الصحيحين.
(٢) « بلوغ في معرفة أحوال العرب ».

عتبة الذين دعوا الى المبارزة يوم بدر، فخرج اليهم فتية من الأنصار فقالوا من أنتم؟ قالوا رهط من الأنصار، قالوا ما لنا بكم من حاجة ، ثم نادى مناديهم، يا محمد ! أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﴿ﷺ﴾ : قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلما قاموا ودنوا منهم، وسموا أنفسهم، قالوا: نعم أكفاء كرام [١]، وكانوا ينظرون الى الفلاحة التي كان يمارسها أهل المدينة بحكم طبيعة أرضهم ولاعتمادهم عليها في معاشهم نظرة فيها شيء من الاحتقار، وقد تجلت هذه النظرة في الكلمة التي قالها ابو جهل وهو عقير، قد قتله ابنا عفراء وهما من الأنصار، وقد أدركه عبد الله بن مسعود وبه رمق « لو غير أكار قتلني [٢]» .

الحالة الاقتصاديّة والحضاريّة

كانت مدينة يثرب بطبيعتها منطقة زراعية، وكان أكثر اعتماد أهلها على الزّراعة والبساتين، وكان من أهم حاصلاتها التمر والعنب، فكانت فيها جنات النخيل والأعناب [٣]

(١) ابن هشام ق ١ ص ٦٢٥ .

(٢) رواه الشيخان ؛ قال العلامة محمدطاهر الفتني في « مجمع بحارالأنوار » : أي الزراع والفلاح ، وهوعند العرب ناقص يعرّض بأن ابني عفراء من الزراع ، فلوغيرهما قتلني لم يكن على نقص ، ج١ ، ص ٦٨ .

(٣) اقرأ حديث أبي طلة في بيرحاء الذي رواه الشيخان : وكانت بساتين ملتفة الأغصان والأوراق حتى يدخل فيها الدبسّي وهو طائر صغير ـ فلا يكاد يخرج منها جاء في قصة أبي طلحة الأنصاري : أنه كان يصلي في حائط له فطار دبسي فطفق يتردد يلتمس مخرجاً ، فأعجبه ذلك ، فجعل يتبعه بصره ساعة ، إلى قصة تصدقه بهذا الحائط بسبب الفتنة التي فتن بها ، أخرجه مالك في موطأه .

وجنات معروشات وغير معروشات، وزروع ونخيل صنوان وغير صنوان [1] ، ومن الزروع الحبوب والبقول، وإنّ التمر وخاصة أيام الجدب، وتخلف الأمطار، يسد كثيرا من حاجة السكان الغذائية، وكان كعملة يتبادل بها أهلها عند الحاجة وكانت النخيل مصدر خيرات كثيرة في حياتهم، فكانوا يستخدمونه في الغذاء والبناء، والصناعة، والوقود، وعلف الدواب [2] ، ولتمر المدينة أنواع كثيرة وتفاصيل دقيقة تصعب الإحاطة بها [3]، ولأهل المدينة تجارب وطرق في تنمية حاصل النخيل وتحسينه استفادوها من طول المراس، منها تأبير النخل [4] .

هذا لا ينفي وجود حركة تجارية في المدينة، ولكنها لم تكن في القوة والانتشار بمكانة الحركة التجارية في مكة، اذ كان اعتماد أبناء الوادي ـ وهي غير ذي زرع ومياه وفيرة ـ على التجارة ورحلة الشّتاء والصّيف.

(١) راجع سورة الأنعام وسورة الرعد .

(٢) أقرأ شرح الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه (في كتاب العلم ، وترجم له : « باب طرح الإمام المسألة على الناس ليختبر ما عندهم من العلم ») ، في « فتح الباري » ، للحافظ أبن حجر العسقلاني أو « عمدة القارىء » للعيني .

(٣) تدل الثروة اللغوية الكبيرة التي تدور حول النخلة والتمر ، على ما كانت تشغله هذه الشجرة وثمرتها من مكان في حياة العرب عامة وأهل المدينة خاصة ، وما كان لهما من أهمية ، راجع على سبيل المثال « أدب الكاتب » لابن قتيبة ، و« فقه اللغة » للثعالبي ، و « المخصص » لابن سيدة ؛ وقد أفرد عدد من العلماء كتباً للنخل .

(٤) التأبير هو أن يشق طلع النخلة ليذر فيه شيء من طلع ذكر النخل ، (شرح مسلم للنووي) .

وكانت في المدينة بعض الصناعات يمارس آكثرها اليهود، ولعلهم جلبوها من اليمن، فلم يزالوا فيه الى أن غادروه في الزمن الأخير، حاذقين في الصّناعات، وكان عامة بني قينقاع صاغة، وكانوا أغنى طوائف اليهود في مدينة يثرب، وكانت بيوتهم تحتوي على الاموال الطائلة، والحلى الكثيرة من الفضة والذهب، مع أن عددهم كان غير كثير[١] .

وقد منحت طبيعة يثرب، وهي بركانية التربة، أراضيها خصبا زائدا، وهي ذات وديان كثيرة، تفيض بمياه السيول فتروي ارضها وتسقي النخل والزروع، اشتهر منها وادي العقيق[٢] ، الذي كان متنزّه المدينة، وكان يتدفق بالماء، ويزهو بالبساتين، وكانت الارض صالحة لحفر الابار، وقد كثرت في البساتين، ومنها ما هو مسوّر ويسميه اهل المدينة «الحائط»[٣] ، واشتهرت آبار كثيرة بعذوبة الماء ووفرته، وكانت لهم شراج[٤]، وكانوا يحولون الماء بالمساحي الى حدائقهم[٥].

وكان من الحبوب الرئيسيّة الشّعير، ثم القمح، وتكثر

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ص ١٢٨ .

(٢) اقرأ « معجم البلدان » لياقوت الحموي ؛ و« الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني

(٣) اقرأ قصة ابتلاء كعب بن مالك في الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي) ؛ وقد جاء فيه : « حتى اذا طال على ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي » .

(٤) الشربة : هي مسيل الماء .

(٥) اقرأ حديث أبي هريرة الذي رواه مسلم ، وجاء فيه : « اسق حديقة فلان » ، وجاء فيه ذكر الشراج ، وتحويل الماء بالمسحاة .

الخضروات والبقول، وكانت لهم طرق في المزارعة والمؤاجرة والمزابنة، والمحاقلة، والمخابرة، والمعاومة، منها ما أقرّه الإسلام ومنها ما منعه أو أصلحه [1].

وكانت العملة في مكّة والمدينة واحدة، وقد شرحناها، وكانت المدينة تعتمد على المكاييل وتحتاج إليها أكثر من مكّة، لاعتماد أهلها على الحبوب والثّمار [2] وكانت الأكيال المستعملة في المدينة هي المدّ والصّاع والفرق والعرق والوسق [3] أما الأوزان المستعملة فهي الدّرهم والثّقاف والدانق والقيراط والنوّاة والرّطل والقنطار والأوقية [4].

ولم تكن المدينة ـ على خصبها ـ مكتفية غذائياً، فكان أهلها يستوردون بعض الموادّ الغذائية من الخارج،

---

(١) اقرأ ابواب الحرث والمزارعة في الصحاح: و«المزابنة»: بيع التمر في رؤوس النخل بالتمر كيلا؛ «المحاقلة»، بيع الزرع في سنبله، الشعير بشعير كيلا، والقمح بقمح كيلا، و «والمخابرة» و«المزارعة» متقاربتان، وهما المعاملة على الأرض ببعض ما يخرج منها من الزرع، كالثلث، والربع، لكن في لمزارعة يكون البذر من مالك الأرض، وفي المخابرة يكون البذر من العامل، وقال جماعة من اهل اللغة هما بمعنى وفي صحة المزارعة والمخابرة خلاف مشهور للسلف والخلف (مستفاد من شرح النووي لمسلم) «والمعاومة» هو بيع السنين، ومعناه أن يبيع ثمر الشجرة عامين؛ أو ثلاثة أو أكثر.

(٢) ـ لذلك قال النبي ﷺ: «الميزان ميزان أهل مكة، والمكيال مكيال أهل المدينة» (رواه أبو داود والنسائي من رواية طاؤوس عن ابن عمر وصححه ابن حبان والدارقطني).

(٣) (٤) راجع للتفصيل والتقدير شروح كتب الحديث وكتب الخلاف، انظر لمقاديرها «التراتيب الادارية» ج ١ ص ٤١٣ ـ ٤١٥ .

وكانوا يجلبون دقيق الحوار والسمن والعسل ،من الشام ،قد جاء في حديث رواه الترمذي عن قتادة بن النعمان ـ رضي الله عنه ـ : «كان الناس انما طعامهم بالمدينة ، التمر والشعير، وكان الرجل اذا كان له يسار فقدمت ضافطة[1] ، من الشام من الدرمك[2] ، ابتاع الرجل منها فخص بها نفسه ، وأما العيال فانما طعامهم التمر والشعير[3]، والقصة تلقى ضوءا على الحالة الغذائية في المدينة ـ التي لم تحدث بعد الهجرة فجأة ـ وعلى المستويات المختلفة في المعيشة .

وكان اليهود ـ كما عرف من طبيعتهم وتاريخهم في كل بلد أكثر غنى من العرب ، وكان العرب بطبيعتهم العربية البدوية ، لا يفكرون في المستقبل كثيرا، فيوفرون له المال، وكانوا أهل ضيافة وكرم، يضطرون الى الاستدانة من اليهود، وكثيرا ما تكون هذه الاستدانة بالربا والرهن.

وكان لأهل المدينة ثروة من الإبل والبقر والأغنام، ويستخدمون الإبل في إرواء الأراضي ويسمونها بـ «الإبل النواضح» وكانت لهم مراعي اشتهرت منها «زغابة» و «الغابة» ،

(١) الضافطة : قال الفتني : « الضافطة » و « الضفاط » من يجلب الميرة والمتاع الى المدن ؛ وكانوا قوماً من الأنباط يحملون الى المدينة الدقيق والزيت وغيرهما » ، (مجمع بحار الأنوار ، ج ٣ ص ٤١٠ ؛ طبع حيدر آباد ـ الهند) .

(٢) « الدرمك » : الدقيق الحواري ، وحده «الدرمكة » .

(٣) أنظر تفسير قوله تعالى « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما » الآيات في جامع الترمذي .

يحتطب منها الناس، ويرعون فيها ماشيتهم[1] ، وكانت لهم خيل يستخدمونها في الحروب وان كانت قليلة بالنسبة الى مكة، وكان بنو سليم مشهورين باقتناء الخيل، يجلبونها من الخارج.

وكانت في المدينة عدّة أسواق، أهمّها «سوق بني قينقاع» مركز بيع الحلى والمصوغات الذهبية، وكانت سوق البزازين، وتوجد في المدينة المنسوجات القطنية والحريرية ، والنمارق الملونة والستور المرسومة[2]، وكان عطارون يبيعون انواع العطور والمسك، وكان يوجد من يتجر في العنبر والزئبق[3]، وكانت أنواع من البيع منها ما أقره الاسلام، ومنها ما منعه، من النّجْش والاحتكار، وتلقي الركبان خارج المدينة، وبيع المصرّاة، والبيع بالنسيئة، وبيع الحاضر للبادي، وبيع المجازفة، وبيع المزابنة، والمخاضرة[4]، وكان من الأوس والخزرج من يتعامل بالربا، وان كان ذلك نادرا بالنسبة الى اليهود.

وقد توسّعت الحياة في المدينة بعض التوسع، ورقت بحكم طبيعة اهلها، فكانت البيوت ذات طبقات[5]، وكانت لبعض

---

(١) راجع «معجم البلدان» لياقوت الحموي، و«وفاء الوفاء» للسمهودي.

(٢) اقرأ حديث عائشة الذي رواه الشيخان، وقد جاء فيه ذكر، «القرام» قال الفتني: هو ستر رقيق وقيل صفيق من صوف ذي ألوان، قيل: صربته مثل حجلة العروس، وقيل: كان مزيناً منقشا، (مجمع بحار الأنوار ج٤ ص ٢٥٨).

(٣) راجع «التراتيب الادارية» للعلامة عبد الحي الكتاني (القسم التاسع).

(٤) أنظر أبواب البيع في كتب الحديث والفقه؛ وشرح الكلمات فيها؛ وأحكامها من الحلة والحرمة.

(٥) أنظر حديث الهجرة، ونزول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

البيوت حدائق، وكانوا يستعذبون الماء، وقد يأتون به من بعيد، وكانت توجد كراسي[1]، وكانت تستعمل اقداح من زجاج وأقداح من الحجارة، وسرج منوعة[2]، وكانوا يستخدمون المكاتل والقفف في اعمال المنزل والزراعة، وكان للأغنياء شيء كثير من الأثاث لبيوتهم، خصوصا اليهود، وكانت أنواع من الحلى كالأساور والدمالج، والخلاخيل، والأقرطة، والخواتم والعقود من الذهب أو من جزع ظفار[3]، وكان الغزل والنسيج فاشيين في النّساء فكانت الخياطة والدّباغة وعمل بناء البيوت، وضرب الطوب والنحت، من الصناعات التي عرفت في المدينة قبل الهجرة.

الوضع المعقّد الذي واجهه الرّسول «ﷺ» في مدينة يثرب

وهكذا لم ينتقل رسول الله «ﷺ» والمهاجرون من مدينة مكة الى قرية يثرب بل انتقل من مدينة الى مدينة، وان كانت هي الأخرى تختلف عن الأولى في مظاهر كثيرة للحياة، وكانت أصغر منها نسبيا، ولكن الحياة فيها كانت اكثر تعقدا، والقضايا التي سيواجهها الرسول اكثر تنوّعا، لوجود ديانات وبيئات وثقافات مختلفة، لا يتغلّب عليها ولا يصهر المدينة كلها في بوتقة

---

(١) «التراتيب الادارية» ج ١ ص ٩٧ .

(٢) أيضاً ص ١٠٤ .

(٣) اقرأ حديث عائشة في قصة الأفك الذي رواه البخاري في كتاب المغازي، والجزع خرزفيه سواد وبياض؛ و«ظفار» مدينة باليمن .

عقيدة واحدة، ودعوة واحدة الا الرّسول المؤيّد من الله ، الذي أعطاه الله الحِكمة وفصل الخطاب، وقوة الجمع بين الأنماط البشرية الكثيرة والقوى المتصارعة، والأهواء المتعاكسة وألقى عليه محبة منه، وصدق الله العظيم:

﴿ هو الذي أيَّدك بنصره وبالمؤمنين، وألَّف بين قلوبهم، لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألَّفت بين قلوبهم، ولكنَّ الله ألَّف بينهم، انه عزيز حكيم [1] ﴾

---

(١) سورة الأنفال ٦٢ ـ ٦٣ .

في المدينة

كيف استقبلت المدينة رسول الله ﴿ﷺ﴾

وسمع الأنصار بخروج رسول الله ﴿ﷺ﴾ من مكة، فكانوا يخرجون كل يوم اذا صلوا الصبح الى ظاهر المدينة، ينتظرون رسول الله ﴿ﷺ﴾ فما يبرحون حتى تغلبهم الشمس على الظلال، فيدخلون بيوتهم، وكان الزمن زمن صيف وحر.

وقدم رسول الله ﴿ﷺ﴾ حين دخل الناس البيوت، وكان اليهود يرون ما يصنع الأنصار، وكان أول من رآه رجل من اليهود، فصرخ بأعلى صوته، وأخبر الانصار بقدوم رسول الله، فخرجوا الى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وهو في ظل نخلة، ومعه أبو بكر - رضي الله عنه - في مثل سنه - وأكثرهم لم يكن رأى رسول الله ﴿ﷺ﴾ قبل ذلك، وازدحم الناس، مايميِّزون بينه وبين أبي بكر، وفطن لذلك أبو بكر، فقام يظله بردائه فانكشف للناس الأمر [1].

واستقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، حتى انتهوا اليهما فقالت الأنصار: انطلقا آمنين مطاعين، فأقبل رسول الله

---

(١) ابن هشام ق ١ ص ٤٩٢ .

﴿ﷺ﴾وصاحبه بين أظهرهم،فخرج أهل المدينة حتى ان العواتق لفوق البيوت يتراءينه يقلن: أيهم هو؟ أيهم هو؟ يقول أنس - رضي الله عنه فما رأينا منظرا شبيها به [1].

وخرج الناس حين قدما المدينة في الطرق وعلى البيوت والغلمان والخدم يقولون: الله أكبر! جاء رسول الله ، الله أكبر! جاء محمد ، الله أكبر ! جاء محمد ، الله أكبر ! جاء رسول الله [2] .

ويقول البراء بن عازب - وكان حديث السن - : قدم النبي ﴿ﷺ﴾ فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم برسول الله ﴿ﷺ﴾ [3] .

وكبّر المسلمون فرحا بقدومه، وما فرحوا لشيء في حياتهم كفرحهم بقدوم رسول الله ﴿ﷺ﴾.

وكانت المدينة باسمة الثّغر، ترفل في حلل الفرح والفخر، وكانت بنات الأنصار ينشدن [4] في سرور ونشوة:

---

(١) رواه الامام أحمد بسنده عن أنس بن مالك (ابن كثير ج٢ - ص ٢٦٩) .

(٢) البخاري ومسلم من طريق إسرائيل عن أبي بكر في حديث الهجرة .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري باب « مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة » .

(٤) ابن كثير ج ٢ ص ٢٦٩ ، رواه البيهقي بسنده عن ابن عباس وعائشة روى ابن القيم البيتين الأولين عند عودة النبي ﷺ من تبوك ، الى المدينة وخروج الناس لتلقيه ، قال : « وبعض الرواة يهم في هذا ويقول انما كان ذلك عند مقدمه المدينة من مكة ، وهو وهم ظاهر ، لأن ثنيات الوداع انما هي من ناحية الشام لا يراها القادم من مكة إلى المدينة ، ولا يمر بها=

طلع البدر علينا   من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا   ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا   جئت بالأمر المطاع

يقول أنس بن مالك الانصاري - وهو غلام يومئذ - شهدت رسول الله ﴿ﷺ﴾ يوم دخل المدينة، فما رأيت يوما قط، كان أحسن ولا أضوأ من يوم دخل المدينة علينا [1].

مسجـد قبـاء وأول جمعة في المدينة

وأقام رسول الله ﴿ﷺ﴾ بـ «قباء» أربعة أيام، وأسس

= إلا إذا توجه الى الشام . اهـ (زاد المعاد ج ٢ ص ١٠١)

ولكن المشهور المستفيض أن هذا النشيد انما كان عند مقدمه من مكة إلى المدينة وعلى ذلك تكاد تتفق كتب السيرة ، وفي الأبيات شواهد داخلية على أنها كانت عند مقدمه الأول إلى المدينة ، فان روح الفرح والحماس التي تسيطر على هذه الأبيات تنطق بأنها قيلت وأنشدت عند الطلعة الأولى .

وقد تعددت الثنيات في المدينة ، فلا مانع من أن يكون القادم من مكة يمر بثنية الوداع الواقعة في مدخل المدينة فكان المدرج الذي ينزل منه إلى بئر عروة بالجنوب الغربي بالمدينة يسمى بثنية الوداع ، أيضاً يقول الشيخ عبدالقدوس الانصاري في كتاب « آثار المدينة المنورة » .

« وكما أن أهل المدينة كانوا يودعون المسافر منها إلى ناحية الشام من الثنية التي هي بطريق الشام ، فكذلك لهم أن يودعوا المسافر إلى جهة مكة من الثنية الواقعة بطريق مكة ، ويحق لكل من الثنيتين بهذا النظر أن تسمى ثنية الوداع لقيام معنى الثنية الذي هو الطريق في الجبل والوداع بكل منهما ولا تشاركهما فيه ، فكلتاهما مركز لتوديع المسافرين » ويقول : « ويوافقنا العباسي في تاريخه للمدينة على هذا الرأي ، وهي ثنية الوداع التي تشرف على وادي العقيق ، وتحيط به الحرة من كل جانب

(آثار المدينة المنورة ص ١٦٠)

(١) رواه الدارمي بسنده عن أنس رضي الله عنه .

مسجدا هناك، وخرج يوم الجمعة، وأدركته الجمعة في بني سالم بن عوف، فصلاها في مسجدهم، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة [1] .

في بيت أبي أيوّب الأنصاري

وخرج رسول الله ﴿ﷺ﴾ الى المدينة والناس يتلقونه في الطريق أرسالا، ويطلبون منه الإقامة عندهم، ويقولون: أقم عندنا في العَدد والعُدد والمنعة، ويمسكون بزمام الناقة،فيقول : «خلوا سبيلها، فانها مأمورة» ووقع ذلك مرارا.

ولما مرّ النبي ﴿ﷺ﴾ بحي من بني النّجار اذا جَوارٍ يضربْنَ بالدّفوف ويقلْن:

نحن جوارٍ من بني النّجار يا حبّذا محمدٌ من جار [2]

حتّى اذا اتى دار بني مالك بن النّجار، بركت على مكان فيه باب المسجد النبوي اليوم، وهو يومئذ مربد [3] لغلامين يتيمين من بني النجار، وهم أخواله ﴿ﷺ﴾ .

ونزل رسول الله ﴿ﷺ﴾ عن النّاقة فاحتمل أبو أيوب خالدُ ابن زيد النّجاري الخزرجي - رحله فوضعه في بيته، ونزل عليه

---

(١) ابن هشام ق ١ ص ٤٩٤ .

(٢) رواه البيهقي عن أنس رضي الله عنه ؛ (ابن كثير ج٢ ؛ ص ٢٧٤)

(٣) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

رسول الله / ﴿ﷺ﴾ فبالغ أبو أيوب في ضيافته واكرامه، ونزل في السّفل من البيت وكره أبو أيوب وأعظم أن يكون في العلوّ، فطلب منه أن يكون هو ﴿ﷺ﴾ في العلوّ، ويكون هو - رضي الله عنه - وعياله في السّفل، فقال: يا أبا أيوب! إنّ أرفق بنا وبمن معنا وبمن يغشانا أن نكون في سفل البيت.

ولم يكن أبو أيوب الانصاري من الموسرين، لكنه كان عظيم الفرح بنزول رسول الله ﴿ﷺ﴾ في بيته، كبير الاعتداد والشكر لهذه الكرامة التي أكرمه الله بها، والحبّ يلهم من أساليب الرّاحة وطرائق الخدمة، ما لا يلهمه شيء آخر. يقول أبو أيوب: «وكنا نصنع لرسول الله ﴿ﷺ﴾ العشاء، ثم نبعث اليه، فاذا رد الينا فضله تيممت انا وأم أيوب موضع يده، فأكلنا منه، نبتغي بذلك البركة، وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ في سفل البيت وكنا فوقه في المسكن فلقد انكسر حُبّ لنا فيه ماء، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ما لنا لحاف غيرها، ننشف بها الماء، تخوّفا ان يقطر على رسول الله ﴿ﷺ﴾ منه شيء فيؤذيه[١].

بناء المسجد النّبوي والمساكن

ودعا رسول الله ﴿ﷺ﴾ الغلامين صاحبي المربد - فساومهما

(١) رواه ابن اسحق بسنده عن أبي أيوب (ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٧) .

بالمربد ليتخذه مسجدا، فقالا : بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﴿ﷺ﴾ ان يقبله منهما هبة، حتى ابتاعه منهما، ثم بناه مسجدا [١].

وعمل رسول الله ﴿ﷺ﴾ في بناء المسجد فكان ينقل اللّبن، واقتدى به المسلمون، وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقول:

اللّهم إنّ الأجر أجر الآخرة   فارحم الأنصار والمهاجرة [٢]

وكان المسلمون مسرورين سعداء، ينشدون الشعر، ويحمدون الله تعالى.

وأقام رسول الله ﴿ﷺ﴾ في بيت أبي أيوب سبعة أشهر [٣]، حتى بني له مسجده ومساكنه، فانتقل الى مسكنه.

وتلاحق المهاجرون الى رسول الله ﴿ﷺ﴾ فلم يبق بمكة منهم احد، الا مَفْتون، او محبوس، ولم تبق دار من دون الأنصار الا أسلم أهلها [٤].

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

وآخى رسول الله ﴿ﷺ﴾ بين المهاجرين والانصار، آخى

---

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح، باب « مقدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة ».

(٢) ابن كثير ج ٢ ص ٢٥١ .

(٣) ابن كثير ج ٢ ص ٢٧٩ ؛ وقد روى أقل من ذلك .

(٤) ابن هشام، ق ١ ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

بينهم على المواساة، وكان الأنصار يتسابقون في مؤاخاة المهاجرين، حتى يؤول الأمر الى الاقتراع، وكانوا يحكّمونهم في بيوتهم وأثاثهم وأموالهم وأرضهم وكراعهم، ويؤثرونهم على أنفسهم.

وقد يقول الأنصاري للمهاجر: أنظر شطر مالي فخذه، وتحتى امرأتان، فانظر أيهما أعجب اليك حتى أطلّقها، ويقول المهاجر: بارك الله لك في أهلك ومالك، ودلّني على السوق.

فكان من الأنصاري الايثار، ومن المهاجر التعفّف وعزّة النفس [1].

كتابه ﷺ بين المهاجرين والأنصار وموادعة يهود

وكتب رسول الله ﴿ﷺ﴾ كتابا بين المهاجرين والانصار، وادع فيه يهود، وعاهدهم، وأقرّهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم [2].

---

(١) اقرأ في الجامع الصحيح للبخاري، باب « اخاء النبي ﷺ؛ بين المهاجرين والأنصار» وباب « كيف آخى النبي ﷺ بين أصحابه، قصة عبد الرحمن بن عوف مع سعد بن الربيع.

(٢) راجع التفاصيل ابن هشام ق ١ ص ٥٠١.

شرع الأذان

ولمّا اطمأنّ رسول الله ﴿ﷺ﴾ بالمدينة، واستحكم أمر الإسلام، وكان الناس يجتمعون اليه للصلاة في مواقيتها بغير دعوة، وكره رسول الله ﴿ﷺ﴾ طُرُق الإعلان التي اعتادها اليهود والنصارى من بوق وناقوس ونار، أكرم الله المسلمين بالأذان، فأراه بعضهم في المنام، فأقره رسول الله ﴿ﷺ﴾ وشرعه للمسلمين واختير بلال بن رباح الحبشي للأذان، وكان مؤذّن رسول الله ﴿ﷺ﴾ فكان إمام المؤذّنين الى يوم القيامة.

ظهور النّفاق والمنافقين في المدينة

لم يكن في مكّة نفاق[1]، لأن الإسلام كان هناك مغلوبا على أمره، لا يملك حولا ولا طولا، ولا يملك لأحد نفعا ولا ضرا، وكان كل من يدخل فيه يعرّض نفسه للخطر والضّرر، ويثير لها العداء، ويهيج الأعداء، فلا يقبل عليه الا من صدق عزمه، وقوي ايمانه، وجازف بحياته ومستقبله، ولم تكن هنالك قوتان متماثلتان، إنما كان المشركون الأقوياء القاهرون، والمؤمنون المضطهدون المستضعفون، وقد صوره القرآن بقوله البليغ: ﴿ واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون

(١) وهو الذي يرجحه أكثر المفسرين والمؤرخين، وجميع السور التي ذكر فيها النفاق والمنافقين مدنية، وقد جاء في سورة البراءة « وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوداً على النفاق ».

أن يتخطفكم الناس [1]﴾.

فلما انتقل الإسلام الى المدينة واستقرّ الرسول وأصحابه فيها، وبدأ الاسلام ينتشر، ويزحف، ويعلو، وقام المجتمع الإسلامي بجميع لوازمه، تغيّر الوضع ونجم النفاق ورفع رأسه، وكان ظاهرة طبيعية نفسية لا بدّ منها، فانما تظهر بادرة «النفاق» في بيئة تجمع بين دعوتينّ متنافستين، وقيادتينّ متقابلتين، هناك يوجد عنصر مضطرب يتأرجح بين هاتين الدعوتين ويتردد في إيثار إحداهما على الأخرى، وقد ينحاز الى دعوة، فيكون في معسكرها، ويعطيها ولاءه وحبه العاطفي، إلا أن مصالحه المادية، وانتشار الدعوة المقابلة وانتصارها، لا يسمح له باعلان موقفه، والانضواء الى الدّعوة الأولى، وقطعه للحبال التي تربطه ببيئته الأولى، وقد صور القرآن هذا الموقف المضطرب تصويرا دقيقا، فقال:

﴿ ومن الناس من يعبد الله على حرف، فان أصابه خير اطمأن به وان أصابته فتنة انقلب على وجهه، خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين [2]﴾، وهم الذين وصفهم بقوله: ﴿ مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى هؤلاء [3]﴾.

---

(١) سورة الأنفال ـ ٢٦ .
(٢) سورة الحج ـ ١١ .
(٣) سورة النساء ـ ١٤٣ .

وكان على رأس هؤلاء المنافقين الذين كانوا من الأوس والخزرج واليهود عبد الله بن أبي بن سلول، اتفقوا بعد حرب بُعاث على أن يولوه الرئاسة ويتوجوه، وكان قد تم له كل ذلك اذ جاء الإسلام، وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا، فَشرِق به وكرهه كرها شديدا، قال ابن هشام: «قدم رسول الله ﴿ﷺ﴾ المدينة، وسيد أهلها عبد الله بن أبي بن سلول العوفي. . . لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل غيره من أحد الفريقين، حتى جاء الإسلام، وكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوجوه، ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﴿ﷺ﴾ وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه الى الإسلام، ضغن، ورأى أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد استلبه ملكا، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارها، مصرًّا على نفاق وضغن [1]».

وعادى الاسلام كل من كان في قلبه مرض، وفي السيادة طمع، وضاق ذرعا بهذا الدين الزاحف، الذي هدم كل ما بناه، ونقض كل ما أبرمه، وجعل للمدينة شأنا غير الشأن، ومن المهاجرين والأنصار أمّةً جديدة، ألّف بين قلوبها، وبذلت نفوسها دون الرسول، وقدمت محبته على محبة الآباء والأبناءوالأزواج، فامتلأت قلوب هؤلاء المنافقين غيظا

(1) سيرة ابن هشام ـ ق 1 ص ٥٨٤ ـ ٥٨٥ .

وحسدا، فصاروا يكيدون له ويتربصون به الدوائر، ويقلبون له الامور، وتكوَّنت في المدينة جبهة معادية متسربة في المجتمع الإسلامي، كان على المسلمين ان يكونوا منها على حذر دائما، فقد تكون اشدّ خطرا على الإسلام والمسلمين من الأعداء المجاهرين، ومن هنا زخر القرآن بذكرهم وإزاحة الستار عنهم، وكان لهم مع الإسلام وللإسلام معهم شأن، ويتردّد ذكرهم في كتب السيرة وفي هذا الكتاب.

طلائع عداء اليهود

وبدأت طلائع عداءاليهود للإسلام بعد ما كان موقفهم موقف الحياد من المسلمين والمشركين من أهل مكة والمدينة، وربما كانوا أميل الى الاسلام والمسلمين، لأنهم جميعا يلتقون على الإيمان بالنّبوات والإيمان بالبعث، وان اختلفوا في بعض التفاصيل، وهم أقرب الأمم الى المسلمين في توحيد ذات الله وصفاته، على ما اعترى هذه العقيدة عند اليهود من الوهن بحكم التأثّر بالأمم الجاهلية التي جاوروها والبلاد الوثنية التي قضوا فيها أيام الجلاء والنفي الطويلة، وما دخل فيها من الغلوّ والتقديس لبعض أنبيائهم، كما شرحناه في كلامنا على الوضع الديني لليهودية في القرن السّادس المسيحي[1].

---

(١) راجع فصل « العصر الجاهلي » في أول الكتاب .

فكانت كل القرائن تدل على أنهم يلتزمون هذا الحياد، ان لم يشايعوا الإسلام الذي جاء مصدّقا لكتابهم، والنبي الذي دعا الى الإيمان بأنبياء بني اسرائيل، وأعلن القرآن على لسان المؤمنين فقال: ﴿ كلٌّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، لا نفرق بين أحد من رسله [(1)*] ﴾ ولو كان ذلك لكان للتاريخ البشري ـ فضلا عن التاريخ الإسلامي ـ اتجاه آخر، ولكفيت الدعوة الإسلامية الشيء الكثير من المشاكل والقضايا التي أثارها الصّراع بين الإسلام واليهودية، والنّضال بين المسلمين الذين كانوا في دور النشوء والتكوين وبين اليهود الأقوياء الأغنياء المثقفين.

ولكن ذلك لم يكن لسببين رئيسيين، أولهما ما طبع عليه اليهود من حسد، وضيق صدر، وجمود، وثانيهما ما بدأ القرآن به من نقد لما كان عليه اليهود من عقائد باطلة، واخلاق منحطّة، وعادات سيئة، وذكر لتاريخهم الماضي المليء بالاحداث، من محاربة الانبياء ودعواتهم، والاجتراء على قتلهم، وعنادهم، وصدّ عن سبيل الله وافتراء على الله، وشره للمال، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه، واكل اموال الناس بالباطل، واكلهم السّحت، وتحريفهم للتوراة، وحبهم الزائد للحياة، وغير ذلك مما زخر به القرآن.

---

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

واذا كان مَكَانَ رسول الله ﴿ﷺ﴾ زعيمٌ سياسي لحسب للوضع المعقّد ـ الذي كانت تعيشه المدينة ـ حسابه، وابتعد عن إثارة سَخَط اليهود وعدائهم، إن لم يتملقهم ويتودد اليهم، ولكنه الرسول المأمور بتبليغ الرسالة، والصدع بما أمر به، وتمحيص الحق والباطل، وعدم مسايرة الفساد والضلال، والمكلف بدعوة الطوائف والأمم جميعا الى الإسلام وفيهم اليهود والنّصارى أهل الكتاب مهما كلفه ذلك من ثمن ومشكلات طريفة، فانه هو النهج النبوي الذي سار عليه الأنبياء قبله، وهو النهج القويم، والفارق بين السياسة والنبوة والزعماء القوميين والأنبياء المرسلين.

هذا التعرض لليهود في عقائدهم وحياتهم وأخلاقهم هو الذي أثار اليهود على الإسلام والمسلمين، فغيروا موقفهم منهم، وناصبوا الإسلام العداء الخفي والسافر، وبرزوا في الميدان وكان الكاتب اليهودي الفاضل «اسرائيل ولفنسون» دقيقا ومنصفا في تحليل أسباب هذا النزاع، فقال:

«ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب، ولم يكلف اليهود ان يعترفوا برسالته، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول، ولأيدّوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم، حتى يحطم الاصنام، ويقضي على العقائد الوثنية،

لكن بشرط ألاّ يتعرض لهم ولا لدينهم، وبشرط ألاّ يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة، لأن العقلية اليهودية لا تلين امام شيء يزحزحها عن دينها، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني اسرائيل [١]» .

هذا ، وقد زاد اليهود غيظاً وحقداً على الإسلام أنه أسلم بعض أحبار اليهود وعلمائهم ، كعبد الله بن سلام ، وكان ذا مكانة عالية عندهم ، ولم يكونوا يتوقعون أن يدخل مثله في الإسلام فأثار ذلك الحقد الدفين فيهم [٢] .

ولم يقتصر اليهود على مخالفة الإسلام ، والابعاد عنه ، بل تعدّوا ذلك إلى تفضيل عبّاد الأوثان المشركين ، على المسلمين الّذين يلتقون معهم على عبادة الإله الواحد ، ونبذ الأوثان والأصنام ، وكان من المعقول المنتظر أنّهم إذا طلبت منهم المفاضلة بين دين قريش ، والدّين الّذي يدعو إليه محمد ﷺ على ما كان من خلاف بينهم وبين المسلمين ـ أن يشهدوا بفضل الإسلام على الوثنية ، ولكنّ عداء الإسلام لم يسمح لهم

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب » (ولنفسون ـ ص ١٢٣) .

(٢) ويبلغ عدد من أسلم من اليهود وكان له شرف الصحبة ٢٩ رجلاً ، جاءت أسماؤهم وتراجمهم في كتب طبقات الصحابة ، كتاب « كالاصابة » و « الاستيعاب » و « أسد الغابة » وغيرها ، منهم بعض كبار العلماء وأجلة الصحابة واعتمدنا في عدد المسلمين من أهل الكتاب على احصاء مؤلف كتاب « الصحابة والتابعون من أهل الكتاب » للأستاذ مجيب الله الندوي طبع دار المصنفين أعظم كره (الهند) .

بذلك ، فقد روي أن قريشاً قالت لعلماء اليهود الّذين زاروهم في مكّة : « يا معشر اليهود إنّكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه ، نحن ومحمّد ، أفديننا خير أم دينه ؟! قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق [1] .

ويقول العالم اليهودي الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على هذا الحدث :

« ولكنّ الّذي يلامون عليه بحقّ ، والّذي يؤلم كلّ مؤمن بإله واحد من اليهود والمسلمين على السّواء ، إنّما هو تلك المحادثة التي جرت بين نفر من اليهود ، وبين بني قريش الوثنّيين ، حيث فضّل هؤلاء النّفر من اليهود أديان قريش على دين صاحب الرّسالة الإسلامية » .

إلى أن قال : « ثم إن ضرورات الحروب أباحت للأمم استعمال الحيل والأكاذيب ، والتوسّل بالخدع والأضاليل للتغلّب على العدّو ، ولكن مع هذا كان من واجب هؤلاء اليهود ألاّ يتورّطوا في مثل هذا الخطأ الفاحش ، وألاّ يصرّحوا أمام زعماء قريش ، بأن عبادة الأصنام أفضل من التّوحيد الإسلامي ، ولو أدّى بهم الأمر إلى عدم إجابة مطلبهم ، لأن

---

(١) ابن هشام ق ٢ ، ص ٢١٤ .

بني إسرائيل الذين كانوا مدّة قرون حاملي راية التّوحيد في العالم بين الأمم الوثنية باسم الآباء الأقدمين ، والّذين نكبوا بنكبات لا تحصى من تقتيل واضطهاد بسبب إيمانهم بإله واحد في عصور شتّى من الأدوار التّاريخية ، كان من واجبهم أن يضحّوا بحياتهم ، وكلّ عزيز لديهم في سبيل أن يخذلوا المشركين [1] » .

وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله :

« ألم ترَ إلى الّذين أوتوا نصيباً من الكتاب ، يؤمنون بالجبت ، والطّاغوت ، ويقولون للّذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً [2] » .

تحويل القبلة

وكان رسول الله ﷺ والمسلمون يصلّون إلى بيت المقدس ، ومضى على ذلك ستة عشر شهراً بعدما قدم المدينة ، وكان رسول الله ﷺ يحبّ أن يصرف إلى الكعبة ، وكان المسلمون العرب ـ وقد رضعوا بلبان حبّ الكعبة وتعظيمها ، وامتزج ذلك بلحومهم ودمائهم لا يعدلون بالكعبة بيتاً ، ولا بقبلة إبراهيم وإسماعيل قبلة ، وكانوا يحبّون أن يصرف إلى

---

(١) « اليهود في بلاد العرب » ، ص ١٤٢ .

(٢) سورة النساء ـ ٥١ .

الكعبة ، وكان في جعل القبلة إلى بيت المقدس محنة للمسلمين ، ولكنّهم قالوا : سمعنا وأطعنا . وقالوا : « آمنا به كل من عند ربنا » ، فلم يكونوا يعرفون إلاّ الطّاعة لرسول الله ﷺ والخضوع لأوامر الله ، وافقت هواهم أم لم توافقها ، واتفقت مع عاداتهم أم لم تتفق .

فلما امتحن الله قلوبهم للتّقوى واستسلامهم لأمر الله ، صرف رسوله والمسلمين إلى الكعبة يقول القرآن :

« وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على النّاس ويكون الرّسول عليكم شهيداً ، وما جعلنا القبلة الّتي كنت عليها إلاّ لنعلم من يتّبع الرسول ممنّ ينقلب على عقبيه ، وإن كانت لكبيرة إلا على الّذين هدى الله [1] » .

وانصرف المسلمون إلى الكعبة مطيعين لله ولرسوله ، وصارت قبلة المسلمين إلى يوم القيامة أينما كانوا ولوّا وجوههم شطرها [2] .

تحرّش قريش بالمسلمين بالمدينة

فلماّ استقرّ الإسلام بالمدينة ، وعرفت قريش أنه في نموّ وازدهار ، وأنّ كلّ يوم يمضي يزيد في قوّته وانتشاره ، وأنّه إذا

(١) سورة البقرة - ١٤٣ .

(٢) راجع الصحاح الستة ، وتفسير الآيات التي نزلت في تحويل القبلة في كتب التفسير

بقي الوضع هكذا ، فإنّه يفلت منهم الزّمام ، ويصير كشابّ ترعرع واستكمل قوتّه وشبابه ، فلا سبيل لهم إليه .

هنالك شمّروا للمسلمين عن ساق العداوة والمحاربة ، وصاحوا بهم من كلّ جانب ، والله سبحانه يأمرهم بالصّبر والعفو والصفح ، ويقول لهم : ﴿ كفوا أيديكم وأقيموا الصّلوة ﴾ ، حتى تهون عليهم الحياة واللذّات ، وتسهل لهم الطّاعة ومخالفة النّفس والإيثار .

الإذن بالقتال

فلماّ قويت الشّوكة ، واشتدّ الجناح ، أذن لهم في القتال ، ولم يفرضه عليهم [١] ، فقال: ﴿ أذن للّذين يقاتلون بأنهّم ظلموا وإنّ الله على نصرهم لقدير ﴾ [٢] .

سريّة عبدالله بن جحش وغزوة الأبواء

وبدأ رسول الله ﷺ يبعث سرايا وبعوثاً إلى بعض القبائل والنّواحي ، ولم تكن في غالب الأحيان حرب ، وقد تكون مناوشات ، وكانت تفيد إلقاء الرّعب في قلوب المشركين ، وتظهر بها شوكة المسلمين ونشاطهم .

---

(١) راجع زاد المعاد ج ١ ص ٣١٤ .
(٢) سورة الحج - ٣٩

ونخصّ بالذكر من هذه السرايا سريّة عبدالله بن جحش ، فقد نزلت فيها آية ، ولأنّها تلقي ضوءاً على أن القرآن لا يساير المسلمين في كل ما يصدر عنهم من تفريط أو خطأ ، وأنّه الميزان العادل في الحكم على جميع الأمم والطّوائف ، وإلى القارىء قصة هذه السريّة بالاختصار:

بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش الأسدي في رجب سنة اثنتين وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألاّ ينظر فيه ، حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

ولما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب ، فنظر فيه ، فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكّة والطّائف ، فترصّد بها قريشاً ، وتعلّم لنا من أخبارهم ، فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه ، قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً ، حتى آتيه منهم بخبر وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان منكم يريد الشّهادة ،ويرغب فيها ، فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد .

ومضى عبد الله بن جحش وأصحابه حتى نزلوا بنخلة ،

فمرّت بهم عير لقريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، فلما رآهم ، هابوهم ، وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكّاشة ابن محصن وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوا آمنوا ، وقال : عمار [1] لا بأس عليكم منهم ، وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب [2] فقال المسلمون : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنّ الحرم ، فليمتنعُنّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلُنّهم في الشهر الحرام فتردّد القوم وهابوا الإقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم ، وأخذ ما معهم ، فرمى واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر اثنين منهم ، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ بالمدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشّهر الحرام ، ووقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ

---

(١) كان العرب يفضلون العمرة في رجب .

(٢) رجب أول الأشهر الحرم الأربعة ، كان القتال ممنوعاً في الشهر الحرام ، درج العرب على ذلك في الجاهلية وفي صدر الإسلام ؛ وكان القوم يعرفون ذلك . والأشهر الثلاثة الباقية : ذو القعدة ، وذو الحجة ، ومحرم .

ذهب الجمهور إلى أن الآية منسوخة نسختها آية براءة « فأقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » ؛ سئل سعيد بن المسيب هل يصلح للمسلمين أن يقاتلوا الكفار في الشهر الحرام ؟ ؛ قال : نعم ولم نقرأ في كتاب من كتب التاريخ والفتوح أن إعلاناً صدر من مركز الخلافة أو القيادة الإسلامية بوقف الإجراءات الحربية لأجل شهر من الأشهر الحرم . وعلى ذلك جرى المسلمون في عصورهم في الحروب والفتوح الإسلامية .

من ذلك شيئاً ، فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِط في أيدي القوم ، وظنّوا أنهّم قد هلكوا ، وعنّفهم إخوانهم المسلمون فيما صنعوا وقالت قريش ، قد استحلّ محمّد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدّم ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الشّهر الحرام قتالٍ فيه ، قل قتال فيه كبير ، وصدّ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجدِ الحرام واخراج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ﴾ (١-٢) .

قال العلاّمة ابن قيّم الجوزيّة في زاد المعاد : « والمقصود أنّ الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف ، ولم يبرىء أولياءه من ارتكاب الإثم بالقتال في الشّهر الحرام بل أخبر أنّه كبير ، وأنّ ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشّهر الحرام ، فهم أحقّ بالذمّ والعيب والعقوبة ، لا سيّماً وأولياؤه كانوا متأوّلين في قتالهم ذلك ، أو مقصّرين نوع تقصير ، يغفر الله لهم في جنب ما فعلوه من التّوحيد والطاعات والهجرة مع رسوله وإيثار ما عند الله (٣) .

وغزا رسول الله ﷺ بنفسه « غزوة الأبواء (٤) » ، وتسمى

---

(١) سورة البقرة - ٢١٧ .
(٢) سيرة ابن هشام ، ق ١ - ٦٠١ - ٦٠٥ .
(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤١ .
(٤) راجع للتفصيل في سيرة ابن هشام ، ق ١ ص ٥٩١ - ٦٠٦ .

بُواطـاً كذلك ، وهـي أوّل غزوة بنفسـه ، ولـم يلـق كيداً ، فرجع ، وتلتها غزوات وسرايا .

فرض صوم رمضان

وفي السّنة الثّانية الهجريّة فرض الصوم ، وذلك بعد أن رسخت العقيدة في قلوب المسلمين ، والفوا الصّـلاة وهامـوا بها ، وتلقّوا الأوامر والأحكام الشرعيّة بقبول واستعداد ، كأنّهم كانوا منها على ميعاد ، وأنزل الله تعالى :

﴿ يا أيهّا الّذين آمنوا كتب عليكم الصّيام كما كتب على الّذين من قبلكم لعلّكم تتّقون [١] ﴾ .

وقال :

« شهر رمضان الّذي أنزل فيه القـرآن ، هدى للنّـاس وبينـات من الهـدى والفرقـان ، فمـن شهـد منـكم الشّهـر فليصمه [٢] ».

---

(١) سورة البقرة ـ ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة ـ ١٨٥ .

واقرأ للتفصيل وأسرار الصوم وحكمه « الأركان الأربعة » للمؤلف ، الطبعة الثانية ، ص ٢٠٦ .

مَعركة بَدْر الحَاسِمَة

أهميّة معركة بدر

وفي رمضان سنة اثنتين من الهجرة ، كانت غزوة بدر الكبرى[1] ، وهي المعركة الحاسمة التي تقرّر مصير الأمة الإسلامية ومصير الدعوة الإسلامية ، وعليها يتوقف مصير الإنسانيّة المعنوي .

فكلّ ما حدث من فتوح وانتصارات ، وكلّ ما قام من دول وحكومات ، مدين للفتح المبين في ميدان بدر ، ولـذلك سمّى الله هذه المعركة بـ « يوم الفرقان » ، فقال :

﴿ إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان ، يوم التقى الجمعان ﴾ [2] .

وكان من خبر هذه الغزوة أنّ رسول الله ﷺ سمـع بأبـي سفيان بن حرب مقبلاً من الشّام في عير عظيمة لقـريش ، فيهـا أموالهم وتجارتهم ، وكانت الحرب قائمة بين المسلمين وبين قريش

(١) تقع بدر على ١٤٥ك ـ م في الجنوب الغربي من المدينة المنورة .
(٢) سورة الأنفال ـ ٤١ .

المشركين ، لا تألو قريش في محاربة الإسلام ، والصدّ عن سبيل الله ، وإقامة الصّعوبات للمسلمين ، وكانت تبذل أموالها وكلّ ما تملكه ، من حول وطول ، ومن سلاح وكُراع في محاربة الإسلام ، وإضعاف شأن المسلمين ، وكانت كتائبهم تصل إلى حدود المدينة وإلى مراعيها .

فلما سمع رسول الله ﷺ بأبي سفيان مقبلاً من الشّام على رأس هذه العِير ، وكان من أشدّ النّاس عداوة للإسلام ، ندب رسول الله ﷺ النّاس للخروج إليها ، ولم يحتفل احتفالاً بليغاً ، لأن الأمر أمر عير لا نفير .

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ وقصده إيّاه ، فأرسل إلى مكّة مستصرخاً لقريش ليمنعوه من المسلمين ، وبلغ الصّريخ أهل مكة ، فجدّ جِدّهم ، ونهضوا مسرعين ولم يتخلّف من أشرافهم أحد ، وحشدوا من حوله من قبائل العرب ، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا القليل النّادر ، وجاءوا على حميّة ، وغضب وحنق .

تجاوب الانصار وتفانيهم في الطاعة

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه ، وكان يعني الأنصار لأنّهم بايعوه على أن يمنعوه في ديارهم ، فلما عزم على الخروج من المدينة ، أراد أن يَعلم ما

عندهم ، فتكلّم المهاجرون ، فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلّموا أيضاً فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثاً ، ففهمت الأنصار أنّه يعنيهم ، فبادر سعد بن معاذ ، فقال : يا رسول الله ! كأنك تعرّض بنا ، لعلك تخشى أن تكون الأنصار ترى حقاً عليها ألا تنصرك إلاّ في ديارهم ، إنّي أقول عن الأنصار ، وأجيب عنهم ، فاظعن حيث شئت ، وصل حبل من شئت ، واقطع حبل من شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، وما أخذت منا كان أحبّ إلينا ممّا تركت ، وما أمرت فيه من أمر ، فأمرنا تبع لأمرك ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان ، لنسيرنّ معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى : «إذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون »، ولكنّا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ، ومن بين يديك ، ومن خلفك .

فلما سمع رسول الله ﷺ أشرق وجهه ، وسرّ بما سمع من أصحابه ، وقال : سيروا ، وأبشروا [1] .

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٢ - ٣٤٣ ، وسيرة ابن هشام ق ١ ص ٦١٤ ؛ ورواه البخاري مختصراً في باب «قوله تعالى » « إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم » ، ومسلم في باب « غزوة بدر » .

تنافس الغلمان في الجهاد والشّهادة

ولما توجّه المسلمون إلى بدر ، خرج غلام اسمه عمير بن أبي وقاص ، وهو في السّادسة عشرة من سنه ، وكان يخاف ألاّ يقبله النّبيﷺ لأنه صغير ، فكان يجتهد ألاّ يراه أحد ، وكان يتوارى ، وسأله أخوه الأكبر : سعد بن أبي وقاص ، عن ذلك فقال : أخاف أن يردّني رسول اللهﷺ وأنا أحبّ الخروج ، لعل الله يرزقني الشّهادة ، وكان كذلك ، فأراد رسول اللهﷺ أن يردّه لأنه لم يبلغ مبلغ الرجال ، فبكى عمير ورقّ له قلب رسول اللهﷺ فأجازه ، وقُتل شهيداً في الغزوة [1] .

التّفاوت بين المسلمين والكفّار في العَدد والعُدد

وخرج رسول اللهﷺ مسرعاً في ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، لم يكن معهم من الخيل إلاّ فرسان ، وسبعون بعيراً ، يعتقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد [2] لا فرق في ذلك بين جندي وقائد ، وتابع ومتبوع ، فكان منهم رسول اللهﷺ وأبو بكر وعمر وكبار الصّحابة .

ودفع اللّواء إلى مصعب بن عمير ، وراية المهاجرين إلى

---

(١) راجع « أسد الغابة » ج ٤ ص ١٤٨ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٢ .

علي ابن أبي طالب ، وراية الأنصار إلى سعد بن معاذ .

ولما سمع أبو سفيان خروج المسلمين ، خفض ولحق بساحل البحر ، ولمّا رأى أنّه قد نجا وسلمت العير ، كتب إلى قريش أن ارجعوا ، فإنكم إنّما خرجتم لتحرِزوا عيركم ، وهمّوا بالرجوع ، فأبى أبو جهل إلا القتال [1] ، وكانت قريش بين ألف وزيادة منهم صناديد قريش وسادتها ، وفرسانها وأبطالها ، فقال رسول الله هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها .

أمرهم شورى بينهم

ومضت قريش حتى نزلوا بجانب من الوادي ، ونزل المسلمون بجانب بدر ، فجاء الحباب بن المنذر ، وقال : يا رسول الله ، أرأيت هذا المنزل ، أمنزلاً أنزلكه الله ، ليس لنا أن نتقدّمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة ، فقال : يا رسول الله فإنّ هذا ليس بمنزل ، وأشار عليه بأرض تصلح للحرب ، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي ، ونهض ومن معه من الناس ، فأتى أدنى ماء من القوم ، فنزل عليه [2] .

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٣ ؛ وابن هشام ق ١ ص ٦١٨ ـ ٦١٩ .
(٢) ابن هشام ق ١ ص ٦٢٠ .

وسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء شطر الليل ، وصنعوا الحياض وسمح رسول الله ﷺ لمن وردها من الكفار بالشّرب [٢] .

وأنزل الله عزّ وجلّ في تلك الليلة مطراً ، كان على المشركين وابلاً شديداً ، ومنعهم من التقدّم ، وكان على المسلمين رحمة وطّأ الأرض ، وصلّب الرمل ، وثبت الأقدام ، وربط على قلوبهم ، وهو قوله تعالى :

﴿ وينزّل عليكم من السّماء ماء ليطهّركم به ويذهب عنكم رجز الشيّطان وليربط على قلوبكم ويثبّت به الأقدام [٣] ﴾ .

الرّسول القائد

وتجلّت عبقريّته العسكريّة بجوار رسالته العظمى الّتي هي الأساس ومصدر الإلهام والهداية ـ في قيادته للجيش ، وتعبئته الحكيمة ، وسدّه لمنافذ الخطر والهجوم ، وتقديره الصحيح لقوّة العدّو الحربيّة وعدده ومواضع نزوله ، جاءت تفاصيلها في كتب السّيرة [٤] .

(١) مستفاد من سيرة ابن هشام ؛ ق ١ ص ٦٢٢ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ، ص ٣٤٣ .

(٣) سورة الأنفال ـ ١١

(٤) اقرأ تفاصيل الخطوات الدفاعية والإجراءات العسكرية الحكيمة التي اتخذها رسول الله ﷺ ـ قبل معركة بدر في كتاب « حديث الدفاع » للواء « محمد أكبر خان » القائد الباكستاني ، في « أردو » و « الرسول القائد» للركن المتقاعد محمود شيت خطاب القائد العراقي ، في العربية .

استعداد للمعركة

وبني لرسول الله ﷺ عريش يكون فيه ، على تلّ مشرف على المعركة ، ومشى في موضع المعركة ، وجعل يشير بيده ، هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، إن شاء الله ، فما تعدّى أحد منهم موضع إشارته .

ولما طلع المشركون ، وتراءى الجمعان ، قال رسول الله ﷺ : ﴿ **اللّهم هذه قريش جاءت بخيلائها وفخرها جاءت تحاربك ، وتكذّب رسولك** ﴾ .

وكانت ليلة الجمعة ، السّابع عشر من رمضان ، فلمّا أصبحوا أقبلت قريش في كتائبها ، واصطفّ الفريقان [(١)] .

دعاء وتضرّع ؛ ومناشدة وشفاعة

وعدّل رسول الله ﷺ الصّفوف ، ورجع إلى العريش ، فدخله ، ومعه أبو بكر ، ورسول الله ﷺ يكثر الابتهال ، والتضرّع ، والدّعاء ، وقد علم أن لو وكل المسلمون إلى أنفسهم وقوّتهم فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كلّ قليل ضعيف أمام قويّ كثير العدد ، ولما رأى الكفّتين : كفّة المسلمين وكفّة المشركين ، غير متكافئتين ، وضع صنجة في كفّة

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٤ .

المسلمين ، رجحت بها رجحاناً ظاهراً ، فاستغاث بالله الذي لا معقّب لحكمه ، ولا راد لقضائه (وما النّصر إلا من عند الله) وشفع للكتيبة المؤمنة القليلة العدد ، الفقيرة في العُدد ، فقال : ﴿ اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ﴾ . وجعل يهتف بربّه عزّ وجلّ ويقول : ﴿ اللّهم أنجزني ما وعدتني ، اللّهم نصرك ﴾ ويرفع يديه إلى السّماء ، حتّى سقط الرّداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر - رضي الله عنه - يسلّيه ، ويشفق عليه من كثرة الابتهال [١] .

تعريف دقيق بالأمة وتجديد لمركزها ورسالتها

لقد شفع الرّسول ﷺ لهذه العصابة المؤمنة في هذه السّاعة الحاسمة الدّقيقة ، بالكلمة الوجيزة التي تجلت فيها الثّقة والاضطراب والسّكينة والافتقار جنباً لجنب فكانت أدقّ تعريف بهذه الأمّة وأدقّ تحديد لمركزها ومكانتها بين الأمم ، وقيمتها وغنائها في هذا العالم ، والثغر الّذي ترابط عليه وهو الدّعوة إلى الله وإخلاص الدّين والعبادة له .

---

(١) راجع « زاد المعاد » ، وكتب السيرة ، ورواه في الصحيح في كتاب الجهاد والسير عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه قال : « لما كان يوم بدر نزل رسول . الله وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً ، فاستقبل نبي الله - ﷺ - القبلة ثم مد يديه ، فجعل يهتف بربه : « اللهم أنجزني ما وعدتني ؛ اللهم آت ما وعدتني ؛ اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض » (باب االامداد بالملائكة في غزوة بدر) .

وقد أثبت الانتصار الرّائع المعجز الّذي أبطل كلّ تجربة ، صدق هذه الكلمة ، ودقّتها ، وأنهّا كانت تصويراً صادقاً دقيقاً لهذه الأمّة .

هذان خصمان اختصموا في ربهّم

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى النّاس ، فحرّضهم على القتال ، وخرج عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد فلما توسّطوا بين الصّفين طلبوا المبارزة فخرج إليهم ثلاثة فتية من الأنصار فقالوا : من أنتم ؟!

قالوا : رهط من الأنصار :

قالوا : أكفاء كرام ، ولكن أخرجوا إلينا من بني عمنا .

قال النبي ﷺ : قم يا عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي .

قالوا : نعم أكفاء كرام .

وبارز عبيدة ـ وكان أسنّ القوم ـ عتبة ، وبارز حمزة شيبة وبارز عليٌّ الوليد بن عتبة ، فأمّا حمزة وعلي فلم يمهلا خصمهما أن قتلاهما ، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما أثبت صاحبه وكرّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة ، فأجهزا عليه ،

واحتملا عبيدة وهو جريح ، ومات شهيداً[1] .

إلتحام الفريقين ونشوب الحرب

وتزاحم الناس ، ودنا بعضهم من بعض ودنا المشركون ، فقال رسول الله ﷺ : « قوموا إلى جنّة عرضها السّماوات والأرض » .

أوّل قتيل

وقام عمير بن الحُمام الأنصاري، فقال : يا رسول الله جنة عرضها السّماوات والأرض ؟ قال : نعم ، قال : بخ بخ يا رسول الله ! قال : ما يحملك على قولك بخ بخ ؟ قال : لا والله يا رسول الله إلاّ رجاء أن أكون من أهلها قال : فإنّك من أهلها ، فأخرج تمرات من قرنه ، فجعل يأكل منهن ، ثم قال : لئن حييت حتى آكل من تمراتي هذه• إنها لحياة طويلة ، فرمى بما كان معه من التّمر ، ثم قاتل ، حتّى قتل فكان أوّل قتيل[2] .

والنّاس على مصافّهم ، صابرون ذاكرون الله كثيرا ،

---

(١) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٦٢٥ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٥ ، وسيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٢١ .

وقاتل رسول الله ﷺ ، قتالاً شديداً ، وكان أقرب النّاس من العدوّ ، وكان من أشدّ الناس يومئذ بأساً[1] ، ونزّل الله الملائكة بالرّحمة والنّصرة ، وقاتلوا المشركين وهو قوله تعالى :

﴿ إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقي في قلوب الّذين كفروا الرّعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان[2] ﴾ .

مسابقة الإخوة الاشقّاء في قتل أعداء الله ورسوله

وتسابق الشباب في الشّهادة ونيل السّعادة ، وكانت مسابقة بين أخلاّء وأصدقاء ، وإخوة أشقاء .

يقول عبدالرّحمن بن عوف : إنّي لفي الصفّ يوم بدر ، إذ التفت فاذا عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السّنّ ، فكأنّي لم آمن بمكانهما ، إذ قال لي أحدهما سرّاً من صاحبه : يا عم أرني أبا جهل فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قال : عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه وقال لي الآخر سرّاً من صاحبه مثله ، قال: « فما سرّني أنّي بين رجلين مكانهما ، فأشرت لهما إليه ، فشدّا عليه مثل الصّقرين حتّى ضرباه وهما

---

(١) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٥ .
(٢) سورة الأنفال ـ ١٢ .

ابنا عفراء[1] » .

ولما قتل أبو جهل قال رسول الله ﷺ : ﴿ هذا أبو جهل فرعون هذه الأمة[2] ﴾ .

الفتح المبين

ولّما أسفرت الحرب عن انتصار المسلمين وهزيمة المشركين ، قال رسول الله ﷺ : « الله أكبر ، الحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » .

وصدق الله العظيم :

﴿ ولقد نصركم الله ببدر وأنتم اذلّة ، فاتّقوا الله لعلكم تشكرون ﴾[3] .

وأمر بالقتلى أن يطرحوا بالقليب فطرحوا فيه ، ووقف عليهم ، فقال : « يا أهل القليب ! هل وجدتم ما وعد ربّكم حقّا ؟ فإنّي وجدت ما وعدني ربّي حقّا »[4] .

وقتل من سراة الكفّار يوم بدر ، سبعون وأسر

---

(١) أصل الرواية في الصحيحين واللفظ للبخاري . (كتاب المغازي باب « غزوة بدر ») .

(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٤٤ .

(٣) سورة آل عمران ـ ١٢٣ .

(٤) سيرة ابن هشام ق ١ ص ٦٣٨ ـ ٦٣٩ .

سبعـون[1] ، ومـن المسلمـين من قريش ستـة ومـن الأنصـار ثمانية[2] .

وقع معركة بدر

وتوجّه رسول الله ﷺ ، إلى المدينة مؤيّداً مظفّراً ، وقـد خافه كلّ عدوّ له بالمدينة وحولها ، وأسلم بشر كثـير من أهـل المدينة .

وأرسل رسول الله ﷺ ، بشيرين إلى المدينة منهما عبدالله بن رواحة ، يبشرّ أهل المدينة ويقول : « يا معشر الأنصـار ! أبشروا بسلامـة رسـول الله ﷺ ، وقتـل المشركين وأسرهـم ، ويسمّي من قتل في بدر من صناديد قريش ، بشرّهم داراً داراً ، والصبيان ينشدون الأبيات معه سرورا وشكرا ، والنّاس بين مصدّق ومتردّد ، حتى أقبل رسول الله ﷺ ، قافلا إلى المدينة ، وجيء بالأسرى وعليهم « شقران » مولى رسول الله ﷺ[3] ، حتّى اذا كان بالرّوحاء لقيه المسلمون يهنّئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين .

ووقعت النّياحة في بيوت المشركين بمكّة ، وكثـر البـكاء على القتلى[4] ، ودخل الرّعب في قلوب الأعداء ، ونـذر أبـو

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري عن البراء بن عازب ، غزوة بدر من كتاب المغازي .

(٢) سيرة ابن كثير ج ٢ ص ٤٦٣ .

(٣) المصدر السابق ص ٤٧٠ ـ ٤٧٣ .

(٤) راجع سيرة أبن هشام ق ١ ص ٦٤٧ ـ ٦٤٨ .

سفيان ألاّ يمسّ رأسه ماء حتى يغزو رسول الله ﷺ ، والمسلمين ووجد المسلمون المستخفون في مكّة في أنفسهم قوّة وعزّا .

إخاء العقيدة فوق إخاء الولادة

أسر يوم بدر ، أبو عزيز بن عمير بن هاشم أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمّه ، وكان مصعب صاحب اللواء يوم بدر ،وأبو عزيز صاحب لواء المشركين ، ومرّ به أخوه مصعب ورجل من الأنصار يشدّ يديه ، فأوصاه بأن يشدّ الوثاق قال : إنّ أمّه ذات متاع لعلها تفديه منك ، فقال له أبو عزيز: يا أخي هذه وصاتك بي ؟! فقال له مصعب إنّه أخي دونك[١] .

كيف عامل المسلمون الأسرى

وأوصى رسول الله ﷺ بالأسرى ، فقال : « استوصوا بهم خيراً » يقول أبو عزيز هذا : « كنت في رهط من الأنصار ، حين أقبلوا بي من بدر ، فكانوا اذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوني بالخبز ، وأكلوا التّمر ، لوصيّة رسول الله ﷺ ، إيّاهم بنا ، ما تقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها ، فأستحي ، فأردّها ، فيردّها علي ، ما يمسّها[٢] .

(١ و ٢) سيرة ابن كثير ؛ ج ٢ ص ٤٧٥ .

وكان من الأسرى العباس بن عبدالمطلب عمّ رسول الله ﷺ ، وابن عمّه عقيل بن أبي طالب[1] ، وأبو العاص ابن الربيع ، زوج بنت النبي ﷺ ، وكان حكم الإسلام عاماً ، لا يميز بين قريب وبعيد .

تعليم غلمان المسلمين فداء الأسرى

وعفا رسول الله ﷺ ، عن الأسرى، وقبل منهم الفداء ، وكان يفادي بهم على قدر أموالهم ، وكان من لا شيء له منّ عليه رسول الله ﷺ ، فأطلقه ، وبعث قريش في فداء الأسارى ، وأطلق سراحهم .

وكان من بين الأسرى من لم يكن لهم فداء ، فجعل رسول الله ﷺ ، فداءهم أن يعلّموا أولاد الأنصار الكتابة[2] ، فيعلم كل واحد عشرة من المسلمين الكتابة[3] ، وكان زيد بن ثابت ممن تعلّم بهذا الطريق ، وكان في ذلك من تقدير العلم وتشجيع القراءة والكتابة ما لا يحتاج إلى توضيح .

غزوات وسرايا

كان أبو سفيان قد نذر ألاّ يمس رأسه ماء ، حتى يغزو

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٣ .
(٢) مسند أحمد ١ ، ص ٢٤٧ .
(٣) طبقات أبن سعد ج ٢ ص ١٤ .

المسلمين ، فخرج في مائتي راكب من قريش ليبَرَّ يمينه ، واستأذن على سلاّم بن مشكم سيد بني النضير ، فأذن له ، وقراه ، وسقاه ، وبطن له من خبر الناس ، وبعث رجالاً ، فقتلوا رجلين من الأنصار .

وخرج رسول الله ﷺ في طلبهم ، ورجع أبو سفيان وأصحابه قبل أن يدركهم المسلمون ،وألقوا أزواداً كثيرة ، عامتها سويق ، فسميت « غزوة السويق[1] » .

وكان بنو قينقاع أوّل يهود ، نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ، وحاربوه ، وآذوا المسلمين ، فحاصرهم رسول الله ﷺ ، خمس عشرة ليلة ، حتى نزلوا على حكمه ، وشفع فيهم حليفهم عبدالله بن أبي رأس المنافقين ، فأطلقهم له رسول الله ﷺ[2] ، وكانوا سبعمائة مقاتل ، وكانوا صاغة وتجاراً[3] .

وكان كعب بن الأشرف أحد رؤساء اليهود ، شديد الأذى لرسول الله ﷺ ، وكان يشبّب في أشعاره بنساء الصّحابة فلما كانت وقعة بدر ، ذهب إلى مكة ، فجعل يؤلّب على رسول الله ﷺ ، وعلى المؤمنين ، ثم رجع إلى المدينة على تلك الحال ،

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ص ٤٤ ـ ٤٥ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٤٧ ـ ٤٩ .

(٣) زاد المعاد ؛ ج ١ ص ٣٤٨ .

فقال رسول الله ﷺ : « من لكعب بن الأشرف، فإنه قد آذى الله ورسوله ؟ » .

فانتدب له رجال من الأنصار ، فقتلوه[١] .

(١) زاد المعاد ج ٢ ، ص ٣٤٨ ، ملخصاً .

غَزْوَة أُحُد

الحميّة الجاهلية وأخذ الثأر :

لمّا أصيب صناديد قريش يوم بدر ، ورجع فلّهم إلى مكّة ، عظم المصاب عليهم ، ومشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم وإخوانهم فكلموا أبا سفيان ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة فاستعانوا بهذا المال على حرب المسلمين ، ففعلوا واجتمعت قريش لحرب رسول الله ﷺ وحرض الشعراء الناس بشعرهم ، وأثاروا فيهم الغيرة والحمية .

وخرجت قريش في منتصف شوال سنة ثلاث للهجرة بحدّها وحديدها ، بأبنائها ومن تابعها من القبائل ، وخرجوا معهم بالظعن[1] ، لئلا يفروا[2] ، وخرج سادة قريش بأزواجهم وأقبلوا حتى نزلوا مقابل المدينة .

وكان من رأي رسول الله ﷺ ، أن يقيم المسلمون

---

(١) الظعن : جميع ظعينة ، وهي المرأة ما دامت في الهودج .

. . . ن هشام ق ٢ ص ٦٠ ـ ٦٢ .

بالمدينة ، ويدعهم فإن يدخلوا عليهم قاتلوهم فيها ، وكان رسول الله ﷺ، يكره الخروج ، وكان رأي عبدالله بن أبي ما رأى رسول الله ﷺ ، فقال رجال من المسلمين ممن فاته بدر : يا رسول الله أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرونا أنا جبنّا عنهم وضعُفْنا فلم يزالوا برسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ ، بيته فلبس لأمته وندم الذين اقترحوا الخروج فقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلىّ الله عليك فقال رسول الله ﷺ : ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل[1] » .

فخرج رسول الله ﷺ ، في ألف من أصحابه فلماّ كانوا بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه عبدالله بن أبي بثلث الناس وقال: أطاعهم وعصاني[2] .

في ميدان أحـــد :

ومضى رسول الله ﷺ ، حتى نزل الشعب من أحد (وهو جبل على نحو ٣ كيلو من المدينة) وجعل ظهره وعسكره إلى أحد[3] ، وقال : لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال ،

---

(١) ابن هشام ق ٢ ص ٦٣ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع لفهم « الوضع الاستراتيجي » في ميدان أحد ، كتاب « ساحات القتال في العهد النبوي » (في اللغة الأردية) للدكتور حميد الله .

وتعّبى رسول الله ﷺ للقتال ، وهو في سبعمائة رجل ، وأمَّر على الرّماة ، عبدالله بن جبير ، وهم خمسون رجلاً فقال : ادفع الخيل عنا بالنبل ، لا يأتونا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا[1] وأمرهم بأن يلزموا مركزهم ، وأن لا يفارقوا ولو رأوا الطير تتخطف العسكر[2] .

ولبس رسول الله ﷺ ، درعاً فوق درع ، ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، ـ رضي الله عنه ـ .

مسابقة بين أتراب :

ردّ رسول الله ﷺ جماعة من الغلمان يوم أحد لصغرهم ، وردّ سمرة بن جندب ، ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وشفع أبو رافع لابنه وقال : يا رسول الله ! إنّ ابني رافعاً رام ، فأجازه النبي ﷺ .

وعرض على رسول الله ﷺ ، سمرة بن جندب وهو في سنّ رافع ، وردّه رسول الله ﷺ ، لصغره فقال سمرة : لقد أجزت رافعاً ورددتني ، ولو صارعته لصرعته ووقعت المصارعة

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٦٦ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ، ص ٣٤٩ ، وراجع صحيح البخاري، باب غزوة أحد من كتاب المغاز .

بينهما فصرع سمرة رافعا فأجيز وخرج وقاتل يوم أحد[١] .

والتقى الناس ، ودنا بعضهم من بعض ، وقامت هند بنت عتبة في النسوة، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال يحرّضنهم ، واقتتل الناس حتى حميت الحرب ، وقاتل أبو دجانة الذي أخذ السيف من رسول الله ﷺ ، ووعده بأنه يأخذه بحقه ، حتى أمعن في الناس ، وجعل لا يلقى أحداً إلا قتله[٢] .

شهادة حمزه بن عبدالمطلب ومصعب بن عمير رضي الله عنهما :

وقاتل حمزة بن عبدالمطلب قتالاً شديداً ، وقتل عدداً من الأبطال ، لا يقف أمامه شيء ، وكان وحشي غلام جبير بن مطعم له بالمرصاد ، وكان يقذف بحربة له قلّما يخطىء بها شيئاً ، ووعده جبير بالعتق إن قتل حمزة ، وقد قتل عمّه طعيمة يوم بدر ، وكانت هند تحرّضه كذلك على قتل حمزة وشفاء نفسها ، وحمل وحشي على حمزة بحربته ، فدفعها عليه حتى خرجت من بين رجليه ، فوقع شهيداً[٣] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٦٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٧٠ - ٧٢ ، واقرأ [illegible]ـصة بلسان وحشي في الجامع الصحيح للبخاري غزوة أحد ، باب « قتل حمزة - رضي الله عنه - .

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ ، حتى قتل وأبلى المسلمون بلاءً حسناً[1] .

غلبة المسلمين :

وأنزل الله تعالى نصره عليهم ، وصدقهم وعده ، حتى كشفوا المشركين عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها ، وولت النساء مشمرات هوارب[2] .

كيف دارت الدوائر على المسلمين :

وبينما هم كذلك إذ انهزم المشركون ، وولوا مدبرين ، حتى انتهوا إلى نسائهم ، فلما رأى الرماة ذلك ، مالوا إلى العسكر ، وهم موقنون بالفتح ، وقالوا : يا قوم ! الغنيمة ! الغنيمة ! فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ ، فلم يسمعوا ، وظنوا أن ليس للمشركين رجعة فأخذوا الثغر ، وأخلوا ظهور المسلمين إلى الخيل[3] ، وأصيب أصحاب لواء المشركين ، حتى ما يدنو منه أحد من القوم ، فأتاهم المشركون من خلفهم ، وصرخ صارخ : ألا إن محمداً قد قتل فتراجع المسلمون وكرّ المشركون كرّة ، وانتهزوا الفرصة ، وكان يوم

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٧٣ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٧٧ :

(٣) زاد المعاد ج ١ ، ص ٣٥٠ .

بلاء وتمحيص ، وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ ، وأصابته الحجارة ، حتى وقع لشقه ، وأصيبت رَباعيته ، وشُجّ في رأسه ، وجرحت شفته ، ﷺ ، وجعل الدم يسيل على وجهه ، فيمسحه ويقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم ؟!(١) .

ولا يعلم المسلمون بمكانه، فأخذ علي بن أبي طالب ، ـ رضي الله عنه ـ بيد رسول الله ﷺ ، ورفعه طلحة ابن عبيدالله ، حتى استوى قائماً ، ومصّ مالك بن سنان الدم عن وجهه ﷺ وابتلعه (٢) .

ولم تكن فرّة ، إنما كانت جولة يضطر اليها الجيش ، ثم يستأنف كرّة ، وما أصاب المسلمين من نكسة ومحنة وما أصيبوا من خسارة في النفوس ، وشهادة من كان قوةً للإسلام والمسلمين ، وناصراً لرسول الله ﷺ ، وللدين ، إنما كان نتيجة زلة للرماة ، وعدمِ تمسكهم بتعاليم الرسول ﷺ ، وأمرِه إلى اللحظة الأخيرة ، وإخلائهم للجبهة التي عينهم رسول الله ﷺ ، عليها ، وهو قوله تعالى :

« ولقد صَدَقَكُمُ اللّهُ وعْدَه إذ تحسّونهم بإذنه ، حتى

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٧٨ ـ ٨٠ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٨٠ .

إذافشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبّون ، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم ، والله ذو فضل على المؤمنين[1] » .

روائع من الحب والفداء :

نزع أبو عبيدة بن الجراح إحدى الحلقتين من وجه رسول الله ﷺ ، فسقطت ثنيته ، ونزع الأخرى ، فكان ساقط الثنيتين ، وترس أبو دجانة بنفسه دون رسول الله ﷺ ، يقع النبل في ظهره وهو منحنٍ عليه ، حتى كثر فيه النبل ، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ ، ويناوله النبي ﷺ ، النبل ويقول : « ارم فداك أبي وأمي[2] » .

وأصيبت عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته فردّها رسول الله ﷺ ، بيده ، فكانت أحسن عينيه وأحدّهما[3] .

وقصده المشركون ، يريدون ما يأباه الله ، فحال دونه نفر

---

(١) سورة آل عمران ١٥٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٨٠ ـ ٨٢ ، ورواه البخاري في غزوة احد في باب « قوله تعالى : « إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا » .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٣ ص ٨٢ .

نحو عشرة ، حتى قتلوا عن آخرهم ، وجالدهم طلحة بن عبيدالله ، وترّس عليه بيده ، يقى بها النبي ، فأصيبت أنامله وشَلّت يده ، وأراد رسول الله ﷺ ، أن يعلو صخرة هنالك ، فلم يستطع لما به من الجراح والضعف ، فجلس طلحة تحته ، حتى صعدها ، وحانت الصلاة ، فصلى بهم جالساً[1] .

ولما انهزم الناس ، لم ينهزم أنس بن النضر ، عم أنس بن مالك ـ خادم رسول الله ـ ﷺ ، وتقدم ، فلقيه سعد بن معاذ ، فقال : أين يا أبا عمر ! فقال أنس : واها لريح الجنة يا سعد إني أجدها دون أحد[2]

وانتهى أنس بن النضر إلى رجال من المهاجرين والأنصار ، وقد ألقوا بأيديهم ، فقال : ما يجلسكم ؟ قالوا : قتل رسول الله ﷺ ، قال : فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ ، قوموا وموتوا على ما مات عليه رسول الله ، ثم استقبل القوم ، فقاتل حتى قتل .

يقول أنس رضي الله عنه : لقد وجدنا به يومئذ سبعين ضربة فما عرفه إلا أخته ، عرفته ببنانه[3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٣ ص ٨٦ وزاد المعاد ج ١ ص ٣٥٠ .

(٢) زاد المعاد ج ١ ص ٣٥٠ وأصل الرواية في الصحيحين .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٣ ص ٨٣ .

وقاتل زياد بن السّكن في خمسة من الأنصار دون رسول الله ﷺ ، يقتلون دونه رجلاً ثم رجلاً ، فقاتل زياد حتى أثبتته الجراحة ، فقال رسول الله ﷺ : أدنوه مني ، فأدنوه ، فوسده قدمه ، فمات وخده على قدم رسول الله ﷺ[1].

وكان عمرو بن الجموح أعرج شديد العرج ، وكان له أربعة أبناء شباب ، يغزون مع رسول الله ﷺ ، فلما توجه إلى أحد أراد أن يخرج معه ، فقال له بنوه : إن الله قد جعل لك رخصة ، فلو قعدت ونحن نكفيك ، وقد وضع الله عنك الجهاد .

وأتى عمرو رسول الله ، فقال : إن بَنيّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك ، ووالله إني لأرجو أن أستشهد ، فأطأ بعرجتي هذه في الجنة ، فقال له رسول الله ﷺ ، : أما أنت فقد وضع الله عنك الجهاد ، وقال لبنيه ، وما عليكم أن تدعوه ، لعل الله يرزقه الشهادة ، فخرج مع رسول الله ﷺ ، فقتل يوم أحد شهيداً[2] .

يقول زيد بن ثابت - رضي الله عنه : بعثني رسول الله ﷺ ، يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي : إن رايته

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٣ ص ٨١ .

(٢) زاد المعادج ١ ص ٣٥٣ .

فأقرئه مني السلام وقل له : يقول لك رسول الله ﷺ : كيف تجدك ؟ ، قال فجعلت أطوف بين القتلى، فأتيته وهو بآخر رمق . وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة برمح وضربة سيف، ورمية سهم فقلت : يا سعد إن رسول الله ﷺ ، يقرأ عليك السّلام ويقول لك : اخبرني كيف تجدك ؟ فقال : وعلى رسول الله السّلام، وقل له: يا رسول الله ! أجد ريح الجنة ، وقل لقومي الأنصار : لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله ﷺ ، وفيكم عين تطرف. وفاضت نفسه من وقته[1] .

وقال عبدالله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم ! إني أقسم عليك أن القى العدو غداً ، فيقتلوني ، ثم يبقروا بطني ، ويجدعوا أنفي وأذني ، ثم تسألني فيم ذاك ؟ فأقول فيك ![2]

عودة المسلمين إلى مراكزهم :

ولما عرف المسلمون رسول الله ﷺ ، نهضوا به ، ونهض معهم نحو الشعب ، وأدركه أبيّ بن خلف ، وهو يقول : أي محمد لا نجوت إن نجوت ، وقال رسول الله ﷺ : دعوه ، فلما دنا تناول رسول الله ﷺ ، الحربة من أحد أصحابه ، ثم استقبله وطعنه في عنقه طعنة تقلب بها عن فرسه مراراً[3] .

(١ و ٢) زاد المعاد ، ج ١ ص ٣٥٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ؛ ص ٨٤ .

عودة المسلمين إلى مركزهم :

وخرج علي بن أبي طالب ، فملأ درقته ماء ، وغسل من وجهه الدم ، وكانت فاطمة بنت الرسول ﷺ ، تغسله ، وعلي يسكب الماء بالمجن ، فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيد الدم إلا كثرة ، أخذت قطعة من حصير ، فأحرقتها ، وألصقتها ، فاستمسك الدم[1] .

وكانت عائشة بنت أبي بكر وأم سليم تنقلان القرب على متونهما تفرغانها في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم[2] ، وكانت أم سليط تزفر[3] ، لهما القرب[4] .

ووقعت هند بنت عتبة ، والنسوة اللآئي معها يمثلن بالقتلى ، من المسلمين ، يَجْدَعْنَ الآذان والأنف ، وبقرت عن كبد حمزة ـ رضي الله عنه ـ فمضغتها ، فلم تستطع أن

---

(١) رواه البخاري في « غزوة أحد » باب « ما اصاب النبي من الجراح يوم أحد » ومسلم في باب « غزوة أحد » باختلاف يسير ، وابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٨٥ وزاد المعاد ج١ ، ص ٣٥٢ .

(٢) الجامع الصحيح للبخاري (غزوة احد) باب « اذ همت طائفتان منكم ان تفشلا » ومسلم في باب غزوة النساء مع الرجال .

(٣) تزفر : تستقي .

(٤) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « أم سليط » .

تسيغها ، فلفظتها[1]

ولما أراد أبو سفيان الانصراف ، أشرف على الجبل ، ثم صرخ بأعلى صوته : إن الحرب سجال ، يوم بيوم ، أعل هبل فقال النبي ﷺ : قم يا عمر ، فأجبه ، فقل : الله أعلى واجلّ ، لا سواء فقتلانا في الجنة وقتلاكم في النار[2] ، قال أبو سفيان : لنا العزّى ولا عزّى لكم ، قال النبي ﷺ : أجيبوه ، قالوا : ما نقول؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم[3]

ولما انصرف ، وانصرف المسلمون ، نادى : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال رسول الله : لرجل من اصحابه: قل : نعم، هو بيننا وبينكم موعد[4] .

وفزع الناس لقتلاهم ، وحزن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على حمزة ، وكان عمّه وأخاه من الرضاعة ، والمقاتل دونه .

امرأة مؤمنة :

وأقبلت صفية بنت عبدالمطلب لتنظر اليه ، وكان أخاها

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٩١ .
(٢) المصدر السابق ؛ ص ٩٣ .
(٣) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « غزوة أحد » .
(٤) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٩٤ .

لأبيها وأمها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم لابنها الزبير بن العوام : القها، فأرجعها ، لا ترمها بأخيها ، فقال لها : يا أمّه إن رسول الله، يأمرك أن ترجعي، قالت : ولم ؟ وقد بلغني أن قد مثل بأخي وذلك في الله لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله، وأتته ، فنظرت اليه ، وصلَّت عليه ، واسترجعت واستغفرت له، ثم امر رسول الله ﷺ ، فدفن[1] .

كيف دفن مصعب بن عمير وشهداء أحد :

وقتل مصعب بن عمير صاحب لواء رسول الله ﷺ ، ومن أنعم فتيان قريش قبل الإسلام ، فكفن في بردة ، إن غطي رأسه بدت رجلاه ، وإن غطيت رجلاه بدا رأسه ، فقال النبي : ﷺ ، « غطوا بها رأسه ، واجعلوا على رجله الإذخر »[2] .

وكان رسول الله ﷺ ، يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد ثم يقول : أيهم اكثر أخذاً للقرآن : فإذا أشير له إلى أحد قدمه في اللحد ، وقال : أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة وأمر بدفنهم بدمائهم ، ولم يصل عليهم ولم يغسلوا[3] .

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٩٧ .

(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح ، باب « غزوة احد) .

(٣) الجامع الصحيح للبخاري باب « من قتل من المسلمين يوم أحد » .

هذا ما جاء في الجامع الصحيح وقد وردت الأحاديث في الصلاة عليهم وفي المسألة تفصيل وحلاف ، راجع شروح الحديث وكتب الخلاف .

إيثار النساء لرسول الله ﷺ :

عاد المسلمون إلى المدينة ، فمضوا بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ فلما نُعوا لها ، قالت : فما فعل رسول الله، ﷺ ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان ! هو بحمد الله كما تحبين ، قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ،فأشير لها اليه ، حتى اذا رأته قالت : كل مصيبة بعدك جلل [١] .

إتباع المسلمين أثر العدو واستماتتهم في نصرة الرسول ﷺ :

وتلاوم المشركون ، وقال بعضهم لبعض : لم تصنعوا شيئاً، أصبتم شوكة القوم وحدّهم ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، فأمر رسول الله ﷺ بطلب العدو .

هذا ، والمسلمون مثخنون بالجراح ، فلما كان الغد من يوم الأحد ، أذّن مؤذّن رسول الله ﷺ في الناس بالخروج في طلب العدو ، وأذَّن ألاّ يخرجن معنا أحد الا من حضر يومنا بالأمس ، وما من المسلمين الا جريح ثقيل ، فخرجوا مع رسول الله ﷺ لم يتخلف منهم أحد ، وانتهوا الى « حمراء الأسد » ، وهي من المدينة على ثمانية أميال ، فأقام بها رسول

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٩٩ .

الله ﷺ والمسلمون الاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، ثم رجعوا الى المدينة [1] وقد أثنى الله تعالى على ذلك وخلّد ذكره ، فقال :

« الّذين استجابوا لله والرسول من بعد ماأصابهم القرح ، للّذين أحسنوامنهم واتقوا اجر عظيم الّذين قال لهم الناس : إنّ النّاس قد جمعوا لكم ، فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ، واتبعوا رضوان الله ، والله ذو فضل عظيم ، إنّما ذلكم الشّيطان يخوّف أولياءه ، فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين[2] » .

وقد استشهد من المسلمين يوم أحد سبعون أكثرهم من الأنصار ، رضي الله عنهم وقتل من المشركين أثنان وعشرون رجلاً[3] .

تربية نفوس المسلمين :

وقد كان ما وقع في أحد من محنة للمسلمين ، تمحيصاً

---

(١) سيرة ابن كثير ، ج ٣ ص ٩٧ .

(٢) سورة آل عمران ـ ١٧٢ ـ ١٧٥ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ق ـ ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

وتربية لهم ، فلا ثقة بجماعة عاشت على سرور الانتصار ، ونشوة الفتح ، وحلاوة الظّفر ، ولم تذق مرارة المصائب والخسائر ، فإنها إذا أصيبت بذلك في يوم من الأيّام ، عزّ ذلك عليها واضطرب إيمانها ، ولذلك يقول الله تعالى :

« فأثابكم غماً بغمّ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون »[1] .

وقد هيأ الله نفوس المسلمين في هذه المعركة ، لتتلقّى نبأ وفاة رسول الله ﷺ ، وشهادته ، وإن تأخر ذلك ، والثّبات على العقيدة ، والدّعوة إليها ، والجهاد في سبيلها والوفاء لها في حياته ، وبعد حياته ، فلا يجبنون ولا يتخاذلون ، ولا يهنون ولا يستكينون ، فقال : « وما محمّد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرّسل ، أفإن مات أو قتل ، انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرَّ الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين[2]» .

أحبّ إلى النفس من النفس :

وفي سنة ثلاث للهجرة طلبت « عضل » و« القارة » نفراً من المسلمين ، ليعلّموهم ، فبعث معهم رسول الله ﷺ ، ستة

---

(١) سورة آل عمران ـ ١٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ـ ١٤٤ .

من أصحابه ، معهم عاصم بن ثابت ، وخبيب بن عدي وزيد بن الدِّثنة ، حتى إذا كانوا على « الرّجيع » وهو موضع بين « عُسفان » ومكّة ، غدروا بهم ، قالوا : لكم عهد الله وميثاقه أن لا نقتلكم ، فقال بعض المسلمين : لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً ، وقاتلوا القوم حتّى قتلوا ، وأما زيد بن الدِّثنة ، وخبيب بن عدي وعبدالله بن طارق ، فأعطوا بأيديهم ، فأسرهم المشركون ، وقتل عبدالله بن طارق في الطّريق ، وأما خبيب وزيد ، فباعوهما من قريش ، وابتاع خبيباً حجير بن أبي إهاب ، ليقتله بأبيه إهاب ، أما زيد بن الدِّثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أميّة بن خلف .

وأخرجوا زيداً من الحرم ليقتلوه ، واجتمع رهط من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان : أَنشُدك الله يا زيد ! أتحب أن محمداً عندنا الآن في مكانك وانّك في أهلك ، قال : ما أحب أن محمداً الآن في مكانه الّذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ، وأني جالس في أهلي [1] ، قال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحداً يحب أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً ، ثم قتل [2] .

وأما خبيب ، فلما جاؤوا به ليصلبوه ، قال لهم : إن

---

(١) ذكره عروة وموسى بن عقبة في قصة خبيب (ابن كثير ج ٣ ص ١٣١) .

(٢) رواية ابن اسحاق (ابن هشام ق ٢ ، ص ١٧٢) .

رأيتم أن تدعوني حتى أركع ركعتين ، فافعلوا ، قالوا : دونك ، فاركع ، فركع ركعتين ، أتمّها وأحسنها ، ثم أقبل على القوم ، فقال : أما والله لولا أن تظنّوا أنّي إنّما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرت من الصّلاة ، وأنشد بيتين :

فلست أبالي حين اقتل مسلماً
على أي شق كان في الله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ
يبارك على أوصال شلو ممزَّع [1]

بعث رسول الله ﷺ ، نفراً من أصحابه على طلب من عامر بن مالك ليدعوهم إلى الإسلام ، وكانوا سبعين رجلاً من خيار المسلمين ، فساروا حتى نزلوا بئر معونة ، واجتمع عليهم قبائل من بني سليم : « عصيّة » و« ورِعل » و« ذَكْوَان » ، فغشُوا القوم ، وأحاطوا بهم في رحالهم فلما رأوهم أخذوا سيوفهم ، ثم قاتلوا حتى قتلوا من عند آخرهم ، إلا كعب بن زيد ، عاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً [2] .

---

(١) راجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق ٢ ص ١٦٩ ـ ١٧٦ ، ورواه البخاري في كتاب المغازي ، باب التوحيد والجهاد ، باختلاف يسير ، وابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ ـ ١٢٥ .

(٢) راجع البخاري ومسلم وسيرة ابن هشام .

كلمة قتيل كانت سبباً لإسلام القاتل :

وفي هذه السريّة قُتل حرام بن مِلحان ، قتله جبّار بن سلمى ، وكان سبب إسلامه كلمة قالها حرام ، وهو يجود بنفسه ، يقول جبّار : إن ممّا دعاني إلى الإسلام أنّي طعنت رجلاً منهم يومئذ برمح بين كتفيه ، فنظرت إلى سنان الرّمح حين خرج من صدره فسمعته يقول : فزت وربّ الكعبة ! فقلت في نفسي : ما فاز ؟! ألست قد قتلت الرّجل ؟ حتى سألت بعد ذلك عن قوله ، فقالوا : للّشهادة ، فقلت : فاز لعمر الله ، فكان سبباً لإسلامه [١] .

إجلاء بني النّضير :

خرج رسول الله ﷺ ، إلى بني النضير ، وهم قبيلة عظيمة من اليهود ، ليستعينهم في دية قتيلين من بني عامر ، وكان بين بني النّضير وبني عامر عقد وحلف ، فرقّوا في الكلام ووعدوا بخير ، ولكنّهم اضمروا الغدر والاغتيال ، وكان رسول الله ﷺ ، قاعداً إلى جنب جدار من بيوتهم ، فقال بعضهم لبعض : إنّكم لن تجدوا الرّجل على مثل حاله هذه ، فَمَنْ رجل يعلو هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ، فيريحنا

---

(١) القصة رواها البخاري في باب غزوة الرجيع من كتاب المغازي ، وابن هشام ق ٢ ص ١٨٧ .

منه ؟ ، وكان رسول الله ﷺ ، في نفر من أصحابه ، فيهم أبو بكر وعمر وعلي .

وأتى رسولَ الله ﷺ ، الخبرُ من السّماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة ، وأمر رسول الله ، بالتهيُّؤ لحربهم والسّير إليهم ، ثم سار بالنّاس ، حتّى نزل بهم ، وذلك في شهر ربيع الأول سنة أربع ، فحاصرهم ستّ ليال ، وقذف الله في قلوبهم الرّعب ، وسألوا رسول الله ، ﷺ ، أن يجليهم ، ويكفّ عن دمائهم على أنّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ السلاح ، فقبل ، واحتملوا من أموالهم ما استقلّت بها الإبل ، وكان الرجل منهم يهدم بيته عن العتبة والأسكفّة ، فيضعه على ظهر بعيره ، فينطلق به[1] ، يقول الله تعالى في هذه الغزوة :

« هو الّذي أخرج الّذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنّوا أنهّم مانعتهم حصونهم من الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرّعب ، يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين ، فاعتبروا يا أولي الأبصار[2] ».

فمنهم من خرج الى خيبر، ومنهم من سار الى الشام،

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ؛ ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) سورة الحشر٢ .

وتخلص المسلمون من وكر من أوكار المكيدة والمؤامرة والنفاق والخداع «وكفى الله المؤمنين القتال [1]».

وقسم رسول الله ﷺ اموالهم الى المهاجرين الأولين.

غزوة ذات الرقاع

وفي سنة أربع غزا رسول الله ﷺ نجدا فسار حتى نزل نخلا، وكان ستة رجال ـ منهم أبو موسى الأشعري ـ بينهم بعير، فنقبت أقدامهم، وسقطت أظفارها، فكانوا يلفّون على أرجلهم الخرق، فسميت «غزوة ذات الرقاع» [2].

وتقارب النّاس، ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضا، حتى صلّى رسول الله ﷺ، بالناس صلاة الخوف[3].

من يمنعك مني؟

ولمّا قفل رسول الله ﷺ من هذه الغزوة، وقفل معه الناس أدركتهم القائلة في واد كثير العضاه، فنزل رسول الله ﷺ وتفرّق الناس في العِضاه يستظلّون الشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت

---

(١) سورة الأحزاب ـ ٢٥.

(٢) رواه البخاري عن طريق أبي موسى الأشعري باب «غزوة ذات الرقاع».

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٢٠٤.

سمرة، فعلّق بها سيفه.

قال جابر: فنمنا نومة، ثمّ إذا رسول الله ﷺ يدعونا، فإذا عنده أعرابي جالس، فقال رسول الله ﷺ: إنّ هذا اخترط سيفي وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده صلتا، فقال لي: من يمنعك منّي؟ قلت: الله، فها هو جالس، ثم لم يعاقبه رسول الله ﷺ [1].

غزوات لم يكن فيها قتال

وخرج رسول الله ﷺ في شعبان سنة أربع، الى بدر، لميعاد أبي سفيان فنزله وأقام عليه ثماني ليال، ينتظر أبا سفيان، وخرج أبو سفيان، ثم بدا له الرجوع، وقال: إنّ عامكم هذا عام جدب، وإنّي راجع فارجعوا، وكفى الله المؤمنين القتال.

وغزا دُومة الجندل، ولم يلق كيدا، فرجع الى المدينة [2].

---

(١) رواه البخاري في كتاب المغازي؛ باب «غزوة ذات الرقاع».

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٠٩ ـ ٢١٣).

غزوة الخندق
أو
غزوة الأحزاب

وفي شوال سنة خمس كانت غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب[1] ، وكانت من الحوادث التي لها أثر بعيد في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وفي تقرير مصير الدعوة الإسلامية ، وفي المدّ الإسلامي ، وكانت معركة حاسمة ، ومحنة ابتلي فيها المسلمون ابتلاء لم يتبلوا بمثله .

﴿ إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم واذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون بالله الظّنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا [2]﴾ .

وكان سببها اليهود، فقد خرج نفر من بني النّضير، ونفر من بني وائل، فقدموا على قريش مكة، فدعوهم الى حرب رسول الله ﷺ وكانوا قد جربوها واكتووا بنارها، فصاروا يتهيّبونها، ويزهدون فيها، فزيّنها لهم الوفد اليهودي وهوّن أمرها،

(١) سيرة ابن هشام ؛ ق ٢ ص ٢١٤

(٢) سورة الأحزاب - ١٠ ، ١١ .

وقالوا: إنّا سنكون معكم حتّى نستأصله، فسر ذلك قريشا، ونشطوا لما دعوهم اليه، واجتمعوا لذلك، واتّعدوا له، ثم خرج الوفد، فجاء غطفان، فدعاهم الى ذلك، وطاف في القبائل، وعرض عليها مشروع غزو المدينة، وموافقة قريش عليه [1].

وتمّت اتفاقية عسكرية، كان قريش واليهود وغطفان من أهمّ أعضائها واتفقوا على شروط، من أهمها أن تشارك غطفان في «جيش الاتحاد» أو عسكر الحلفاء، بستة آلاف مقاتل، وأن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل ثمر نخل خيبر لسنة واحدة، وحشدت قريش أربعة الاف مقاتل، وغطفان ستة الاف مقاتل، فكانوا عشرة الاف، وأسندت قيادة الجيش الى أبي سفيان [2].

الحكمة ضالّة المؤمن

ولمّا سمع رسول اللهﷺ بزحفهم الى المدينة، وتحزّب الأحزاب لقتال المسلمين، وعزمها على استئصال شأفتهم، أهمّ المسلمين ذلك، وتهيّؤوا للحرب، وقرروا التحصن في المدينة والدّفاع عنها، وكان جيش المسلمين لا يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل.

---

(١) راجع سيرة ابن هشام، ق ٢، ص ٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) سيرة ابن هشام ص ٢١٩ ـ ٢٢٠.

هناك أشار سلمان الفارسي بضرب الخندق على المدينة [١]، وكانت خطة حربية متّبعة عند الفرس [٢]، قال سلمان: يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس اذا تخوفنا الخيل خندقنا علينا، وقبل رسول الله ﷺ رأيه فأمر بحفر الخندق في السهل الواقع شمال غرب المدينة وهو الجانب المكشوف الذي يخاف منه اقتحام العدو[٣] .

وقسم رسول الله ﷺ الخندق بين أصحابه، لكل عشرة منهم أربعين ذراعا [٤]، وقد بَلَغَ طول الخندق حوالي خمسة الاف ذراع، وعمقه من سبعة أذرع الى عشرة، والعرض من تسعة الى ما فوقها [٥] .

روح المساواة والمواساة بين المسلمين

وعمل رسول الله ﷺ في حفر الخندق، ترغيبا للمسلمين في

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٤ .

(٢) وكلمة خندق معرب كلمة « كنده » وترد كلمة خندك في الفارسية ايضاً بنفس المعنى (راجع فرهنك عميد) .

(٣) وقد تم حفره من شمالي المدينة الشرقي إلى غربيها، وكان حدّه الشرقي طرف حرة واقم، وحدّه الغربي غربي وادي بطحان، حيث طرف الحرة الغربية (حرة الوبرة) . « آثار المدينة المنورة » للأستاذ عبدالقدوس الأنصاري .

(٤) سيرة ابن كثير ج ٣ ص ١٩٢ .

(٥) « غزو الأحزاب » للأستاذ أحمد باشميل .

الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب فيه ودأبوا [1]، وكان البرد شديدا، ولا يجدون من القوت الا ما يسد الرمق، وقد لا يجدونه.

يقول أبو طلحة: شكونا الى رسول الله ﷺ الجوع، ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر، فرفع رسول الله ﷺ عن بطنه حجرين [2].

وكانوا مسرورين، يحمدون الله ويرتجزون، ولا يشكون ولا يتعتبون.

يقول أنس - رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ الى الخندق، فاذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النّصب والجوع، قال:

اللّهم إنّ العيش عيش الآخرة فاغفر الأنصار والمهاجرة

فقالوا: مجيبين له:

نحن الّذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا [3]

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٢١٦.

(٢) رواه الترمذي، قال الطيبي: «عادة من اشتد جوعه وخمص بطنه أن يشد على بطنه حجراً، ليتقوم به صلبه. (مشكاة المصابيح مع هامشها؛ ج٢ ص ٤٤٨).

(٣) رواه البخاري في الصحيح عن أنس رضي الله عنه في كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، ورواه مسلم عن أنس نحوه.

قال: ويؤتون بملء كفّ من الشّعير، فيصنع لهم بإهالة [١] سنخة [٢] [٣].

نور الفتوح الإسلاميّة في ظلام الحصار والشّدة

عرض للمسلمين في بعض الخندق صخرة عظيمة شديدة، لا تأخذ فيها المعاول، فشكوا ذلك الى رسول الله ﷺ فلما رآها أخذ المعول، وقال: بسم الله ، وضرب ضربة فكسر ثلثها، وقال: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، فقطع ثلثاً آخر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، والله إنّي لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضرب الثالثة، فقال: بسم الله فقطع بقية الحجر، فقال: الله أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، والله إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني السّاعة [٤].

هذا، والمسلمون في شكّ من حياتهم، يعضّهم الجوع، ويؤذيهم البرد، وينذرهم العدو.

المعجزات النبوية في الغزوة

وظهرت المعجزات على يد الرسول ﷺ فاذا اشتدت على

---

(١) الإهالة : الردكة كل ما يؤتدم به .

(٢) السنخة : المتغيرة الريح ، الفاسدة الطعم .

(٣) سيرة ابن كثير ج ٣ ، ص ١٨٤ ، نقلاً عن البخاري .

(٤) رواه البيهقي بسنده عن البراء بن عازب الأنصاري (ابن كثير ، ج ٣ - ص ١٩٤) .

المسلمين في بعض الخندق كَدية ، دعا بإناء من ماء ، فتفل فيه ، ثم دعا بما شاء الله أن يدعـو به ، ونضـح ذلك الماء على تلك الكُدية فانهالت وعادت كالكثيب [1].

وظهرت البركة في طعام قليل ، فشبع به عدد كبير ، وكفـى الجيش كلّه .

قال جابر بن عبد الله : إنّا يوم الخندق نحفر ، فعرضت كُدية شديدة ، فجاؤا النبـي ﷺ فقالـوا : هذه كدية عرضـت في الخندق ، فقال : أنا نازل ، ثم قام وبطنـه معصـوب بحجـر ، ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقا ، فأخذ النبي ﷺ المعول ، فضرب فعاد كثيبا أهيل أو أهيم [2] ، فقلت : يا رسول الله ﷺ ائذن لي الى البيت ، فقلت لامرأتي : رأيت بالنبي ﷺ شيئـا ما كان في ذلك صبر ، فعندك شيء؟ قالت : عنـدي شعـير وعنـاق [3] ، فذبحت العناق ، وطحنت الشعير ، حتى جعلنا اللّحم في البرمة [4] ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر ، والبرمة بين الأثافي [5] ، قد كادت ان تنضج ، فقلت : طعيم لي ، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان ، قال : كم هو؟ فذكرت

(١) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

(٢) أهيل أو أهيم : السائل .

(٣) العناق : الأنثى من ولد الماعز .

(٤) البرمة : القدر .

(٥) الأثافي : حجارة ثلاثة توضع عليها القدر .

له ، قال : كثير طيّب : قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور ،حتى آتي ، فقال :قوموا ، فقام المهاجرون والأنصار .

فلما دخلت على امرأتي، قلت: ويحك! جاء النبي ﷺ بالمهاجرين والأنصار ومن معهم! قالت: هل سألك؟ قلت: نعم، فقال: ادخلوا ولا تضاغطوا، فجعل يكسر الخبز، ويجعل عليه اللحم ويخمّر[1] البرمة والتنور اذا أخذ منه، ويقرب الى أصحابه، ثم ينزع فلم يزل يكسر الخبز ويغرف حتّى شبعوا.

وبقي بقيّة ، قال: كلي هذا وأهدي، فإنّ الناس أصابتهم مجاعة [2].

وفي رواية: قال جابر: جئته، فساررته فقلت يا رسول الله! ذبحنا بهيمة لنا وطحنّا صاعا من شعير كان عندنا، فتعال أنت ونفر معك، فصاح النبي ﷺ وقال: يا أصحاب الخندق، ! إنّ جابراً قد صنع سؤرا [3] [4].

إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم

وأقبلت قريش، حتّى نزلت أمام المدينة، في عشرة الاف،

(١) يخمر : يغطي .

(٢) رواه البخاري في الجامع الصحيح باب « غزوة الخندق » .

(٣) قال الفتني في « مجمع بحار الأنوار » : اللفظ فارسّي وهو طعام العرس في لغة الفرس .

(٤) رواه البخاري في صحيحه في باب « غزوة الخندق » .

وأقبلت غطفان بتوابعهم، فنزلوا أمام المدينة أيضا، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون في ثلاثة آلاف وبينه وبين قومه الخندق.

وكان بين المسلمين وبين بني قريظة عقد وعهد، فحملهم حيي ابن أخطب - سيّد بني النّضير - على نقض العهد، وقد فعل ذلك بعد امتناع وتردّد، وتحقّقه رسول الله ﷺ [1]، فعظم عند ذلك البلاء، واشتدّ الخوف، ونجم النفاق من بعض المنافقين، وهمّ رسول الله ﷺ بعقد الصلح بينه وبين غطفان على أن يعطيهم ثلث ثمار المدينة، رفقا بالأنصار، وتخفيفا عنهم؛ فقد استقلّوا بأكبر نصيب من أعباء الحرب.

ثم عدل عن ذلك، بعدما رأى من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة الثّبات والاستقامة، والصمّود أمام العدو، والإباء، فقال سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنّا نحن وهؤلاء على الشرّك بالله، وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطعمون منها تمرة الا قِرى أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له، وأعزّنا بك، وبه، نعطيهم أموالنا؟ والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم الا السّيف، حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك [2].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٢) راجع للتفصيل سيرة أبن هشام، ق ٢ ص ٢٢٢ - ٢٢٣.

بين فارس الإسلام وفارس الجاهلية

وأقام رسول الله ﷺ والمسلمون، وعدوهم محاصروهم، ولم يكن بينهم قتال، إلاّ أنّ فوارس من قريش أقبلوا تسرع بهم خيلهم حتى وقفوا على الخندق، فلما رأوه قالوا: والله إنّ هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها!

ثم تيمّموا مكانا ضيّقا من الخندق، فضربوا خيلهم، فاقتحمت منه، فجالت بهم في أرض المدينة، ومنهم الفارس المشهور :عمرو بن عبدودّ، الذي كان يقوم بألف فارس، فلمّا وقف قال: من يبارز؟ فبرز علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا عمرو! انّك كنت عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش الى احدى خلتين، إلاّ أخذتها منه.
قال: أجل.

قال له علي: فاني أدعوك الى الله والى رسوله والى الإسلام.

قال: لا حاجة لي بذلك.

قال: فإنّي أدعوك الى النّزال.

فقال له: لم يا ابن أخي؟ فوالله ، ما أحبّ أن أقتلك,

قال له علي ـ رضي الله عنه ـ :ـ لكنّي والله أحبّ أن أقتلك.

فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه، فعقره، وضرب

وجهه، ثم أقبل على علي ـ رضي الله عنه ـ فتنازلا وتجاولا فقتله عليّ ـ رضي الله عنه [1] وكان من فوارسهم نوفل بن مغيرة، وخرجت خيلهم منهزمة، حتى اقتحمت من الخندق هاربة.

أمّ تحرّض ابنها على القتال والشهادة

تقول عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ وكانت مع نسوة مسلمات في حصن بني حارثة وذلك قبل أن يضرب عليهن بالحجاب، مرّ سعد بن معاذ وعليه درع قصيرة، قد خرجت منها ذراعه كلها، وهو يرتجز، فقالت له أمّه: الحق ابني فقد والله أخّرت،قالت عائشة: فقلت لها: يا أمّ سعد! والله لوددت أن درع سعد كانت أسبغ مما هي.

وكان ما تخوفته عائشة ـ رضي الله عنها ـ فرمى سعد بن معاذ بسهم فقطع منه الأكحل[2]، ومات شهيدا في غزوة بني قريظة[3].

ولله جنود السّماوات والأرض

أحاط المشركون بالمسلمين، حتى جعلوهم في مثل الحصن من كتائبهم، فحاصروهم قريبا من شهر، وأخذوا بكل ناحية،

---

(١) ابن كثير، ج ٣ ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣.

(٢) الأكحل: عرق في الذراع.

(٣) ابن كثير ج ٣، ص ٢٠٧.

واشتدّ البلاء، وتجهّر النّفاق، واستأذن بعض الناس رسول الله ﷺ في الذهاب الى المدينة، وقالوا: «إنّ بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون الا فرارا».[1]

وبينا رسول الله ﷺ وأصحابه فيما وصف الله من الخوف والشّدة، اذ جاءه نعيم بن مسعود الغطفاني، فقال: يا رسول الله ! إنّي قد أسلمت، وإنّ قومي لم يعلموا باسلامي، فمرني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: «إنّما أنت فينا رجل واحد، فخذّل عنا ان استطعت، فإنّ الحرب خِدعة».

فخرج نعيم بن مسعود، فأتى بني قريظة، وتكلّم معهم بكلام جعلهم يشكون في صحة موقفهم، وولائهم لقريش وغطفان الّذين ليسوا من أهل البلد، وعدائهم للمهاجرين والأنصار، الذين هم أهل الدار وجيرانهم الدائمون، وأشار عليهم بألاّ يقاتلوا مع قريش وغطفان حتى يأخذوا منهم رهنا من أشرافهم يكونوا بأيديهم ثقة لهم، فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

ثم خرج حتّى أتى قريشا، فأظهر لهم إخلاصه ونصيحته، وأخبرهم بأنّ اليهود قد ندموا على ما فعلوا، وسيطلبون منهم رجالا من أشرافهم تأمينا للعهد، وسيسلمونهم الى النبي ﷺ وأصحابه فيضربون أعناقهم ثم خرج الى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش، فكان كلا الفريقين على حذر، وتوغّرت

(١) الأحزاب - ١٣

صدورهم على اليهود، ودبّت الفرقة بين الاحزاب وتوجّس كل منهم خيفة من صاحبه.

ولما طلب أبو سفيان ورؤوس غطفان معركة حاسمة بينهم وبين المسلمين تكاسل اليهود، وطلبوا منهم رهنا من رجالهم، فتحقق لقريش وغطفان صدق ما حدّثهم به نعيم بن مسعود، وامتنعوا عن تحقيق طلبهم، وتحقّق لليهود صدق حديثه كذلك. وهكذا تخاذل بعضهم عن بعض وتمزّق الشّمل وتفرّقت الكلمة.

وكان من صنع الله لنبيه أن بعث الله على الأحزاب الرّيح في ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تقلب قدورهم وتطرح أبنيتهم، وقام أبو سفيان، فقال: يا معشر قريش! إنّكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخفّ، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الّذي نكره، ولقينا من شدّة الريح ما ترون، ما تطمئنّ لنا قدور، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإنّي مرتحل.

وقام أبو سفيان الى جمله وهو معقول، فجلس عليه، ثم ضربه فما أطلق عقاله إلاّ وهو قائم.

وسمعت غطفان بما فعلت قريش، فانشمروا راجعين إلى بلادهم، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، وأخبره حذيفة بن اليمان

الّذي أرسله رسول الله ﷺ عينا الى الأحزاب ينظر له ما فعل القوم، ثم يرجع، فأخبره بما رأى [1]، فلما أصبح انصرف عن الخندق راجعا إلى المدينة، وانصرف المسلمون ووضعوا السلاح [2]، وصدق الله العظيم:

يا أيّها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتْكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيرا [3].

﴿ورد الله الّذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويّا عزيزا﴾ [4].

ووضعت الحرب أوزارها، فلم ترجع قريش بعدها الى حرب المسلمين، وقال رسول الله ﷺ: «لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنّكم تغزونهم [5]».

واستشهد من المسلمين يوم الخندق سبعة على أكثر تقدير، وقتل من المشركين أربعة [6].

---

(١) اقرأ القصة بطولها في صحيح مسلم باب «غزوة الأحزاب».

(٢) اقرأ للتفصيل ابن كثير ج ٣ ص ٢١٤ - ٢٢١، رواية عن ابن اسحاق

(٣) سورة الأحزاب - ٩.

(٤) سورة الأحزاب - ٢٥.

(٥) سيرة ابن كثير ج ٣؛ ص ٢٢١.

(٦) سيرة ابن كثير، ج ٣؛ ص ٢٢٢.

غـزوة بـني قريظـة

نقض بني قريظة العهد :

كان رسول الله ﷺ لمّا قدم المدينة ، كتب كتابا بين المهاجرين والأنصار ، وادع فيه يهود وعاهدهم ، وأقرّهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم ، واشترط عليهم ، وجاء فيه :

« أنّه من تبعنا من يهود ، فإنّ له النّصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم ، وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسا ، ولا يحول دونه على مؤمن . وأنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأنّ قبائل [1] يهود أمّة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ومواليهم وأنفسهم » .

وجاء فيه : « أنّ بينهم النّصر على ما حارب أهل هذه الصّحيفة وأنّ بينهم النصح والنصيحة والبرّ دون الإثم ، وأنّ بينهم النّصر على من دهم يثرب [2] » .

---

(١) جاء في العهد ، اسماء القبائل اليهودية كبني عوف ، وبني ساعدة ، وبني جشم ، وبني الأوس وبني ثعلبة .

(٢) سيرة ابن هشام ق ١ ، ص ٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

ولكن حييّ بن أخطب اليهودي ـ سيّد بني النضير ـ نجح في حمل بني قريظة على نقض العهد، وممالأة قريش، بعدما قال سيّدهم كعب بن أسد القرظي: لم أر من محمد الا صدقا ووفاء، ونقض كعب بن أسد عهده، وبرىء مما كان بينه وبين رسول الله ﷺ.

ولما انتهى الى رسول الله ﷺ خبر نقضهم للعهد، بعث سعد بن معاذ ـ رضي الله عنه ـ سيّد الأوس ـ وهم حلفاء بني قريظة ـ وسعد بن عبادة ـ سيّد الخزرج ـ في رجال من الأنصار، ليتحقّقوا الخبر، فوجدوهم على شرمّا بلغهم عنهم، ونالوا من رسول الله ﷺ وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمّد ولا عقد [1].

وبدأوا بالفعل في الاستعداد للهجوم على المسلمين، وهكذا حاولوا طعن جيش المسلمين من الخلف [2]، وكان ذلك أشدّ وأنكى من الهجوم السافر والحرب في الميدان، وذلك قوله تعالى «إذ جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم [3]».

---

(١) راجع سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٢٠ ـ ٢٢٣ .

(٢) جاء في كتاب « Cambridge History of Islam (ج ١ ص ٤٩) بقلم الأستاذ الأنجليزي الشهير Montgomery Watt. « كانت قد بقيت في المدينة قبيلة عظيمة ، هي قبيلة بني قريظة ، وكانت تتظاهر بالإخلاص عندما حاصر المشركون المدينة ، ولكن مما لا شك فيه انها كانت قد تمالأت مع المشركين ، وكانت تنتهز أول فرصة للهجوم على المسلمين من خلف» .

(٣) سورة الأحزاب ـ ١٠ .

واشتدّ ذلك على المسلمين، حتّى قال سعد بن معاذ - وكان من أولى الناس بالحدب عليهم، يحنو عليهـم في كل ما يلـمّ بهم، لما اصابه السّهم في غزوة الخندق، فقطع منه الاكحل، وأيقن بالموت : اللّهم ! لا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة[1] .

المسير الى بني قريظة

فلما انصرف رسول الله ﷺ والمسلمون من الخندق راجعـين الى المدينة ووضعوا السّلاح، أتى جبرئيل، وقال: أوقد وضعت السّلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبرئيل: فما وضعت الملائكة السّلاح بعد، إنّ الله عزّ وجلّ يأمرك بالمسير الى بنـي قريظة، فإنّي عامد اليهم، فمزلزل بهم، فأمر رسول الله ﷺ مؤذّنا، فأذّن في الناس: أن من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلاّ في بني قريظة [2] .

ونزل رسول الله ﷺ ببني قريظة، فحاصرهم خمسا وعشرين ليلة، حتّى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب [3] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٢٧ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ وروى البخاري القصة بزيادة وتفصيل في باب «مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته اياه » ، ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير في باب « جواز قتال من نقض العهد وجواز إنزال الحصن على حكم عادل حكيم أهل للعـدل» .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٣٥ .

ندم أبي لبابة وتوبة الله عليه

وبعثت بنو قريظة الى رسول الله ﷺ أن ابعث الينا أبا لبابة أبا بني عمرو بن عوف ـ وكانوا حلفاء الأوس ـ لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ اليهم فلمّا رأوه قام اليه الرّجال، وجهش اليه النّساء والصبيان، يبكون في وجهه، فرقّ لهم وقالوا له: يا أبا لبابة! أترى أن ننزل على حكم محمّد؟ قال: نعم، وأشار بيده الى حلقه أنّه الذبح.

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتّى عرفت أنّي خنت الله ورسوله ﷺ ثم انطلق أبو لبابة على وجهه، ولم يأت رسول الله ﷺ حتّى ارتبط في المسجد الى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليّ ممّا صنعت، وعاهدت الله ألاّ أطأ بني قريظة أبدا، ولا أُرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبدا.

ولما تاب الله عليه قال:

﴿وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم ان الله غفور رحيم﴾ (١).

فثار النّاس اليه ليطلقوه، فقال: لا والله، حتّى يكون رسول

---

(١) سورة التوبة ـ ١٠٢ .

الله ﷺ هو الّذي يطلقني بيده، ومرّ عليه رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصّبح، فأطلقه وقد أقام مرتبطا بالجذع نحو عشرين ليلة، تأتيه امرأته في كل وقت صلاة، فتحلّه للصّلاة، ثم يعود فيرتبط بالجذع [١].

أنى لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم

ونزل بنو قريظة على حكم رسول الله ﷺ فتواثبت الأوس، وقالوا: يا رسول الله! إنهّم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا [٢] بالامس ما قد علمت، فقال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ، فأرسل اليه، فلما جاء اليه، قال له بنو قبيلته: يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فإنّ رسول الله ﷺ إنمّا ولاّك ذلك لتحسن فيهم، فلما أكثروا عليه، قال: لقد آن لسعد ألاّ تأخذه في الله لومة لائم، قال سعد: فإنّي أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، قال رسول الله ﷺ لقد حكمت فيهم بحكم الله [٣].

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢، ص ٢٣٦ - ٢٣٨.

(٢) يعنون بني قينقاع.

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٢٣٩ - ٢٤٠، وفي رواية البخاري ومسلم قال: قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك (صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب: مرجع النبي ، من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة.

موافقة لشريعة بني إسرائيل

وقد وافق ذلك قانون الحرب في شريعة بني إسرائيل، فقد جاء في سفر التثنية (الاصحاح العشرون ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ :

«حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصّلح، فإن أجابتك إلى الصلح، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير، ويستعبد لك، وان لم تسالمك، بل عملت معك حربا، فحاصرها، واذا دفع الربّ إلهك الى يدك، فاضرب جميع ذكورها بحدّ السّيف، وأما النّساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك».

وهذه كانت العادة المتّبعة في بني إسرائيل في عهد أنبيائهم، فقد جاء في التوراة:

«فتجنّدوا على مديان كما أمر الرّب، وقتلوا كل ذكر وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم، أوى، وراقم، وصور، وحور، ورابع، خمسة ملوك مديان، وبلعام بن باعور قتلوه بالسيف، وسبى بنو اسرائيل نساء كل مديان وأطفالهم، ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل أملاكهم، وأحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم وجميع حصونهم بالنار. (سفر العدد، الاصحاح الحادي والثلاثون ٧ - ٨ - ٩ - ١٠).

وذلك في عهد موسى ـ عليه السلام ـ وبموافقة منه ، وقد جاء في التوراة :

«فخرج موسى والعازار الكاهن وكلّ رؤساء الجماعة لاستقبالهم الى خارج المحلّة ، فسخط موسى على وكلاء الجيش رؤساء الألوف ورؤساء المئات القادمين من جند الحرب ، وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية» (سفر العدد ، الإصحاح الحادي والثلاثون ١٣ ـ ١٦) [١] .

ونفّذ في بني قريظة حكم سعد بن معاذ ، وخلت المدينة من جميع أوكار المؤامرة والمحاربة اليهودية ، وأمن المسلمون من الطّعن من الخلف ، ومن نشر الفوضى في الداخل .

وقتلت الخزرج سلام بن أبي الحقيق ، وكان ممّن حزب الأحزاب وكانت الأوس قد قتلت من قبل كعب بن الأشرف ، وكان مقدماً في عداوته لرسول الله ﷺ ، والتحريض عليه ، فنجا المسلمون من الرؤوس التي كانت تكيد ضد الإسلام والمسلمين ، وتقود الحركات ضدهم ، واستراح المسلمون[٢] .

وكان ما عامل به رسول الله ﷺ ، بني قريظة ما اقتضته سياسة الحرب وطبيعة القبائل العربيّة واليهوديّة ، وكان لا بد

---

(١) الكتاب المقدس ، مطبعة أوكسفورد ، ١٨٦٩ م .
(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٧٣ .

من عقوبة صارمة تكون درساً للعابثين بالعهود والمحالفات ونكالاً لما بين يديها وما خلفها ، يقول R.V. C, Bodley في كتابه « حياة محمّد الرسول » :

« كان محمّد وحيداً في بلاد العرب ، وكانت هذه البلاد من حيث المساحة ثلث الولايات المتحدة الأمريكية ، وكان عدد النّفوس فيها يبلغ خمسة ملايين نفس . . . ولم يكن عنده من الجيوش الّتي تحمل النّاس على امتثال أمره إلاّ الجيش الذي لا يزيد على ثلاثة آلاف جندي ، ولم يكن هذا الجيش مسلحاً تسليحاً كاملاً ، فإذا وهن محمّد في هذه القضية أو ترك جريمة غدر بني قريظة من غير أن يعاقبهم عليها ، لم يكن للإسلام في جزيرة العرب بقاء ، إنّه لا شك أنّ عمليّة قتل اليهود كانت عنيفة ، ولكن لم يكن ذلك حادثاً فريداً من نوعه في تاريخ الدّيانات ، وقد كان لهذا العمل مبرر من وجهة نظر المسلمين ، وقد تحتم الآن على القبائل العربية واليهود أن يتأملوا مرة بعد مرة قبل أن يقدموا إلى غدر أو نقض عهد ، لأنهم قد عرفوا عواقبه الوخيمة وشاهدوا أنّ محمداً يستطيع أن ينفذ ما يريده[١] » .

وقد كان من فوائد القضاء على آخر حصن من حصون اليهود في المدينة الضعف الذي طرأ على معسكر النّفاق ، ونشاط

(١) p.p. - 203 (The Messenger - The Life of Mohammad (London - 1946)

المنافقين ، فقد أثّر ذلك في معنويتهم ، وأفقدهم الشيء الكثير من الثّقة ، والآمال الواسعة ، فقد كانوا آخر معقل من معاقلهم الكبيرة ، يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة بني قريظة :

« وأما المنافقون فقد خَفَتَ صوتهم بعد يوم قريظة ، ولم نعد نسمع لهم أعمالاً أو أقوالاً تناقض إرادة النبي وأصحابه ، كما كان يفهم ذلك من قبل[1] » .

العفو عمّن ظلم وعطاء من حرم :

بعث رسول الله ﷺ ، خيلاً قبل نجد ، فجاءت بثمامة بن أثال ، ـ سيد بني حنيفة ـ فربط إلى سارية من سواري المسجد .

ومرّ به رسول الله ﷺ ، وقال : ما عندك يا ثمامة ؟ ، قال : يا محمد ! إن تقتل تقتل ذا دَمٍ ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال ، فاسأل ، تعط ما شئت ، فتركه ، ثم مرّ به مرّة أخرى ، وقال له مثل ذلك ، فرد عليه كما رد عليه أولاً ، ثم مرّة ثالثة ، فقال : « أطلقوا ثمامة ، فأطلقه » .

---

(١) اليهود في بلاد العرب ، ص ١٥٥ .

وذهب ثمامة إلى نخل قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم جاءه فأسلم ، وقال : والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح ، وجهك أحب الوجوه إلي ، والله ما كان على وجه الأرض دين أبغض إلي من دينك ، فقد أصبح دينك أحبّ الأديان إليّ ، وأنّ خيلك اخذتني وأنا أريد العمرة ، فبشره رسول الله ﷺ ، وأمره أن يعتمر .

فلماّ قدم ثمامة على قريش ، قالوا : صبوت يا ثمامة ! قال : لا والله ، ولكنّي أسلمت مع محمّد ﷺ ، لا والله ما يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وكان اليمامة ريف مكّة .

فانصرف إلى بلاده ؛ ومنع الحمل إلى مكة ، حتى جهدت قريش ، وكتبوا إلى رسول الله ﷺ ، يسألونه أن يكتب إلى ثمامة يخليّ اليهم حمل الطعام ، ففعل رسول الله ﷺ [1] .

غزوة بني المصطلق وقصّة الإفك :

وكانت غزوة بني لحيان ، وغزوة ذي قرد ، ولم يكن فيهما قتال ، وبلغ رسول الله ﷺ ، في شعبان سنة ست أنّ بني المصطلق يجمعون له . . . فلما سمع خرج اليهم ، وقد خرج

---

(١) زاد المعاد ، ج ١ ص ٣٧٧ ، ورواه مسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب «الامداد بالملائكة يوم بدر» .

معه أكبر عدد من المنافقين خرج في غزوة[1] ، وعلى رأسهم عبدالله بن أبي ابن سلول ، وقد بلغت سطوة المسلمين أوجها بعد انتصارهم في غزوة الأحزاب الّتي اجتمعت فيها قريش وحزّبت الأحزاب للقضاء على الإسلام ، اجتماعاً لم تجتمع مثله ، فكانت شوكة في حلقوم الكفّار في مكّة ، واليهود والمنافقين في المدينة وحولها ، وعرفوا أنّ المسلمين لن يغلبوا في ساحة القتال وبكثرة العَدد والعُدد ، فاعتمدوا أخيراً على إثارة الفتن الدّاخلية ، والتّحريش بين المسلمين بإحياء النعرة القوميّة القبليّة ، والإساءة إلى مقام الرّسول ، ﷺ ، وتشكيك المسلمين فيه ، ونشر القالة حول عرضه وكرامته ، وأحب أزواجه إليه ، وبذلك يتزلزل كيان هذا المجتمع المثالي الوليد ، الذي كان كل عضو من أعضائه مرآة أخيه ، اذا سمع عنه ما يريب ، عاد إلى نفسه ، فرآها نزيهة ، فنفى هذه التهمة كما ينفيها عن نفسه ، ويفقدبعضهم ، الثقة ببعض ، فاذا زالت الثقة بأهل بيت النبوة ، زالت عن الجميع ، وكانت اعظم مؤامرة حاكها المنافقون ، وقد تجلّت هذه السياسة الماكرة في غزوة بني المصطلق اكثر مما تجلت في أيّ غزوة .

خرج رسول الله ﷺ ، إلى بني المصطلق ولقيهم على ماء

(١) جاء في «طبقات ابن سعد» : « وخرج معه بشر كثير من المنافقين لم يخرجوا في غزاة قط مثلها (كتاب الطبقات الكبرى ، الجزء الثاني ؛ القسم الأول ، طبع ليدنن ١٣٢٥ هـ ، ص - ٤٥) .

لهم ، يقال له : « المريْسيع[1] »من ناحية قديد إلى السّاحل ، فتزاحف النّاس ، واقتتلوا ، وانهزم بنو المصطلق .

واقتتل أجير لعمر بن الخطاب من بني غفار ، وحليف للخزرج من جهينة ، فصرخ الجهني : « يا معشر الأنصار ! » وصرخ الأجير : يا معشر المهاجرين ! . فغضب عبدالله بن أبي بن سلول ، وعنده رهط من قومه فيهم ، فقال : أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا ، والله ليس الأمر إلاّ كما قيل : « سمّن كلبك يأكلك » أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزّ منها الأذلّ ، ثم أقبل على من حضره من قومه ، فقال لهم : هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم ، لتحولوا إلى غير داركم » .

فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ ، أمر بالرّحيل ، لئلا ينشغل الناس بهذه الفتنة ، ويجد الشّيطان سبيلاً إلى نفوسهم ، وذلك في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ ، يرتحل فيها ، فارتحل النّاس .

ومشى رسول الله ﷺ ، بالنّاس يومهم ذلك ، حتى

---

(١) ومن هنا سميت هذه الغزوة بغزوة المريسيع أيضاً ؛ كما في طبقات ابن سعد وغيرها .

أمسى ، وليلتهم ، حتى أصبح ، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشّمس ، ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مسّ الأرض ، فوقعوا نياما .

وقدم عبدالله بن عبدالله بن أبي النّاس ، حتى وقف لأبيه على الطريق ، فلما رآه ناخ به ، وقال : لا أفارقك حتى تزعم أنك الذليل ، ومحمد العزيز ، فمر برسول الله ﷺ ، فقال : « دعه ، فلعمري لنحسننّ صحبته ما دام بين أظهرنا[1] » .

وكان رسول الله ﷺ ، اذا اراد سفراً ، أقرع بين نسائه ، فأيّتهن خرج سهمها خرج بها معه ، وخرج سهم عائشة ، بنت أبي بكر زوج رسول الله ﷺ ، في غزوة بني المصطلق ، فخرج بها رسول الله ﷺ ، فلما فرغ من سفره ذلك وجه قافلاً ، حتى اذا كان قريباً من المدينة نزل منزلاً ، فبات به بعض الليل ، ثم آذن بالرّحيل ، وخرجت عائشة لبعض حاجتها ، وفي عنقها عقد لها ، فانسلّ من حيث لا تشعر ، فلما رجعت إلى الرّحل فقدت العقد فذهبت تبحث عنه وقد أخذ النّاس في الرّحيل ، فجاء القوم الذين كانوا يرحلون لها البعير ، فأخذوا الهودج ، وهم يظنون أنهّا فيه ، وكانت فتاة صغيرة السن ، خفيفة اللحم ، فلم ينتبهوا لخفتها ، ولم يشكوا أنهّا فيه ، ورجعت عائشة إلى العسكر وما فيه داع ولا مجيب ، قد انطلق

(١) طبقات أبن سعد ج ٢ ؛ ق ١ ، ص ٤٦ ؛ طبع ليدن

الناس ، فتلفّفت بجلبابها واضطجعت في مكانها .

وبينما هي كذلك اذ مرّ بها صفوان بن المعطّل السلمى ، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته ، فلما رآها استرجع ، وقال : ظعينة رسول الله صلى الله عليه وسلم - ثم قرّب البعير واستأخر، فركبت وأخذ برأس البعير ، وانطلق سريعاً يطلب الناس فأدركهم ، وقد نزلوا ، ولحقت بالركب ، فلم يرع الناس شيء ، فكان ممّا ألفوه في حياة البادية ومسير القوافل ، وكان حفظ الذمار والتعفف عن مثل هذه الخسائس ، من الأعراف العربية التي كانوا يحافظون عليها في الجاهلية والإسلام[1] ، فيقول الشاعر الجاهلي :

وأغضّ طرفي إن بدت لي جارتي
حتّى يوارى جارتي مأواها[2]

وقد كان الصّحابة - رضي الله عنهم - مع الرسول -

---

(١) ومن أمثلته ما حكته أم سلمة ، وقد حال قومها بينها وبين زوجها أبي سلمة ، فلم يدعوها تهاجر معه إلى المدينة ؛ فكانت تخرج كل غداة إلى الأبطح فما تزال تبكي حتى تمسي ، سنة أو قريباً منها ، حتى رقوا لها وقالوا الحقي بزوجك إن شئت ، فارتحلت بعيرها وما معها أحد ؛ فلقيها عثمان بن طلحة الدارمي فرثي لها ، فأخذ بخطام البعير ، فانطلق معها إلى المدينة ، قالت أم سلمة : والله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه ، كان اذا بلغ المنزل أناخ بي ثم استأخر عني حتى إذا نزلت استأخر ببعيري فحط عنه ، ثم قيده في الشجر . . إلى أن قالت : فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة » (سيرة أبن كثير ، ج٢ ، ص ٢١٥ - ٢١٧) ، وهذا قبل أن يسلم عثمان ابن أبي طلحة فكان صفوان بن المعطل السلمي أحق بهذا الخلق والنزاهة ، فقد أسلم قديماً وصحب النبي ﷺ .

(٢) ديوان الحماسة .

(ﷺ) كالأبناء للآباء ، وأزواجه أمّهاتهم ، وكان أحبّ اليهم من والدهم وولدهم والناس أجمعين ، وقد عُرف صفوان بن المعطّل بالدين والصّلاح والعفّة والحياء ، ذكر أنه لم يكن له أرَب في النّساء.

وكانت القضيّة لا تسترعي انتباهاً ، ولكن عبد الله بن أبي تبنّى هذه القضية ، وتحدّث بها بعد عودته إلى المدينة ، وشايعه أصحابه من المنافقين ، واهتبلوها لإثارة الفتنة بين المسلمين وإضعاف الصّلة التي تربطهم بمقام صاحب الرسالة العظمى ومن يتصل به من أهل ، وإضعاف ثقة المسلمين بعضهم بأمانة بعض ، وتورط في هذه المكيدة بضع من المسلمين الذين أصبحوا فريسة التّشهي للحديث والترديد لكل ما قيل من غير تمحيص[1] .

فلمّا سمعت بذلك عائشة وفوجئت به في المدينة فزعت له ، وحزنت حزناً شديداً ، لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم ، وكبر على رسول الله (ﷺ) وعرف مصدره ، فقام من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبي ، وهو على المنبر ، فقال : يا معشر المسلمين ! من يعذرني من رجل قد بلغني عنه أذاه في أهلي والله ما علمت على أهلي إلّا خيراً ، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت

(١) وذلك ما أشار الله تعالى اليه بقوله : «إذ تلقونه بألسنتكم ؛ وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم ، وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم» (سورة النور ١١ ، ١٢) .

فيه إلا خيراً ، وما يدخل على أهلي إلا معي . وغضب رجال من الأوس لرسول الله ﷺ وأبدوا استعدادهم لقتل من تولى كبر هذه المقالة ، إن كان من الأوس أو من الخزرج ، وكان عبد الله ابن أبي من الخزرج ، فاحتملت بعضهم الحميّة ، وثار الحيّان ، وكاد الشيطان أن يلعب بهم لولا حكمة رسول الله ﷺ ، وحلمه .

هذا ، والصدّيقة بنت الصّدّيق موقنة ببراءتها ، عزيزة النفس ، مليئة بالثقة والاعتزاز ، شأن الأبرياء الّذين لا ترتقي اليهم شبهة ولا تلتصق بهم لوثة ، تعلم أنّ الله سيبرئها ، ويبعد كلّ ظِنة وتهمة عن ساحة رسول الله ﷺ ، ولكنها لم تكن تظن أن الله منزل في شأنها وحيا يُتلى ، ويجعله كلمة باقية في أعقاب هذه الأمة ، ولكنها لم تلبث طويلا أن أنزل الله على رسوله في شأنها القرآن ، وأنزل براءتها من فوق سبع سماوات ، فقال :

« إنّ الّذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرّاً لكم بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم ، والّذي تولىّ كبره منهم له عذاب عظيم ، لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا افك مبين[1] » .

---

(١) سورة النور ١١ ـ ١٢ .

وبذلك انطفأت نار الفتنة ، وانحسمت مادّة الفساد ، وخزي الشيطان ، وكأن لم يكن شيء ، فتشاغل المسلمون بما أمرهم الله به ورسوله ، وبما يعود عليهم وعلى الإنسانية بالخير والسّعادة[1] .

(١) القصة مقتبسة من سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٨٩ ـ ٣٠٢ ؛ وحديث عائشة الذي رواه البخاري .

صُلح الحديبية

رؤيا رسول الله ﷺ ،
وتهيؤ المسلمين لدخول مكّة :

كان رسول الله ﷺ ، قد رأى في المنام أنّه دخل مكّة ، وطاف بالبيت ـ وذلك في غير تحديد للزّمان ، وتعيين للشّهر والعام[١] ـ فأخبر أصحابه بذلك وهو بالمدينة ، فاستبشروا به ، وفرحوا فرحاً عظيماً ، وقد طال عهدهم بمكّة والكعبة التي رضعوا بلبان حبّها ودانوا بتعظيمها ، وما زادهم الإسلام إلاّ ارتباطاً بها وشوقاً اليها ، وقد تاقت نفوسهم الى الطواف حولها ، وتطلعت اليه تطلعاً شديداً .

وكان المهاجرون أشدّهم حنيناً الى مكّة ، فقد ولدوا ونشأوا فيها وأحبّوها حبّاً شديداً ، وقد حيل بينهم وبينها ، فلمّا أخبرهم رسول الله ﷺ ، بذلك ، لم يشكّوا أنّ هذه الرؤيا تتفسرّ هذا العام ، وقد صادف كل ذلك رغبة شديدة في نفوسهم ، وأثار كامن الشّوق ودفين الحب فتهيأوا للخروج مع

(١) راجع سورة الفتح ٢٧ ، واقرأ تفسيرها في تفسير ابن كثير « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق » الخ .

رسول الله ﷺ ، لم يتخلف منهم إلا نادر .

الى مكّة بعد عهد طويل :

خرج رسول الله ﷺ ، من المدينة في ذي القعدة سنة ستّ معتمراً ـ لا يريد حرباً ـ الى الحديبية ومعه ألف وخمس مائة ، وساق معه الهدي ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه انما خرج زائراً للبيت ، معظّماً له[١] .

وبعث رسول الله ﷺ، عينا له من خزاعة، يخبره عن قريش ، حتى اذا كان قريباً من « عسفان[٢] » أتاه عينه ، فقال : إنّي تركت كعب بن لؤيّ قد جمعوا لك الأحابيش[٣] وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ، وسار النبي ﷺ ، حتى اذا كان بالثّنية التي يهبط عليهم منها ، بركت راحلته ، فقالوا : خلأت[٤] القصواء[٥] ، خلأت القصواء فقال : « ما خلأت القصواء وما ذاك لها بخُلق ، ولكن حبسها حابس الفيل[٦] والذي نفسي بيده لا يسألوني خطّة يعظّمون فيها حرمات الله ، ويسألونني فيها صلة الرّحم ، الا أعطيتهم

---

(١) زاد المعاد ج ١ ص ٣٨٠ ، وابن هشام ق ٢ ، ص ٣٠٨ .
(٢) موضع بين مكة والمدينة .
(٣) الجماعة من الناس ليسوا من قبيلة واحدة .
(٤) خلأ : كفتح ، خلوءا أي لم يبرح مكانه .
(٥) ناقة رسول الله ﷺ .
(٦) إشارة إلى فيل أبرهة الذي حبسه الله عن الدخول في مكة .

إيّاها » ثم زجرها ، فوثبت به ، فعدل ، حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثمد قليل الماء ، وشكوا الى رسول الله ﷺ ، العطش ، فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه ، فما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه[1] .

فزع قريش من دخول المسلمين في مكّة :

وفزعت قريش لنزول رسول الله ﷺ ، عليهم ، فأحبّ أن يبعث اليهم رجلا من أصحابه ، فدعا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - ليبعثه اليهم ، فقال : يا رسول الله ! ليس بمكّة أحد من بني عدي بن كعب يغضب لي إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفّان ، فإنّ عشيرته بها ، وإنّه مبلّغ ما أردت ، فدعا رسول الله ﷺ ، عثمان بن عفّان وأرسله الى قريش ، وقال : أخبرهم أنّا لم نأت لقتال وانما جئنا عمّارا ، وادعهم الى الإسلام ، وأمره أن يأتي رجالا بمكّة مؤمنين ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ، ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أنّ الله عز وجلّ مظهر دينه بمكة حتى لا يستخفي فيها بالإيمان[2].

امتحان الحبّ والوفاء :

وانطلق عثمان حتى جاء مكة ، وأتى أبا سفيان ،

---

(١) زاد المعاد ؛ ج ١ ؛ ص ٣٨١ .

(٢) نفس المصدر .

وعظماء قريش ، وبلغهم عن رسول الله ﷺ ، ما أرسله به .

وقالوا حين فرغ عن رسالة رسول الله ﷺ ، اليهم : إن شئت أن تطوف البيت فطف ، فقال : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ [١] .

وقال عثمان حين رجع وقال له المسلمون : اشتفيت يا أبا عبد الله من الطواف بالبيت ـ : « بئس ما ظننتم بي والذي نفسي بيده ، لو مكثت بها سنة ورسول الله ﷺ ، مقيم بالحديبية ما طفت بها حتى يطوف بها رسول الله ﷺ ، ولقد دعتني قريش الى الطواف بالبيت فأبيت[٢] » .

بيعة الرّضوان :

بلغ رسولَ الله ﷺ ، أنّ عثمان قد قُتل ، فدعا الى البيعة ، فثار المسلمون الى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم وهو تحت الشّجرة فبايعوه ألاّ يفروا ، وأخذ رسول الله ﷺ ، بيد نفسه ، وقال : هذه عن عثمان[٣] ، فكانت بيعة الرّضوان تحت شجرة سمرة في الحديبية التي أنزل الله عنها :

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشّجرة ،

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢١٥ .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٣) نفس المصدر .

فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً (١) » .

وساطات ومفاوضات :

فبينما كذلك إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعي في رجال من خزاعة ، فكلمه ، وسأله ما الذي جاء به ؟

قال رسول الله ﷺ ، : انا لم نجىء لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فان شاءوا ماددتهم ، ويخلوا بيني وبين الناس ، وان شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلاّ فقد جمّوا ، وان أبوا إلا القتال، فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي(٢) ، أو لينفذن الله أمره .

فلما بلّغهم بديل ما قاله رسول الله ، قال عروة بن مسعود الثّقفي : إنّ هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعوني آته ، فقالوا : ائته ، وجاء عروة بن مسعود الثقفي ، فكلمهم رسول الله ﷺ ، وجعل عروة يرمق أصحاب رسول الله ﷺ ، فما تنخم نخامة الا وقعت في كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ، ووجهه ، واذا أمرهم ابتدروا أمره ، واذا

---

(١) سورة الفتح - ١٨ .

(٢) السالفة : صفحة العنق عند معلق القرط .

توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه ، واذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدّون اليه النظر تعظيماً له ، فرجع عروة الى أصحابه وقال : أي قوم! والله لقد وفدت على الملوك : على كسرى وقيصر والنجاشي والله ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً ، ووصف لهم ما رآه ، وقد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها[١] .

معاهدة وصلح :

وجاء رجل من بني كنانة ، ورجل اسمه مكرز بن حفص ، وأخبرا قريشاً بما رأيا ، ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله ، مقبلا قال : أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل ، وقال: اكتب بيننا وبينكم كتاباً[٢] .

حكمة وحلم وتنازل:

فدعا الكاتب ـ وهو علي بن أبي طالب ـ فقال : اكتب : « بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل : أمّا « الرّحمن » فوالله ما ندري ما هو ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » كما كنت تكتب ، فقال

(١) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٨٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ، ص ٣١٦ ، ورواه البخاري في صحيحه باختلاف يسير ، راجع كتاب المغازي باب عمرة القضاء .

المسلمون والله لا نكتبها ، إلاّ « بسم الله الرّحمن الرّحيم » ، فقال النبي ﷺ ، : اكتب « باسمك اللهم » .

ثم قال : اكتب هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ، فقال سهيل : « والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب « محمد بن عبد الله » .

فقال النبي ﷺ ، : « إني رسول الله وان كذبتموني ، اكتب « محمد بن عبد الله » ، فأمر عليّاً أن يمحاها ، فقال عليّ : لا والله لا أمحوها ، فقال رسول الله ﷺ : أرني مكانها ، فأراه مكانها ، فمحاها[1] .

صلح وامتحان :

فقال النبي ﷺ : « هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله على أن تخلّوا بيننا وبين البيت ، فنطوف به .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب أنّا أخذنا ضغطة ، ولكن ذلك من العام المقبل ، فكتب .

قال سهيل : وعلى ألاّ يأتيك منّا رجل ، وان كان على دينك إلاّ رددته الينا ، فقال المسلمون : سبحان الله ! كيف يرد الى المشركين وقد جاء مسلماً ؟ !

---

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجهاد والسير ، باب صلح الحديبية .

وبينا هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ، يرسف في قيوده، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين ظهور المسلمين .

قال سهيل : هذا يا محمد أوّل ما أقاضيك عليه على أن تردّه .

قال النبي ﷺ ، إنّا لم نقض الكتاب بعد ، قال : فوالله إذاً لا أقاضيك على شيء أبداً ، قال النبي ﷺ : فأجزه لي .

قال : ما أنا بمجيزه لك ، قال : بلى ، فافعل ، قال : ما أنا بفاعل ، قال أبو جندل : يا معشر المسلمين ! أرد الى المشركين وقد جئت مسلماً ، ألا ترون ما لقيت ؟ ، وكان قد عذب في الله عذاباً شديداً [1] ، وردّه رسول الله ﷺ .

وقد اصطلح الفريقان على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من أتى محمداً من قريش بغير اذن وليه ردّه عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد ، لم يردّه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قرش وعهدهم دخل فيه [2] .

(١) زاد المعاد ، ج١ ، ص ٣٨٣ ، ورواه البخاري في الجامع الصحيح في باب « الشروط في الجهاد » .

(٢) سيرة أبن هشام ، ق ٢ ، ص ٣١٧ - ٣١٨ .

بلاء المسلمين في الصلح والعودة الى مكة:

فلما رأى المسلمون ما رأوه من الصلح والرجوع ، وما تحمل عليه رسول الله ﷺ ، في نفسه ، دخل على الناس من ذلك أمر عظيم ، حتى كادوا يهلكون ، ووقع ذلك من نفوسهم كل موقع ، حتى جاء عمر بن الخطاب الى أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ فقال : ألم يكن رسول الله ﷺ ، يحدثنا أنا سنأتي البيت ونطوف به ؟ ، قال : بلى ! أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟ ، قال : لا ، قال : فانك آتيه ومطوف به[1] .

فلمّا فرغ رسول الله ﷺ ، من الصلح ، قام الى هديه ، فنحره ، ثم جلس فحلق رأسه ، وعظم ذلك على المسلمين ، لأنهم خرجوا وهم لا يشكون في دخول مكة والعمرة ولكن لما رأوا رسول الله ﷺ ، قد نحر ، وحلق ، تواثبوا ينحرون ويحلقون[2] .

صلح مهين أم فتح مبين ؟ :

ثم رجع الى المدينة ، وفي مرجعه أنزل الله تعالى:

« انا فتحنا لك فتحاً مبيناً ، ليغفر لك الله ما تقدّم من

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري باب « الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب » .
(٢) راجع للتفصيل زاد المعاد ، ج١ ، ص ٣٨٣ .

ذنبك ، وما تأخّر ، ويتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً وينصرك الله نصراً عزيزاً[1] » .

قال عمر ـ رضي الله عنه ـ أو فتح هو يا رسول الله؟ ، قال : نعم ![2] .

عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم :

ولما رجع الى المدينة ، جاءه رجل من قريش ، اسمه أبو بصير عتبة بن أسيد ، فأرسلوا في طلبه رجلين ، وقالوا : العهد الذي جعلت لنا ، فدفعه الى الرجلين ، فخرجا به ، فخرج هارباً منهم ، حتى أتى سِيفَ البحر ، وتفلّت منهم أبو جندل بن سهيل ، فلحق بأبي بصير ، فلا يخرج من قريش رجل قد أسلم ، إلا لحق بأبي بصير ، حتى اجتمعت منهم عصابة ، لا يسمعون بعيرٍ لقريش خرجت إلى الشّام إلاّ اعترضوا لها ، فقتلوهم ، وأخذوا أموالهم فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ ، تناشده الله والرّحم لما أرسل اليهم ، فمن أتاه منهم فهو آمن[3] .

---

(١) سورة الفتح ١ ـ ٣ .
(٢) راجع صحيح مسلم ؛ كتاب الجهاد والسير ، باب « صلح الحديبية » .
(٣) زاد المعاد ؛ ج ١ ، ص ٣٨٤ .

كيف تحول الصّلح الى الفتح والنصر؟ :

ودلّت الحوادث الأخيرة على أنّ صلح الحديبية الذي تنازل فيه رسول الله ﷺ، لقبول كل ما ألحّت عليه قريش ، ورأوا فيه انتصاراً لهم ومكسباً ، وتحمله المسلمون في قوة إيمانهم ، وشدّة طاعتهم للرسول ، كان فتح باب جديد لانتصار الإسلام ، وانتشاره في جزيرة العرب بسرعة لم تسبق ، وكان بابا الى فتح مكة ، ودعوة ملوك العالم كقيصر وكسرى والمقوقس والنّجاشي وأمراء العرب ، وصدق الله العظيم :

« وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبّوا شيئاً وهو شرّ لكم ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون[١] » .

كان من مكاسب هذا الصّلح اعتراف قريش بمكانة المسلمين ، وتسليمهم لهم ، كفريق قوي كريم ، تبرم معه المعاهدات ويتّفق معه على مفاوضات ، ثم كان من أفضل ثمار هذا الصلح الهدنة، التي استراح فيها المسلمون عن الحروب التي لا أول لها ولا آخر، والتي شغلتهم واستهلكت قوّتهم ، فاستطاعوا في هذه الفترة السلمية ، أن يقوموا بدعوة الإسلام ، في ظل الأمن والسّلام ، وفي جو من الهدوء والسّكينة .

---

(١) سورة البقرة ٢١٦ .

وأتاح هذا الصلح الفرصة للمسلمين والمشركين على السواء لأن يختلطوا بعضهم ببعض ، فيطّلع المشركون على محاسن الإسلام ، وما صنع من عجائب ومعجزات في تهذيب الأخلاق ، وتزكية النفوس ، وتطهير العقول والقلوب ، من ألواث الشرك والوثنية، والعداء والخصومة ، والضراوة بالدماء ، والولوع بالحرب في بني جِلدتهم الذين لا يختلفون عنهم في نسب وبيئة ولغة .

فلم يخف عليهم ـ رغم عنادهم وجحودهم ـ أنّ تعاليم الإسلام وحدها وصحبة النبي ﷺ ، هي التي ميّزتهم عن أقرانهم وبني أعمامهم ، وجعلت منهم أمّة غير أمّة ، ونمطا من أنماط البشرية غير النمط القديم ، فكان في ذلك باعث قوي على تفهم الإسلام والاعتراف بتأثيره .

فلم يمض على هذا الصلح عام كامل حتى دخل في الإسلام من العرب أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة ـ ومكة لم تفتح بعد ـ .

يقول الإمام ابن شهاب الزهري (م ١٢٤ هـ) :

« فما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه ، انما كان القتال حيث التقى الناس ، فلمّا كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها ، وأمن الناس ، وكلم الناس بعضهم بعضاً، والتقوا

فتفاوضوا في الحديث ، والمنازعة ، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلاّ دخل فيه ، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر[1]» .

قال ابن هشام : والدليل على قول الزّهري أنّ رسول الله ﷺ ، قد خرج الى الحديبية ، في ألف وأربعمائة ، في قول جابر بن عبدالله « ثم خرج في عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[2]» .

واستفاد بهذه الهدنة المستضعفون في مكّة ، وقد أسلم على يد أبي جندل عدد كبير من أبناء قريش في مكّة ، وضاقت قريش ذرعاً بهذا الداعي الى الاسلام ، وانتشار الإسلام في مكّة .

ولحقوا بأبي بصير ، وصار مركز دعوة وقوّة للإسلام ، وتكلمت في شأنهم قريش ، وسألت رسول الله ﷺ ، أن يلحقهم به في المدينة ، ففعل ، ونجوا من الضيق الذي كانوا فيه بمكّة ، وكان كل ذلك من حسنات هذا الصلح وفوائد هذه الهدنة[3] .

وكان من فوائد الموقف المسالم الذي وقفه رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ، ص ٣٢٢ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) راجع زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٣٨٨ - ٣٨٩ .

ﷺ ، وما بدا منه من زهد في الحرب ، ورغبة في الصلح ، وحلم وأناة أن تغيّرت نظرة القبائل العربية التي لم تدخل في الإسلام بعد ، الى الدين الجديد ، والداعي إليه ، ونشأ في نفوسهم إجلال للإسلام ، وتقدير له لم يكن من قبل ، وكانت فائدة دعوية لا يستهان بقيمتها وان لم تكن مقصودة ، سعى اليها الرّسول ﷺ ، والمسلمون.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص:

وكان صلح الحديبية فتحا للقلوب ، فدخل في الإسلام خالد بن الوليد الذي كان قائد الفرسان لقريش ، وبطل معارك عظيمة ، وقد سمّاه رسول الله ﷺ ، « سيف الله » ، وهو الذي أبلى في الله بلاء حسناً ، وفتح الله على يده الشام.

ودخل عمرو بن العاص ـ أحد كبار القادة والأمراء وفاتح مصر من بعد ، وقد قدما المدينة بعد صلح الحديبية ، فأسلما وحسن اسلامهما[1] .

(١) راجع سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

دَعْوَةُ المُلُوكِ وَالأُمَرَاءِ إِلَى الإِسْلَامِ

دعوة وحكمة :

ولما تمّ الصّلح ، وهدأت الأحوال ، وجدت الدعوة الإسلامية متنفساً ومجالا للتقدم ، فكتب رسول الله ﷺ ، كتباً الى ملوك العالم وأمراء العرب ، يدعوهم فيها الى الإسلام والى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة[1] ، واهتم اهتماماً كبيراً ، فاختار لكل واحد منهم رسولا يليق به ، ويعرف لغته وبلاده[2] .

(١) نرجح أن هذه الرسائل وجهت في شهر ذي الحجة سنة ست بعد صلح الحديبية ، كما قال الواقدي وهو يوافق ٦٢٧ م ، فإن في مقدمة هؤلاء الملوك الأمبراطور الإيراني « كسرى أبر ويز » ومن المقرر أنه مات في مارس سنة ٦٢٨ م ، ومن هنا يتقرر أن صلح الحديبية في أوائل سنة ٦٢٧ م ؛ وكان من الصعب وصول الرسالة الموجهة إلى هرقل كذلك ؛ إذا كانت وجهت في سنة ٦٢٨ م لأنه كان قد توجه في هذه السنة إلى أرمينيا . (راجع « فتح العرب لمصر» « لألفرد بتلر » ص ١٣٩ ـ ١٤٠) .

(٢) يشير كلام ابن سعد في الطبقات ج ٢ ، ص ٢٣ ، والسيوطي في الخصائص الكبرى ، ج٢ ، ص ١١ ، إلى أن ذلك كان على سبيل المعجزة ، فجاء فيما ساقاه من الرواية : « . . . فأصبح كل واحد يتكلم بلغة البلاد التي أرسل إليها » .

والمؤلف حين لا يستبعد وقوع المعجزة . فسيرة الرسول ﷺ وسير الأنبياء قبله مليئة بالمعجزات وخوارق العادات ، وانكارها من المكابرة ـ يرجح أن ذلك كان مبنياً على الحكمة =

وقيل له : إنهّم لا يقبلـون كتابـاً إلا بخاتـم ، فصـاغ رسول الله ﷺ ، خاتماً حلقته فضّة ، ونقش فيه (محمّد رسول الله) [1].

الكتب التي أُرسلت الى الملوك :

ومن هؤلاء الملـوك الأمبراطـور الرومـي « هرقـل » وامبراطـور فارس « كسرى أبـرويز » ، والنجـاشي ملك الحبشة ، والمقوقس ملك مصر .

وهنا نصوص الكتب التي أرسلت الى هؤلاء الملوك :

قد أرسل رسول الله ﷺ ، كتابه الى « هرقل » مع دحية الكلبي ، وقد دفعه الى عظيم « بصرى » ، فدفعـه الى هرقـل وهنا نص الكتاب :

« بسـم الله الرحمـن الـرحيم ، من محمـد عبـد الله ورسوله ، الى « هرقـل » عظيم الـروم ، سلام على من اتبـع

= وحسن الأختيار من رسول الله ﷺ ، فلم يكن وجود من يحسن اللغة الرومية واللغة الفارسية ، ولغة الأقباط في مصر ؛ ولغة أهل الحبشة ، غريباً لكثرة اختلاط العرب بهذه الأمم الأربع وكثرة رحلاتهم التجارية إلى هذه الأقطار وتنقلاتهم فيها ، وكانت القضية محدودة في هذه اللغات الأربع ، إذ كان لغة أمراء الجزيرة العربية ورؤساء القبائل الذين كتب اليهم رسول الله ﷺ كتبه ، ودعاهم إلى الإسلام اللغة العربية .

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد ؛ باب دعوة اليهود والنصـارى وعلى ما يقاتلـون « الخ ، وشمائل الترمذي » .

الهدى ، أما بعد : فانـي أدعـوك بدعـاية الاسـلام ، أسلـم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت ، فإنّ عليك اثم اليريسيين ، « ويا أهل الكتاب ! تعالوا إلى كلمـة سواء بيننـا وبينكم : ألاّ نعبد إلاّ الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتّخـذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون[1] » .

وجاء في كتابه ﷺ ، إلى كسرى أبرويز :

« بسم الله الرّحمن الرّحيم ، من محمّـد رسـول الله الى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّي رسول الله الى الناس كافة لينذر من كان حيّاً ، أسلم تسلم ، فان أبيت فعليك اثم المجوس[2] » .

وكتب الى النّجاشي ملك الحبشة :

« بسم الله الرّحمن الرّحيم ، من محمّد رسول الله ، الى النجاشي عظيم الحبشـة ، سلام على من اتبـع الهـدى ، أمـا بعد ، فاني أحمد اليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن ، وأشهد أنّ عيسى بن مريم روح الله

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .
(٢) الطبري ج ٣ ، ص ٩٠ .

وكلمته ألقاها الى مريم البتول الطيبة الحصينة ، فحملت بعيسى من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ، وإنّي أدعوك الى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته وأن تتّبعني وتؤمن بالذي جاءني ، فإنّي رسول الله ، وإنّي أدعوك وجنودك الى الله عزّ وجل ، وقد بلّغت ونصحت فاقبل نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى[1] ».

وكتب الى المقوقس عظيم القبط:

« بسم الله الرّحمن الرّحيم ، من محمّد عبد الله ورسوله الى « المقوقس » عظيم القبط ، سلام على من اتّبع الهدى ، أما بعد ، فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت ، فان عليك أثم أهل القبط ، « يا أهل الكتاب ! تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلاّ الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[2] » .

---

(١) طبقات ابن سعد ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٢) « المواهب الدينية » ، ج ٣ ، ص ٢٤٧ - ٢٤٨ .

وقد عثر على نصوص هذه الكتب الأربعة في فترات تاريخية مختلفة ، وظهرت في بعض الصحف والمجلات الإسلامية ، واخذت لها صور كثيرة ومن شاء أن يطلع على هذه الصور الفوتوغرافية فعليه بكتاب « Mohammad Rasulullah » للدكتور حميد الله ؛ طبع « حيدر آباد » الهند ١٩٧٤ م .

من هم هؤلاء الملوك :

ولكي نشعر بأهمية هذه الرسائل التي وجهت الى دول وبلاد مختلفة ، وملوكها ، ومكانتها الصحيحة في التاريخ المعاصر ، ووقعها في القلوب والنفوس ، يجب أن نتعرّف بهؤلاء الأشخاص الأربعة : « هرقل » و« كسرى » و« النجاشي » و« المقوقس » ، وحجم الحكومات التي كانوا يحكمونها . فقد يتصور القارىء الذي لم يتسع وقته لدراسة التاريخ السياسي في القرن السابع المسيحي ، ولم تتوفّر عنده معلومات عن هذه الممالك التي كان يحكمها هؤلاء الملوك ؛ أنهّا رسائل وجّهت الى أمراء ، أو أقيال يكثر عددهم في كل زمان ومكان ، أما من عرف مكانة هؤلاء الملوك في الخريطة السياسية في ذلك العصر ، واطلع على تاريخهم وسيرتهم وأخلاقهم ، وما كان لهم من حول وطول ، وسطوة ورهبة ، عرف ضخامة هذا العمل الذي لا يقدم عليه إلا نبي مأمور من الله ، مكلّف بالدعوة ، بعيد عن كل ظلّ من ظلال الخوف والضعف ، تجلى عليه ملكوت السماوات والأرض فتراءى له هؤلاء الملوك دمى كسيت حللاً ملوكيّة فاخرة ، أو تماثيل لا روح فيها ولا حياة .

هرقل الأول قيصر الروم (٦١٠ر- ٦٤١ م) :

هو هرقل قيصر الروم الامبراطور البيزنطي ، كان يحكم امبراطورية واسعة ، توزّعت مع الامبراطورية الإيرانية :

العالم المتمدن في ذلك اليوم وحكمت نصف العالم تقريباً وكانت لها ولايات واسعة غنية متمدنة راقية ، في القارات الثلاث : أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وخلفت الدولة الرومية الكبرى التي خضع لها العالم القديم[١] .

وكان من أسرة يونانية الأصل ، ولد في « كيبوزيشيا » ونشأ في قرطاجنة « كارتهيج[٢] » ، وكان ابن حاكم افريقيا الرومي Exarch of Africa ولم يكن شيء يدلّ على عصاميّته ونبوغه ، أو عبقريته القياديّة ، الى أن قَتَل فوقس (Phocas) المغتصب ، امبراطور الدولة البيزنطية الشرعي موريقس (Maurice) سنة ٦٠٢م الذي كان صاحب الفضل على كسرى ابرويز وانتهز الفرس هذه الفرصة للزحف على الدولة البيزنطيّة فدوّخوها واحتلوها وأهانوها واحتضرت الدولة البيزنطيّة الشهيرة تلفظ آخر أنفاسها[٣] ، فدعي هرقل من قرطاجنة ، فقتل فوقس ، وتسلم زمام الحكم والقيادة ، في سنة ٦١٠م[٤] . والمملكة في صراع الموت والحياة ، وفي براثن

(١) قد ذكرنا حدود هذه المملكة ، وما كانت تحكمه من ولايات ، ومقاطعات ، في أوروبا وآسيا ، وأفريقيا ؛ في الباب الأول من هذا الكتاب ، تحت عنوان الدولة الرومية الشرقية » .

(٢) مدينة قديمة في أفريقيا ، أسسها الفينيقيون في ٨١٤ ق ـ م ، وبمقربة من أطلالها قامت مدينة « تونس » .

(٣) « اقرأ القصة مفصلة في كتاب « انحطاط دولة روما وسقوطها » لمؤلفه « جبون » وكتاب « ايران في عهد الساسانيين » لمؤلفه « آرتهركستن سين » .

(٤) وبعد مضي عام على هذا الحادث كانت البعثة المحمدية في الجزيرة العربية .

المجاعة ، والأمراض الوبائية ، والفقر ، والعجز المالي ، وبقي هرقل في سنواته الأولى ، لا يبعث أملاً ، ولا يحرك ساكناً ، ولكن حدث فيه انقلاب في سنة ٦١٦م (وهي السنة التي نبأ القرآن فيها بغلبة الروم في بضع سنين[١])، فتحوّل من ملك متخاذل راكن الى الدعة والترف ، الى قائد متحمس غيور ، قد ملكته الفكرة وثارت فيه الحمية ، وتوجه الى مركز الامبراطورية الإيرانية ، يستعيد بلاده وكرامة أمّته ، ويفتح مدن إيران الشهيرة ، ويستولي على مراكزها الكبيرة ، حتى أوغل في قلب ايران ، وأهان الامبراطورية الإيرانية العظيمة القديمة ، وأثخنها قتلا وجراحاً ، حتى أوشكت الامبراطورية السّاسانية على النهاية ، وتزلزلت قوائم عرش آل ساسان ، ورجع القائد المنتصر ، فدخل القسطنطينية دخول الفاتح العظيم سنة ٦٢٥م[٢] ، وتوجه الى بيت المقدس في سنة ٦٢٧م ، ليعيد اليه الصليب المقدّس ، الذي أخذه الفرس ، وليفي نذره ، فكان الناس يبسطون له البسط ليمشي عليها ، وينشرون عليه الرياحين[٣] ، ابداء لسرورهم وإجلالهم ، وأقيم احتفال كبير

---

(١) اقرأ الآيات الأولى من سورة الروم ، واقرأ مقالتنا « نبوة تتحدى ومعجزة تتحقق » المنشورة في مجلة « البعث الإسلامي » العدد الرابع ، المجلد الخامس عشر ، رمضان ، ١٣٩٠ هـ - نوفمبر ١٩٧٠ م (٢) وفي سنة ٦٢٦ م كانت واقعة بدر الكبرى التي التقي فيها انتصار المسلمين على مشركي مكة بانتصار الروم أهل الكتاب على منافسيهم الفرس عباد النار ، وتحققت نبوة القرآن عن غلبة الروم في بضع سنين والبضع مدة دون العشرة) .

(٣) فتح الباري ج ١ ص ٣١ .

بمناسبة عودة الصليب المقدس الى مكانه ، وإظهاراً للسرور بالفتح العظيم في القدس وهنا وصله كتاب النبي ﷺ ، يدعوه فيه الى الإسلام[1] .

وعاد هرقل الى ما كان عليه من دعة وترف ، حتى واجه الزّحف الإسلامي الذي أدّى الى زوال ملكه ، وانتهاء الحكم ، البيزنطي من آسيا وأفريقيا وانحصاره في أوربا وآسيا الصّغرى ، وعلى كل فإنّه كان من كبار ملوك العالم في عصره ، لا ينافسه في اتساع المملكة ، والقوة الحربية ، وزهو المدنيّة ، إلاّ الامبراطور الإيراني خسرو الثاني ، ومات سنة ٦٤١م في القسطنطينية ، ودفن فيها.

كسرى أبرويز (خسرو أبهرويز الثاني) (٥٩٠ - ٦٢٨) :

كان ابن هرمزد الرابع ، وحفيد خسرو الأوّل المعروف بـ« أنوشيروان » العادل ، يسميه العرب « كسرى أبرويز » ، جرى تتويجه على أثر قتل والده في سنة ٥٩٠م ، وثار عليه بهرام

(١) وقد كان سبب تأخر الكتاب النبوي إلى هرقل - بخلاف كسرى الذي وصله الكتاب قبل ذلك - أولاً : أن الكتاب دفع إلى عظيم « بصرى » ليقدمه إلى قيصر ، ولعله لم يتمكن من تسليمه اياه لانشغال قيصر بالحرب ؛ وبعده عن عاصمته ، وثانياً : أن المراجع الغربية تذكر أن هرقل قد اضطر إلى التوجه إلى أرمينيا في سنة ٦٢٨ م لقمع ثورة أو غرض آخر ، فلم يتمكن من الوفاء بنذره إلا في سنة ٦٢٩ م .

جوبين وانهزم خسرو فخرج من المملكة السّاسانية ، والتجأ الى الامبراطور البيزنطي موريقس Maurice واستعـان به على استـرداد ملـكه ، فأمـدّه موريقس بجيوش جرّارة ، وبعـد حروب دامية انهزم بهرام ، وتربع خسرو على عرش آبائه ، وفي سنة ٦١٢م زحف خسرو على المملكة البيزنطية ليأخـذ ثأر ولي نعمته وأبيه المعنـوي موريقس ، من قاتلـه النـذل المغتصـب لعرش القياصرة فوقس (Phocas) ولم يكفه قتل فوقس عن الاستمـرار في الـزّحف الـذي ساءت فيه نيتـه ، فواصلـه الى القسطنطينية ووصـل الى ما لم يصـل اليه سلفـه من تدويخ المملكة المنافسة القديمة ، وبلغ انتصاره ومجده أوجهما ، في سنة ٦١٥م حتى نجح هرقل في دحر الإيرانيين عن بلاده ، والهجوم المنتصرعلى مركز المملكة الساسانية ، حتى اضطر خسرو الى أن يغادر عاصمته ، والالتجاء الى مكان حريز ، ولكنه ما لبث أن قتل في ثورة في سنة ٦٢٨م.

اتّفقت كلمة مؤرخـي إيران على أنّ خسرو الثانـي كان أعظم ملوك إيران أبهة وعظمة ، فقد بلغت الدولة السّاسانية في عهده أوجها في الزّينة والمدنيّة ، والزهو ، ومظاهر الترف ، والبذخ ، وقد دخل جزء من الولاية الشمالية الغربيّة في الهند في حكمه[١] وكان يلقب نفسه ويسميه كما يلي:

---

(١) « ايران في عهد الساسانيين » ص ٦٠٢ .

« في الآلهة إنسان غير فان ، وفي البشر اله ليس له ثان ، علت كلمته ، وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه ، وينير اللّيالي المظلمة بنوره[1] » .

وقد بلغت في عهده المملكة السّاسانية الى ما لم تبلغ اليه في عهد من عهودها ، من الأبهّة ، والفخفخة ، وقد وصفه المؤرخ الطبري في تاريخه بقوله :

« كان من أشد ملوكهم بطشاً ، وأنفذهم رأياً ، وأبعدهم غوراً ، وبلغ فيما ذكر من البأس ، والنّجدة ، والنّصر والظّفر وجمع الأموال والكنوز ، ومساعدة القدر ومساعدة الدّهر اياه ، ما لم يتهيّأ لملك أكثر منه ، ولذلك سمي « أبرويز » وتفسيره بالعربية « المظفّر[2] » .

وقد تأنّق تأنّقاً عظيماً في مظاهر الترف والمدنية ، وأبدع في أنواع الأطعمة والأشربة[3] ، وبلغ في الألطاف والأدهان والعطور شأواً بعيداً ، وقد نشأ في عهده ذوق دقيق للأطعمة اللذيذة والخمور الراقية ، والعطور اللطيفة ، وارتقى في عهده الغناء والموسيقى ، وأقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً وكانت عنده نهامة بجمع الأموال ، واكتناز الكنوز ، وجمع الطرف

(١) أيضاً ص ٦٠٤ ، نقلاً عن تهيو في ليكتس .
(٢) تاريخ الأمم والملوك للطبري ٢/١٣٧ ، الطبعة الحسينية الطبعة الأولى بمصر .
(٣) راجع تاريخ الأمم والملوك للطبري ، ص ٩٩٥ .

والنفائس ، ولما نقل كنزه في سنة ٦٠٧م ـ ٦٠٨م من البناء القديم الى البناء الجديد في طيسيفون ، كان ما نقله ٤٦٠ مليون وثمانية ملايين مثقال ذهب . وذلك ما يساوي ٢٧٠ مليون وخمسة ملايين فرنك ذهبي ، وفي العام الثالث عشر من جلوسه على العرش كان في خزانته ٨٨٠ مليون مثقال ذهب(١) ، وقد حكم ٣٧ سنة ، وخلفه ابنه شيرويه .

المقوقس :

هو حاكم الإسكندرية ، والنّائب العام للدّولة البيزنطية في مصر وقد ذكره المؤرخون العرب غالباً باسم « المقوقس » واختلفوا في تسميته الحقيقية ، وكنيته ، اختلافاً كثيراً ، أما المؤرّخ أبو صالح الذي ألف تاريخه في القرن السادس الهجري (١٢٠٠م) فسماه بـ « جريج بن مينا المقوقس » وقد ذكر ابن خلدون أنه كان من الأقباط ، والمقريزي سماّه « المقوقس الرومي » فلما هاجم الفرس مصر فرّ حاكم الإسكندرية من قبل البيزنطيين ، واسمه « John The Almoner » من الإسكندرية الى قبرص ومات هناك ، فعين هرقل مكانه نائباً آخر اسمه « جورج » ، ولعله هو الذي يسميه العرب بـ « جريج » وولاه رئاسة الكنيسة الملكانية ، وقد ذكر بعض المؤرخين أن تعيينه كان في سنة ٦٢١م.

---

(١) « ايران في عهد الساسانيين » ، ص ٦١١ .

ويرجّح « الفرد بتلر » مؤلف كتاب « فتح العرب لمصر » أن العرب كانوا يعتقدون أنَّ الحاكم الذي كان يحكم مصر من قبل الدولة البيزنطية بعد انتصارها على إيران ، كان يلقب بـ « المقوقس » وكان رئيس الكنيسة وحاكم مصر في وقت واحد ، فأطلقوا على جورج الذي كان نائباً عن الدولة بهذا اللقب ويرجح أن « المقوقس » لقب لا علَم ، وقد ردّ هذا الاسم الى أصول قبطية ، ويمكن أن أسقفا قبطياً تسلم زمام الحكم ، ورئاسة الكنيسة عند استيلاء الفرس على مصر ، وقد انسحبت القوات الإيرانية عن مصر في سنة ٦٢٧م ، ولكن لم توقع وثيقة الصلح إلا في سنة ٦٢٨م ، فيمكن أن كتاب النبي ﷺ ، الى المقوقس ، وصل اليه في هذه الفترة ، حين كان الحاكم المصري شبه مستقل[١] ، ولذلك خاطبه النبي ﷺ ، بـ « عظيم القبط » .

وقد كانت مصر من أغنى ولايات الدولة البيزنطية ، وأكثرها خصوبة وإنتاجاً وسكاناً ، وكانت تمون العاصمة بالمواد الغذائية ، وقد وصفها فاتح مصر عمرو بن العاص (٦٤١ م) وقد دخلها بعد أن مضى على كتاب الرسول ﷺ ، الى المقوقس ١٤ عاماً ، في كتابه الذي كتبه الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بقوله : « مصر تربة غبراء ، وشجرة

---

(١) Appnedix - C - p. 508 - 540 ، راجع « فتح العرب لمصر » لألفرد بتلر .

خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر[1] ، ويدل على عمرانها وكثرة نفوسها أن عمرو بن العاص لما تم له فتح مصر سنة ٢٠ هـ (٦٤٠م) أحصى من تستحق عليه الجزية يومئذ ، فبلغوا أكثر من ستة ملايين[2] ، وكان الرومان يبلغون مائة ألف ، وقد جاء في كتاب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ « أما بعد ، فاني فتحت مدينة لا أصف ما فيها غير أني أصبت فيها أربعة آلاف متنة[3] ، بأربعة آلاف حمام ، وأربعين ألف يهودي ، وأربعمائة ملهى للملوك[4] » .

النّجاشي :

إنّ هذه البلاد لم تزل تسمّى من قديم الزمان بالحبشة (Abyssinia) أو أثيوبيا (Ethiopia) ، وهي بلاد من إفريقيا الشرقيّة ، واقعة في الجنوب الغربي من البحر الأحمر ولا يمكن تقدير حدودها في العصر الذي نتحدث عنه .

وحكومتها من أقدم الحكومات في العالم ، وتقول الأخبار اليهوديّة إنّ ملكة « سبأ » كانت تسكن في الحبشة ، وإنّ

---

(١) « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى ، ج ١ ، ص ٣٢ .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين ، للأستاذ محمد فريد وجدي راجع مادة « مصر » والمؤلف يشك في صحة هذا العدد في ضوء تجارب تضخم العمران في البلاد المختلفة ، فإن عدد النفوس في مصر في عصرنا لا يزيد على أربعين مليوناً .

(٣) هو المكان الصلب المرتفع ، كما في القاموس .

(٤) حسن المحاضرة للسيوطي .

ذريّة سليمان ما زالت تحكم الحبشة ، وقد بدأ اليهود يسكنون في الحبشة بعد خراب هيكل سليمان، بدأت النصرانية تنتشر في الحبشة منذ القرن الرابع الميلادي ، ولما بدأ ملك اليمن يضطّهد المسيحيين في بلاده طلب جستينين الأوّل من ملك الحبشة أن يساعد المسيحيين في اليمن ، فاستولى على اليمن في سنة ٥٢٥م ، ودامت السلطة الحبشية على اليمن العربية نحو خمسين سنة (وفي هذه الفترة هاجم ملك اليمن من قبل الحبشة ابرهة مكة ليخرب البيت ، ووقعت حادثة الفيل) .

وكانت عاصمة الحبشة (Axum) وكانت حكومة مستقلّة لا تخضع لحكومة أجنبية ولا تؤدي اليها الخراج، ولا تتّصل بالأمبراطورية البيزنطيّة إلاّ عن طريق الصداقة والمشاركة في ديانة واحدة (المسيحية) يدل على ذلك دلالة واضحة أن الامبراطور البيزنطي « جستينين » عين في منتصف القرن الثالث المسيحي رجلا اسمه «جولين» (Julian) سفيراً في بلاط الحبشة[١] .

ويقول « De Lacy O'Leary » في كتابه « العرب قبل محمّد » .

« كانت الحبشة منذ ٥٢٢م حتى ظهور الاسلام مسيطرة

---

(١) A. H. M. Jones and Elizabeth Monroe: A History of Abyssinia (Oxford, 1935) p. 63.

على تجارة شرق المحيط الأحمر ، وأفريقيا بل لعلها كانت مسيطرة على تجارة الهند أيضاً[1] » .

وكان ملك الحبشة يلقب دائماً بـ « النّجاشي » Nagusa Nagasht

وقد اضطربت الأقوال والروايات في تعيين هذا النّجاشي الذي كتب اليه رسول الله ﷺ ، كتاباً يدعوه فيه الى الإسلام ، ومما لا شك فيه أن هنالك شخصيتين متمايزتين ، الأوّل هو الذي هاجر اليه المسلمون من مكة ، وكان فيهم جعفر بن أبي طالب ، وذلك سنة خمس من النبوة ، ويستبعد انه ، كتب اليه كتاب دعوة في ذلك الحين ، فان الأوضاع لم تكن تسمح بذلك ولم يكن قد آن أوانه بعد ، ولا نعرف أنه ﷺ ، كتب الى ملك من الملوك قبل الهجرة يدعوه الى الإسلام ، وغاية الأمر أنه طلب منه أن يؤوى المسلمين الذين قست عليهم قريش واضطهدوهم ، ويستأنس من الأخبار التي رواها ابن هشام وغيره في كتب السّير أنّه دخل الإيمان في قلبه ، وآمن بأن عيسى بن مريم ـ عليه الصّلاة والسّلام ـ هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها الى مريم .

أما النّجاشي الذي كتب له النبي ﷺ ، كتاباً يدعوه الى

---

(١) « Arabia Before Mohammad » (London, 1927) p. 120.

الإسلام ، فهو كما مال اليه الحافظ ابن كثير هو النّجاشي الذي ولي بعد المسلم صاحب جعفر ، يقول ابن كثير : « وذلك حين كتب الى ملوك الأرض يدعوهم الى الله قبل الفتح » ، ونرجح أنّه هو الذي أسلم ونعاه رسول الله ﷺ ، الى المسلمين ، وصلى عليه ، وقد ذكر الأبيّ عن الواقدي ، وغيره من أهل السير : « أنه النجاشي الذي صلىّ عليه رسول اللّه صلىّ اللّه عليه وسلّم ، وذلك في رجب سنة تسع منصرف تبوك[١] .

وبذلك يحصل التّوفيق بين الروايات المختلفة ، وتدل عليه القرائن والدّراية ، والله أعلم .

كيف تلقّى هؤلاء الملوك هذه الرسائل الكريمة :

فأما « هرقل » و« النجاشي » و« المقوقس » فتأدّبوا ، ورقّوا في جوابهم ، وأكرم « النجاشي » و« المقوقس » رسل رسول الله ﷺ ، وأرسل « المقوقس » هدايا منها جاريتان كانت احداهما مارية أم ابراهيم ابن رسول الله ﷺ .

وأما كسرى أبرويز ، فلما قُرِيء عليه الكتاب مزّقه ، وقال : « يكتب إليّ هذا وهو عبدي؟ » فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « مزّق الله ملكه[٢] » .

(١) صحيح مسلم ؛ طبع مصر ، ج ٥ ص ١٦٦ .
(٢) راجع الجامع الصحيح للبخاري ، باب كتاب النبي ﷺ إلى كسرى وقيصر .

وأمر كسرى باذان وهو حاكمه على اليمن بإحضاره ، فأرسل بابويه يقول له : إنّ ملك الملوك كسرى قد كتب الى الملك باذان يأمره أن يبعث اليك من يأتيه بك ، وقد بعثني اليك لتنطلق معي فأخبره رسول الله ﷺ ، بأنّ الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله(١) .

وقد تحقّق ما أنبأ به رسول الله ﷺ ، بكلّ دقّة ، فقد استولى على عرشه ابنه « قباز » الملقب بـ « شيرويه » وقتل كسرى ذليلاً مهاناً بإيعاز منه سنة ٦٢٨م ، وقد تمزق ملكه بعد وفاته وأصبح لعبة في أيدي أبناء الأسرة الحاكمة ، فلم يعش « شيرويه » إلاّ ستة أشهر ، وتوالى على عرشه في مدة أربع سنوات عشرة ملوك ، واضطرب حبل الدولة الى أن اجتمع الناس على « يزد جرد » وتوجوه ، وهو آخر ملوك بني ساسان ، وهو الذي واجه الزحف الإسلامي الذي أدّى الى انقراض الدولة السّاسانية التي دامت وازدهرت أكثر من أربعة قرون ـ انقراضا كلياً ، وكان ذلك في سنة ٦٣٧م ، وهكذا تحققت هذه النبوءة في ظرف ثماني سنين(٢) ، ولم تعد بعد ذلك الامبراطورية الساسانية ، فتحققت به نبوة أخرى لرسول الله

---

(١) تاريخ الطبري ج ٣ ، ص ٩٠ ـ ٩١ .

(٢) ملخصاً من كتاب « إيران في عهد الساسانيين » «الباب التاسع » عهد الدولة الساسانية الأخير الزاهر » ، ٥٩٣ ، والباب العاشر« سقوط المملكة » .

ﷺ ، وهو قوله : اذا هلك كسرى فلا كسرى بعده[1] .

وملك الله المسلمين ايران ، وهدى أهلها للإسلام ، فكان منهم أئمة في العلم والدين ، وعباقرة الإسلام ، وأعلام المسلمين ، وصدق عليهم قول رسول الله ﷺ : « لو كان العلم بالثريا لتناوله أناس من أبناء فارس[2] » .

حوار بين « هرقل » وأبي سفيان :

وقد أراد « هرقل » أن يتثبت في أمر النبي ﷺ ، وبحث عمن يستخبره في شأنه ، وصادف ذلك وجود أبي سفيان في « غزة » ، فأحضر اليه - وقد جاء في تجارة - وكانت استفساراته استفسارات عاقل مجرّب خبير بتاريخ الدّيانات وخصائص الأنبياء وسيرهم وشأن الأمم معهم وسنّة الله في أمرهم ، وصدقه أبو سفيان شأن العرب الأوّلين حياء من أن يأثر الناس عليه كذباً ، وجرى بينهما الحوار الآتي :

هرقل : كيف نسبه فيكم ؟ .
أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .
هرقل : فهل قال هذا القول منكم أحد قطّ قبله ؟
أبو سفيان : لا .

---

(١) قطعة من حديث اخرجه مسلم عن ابن عيينه ، ورواه الإمام الشافعي بسنده أيضاً ؛ راجع ابن كثير ، ج ٣ ص ٥١٣ .
(٢) مسند الإمام أحمد ، ج ٢ ص ٣٩٦ .

هرقل : فهل كان من آبائه من ملك؟
أبو سفيان : لا .
هرقل: فأشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاؤهم؟
أبو سفيان: بل ضعفاؤهم .
هرقل : أيزيدون أم ينقصون؟ .
أبو سفيان : بل يزيدون .
هرقل : فهل يرتدّ أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟
أبو سفيان : لا .
هرقل : فهل كنتم تتّهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟
أبو سفيان: لا .
هرقل: فهل يغدر؟
أبو سفيان : لا ، ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها؟ ، (قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة) .
هرقل : فهل قاتلتموه؟
أبو سفيان : نعم .
هرقل : فكيف كان قتالكم اياه؟ .
أبو سفيان : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه .
هرقل : ماذا يأمركم؟ .

أبو سفيان : يقول : اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به شيئاً ، ؛ واتركوا ما يقول آباؤكم ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدق ، والعفاف ، والصلة.

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه ، فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ ، فذكرت : أن لا ، قلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتسي بقول قيل قبله ، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت : أن لا ، فقلت : فلو كان من آبائه من ملك ، قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت : أن لا ، فقد أعرف أنّه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك اشراف الناس اتّبعوه أم ضعفاءهم ؟ فذكرت : أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهّم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ ، فذكرت أن لا ، وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ، ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك

موضع قدميّ هاتين ، وقد كنت أعلم أنّه خارج ، ولـم أكن أظنّ أنّه منكم ، فلو أنّي أعلم أنّي أخلص اليه لتجشمـت لقاءه ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[1] ، . . . وأذن لعظماء الروم في القصر وأمر بأبوابه فغلّقت ، ثم أطّلع فقال : يا معشر الروم! هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم وتبايعوا هذا النبي؟ ففروا وبادروا الى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى هرقل نفرتهم ، وأيس من الإيمان قال ردّوهم علي ، وقال : إنّي قلت مقالتي آنفاً اختبر بها شدّتكم على دينـكم ، فقد رأيت ، فسجدوا له ورضوا عنه[2] .

هكذا آثر هرقل المُلك على الهداية ، ووقعت بينه وبين المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر حروب ومعارك ، وكان فيها ذهاب ملكه وسلطانه.

من هم الأريسيّون؟ .

وردت كلمـة « الأريسيين » أو « الـيريسيين » ـ على اختـلاف الـروايات ـ في الكتـاب الـذي وجّـه الى « هرقـل » وحده ، ولم ترد في كتاب من الكتب التي أرسلت الى غيره ، واختلف علماء الحديث واللغة في مدلول هذه الكلمة ، فالقول

---

(١) صحيح البخاري ؛ باب « كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

(٢) مقتبس من حديث طويل رواه البخاري في باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ .

المشهور أنّ « الأريسيّين » جمع « أريسي » وهم الخول والخدم والأكارون[1] . وجاء في لسان العرب لابن منظور (الأرس) الأصل و« الأريس » : الأكّار ، نقله عن ثعلب ، وذكر عن ابن الأعرابي : أنه قال أرس يأرس أرسا اذا صار أريسا ، وأرّس يؤرّس تأريسا اذا صار أكارا ونقل عن أبي عبيدة أنه قال : الأجود عندي أنّ يقال أنّ « الأريس » كبيرهم الذي يمتثل أمره ، ويطيعونه اذا طلب منهم الطّاعة[2] .

وهنا يتساءل القارىء الفطن اذا كان المراد من « الأريسيين » الفلاحون ، كان « كسرى أبرويز » امبراطور إيران أحقّ بأن يحذّر من وقوع إثمهم ومسئوليتهم عليه ، وبأن ترد هذه الكلمة في الكتاب الذي كتب اليه ، فإنّ طبقة الفلاحين كانت أعظم وأوسع وأكثر تميزاً في المملكة السّاسانية الإيرانية منها في المملكة البيزنطية الرّومانية ، وكان أكثر اعتماد إيران في دخلها ومواردها على الفلاحة والى ذلك نبه الأزهري ، كما نقل عنه ابن منظور بقوله : « وكان أهل السواد من هو على دين كسرى أهل فلاحة وإثارة للأرض ، وكان أهل الروم أهل أثاث وصنعة ، فكانوا يقولون للمجوس « أريسين » نسبوهم الى « الأريس » وهو الأكار ، وكانت العرب تسميهم

(١) راجع شرح النووي لصحيح مسلم ، و« مجمع بحار الأنوار للعلامة محمد طاهر الفتنى .

(٢) راجع « لسان العرب » مادة « أرس » .

« الفلاّحين »[١] » .

ولـذلك نرجـح أن المراد بالأريسـيين هم أتبـاع « أريوس » المصري (Arius » 280 - 336 ») وهـو مؤسس فرقـة مسيحية كان لهـا دور كبـير في تاريخ العقائـد المسيحية والإصلاح الديني ، وقد شغلت الدولة البيزنـطيّة والكنيسـة المسيحية زمناً طويلاً ، و« أريوس » هو الذي نادى بالتوحيد ، والتمّييز بين الخالق والمخلوق والأب والابـن ـ على حد تعبـير المسيحيين ـ فأثار نقاشاً حول الموضوع وكان الشّغل الشّاغل في المجتمع المسيحي لعدّة قرون ، وآراؤه تتلخص في أنّه ليس من شأن الإله الواحد أن يظهر على الأرض ، لذلك هو ملأ السّيد المسيح بالقوة والكلام الإلهي ، وأنّ من صفات الله الأساسية الوحدانية والأبدية وأنه لم يخلق أحداً من ذاته رأسـاً ، وأنّ الابن ليس هو الإله ، بل هو مظهر لحكمة أمر الـرب ، وأن ألوهيته إضافيّة لا مطلقة[٢] .

ويقول « James Mackinon » في كتابه « مـن المسيح الى قسطنطين » : كان « أريوس » يلحّ على أنّ الله هو وحده القديم ، كان الأزلي الأبدي ، وليس له شريك ، وهو الـذي خلق الابن من العدم ، لذلك ليس الابن هو الأزلي ، ولم يكن

(١) نفس المصدر .

(٢) راجع للتفصيل دائرة معارف الديانات والأخلاق ج ١ ، مقال « Arianism » ص ٧٧٧ .

الله أباً من الأبد ، فقد كان حين من الدهر لم يكن فيه وجود للابن ، وان الابن يحمل حقيقة خاصة لا يشاركه فيها الله وهو خاضع للتطورات ، وليس هو الله بالمعنى الصحيح ، إلا أنه يصلح لأن يكون كاملاً ، ولكنه على كل حال مخلوق كامل(١) » .

بينما كانت كنيسة إسكندرية في أوائل القرن الرابع المسيحي تدين بألوهيّة المسيح اطلاقاً من غير تفريق بين الخالق والمخلوق والأب والابن .

وقد أقصاه رئيس الكنيسة المصرية البطريق الكساندر (Alexander) في سنة ٣٢١م من الكنيسة الاسكندرية ، وغادر « أريوس » المدينة ولكن لم ينته النّزاع بخروجه ، وحاول الأمبراطور قسطنطين حسم هذا الخلاف ، ولكنه أخفق ، وفي سنة ٣٢٥ عقد مجمعاً في نيقيه اجتمع فيه ٢٠٣٠ أسقفا ، وكان الامبراطور يميل الى ألوهية المسيح فحكم ضدّ « أريوس » رغم أن أغلبية الحاضرين كانت تؤيد « أريوس » ، ولم يوافقه إلا ٣١٨ أسقفاً ، فنفاه الى اليريا (Illyria) وأحرقت كتاباته ، وكان من وجدت عنده يعاقب ، ولكن هذه المحاولات لم تقلل من أهمية «أريوس » وإقبال الناس عليه ، وكان آخر أمره أن « قسطنطين » لان في موقفه ورفع الحظر على عقيدته ، وبعد

(١) « From Christ to Constantine » (London, 1936)

موت منافسه الأكبر الكساندر ونفى خليفته « Athanasius » عاد « أريوس » الى الإسكندرية ، وكاد « قسطنطين » يوليه رئاسة الكنيسة المصرية ، ويدين بعقيدته ولكن باغتته المنيّة قبل ذلك [١] .

وقد جاء في كتاب « الصراع بين الدين والعلم » لـ « درابر » أن ثلاثة عشر مجمعاً مسيحياً حكمت ضد « أريوس » في القرن الرابع المسيحي ، وخمسة عشر مجمعاً حكمت في تأييده ، وسبعة عشر مجمعاً أدلت برأي قريب من رأي « أريوس » ، وهكذا عقدت خمسة وأربعون مجمعاً للتقرير في هذه القضية .

والحق أنّ العالم المسيحي لم يكن له عهد بعقيدة التثليث السائدة الآن قبل القرن الرابع ، وقد جاء في دائرة المعارف الكاثوليكيّة الجديدة : « أنّه لم يرفع الستار عن تطور عقيدة التثليث وسرها إلاّ في المنتصف الثاني للقرن التاسع عشر الميلادي . . . وكلّ من يتحدث عن عقيدة التثليث المطلقة ، إنّما ينتقل من فجر التاريخ المسيحي الى ربع القرن الرابع الأخير ، فإنّ القول بأن « الإله الواحد له ثلاثة مظاهر » لم يتغلغل في أحشاء العالم المسيحي في حياته وفكره إلا في هذه الفترة الزمنية [٢] » .

(١) دائرة معارف الديانات والأخلاق ، مقال . « Arianism »

(٢) The Wew Catholic Encyclopaedia مقال « التثليث المقدس » ج ١٤ ، ص ٢٩٥ .

ودامت عقيدة « أريوس » ودعوته تصارعان الدعوة المكشوفة الى تأليه المسيح وتسويته بالإله الواحد الصّمد وكانت الحرب سجالا ، وقد دان بهذه العقيدة عدد كبير من النصارى في الولايات الشرقية من المملكة البيزنطية الى أن عقد تيو سودس الكبير (Theosodius The Great) مجمعاً مسيحياً في القسطنطينية ، قضى بألوهية المسيح وابنيته ، وقضى هذا الإعلان على العقيدة التي دعا اليها « أريوس » واختفت ، ولكنها عاشت بعد ذلك ، ودانت بها طائفة من النصارى ، اشتهرت بـ « الفرقة الأريسيّة » أو « الاريسيّين » .

إذاً من المرجّح المعقول أنّ النبي ﷺ ، إنّما عنى هذه الفرقة بقوله : « فان توليت فان عليك إثم الأريسيّين » فإنّها هي القائمة بالتوحيد النسبي في العالم المسيحي التي تتزعمه الدولة البيزنطيّة العظمى ، التي كان على رأسها القيصر « هرقل » .

ومن الغريب أنّ بعض كبار علماء الإسلام في العصر الأول ، قد ذهبوا الى هذا ، فجاء في « مشكل الآثار » للإمام أبي جعفر الطحاوي مؤلف « شرح معاني الآثار » المشهور (م **٣٢١ هـ**) ما نصه :

وقد ذكر بعض أهل المعرفة بهذه المعاني أنّ في رهط هرقل فرقة تعرف بالأروسية توحد الله ، وتعترف بعبودية المسيح

له عزّ وجلّ ، ولا تقول شيئاً مما يقول النصارى في ربوبيّته ، وتؤمن بنبوّته ، فإنها تمسك بدين المسيح مؤمنة بما في إنجيله جاحدة لما يقوله النصارى سوى ذلك ، وإذا كان ذلك كذلك ، جاز أن يقال لهذه الفرقة « الأريسيون » في الرفع و« الأريسيين » في النصب والجر ، كما ذهب اليه أصحاب الحديث[1] » .

وقريباً من ذلك قال العلامة محيي الدين يحيى النّووي شارح صحيح مسلم (م ٦٧٦ هـ) فقال : « الثاني أنهّم اليهود والنّصارى وهم أتباع عبد الله[2] بن أريس ، (الذي تنسب اليه الأروسية) من النصارى ، وله مقالة في كتب المقالات ، ويقال لهم « الأروسيون »[3] .

رسائل الى أمراء العرب :

ومن أمراء العرب كتب الى المنذر بن ساوى صاحب البحرين[4] ، والى جيفر بن الجلندا[5] وعبد بن الجلندا

(١) « مشكل الآثار » ج ٢ ، ص ٣٩٩ .
(٢) هذا تسامح من النووي ، فانه كان قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون ، ولم يكن اسمه اسماً اسلامياً عربياً .
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ، ج ٢ ، ص ٩٨ .
(٤) « البحرين » هي التي تسمى الآن الأحساء ، وكان جل سكانها من بني عبدالقيس ، وبكر بن وائل ، وتيم ، اما الوالي عليها في ايام كتابة هذه الرسائل ، فكان المنذر بن ساوى ، وهو من بني تميم .
(٥) جيفر بن جلندى وعبد بن جلندى كانا حاكمين على عمان في هذا الوقت ، وكان =

الأزديين صاحبي عمان ، وإلى هوذة بن علي [1] صاحب اليمامة[2] ، وإلى حارث بن شمّر الغسّاني .

وأسلم المنذر بن ساوى وجيفر وعبد إبنا الجلندا ، وأما هوذة بن علي صاحب اليمامة ، فطلب من رسول الله ﷺ ، أن يجعل له بعض الأمر فأبى ، ومات هوذة على أثر ذلك[3] .

= جيفر هو الملك منهما ، وكان أسن من أخيه ؛ (راجع نهاية الأرب ١٨ ـ ٦٧ وما بعد) ، وكلمة الجلندى على ما يظهر من روايات الأخباريين ، ليست اسماً لشخص ، وإنما هي لقب ، وقد تعني « قيلاً » أو « كاهناً » في لهجات أهل عمان . (ج ٤ ، ص ٢٠١ « تاريخ العرب قبل الإسلام ») .

(١) (هوذة بن علي الحنفي) كان ملكاً على اليمامة ، وكان على دين النصرانية ، وإليه أرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو ، وحدود اليمامة يومئذ من الشرق إلى البحرين ومن الغرب تنتهي إلى الحجاز ، ومن مواضع اليمامة (منفوحة) كان يسكنها الأعشى ، ومن أبرز قبائل اليمامة ؛ وفي ايام الرسول بنو حنيفة ؛ ومنهم كان مسيلمة بن حبيب المعروف بالكذاب لادعائه النبوة .

(٢) تاريخ الطبري ج ٣ ، ص ٨٤ ـ ٨٥ .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ، ص ٥٨ .

غَـزْوَةِ خَيْـبَر

جائزة من الله :

إنّ الله سبحانه وتعالى بشّر أصحاب بيعة الرّضوان ـ في الحديبية ـ الذين أطاعوا الله ورسوله ، وآثروا حكم الله وأمره على ما تهواه أنفسهم ، وترشد إليه عقولهم ، بالفتح القريب والمغانم الكثيرة، فقال :

« لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة ، فعلم ما في قلوبهم ، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيماً[١] » .

وكان مقدّمة هذه الفتوح والمغانم ، غزوة خيبر ، وكانت « خيبر » مستعمرة يهوديّة تتضمّن قلاعاً حصينة [٢] ، وقاعدة حربية لليهود ، وكانت آخر معقل من معاقلهم في جزيرة العرب وكانوا يتربصّون بالمسلمين الدّوائر ، ولا ينسون ما حلّ بإخوانهم ، ولا يأمنون أن يحلّ بهم ما حلّ بهم وكانوا يتآمرون

---

(١) سورة الفتح ١٨ ـ ١٩ .

(٢) وكان من أشهر هذه الحصون ، ناعم ، قموص ، حصن الشق ، حصن نطاة ، ، حصن السلالم ، حصن الوطيه ، حصن الكتيبة ، ويذكر اليعقوبي أنه كان في خيبر عشرون ألف مقاتل . (ج٢ ص ٥٦ نقلاً من كتاب « الصحابة والتابعون من أهل الكتاب »للأستاذ مجيب الله الندوي ؛ طبع دار المصنفين ـ الهند) .

مع غطفان لغزو المدينة[1] ، فأراد رسول الله ﷺ ، أن يستريح منهم ويأمن من جهتهم ، وكانت في الشمال الشرقي للمدينة على بعد سبعين ميلاً منه .

جيش مؤمن تحت قيادة نبي :

فأقام رسول الله ﷺ ، بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرّم ، ثم خرج في بقية المحرّم إلى « خيبر » .

وكان عامر بن الأكوع يرتجز في مسيره اليها ، فيقول :

والله لولا الله ما اهتدينا
ولا تصدّقنا ولا صلّينا
إنّا اذا قومٌ بغوْا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبّت الأقدام إن لاقينا[2]

---

(١) يقول الأستاذ الانجليزي الشهير W. Montgomery Watt في كتابه Mohammad, Prophet and Statesman (محمد النبي والسياسي) ، « كان يهود خيبر وخاصة رؤساء قبيلة بني النضير التي أجلاها الرسول من المدينة يضمرون الحقد لمحمد ، وهم الذين نجحوا في حمل قبائل العرب المجاورة على حمل السلاح على المسلمين والزحف عليهم ، بما بذلوه من أموال ، وكان ذلك هو السبب الرئيسي في توجه محمد إلى خيبر بجيوشه » .
الكتاب المذكور ، ص ١٨٩ ، طبعة لندن ١٩٦١ م .

(٢) سيرة أبن كثير ج ٣ ، ص ٣٣٤ ـ ٣٤٥ ، ورواه مسلم في باب « غزوة خيبر » بأختلاف بعض الألفاظ والأبيات .

وأقبل رسول الله ﷺ ، بجيشه وكانوا ألفاًوأربعمائة ، وكان معهم مائتا فرس ، ولم يأذن لمن تخلّف عن الحديبية ، وخرجت عشرون امرأة من نساء الصّحابة ، لمداواة المرضى وخدمة الجرحى ، والإسعاف بالماء والطعام أثناء القتال .

وأقبل بالجيش حتى نزل بـ « الرجيع » بين اليهود وغطفان ، ليحول بينهم وبين أن يمدّوا أهل خيبر ، فقد كانوا لهم مظاهرين ، فامتنعوا عن ذلك ، وأقاموا في أموالهم وأهليهم ، وخلّوا بين رسول الله ﷺ ، وبين خيبر .

ودعا رسول الله ﷺ ، بالأزواد ، فلم يؤت إلاّ بالسّويق ، فأمر به ، فثري ، فأكل المسلمون[1] ، ودعا رسول الله ﷺ ، لمّا أشرف على خيبر ، وسأل الخير ، واستعاذ من شرّها ، وشرّ أهلها ، وكان اذا غزا قوماً لم يغزهم حتى يصبح ، فإن سمع أذاناً أمسك ، فبات رسول الله ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب وركب القوم . . ، واستقبلوا عمّال خيبر غادين قد خرجوا بمساحيهم[2] ، وبمكاتلهم[3] ، فلمّا رأوا رسول الله صلى الله عليه والجيش ، قالوا : محمد

---

(١) ابن كثير ، ج ٣ ص ٣٤٥ ـ ٣٤٦ ، ورواه البخاري مختصراً في باب (غزوة خيبر) .

(٢) المساحي : جمع مسحاة ، وهي المجرفة من الحديد .

(٣) جمع مكتل ، وهي قفة كبيرة .

والخميس [1]معه ، فأدبروا هرباً فقال رسول الله ﷺ : الله أكبر خربت خيبر ، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين[2] .

قائد منصور :

ونازل رسول الله ﷺ ، حصون خيبر ، وبدأ يفتتحها حصناً حصناً ، وكان أول حصن افتتح ، حصن ناعم ، ومنها حصن القموص ، وقد استعصى على المسلمين ، وكان علي بن أبي طالب رمداً ، فقال رسول الله ﷺ ، ليأخذنّ الراية غدا رجل يحبّه الله ورسوله ، يفتح عليه ، وتطاول له كبار الصّحابة ، ـ رضي الله عنهم ـ وكلّ منهم يرجو أن يكون صاحب ذلك ، ودعا عليا ، وهو يشتكي عينيه ، فأتى فبصق رسول الله ﷺ ، في عينيه ، ودعا له، فبرىء حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية[3] ، فقال علي ـ رضي الله عنه : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا .

قال رسول الله ﷺ : انفذ علي رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه ، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً

---

(١) الخميس : الجيش .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ؛ ص ٣٢٩ ـ ٣٣٠ .

(٣) الرواية في صحيح البخاري وصحيح مسلم في باب « غزوة خيبر » .

خير لك من أن يكون لك حمر النَّعم[1] .

بين أسد الله وبطل اليهود :

وأتى علي - رضي الله عنه - حصن القموص - ، فخرج « مرحب » وهو الفارس المشهور ، يرتجز فاختلفا ضربتين ، فبدره علي بضربة ، ففلق مغفره ورأسه ، ووقع في الأضراس ؛ وكان الفتح[2] .

وكانت لمحمّد بن مسلمة مواقف بطوليّة في هذه المعركة ، وأبلى فيها بلاءً حسناً ، وقتل بعض كبار الفرسان والأبطال ، من اليهود .

عمل قليلا وأجر كثيراً :

وجاء عبد أسود حبشي من أهل خيبر ، كان في غنم لسيده ، فلما رأى أهل خيبر قد أخذوا السلاح ، سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذي يزعم أنه نبيّ فوقع في نفسه

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، باب « غزوة خيبر » ورواه مسلم والنسائي .

(٢) اختلفت الروايات في تعيين هذا الحصن الذي فتحه عليّ ، والذي يرجح انه كان حصن القموص هو أن هذا الحصن كان مركز مرحب الفارس اليهودي المشهور ، وقد جاء في سيرة ابن هشام أن الذي قتل مرحباً هو محمد بن مسلمة ، (ق٢ ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤) والمشهور أن الذي قتله هو علي بن أبي طالب (الطبري ص ١٥٧٩) ، وقد جاء ذلك مصرحاً في رواية مسلم ، وجاءت فيه الأبيات التي ارتجز بها علي ، والذي يرويه مسلم بسنده أولى بالاعتماد والترجيح ، راجع صحيح مسلم حديث رقم ١٨٠٧

ذكر النبي فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ، فقال : ماذا تقول ؟ وما تدعو إليه ؟ ، قال : أدعو إلى الإسلام ، وأن تشهد أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله ، وألاّ تعبد إلاّ الله ، قال العبد : فما لي إن شهدت وآمنت بالله عزّ وجلّ ، قال : « لك الجنة إن مِتّ على ذلك » .

فأسلم ثم قال : يا نبي الله إن هذه الغنم عندي أمانة ، فقال رسول الله ﷺ : أخرجها من عندك وارمها بـ « الحصباء فإن الله سيؤدي عنك أمانتك » ، ففعل ، فرجعت الغنم إلى سيّدها ، فعلم اليهودي أنّ غلامه قد أسلم ، فقام رسول الله ﷺ ، في الناس ، فوعظهم ، وحضّهم ، على الجهاد ، فلما التقى المسلمون واليهود قتل ـ فيمن قتل ـ العبد الأسود ، واحتمله المسلمون إلى معسكرهم ، فأدخل في الفسطاط فزعموا أن رسول الله ﷺ ، اطلع في الفسطاط ، ثم أقبل على أصحابه ، وقال : « لقد أكرم الله هذا العبد ، وساقه إلى خير ، ولقد رأيت عند رأسه اثنتين من الحور العين ، ولم يصل لله سجدة قط[1] » .

ما على هذا اتّبعتك ! :

وجاء رجل من الأعراب إلى النبي ﷺ ، فآمن به واتبعه ،

---

(١) زاد المعادج ١ ، ص ٣٩٣ .

فقال: أهاجر معك ، فأوصى به بعض أصحابه ، فلما كانت غزوة خيبر ، غنم رسول الله ﷺ ، شيئاً فقسمه له ، وكان يرعى ظهرهم ، فلما جاء دفعوه إليه ، فقال : ما هذا؟ ، قالوا: قسم قسمه لك رسول الله ﷺ ، فأخذه ، فجاء به إلى النبي ، فقال : ما هذا يا رسول الله ؟! قال : قسم قسمته لك ، قال: ما على هذا اتّبعتك ، ولكن اتبعتك على أن أرمى ههنا وأشار إلى حلقه ـ بسهم ، فأموت فأدخل الجنة ، فقال : إن تصدق الله يصدقك .

ثم نهضوا إلى قتال العدوّ ، فأتى به إلى رسول الله ﷺ ، وهو مقتول ، فقال : أهوهو ؟ قالوا : نعم ، قال: صدق الله فصدقه ، فكفّنه النبي ، ﷺ ، في جبته ثم قدّمه ، فصلّى عليه ، وكان من دعائه له : اللّهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك ، قتل شهيداً وأنا عليه شهيد[1] .

شرط البقاء في خيبر :

وافتتحت الحصون ، حصن بعد حصن ، بعد قتال وحصار ، دام أياماً ، حتى سألوا رسول الله ، ﷺ ، الصلح ، وأراد رسول الله أن يجليهم منها ، فقالوا : يا محمد ! دعنا

---

(١) المصدر السابق ج ١ ص ٣٩٤ .

نكون في هذه الأرض نصلحها، ، ونقوم عليها ، فنحن أعلم بها منكم ، ولم يكن لرسول الله ﷺ ، ولا لأصحابه غلمان ، يقومون عليها وكانوا لا يفرغون يقومـون عليهـا ، فأعطاهـم خيبر على أن لهم الشطر من كل زرع وثمر ، ما بدا لرسول الله ﷺ ، أن يقرّهم[1] وكان رسول الله ﷺ يبعث اليهم عبدالله بن رواحة ، فيخرص عليهم ، ويجعل ذلك نصفين ، فيخيّرهـم أن يأخـذوا أيهّا شاءوا ، فيقولـون : بهـذا قامـت السّماوات والأرض[2] .

روح التّسامح الديني :

وكان من بين المغانم التي غنمها المسلمون في غزوة خيبر صحائف متعددة من التوراة ، فلما جاء اليهود يطلبونها أمر النبي ﷺ ، بتسليمها لهم[3] ، ويقـول الدكتـور اسرائيل ولفنسـون معلّقاً على هذه القصّة :

« ويدلّ هذا على ما كان لهذه الصّحائف في نفس الرّسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان ، ويحفظـون له هذه اليد حيث لم يتعـرض بسـوء لصحفهـم المقدسة ، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرّومان حين تغلّبـوا

(١) أيضاً ، ص ٣٩٤) ٣٩٥ ، وراجع للتفصيل سنن أبي داود ، باب المساقاة .
(٢) « فتوح البلدان » للبلاذري ، ص ٣٤ .
(٣) تاريخ الخميس ج ٢ ، ص ٦٠ .

على أورشليم ، وفتحوها سنة ٧٠ ق.م. ، اذ حرقوا الكتب المقدّسة وداسوها بأرجلهم ، وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اضطهاد اليهود في الأندلس ، حيث أحرقوا أيضاً صحف التوراة ، هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام[١] » .

قدوم جعفر بن أبي طالب :

وفي هذه الغزوة قدم على رسول الله ، ابن عمه جعفر ابن أبي طالب وأصحابه ، ففرح به رسول الله ﷺ ، فرحاً عظيماً ، وتلقّاه بالبشر، وقبّل جبهته ، وقال : والله ما أرى بأيهما أفرح : بفتح خيبر أم بقدوم جعفر[٢] .

وفي هذه الغزوة سُمّ رسول الله ﷺ ، أهدت له زينب بنت الحرث اليهودية ، امرأة سلاّم بن مشكم ، شاة مشوية قد سمّتها ، وسألت أيّ اللحم أحبّ إليه ؟ فقالوا الذراع ، فأكثرت السم في الذراع ، فلماّ انتهش من ذراعها ، أخبره الذراع بأنه مسموم ، فلفظ الأكلة .

وجمع اليهود ، ثم قال : هل أنتم صادقي عن شيء إن سألتكم عنه ؟ قالوا : نعم ، قال : أجعلتم في هذه الشاة

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ص ١٧٠ .
(٢) زاد الميعاد؛ ص ١ ؛ ص ٣٩٧ .

سماً ؟ ، قالوا : نعم ، قال : فما حملكم على ذلك ؟ ، قالوا : أردنا ان كنت كاذباً نستريح منك ، وإن كنت نبيّاً لم يضرّك ، وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ ، فقالت : أردت قتلك ، فقال : ما كان الله ليسلطك علي ، قالوا : ألا نقتلها ؟ ، قال : لا ، ولم يتعرّض لها ، ولم يعاقبها .

ولم يقتلها ، أولاً ، فلما مات بشر بن البراء بن معرور قتلها[1] .

أثر غزوة خيبر :

وكان لغزوة خيبر وانتصار المسلمين فيها انتصاراً رائعاً وقع كبير في قلوب القبائل العربية التي لم تسلم بعد ، فقد كانت تعرف قوّة اليهود في خيبر الحربيّة ، وما كانوا يتمتّعون به من غنى ورفاهية ، وثروة زراعية غذائية ، ووفور السلاح والكراع ، وقوة الحصون والآطام ، واستعصائها على الزاحفين المهاجمين ، ووجود القادة ، المحنّكين ، والأبطال المدرّبين كمرحب ، والحارث أبي زينب ، وكان له أثر في مجرى الحوادث .

ويقول الدكتور إسرائيل ولفنسون معلقاً على غزوة

(١) زاد المعاد ج ١ ، ص ٣٩٨ ، ورواه البخاري مختصراً عن أبي هريرة ، في باب « الشاة التي سُمت للنبي ﷺ بخيبر » .

خيبر ، وأثرها في تاريخ الإسلام :

« ومما لا شك فيه انّ غزوة خيبر كانت ذات شأن عظيم في تاريخ الفتوح الإسلامية ، اذ كانت كل قبائل الحجاز تراقب نتيجتها باهتمام وتنظّم شؤونها ، على حسب ما كان يتراءى لها من نتيجة صليل السيوف بين الأنصار واليهود ، وقد كان أعداء الرسول الكثيرون في بادية العرب ، وحاضرتها يعلّقون آمالاً كبيرة على تلك الغزوة[1] » .

فتوح ومغانم :

وبعدما انتهى رسول الله ﷺ ، من أمر خيبر ، انصرف إلى فدك[2] ، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ ، يصالحونه على النصف من فدك قبل ذلك منهم ، وكان رسول الله ﷺ يقسمه حيث يرى من مصالحه ومصالح المسلمين[3] .

ثم جاء إلى وادي القرى[4] ، وهي مجموعة قرى بين « خيبر » و « تيماء[5] » ، وقد استعمرها اليهود قبل الإسلام ،

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ، ص ١٦٢ .

(٢) كانت فدك حكومة مستقلة كسائر الواحات والقرى في أعالي الحجاز ، أهلها من اليهود وبها قوم من بني مرة ، وقوم من بني سعد بن بكر ، (نهاية الأرب ، ١٧ ـ ٢٠٩) .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٣٦٨ .

(٤) وادي القرى واد كثرت قريته ، لذلك قيل له وادي القرى ، وأهله عرب ويهود وهو من المواضع المعروفة بالخصب في جزيرة العرب ، وبه عيون وآبار .

(٥) معجم البلدان ، ج ٧ .

وأصبحت لهم مركزاً، وانضاف اليهم جماعة من العرب ، ودعا رسول الله ﷺ ، إلى الإسلام ، وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم ، وحقنوا دماءهم ، وحسابهم على الله .

وكانت في هذه الغزوة مبارزات ، كان الزّبير بن العوّام ، ـ رضي الله عنه ـ بطلها ، وكان الانتصار فيها للمسلمين ، وأعطى اليهود من غد ما بأيديهم ، وغنم المسلمون أموالاً ، وأصابوا أثاثاً ومتاعاً كثيراً ، وقسم رسول الله ﷺ ، ما أصاب على أصحابه ، بوادي القرى ، وترك الأرض والنخل بيد اليهود ، وعاملهم عليها .

ولما بلغ يهود تيماء ما واطأ عليه رسول الله ﷺ ، أهل خيبر ، وفدك ووادي القرى ، صالحوا رسول الله ﷺ ، وأقاموا بأموالهم وانصرف رسول الله ﷺ ، راجعاً إلى المدينة[1] .

تعفّف المهاجرين :

ولما وصل المس' إلى المدينة ، ردّ المهاجرون إلى الأنصار ، منائحهم التي كانوا منحوهم إيّاها من النّخيل ، حين صار لهم بخيبر مال ونخيل ، وكانت أم سليم ـ وهي أم أنس بن مالك ـ أعطت رسول الله ﷺ ، عذاقاً فأعطاهنّ مولاته أمّ أيمن ، فرد رسول الله ، على أمّ سليم عذاقها ،

(١) ملخصاً من « زاد المعاد » ج ١ ، ص ٤٠٥ .

وأعطى أمّ أيمن مكانهنّ من حائطه، مكان كل عذق عشرة[١] .

وبعث رسول الله ﷺ ، بعد خيبر سرايا كثيرة ، وأمّر عليها كبار الصحابة كان في بعضها قتال ، ولم يكن في بعضها قتال[٢] .

عمرة القضاء :

ولما كان العام المقبل ، وذلك في سنة سبع ، قدم رسول الله ﷺ ، والمسلمون ، وخلت قريش بينه وبين مكّة ، وأقفلوا بيوتهم ، وطلعوا على جبل قعيقعان[٣] ، فأقام بها ثلاثاً ، واعتمر ، وهو قوله تعالى :

« لقد صدق الله رسوله ، الرؤيا بالحق لتدخُلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرّين لا تخافون ، فعلم ما لم تعلموا ، فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً[٤] » .

---

(١) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٠٦ ، وروى مسلم القصة مفصلة في كتاب الجهاد والسير في باب « رد المهاجرين الى الأنصار منائحهم من الشجر والثمر حين استغنوا عنها بالفتوح » وذكر فيها فتح قريظة والنضير .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٠٩ - ٤١٠ .

(٣) راجع صحيح البخاري باب « عمرة القضاء» .

(٤) سورة الفتح ٢٧ .

التنافس في حضانة البنت وتكافؤ المسلمين في الحقوق :

وقد تغيّرت النفوس والعقول بتأثير الإسلام تغيرّاً عظيماً ، فعادت البنت ـ التي كان يتعير بها أشراف العرب ، وجرت عادة وأدها في بعض القبائل ، فراراً من العار ، وزهداً في البنات ـ حبيبة يتنافس في كفالتها وتربيتها المسلمون .

وكانوا سواسية ، لا يرجح بعضهم على بعض إلا بفضل أو حق ، ولمّا أراد النبيﷺ ، الخروج من مكّة تبعته ابنة حمزة تنادي يا عم ! يا عم ! فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة عليها السلام: دونك ابنة عمّك فحملتْها فاختصم بها علي وزيد وجعفر فقال علي:أنا أخذتها وهي بنت عمي وقال جعفر:ابنة عمي وخالتها تحتي وقال زيد:ابنة اخي . . ، فقضى بها النبي ، ﷺ ، لخالتها ، وقال : الخالة بمنزلة الأم ، وقال لعلي : أنت مني وأنا منك ، وقال لجعفر : أشبهت خلْقي وخلُقي ، وقال لزيد : أنت أخونا ومولانا[1]

(١) الجامع الصحيح للبخاري ؛ كتاب المغازي ؛ باب « عمرة القضاء » .

غــزوة مؤتــة (١)

قتل سفير المسلمين وعقوبته :

بعث رسول الله ﷺ ، الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى شرحبيل بن عمرو الغساني ، حاكم « بصرى » التابع لقيصر ملك الرّوم ، فأوثقه رباطاً ، ثم قدّمه ، فضرب عنقه[٢] ، ولم تجر العادة ، بقتل الرّسل والسّفراء ، عند الملوك والأمراء ، مهما اشتدّ الخلاف ، وكرهت الرسالة التي يحملونها ، وكان حادثاً لا يجوز التغاضي عنه ، ففيه خطر عظيم على الرسل والسفراء ، وإهانة شديدة للمرسل والرسالة ، فكان لا بدَّ من تأديب هذا المعتدي والغضب لهذا المعتدى عليه ، حتى لا تهون حياة السفراء ولا تتكرّر هذه المأساة .

أوّل جيش في أرض الروم :

فلما بلغ رسول الله ﷺ ، الخبر ، أراد أن يبعث بعثاً إلى

---

(١) قرية تقع الآن على بعد ١٢ كيلو متراً جنوب الكرك ؛ في الأردن ، والمسافة بين المدينة ومؤتة ١١٠٠ كيلومترا تقريباً ، وقد قطعها المسلمون على ظهور الابل والخيل ، وانقطع عنهم المدد والميرة والخبر بعد ما خرجوا من بلدهم ، وهم يدخلون في لهوات العدو وفي فكيه ، يفعل بهم ما يشاء . (مقتبس من كتاب المؤلف« من نهر كابل الى نهر اليرموك ») .

(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

« بصرى » ، وذلك في جمادي الأولى من السنة الثامنة للهجرة ، فتجهّز النّاس ، وهم ثلاثة آلاف ، واستعمل عليهم زيد بن حارثة ، وهو مولى رسول الله ﷺ ، وفي الجيش كبار المهاجرين والأنصار وقال : «إن أصيب فجعفر بن أبي طالب على الناس ، فإن أصيب جعفر فعبدالله بن رواحة » فلما حضر خروجهم ، ودّع الناس أمراء رسول الله ﷺ ، وسلّموا عليهم[1] ، وكان أمامهم سفر طويل شاق ، وعدو ذو شوكة ، يتمتع بحماية أعظم مملكة في ذلك العصر .

ومضى الجيش ، حتى نزل بـ « معان » وبلغ المسلمين ، أنّ هرقل بـ « البلقاء » في مائة ألف من الروم ، وانضم اليهم جمع كثير من قبائل العرب ، لخم ، وجذام ، وبلقين ، وبهرا ، وبلي ، فأقاموا على « معان » ليلتين ينظرون في أمرهم ، وقالوا : نكتب إلى رسول الله ﷺ ، فنخبره بعدد عدونا ، فإمّا أن يمدّنا بالرجال وإما أن يأمر بأمره فنمضي له[2] .

ما تقاتل الناس بعدد ولا قوّة :

وشجّع الناس عبدالله بن رواحة ، فقال : يا قوم والله إنّ الذي تكرهون للتي خرجتم تطلبون ، الشهادة ، وما نقاتل

(١) المصدر السابق ؛ وابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٣٧٣ .
(٢) زاد المعادج ١ ، ص ٤١٥ .

الناس بعدد ولا قوّة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلاّ بهذا الدّين الذي أكرمنا به الله ، فانطلقوا ، فإنما هي إحدى الحسنيين ، إما ظفر وإما شهادة ، فمضى الناس[1] .

قتال المستميتين وصولة الأسود :

فلما كانوا بتخوم البلقاء ، لقيتهم الجموع من الروم والعرب ، بقرية من قرى البلقاء ، يقال لها « مشارف » ، ودنا العدو ، وانحاز المسلمون إلى قرية ، يقال لها : « مؤتة » ، والتقى الناس ، واقتتلوا[2] وقاتل زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ براية رسول الله ﷺ ، حتى استشهد ، وقد أخذت الرماح منه كلّ مأخذ ثم أخذها جعفر ، فقاتل بها ، حتى إذا أرهقه القتال ، اقتحم عن فرسه ، فعقرها ، ثم قاتل ، فقطعت يمينه ، فأخذ الراية بيساره ، فقطعت يساره ، فاحتضن الرّاية ، بعضديه ، حتى قتل ، وله ثلاث وثلاثون سنة[3] ، ووجد المسلمون ما بين صدره ومنكبيه وما أقبل منه تسعين جراحة ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح كلها في الأمام[4] ومات فتى الفتيان وهو يحنّ إلى الجنة ، ويتغنى

---

(١) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤١٥ .

(٢) ابن هشام ق ٢ ؛ ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

(٣) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤١٥ باختصار .

(٤) ابن كثير ، ج ٣ ، ص ٤٧٤ ، وزاد المعاد ؛ ج ١ ص ٤١٥ ، وجاء في (الجامع الصحيح) «فوجدناه في القتلى؛ ووجدنا ما في جسده بضعاً وتسعين ما بين طعنة ورمية (باب غزوة مؤتة) .

بنعمائها، ويستهين بالعدوّ وعَدَدِه وعُدَدِه ، وبزخارف الدنيا .

فلما قتل جعفر ، أخذ عبدالله بن رواحة الرّاية ، وتقدّم بها ، ونزل عن فرسه ، وأتاه ابن عم له ، بعظم عليه بعض لحم ، وقال: شدّ بهذا صلبك فإنّك قد لقيت في أيّامك هذه ما لقيت ، فأخذ بيده وأخذ منه بفمه يسيراً ، ثم ألقاه من يده ، وأخذ سيفه ، فتقدَّم وقاتل حتى قتل[1] .

قيادة خالد الحكيمة :

واصطلح النّاس بعده على خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ فأخذ الرّاية ، ودافع القوم ، وكان شجاعاً حكيماً يعرف سياسة الحرب، فانحاز بالجيش الإسلامي إلى الجنوب ، وانسحب العدوّ نحو الشمال [2] ، وأرخى الليل سدوله ، حتى انصرف الناس ، وكلا الفريقين اغتنم السلامة ، ورأى المصلحة في عدم التحرش ومتابعة القتال.

ووزّع خالد عدداً غير قليل من رجاله في خط مؤخّرة جيشه ، أحدثوا حين أصبح الناس ضجة عظيمة ، أدخلت إلى روع العدوّ أنَّ مدداً جاء من المدينة ، فتهيّب الروم المسلمين ، وقالوا : إذا كان صنع ثلاثة آلاف بنا ما قد رأيناه ،

---

(١) زاد المعادج ١ ، ص ٤١٥ ، سيرة ابن هشام ق ٢ ص ٣٧٩ .
(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤١٥ ؛ وسيرة ابن هشام ، ق ٢ ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠ .

فكيف بهم اذا جاءهم المدد ، الذي لا يعرف عدده وقوته ، فتقاعس الروم عن مهاجمة الجيش الإسلامي ، وكفى الله المؤمنين القتال[١] .

خبر عيان لا بيان :

وبينما كان المسلمون يخوضون المعركة ، كان رسول الله ﷺ ، يخبر أصحابه في المدينة بما يجري في المعركة ، يقول أنس بن مالك ، : « إنّ رسول الله ﷺ ، نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس ، قبل أن يأتيهم الخبر ، فقال : أخذ الرّاية زيد ، فأصيب ، ثم أخذها جعفر فأصيب ، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ، وعيناه تذرفان ، حتى أخذ الرّاية سيف من سيوف الله ، حتى فتح الله عليهم[٢] .

وفي رواية أنّه قال وهو على المنبر: « وما يسرّهم أنّهم عندنا » .

الطيّار ذو الجناحين :

وقال في جعفر : إنّ الله أبدله بيديه جناحين يطير بهما ، في الجنة حيث شاء[٣] ، ولذلك لقب بـ « جعفر الطيّار » و « ذي

(١) راجع المغازي للواقدي .

(٢) رواه البخاري ، باب غزوة مؤتة .

(٣) روى البخاري في صحيحه ؛ كان ابن عمر اذا حيا ابن جعفر قال : السلام عليك يا ابن ذي الجناحين ؛ باب غزوة مؤتة ، وزاد المعاد ، ج١ ص ٤١٥ .

الجناحين » .

حبّ نبوي وعاطفة إنسانية :

وقال رسول الله ﷺ ، لزوج جعفر : ائتيني ببني جعفر ، فلما حضروا تشممهم ، وذرفت عيناه ، وأخبر بشهادة جعفر ، ولما أتاهم النّعي ، قال لأهله : اصنعوا لآل جعفر طعاماً ، فقد أتاهم أمر يشغلهم ، وعرف في وجه رسول الله ﷺ ، الحزن[1] .

كرّارون لا فرّارون :

ولما دنا الجيش من حول المدينة ، تلقّاهم رسول الله ﷺ ، والمسلمون ، ولقيهم الصبيان يشتدون ، ورسول الله ، ﷺ ، مقبل مع القوم على دابة ، فقال : خذوا الصبيان ، واحملوهم ، وأعطوني ابن جعفر ، فأتى بعبدالله، فأخذه ، فحمله بين يديه .

وجعل النّاس يحثون على الجيش التراب ، ويقولون: يا فرّار ! فررتم في سبيل الله ، ويقول رسول الله ﷺ : ليسوا ، بالفرار ، ولكنهم الكرّار إن شاء الله تعالى[2] .

---

(١) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ؛ ص ٣٨٠ - ٣٨١ - باختصار ، والرواية في سنن الترمذي .

(٢) رواه الامام أحمد بن حنبل.

بين مؤتة وفتح مكة :

وكان بين غزوة مؤتة وفتح مكة سرية ذات السلاسل ، كانت في جمادى الآخرة ، سنة ثمان ، وهي وراء وادي القرى ، وكانت في بلاد قضاعة ، دوّخها الجيش الإسلامي .

وسرية الخبط ، وكان أميرها ، أبا عبيدة بن الجراح ، وكانت في رجب سنة ثمان ، في ثلاثمائة رجل من المهاجرين والأنصار ، أرسلهم إلى حيّ من جهينة ممّا يلي ساحل البحر وأصابهم في الطريق جوع شديد حتى أكلوا الخبط [وهو ورق الشجر]، والقى اليهم البحر حوتاً عظيماً ، يقال له « العنبر » فأكلوا منه نصف شهر ، وادهنوا منه ، حتى صلحت منه أجسامهم ، ولما سمع رسول الله ﷺ ، قال : هو رزق أخرجه الله لكم ، فتناول من لحمه شيئاً[1] .

---

(١) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤١٧ ، والرواية في صحيح البخارى ، باب «غزوة سيف البحر » وفي صحيح مسلم .

فَتْحُ مَكَّة

تمهيد لفتح مكّة :

ولمّا تمّ أمر الله في ترسيخ هذا الدين ، وتربية المسلمين ، وامتحن الله قلوبهم للتقوى وفاضت كأس قريش ظلماً وعدوانا ، وجحوداً بالحق ، وصداً عن سبيل الله ، ومحاربة للإسلام وأهله أرادالله أن يدخل رسوله والمسلمون مكة فاتحين غالبين ، ويطهروا الكعبة من الرجس من الأوثان وقول الزور ، ويعيدوا مكة إلى مكانتها الأولى ، فتكون مثابة للناس وأمناً ، ويجعلوا البيت كما كان مباركاً وهدى للعالمين .

نقض بني بكر وقريش الحلف :

وقد هيأ الله لذلك أسباباً ، وساعدت عليها قريش ، بل دعت اليها من حيث لا تشعر ، فقد وقع حادث لم يسوغ ذلك فحسب ، بل أوجبه ، ولله جنود السماوات والأرض .

كان قد تقرر في صلح الحديبية أن من أحب أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ ، وعهده ، فعل ، ومن أحب أن يدخل

في عقد قريش وعهدهم فعل ، ودخلت بنو بكر في عقد قريش وعهدهم ، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ ، وعهده ﷺ [1] .

وكان بين بني بكر وبين خزاعة تِرة قديمة ، وعداء متوارث ، يرجع تاريخه إلى ما قبل البعثة وجاء الإسلام ، فحجز بينهم ، وتشاغل الناس بشأنه ، فلما كانت الهدنة ، ودخلت القبيلتان في معسكرين متحاربين ، أراد بنو بكر أن ينتهزوا هذه الفرصة ، ليصيبوا من خزاعة الثأر القديم ، فبيّت نفر من بني بكر خزاعة وهم على ماء لهم فأصابوا منهم رجالاً ، وتناوشوا واقتتلوا .

وأعانت قريش بني بكر بالسّلاح ، وقاتل معهم أشراف من قريش مستخفين ليلاً ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر لبعض رجالهم : إنا قد دخلنا الحرم ، إلهك ! إلهك فقال : لا إله اليوم ! يا بني بكر ، أصيبوا ثأركم ، فلا تجدون هذه الفرصة بعد ذلك[2] .

الاستغاثة برسول الله ﷺ :

وخرج عمرو بن سالم الخزاعي ، وقدم على رسول الله

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٣٩٠

(٢) زاد المعاد ج ١ ؛ ص ٤١٩ ، وابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٣٩٠ .

ﷺ ، المدينة ، فوقف عليه ، وأنشد أبياتاً ، ينشده فيها الحلف الذي كان بينه وبين خزاعة ، وسأله النصر والنجدة ، ويخبره بأن قريشاً أخلفوه الموعد ، ونقضوا ميثاقه المؤكد ، وأنهم بيتوا وهم على ماء لهم وقتلوا ركعاً وسجداً ، فقال رسول الله ﷺ : نصرت يا عمرو بن سالم !

براءة الذّمة وإقامة الحجّة :

وأراد رسول الله ﷺ ، أن يستوثق منهم الخبر ، ويعذر إلى قريش ، فبعث إليهم رجلاً يخيّرهم بين إحدى ثلاث خلال ، بين أن يدفعوا دية قتلى خزاعة أو يبرأوا من حلف من تولى كِبْر هذا النقض ، وقاد الحملة على خزاعة ، وهم بنو نفاسة من بني بكر ، أو ينبذ إليهم على سواء فأجابه بعض زعمائهم : لكن ننبذ إليهم على سواء ، وبذلك برئت ذمة قريش، وقامت عليهم الحجة[1] .

محاولة قريش لتجديد العهد :

وقال رسول الله ﷺ ، للنّاس حين بلغه الخبر : « كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم ليشدّ العقد ويزيد في المدة » وهكذا

---

(١) رواه الزرقاني في المواهب عن ابن عائذ عن ابن عمر ، والرجل الذي بعثه رسول الله ﷺ ، اسمه ضمرة ، والذي أجابه من قريش اسمه ، قرطة بن عمرو ؛ (راجع شرح المواهب اللدنية للزرقاني ج ٢ ، ص ٣٤٩) .

كان ، فرهبت قريش مما صنعت ، وندمت على الجواب القاسي الذي أجاب به بعض سفهائهم، فبعثوا أبا سفيان إلى رسول الله ﷺ ، ليشد العقد ويزيد في المدة[١] .

إيثار النبي على الآباء والأبناء :

وقدم أبو سفيان على رسول الله ﷺ ، المدينة ـ ودخل على ابنته « أم حبيبة » زوج النبي ﷺ ، فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ ، طوته عنه ، فقال : يا بنية ! ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش أم رغبت به عني ؟ قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت مشرك نجس ، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ ، قال : والله لقد أصابك بعدي شر[٢] .

حيرة أبي سفيان وإخفاقه :

وأتى أبو سفيان رسول الله ﷺ ، فكلّمه فلم يردّ عليه شيئاً ثم ذهب إلى أبي بكر فكلمه أن يكلّم له رسول الله ﷺ ، فقال : ما أنا بفاعل ، وراود عمر وعلياً وفاطمة على ذلك ، فلم يجبه أحد إلى ذلك ، وقالوا : إن الأمر أجل منه ، حتى حار في أمره ، وقال لفاطمة : يا بنت محمد ! هل لك أن

(١ و٢) زاد المعادج ١ ، ص ٤٢٠ ، وابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٣٩٥ ـ ٣٩٦ .

تامري بنيّك هذا ـ وأشار إلى حسن بن علي ، وهو غلام يدب ـ أن يجير بين الناس ، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ، قالت : والله ما بلغ بني هذا أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ ، ولما رأى علي حيرته، وما فيه من ضيق وكرب ، قال له : ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً ، ولكنك سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس، ثم الحق بأرضك ، قال : أو ترى ذلك مغنياً عني شيئاً ؟ ، قال والله ما أظنه ، ولكني لا أجد لك غير ذلك ، فقام أبو سفيان في المسجد ، فقال : أيها الناس ! إنيّ قد أجرت بين الناس ، ثم ركب بعيره ، فانطلق(١) .

ولما سمعت قريش القصة ، قالوا : جئتنا بما لا يغني عنا ، ولا يغني عنك شيئاً .

التأهب لمكة وكتاب حاطب بن أبي بلتعة :

وأمر رسول الله ﷺ ، الناس بالجهاز . واستعان على أمره بالكتمان ، ثم أعلم الناس أنه سائر إلى مكة وأمرهم بالجد والتجهز ، وقال : اللهم ! خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها(٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ .
(٢) زاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٢١ ، وابن هشام ، ق ٢ ، ص ٣٩٧ .

ولما كان المجتمع الإسلامي المدني مجتمعاً بشرياً يعيش في واقع الحياة ، وبين المشاعر الإنسانية ، وخواطر النفس ورغباتها ، كان الأفراد فيه يصيبون ويخطئون ، وقد يكونون مؤوّلين في تصرفاتهم وأحكامهم ، وقد يجانبهم الصواب في هذا التأويل ، وذلك من خصائص المجتمعات البشرية التي تتمتع بالحرية والثقة ، وكان رسول الله ﷺ ، حين لا يقرهم على هذا الخطأ ، يلتمس لهم العذر ، ويتسامح معهم ، وكان من أوسع الناس صدراً مع هؤلاء المخطئين ، وأكثرهم معرفة بفضلهم وحسن بلائهم في الجهاد ، وسوابقهم في الإسلام ، وقد حفظ لنا الحديث ، وكتب السيرة النبوية وتاريخ الإسلام مثل هذه الحوادث ، النادرة في الوقوع ، وهو مما يدل على أمانتها وشهادتها بالحق .

ومن هذه الحوادث ما وقع لحاطب بن أبي بلتعة وهو ممن هاجر من مكة وشهد بدراً ، فقد جاء في الروايات أن النبي ﷺ ، لما أعلم الناس أنه سائر إلى مكة ، وأسرّ الأمر ، فتجهز الناس ، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتاباً ، يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، إليهم ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جعلاً على أن تبلغه قريشاً ، فجعلته في قرون رأسها ، ثم خرجت به ، وأتى رسولَ الله ﷺ ، الخبرُ من السماء بما صنع حاطب ، فبعث علياً والزبير ، فقال : انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ[1] ، فإن بها

(١) موضع بين المدينة ومكة ؛ قال الفتنى بمعجمتين موضع باثني عشر ميلا من المدينة وقيل بمهملة وجيم ، وهو تصحيف ؛ (مجمع بحار الأنوار ، ج ٢ ، ص ١٢٠ ، طبع حيدر آباد ، الهند) .

ظعينة معها كتاب إلى قريش ، فانطلقا تعادى بهما خيلهما ، حتى وجدا المرأة بذلك المكان ، فاستنزلاها وقالا : معك كتاب ؟ فقالت : ما معي كتاب ! ففتشا رحلها فلم يجدا شيئاً ، فقال لها علي - رضي الله عنه : أحلف بالله ما كذب رسول الله ﷺ ، ولا كذبنا ، والله لتخرجِنّ الكتاب ، أو لنجردنك ، فلما رأت الجدّ منه : قالت : أعرض ! فأعرض ، فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منها ، فدفعته إليهما ، فأتيا به رسول الله ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ ، إليهم .

فدعا رسول الله ﷺ ، حاطباً ، فقال : لا تعجل علي يا رسول الله ، والله إني لمؤمن بالله ورسوله ، وما ارتددت ، ولا بدلت ، ولكني كنت امرأ ملصقاً في قريش ، لست من أنفسهم ولي فيهم أهل وعشيرة وولد ، وليس لي فيهم قرابة يحمونهم ، وكان من معك لهم قرابات يحمونهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك أن أتخذ عندهم يداً يحمون بها قرابتي ، فقال عمر ابن الخطاب : دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ، وقد نافق ، فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدراً ، وما يدريك يا عمر ! لعل الله قد أطلع على أهل بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم ، فذرفت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم[1] .

(١) زاد المعادج ١ ، ص ٤٢١ ، وقد وردت القصة في الصحاح .

وخرج رسول الله ﷺ ، في رمضان من المدينة ، ومعه عشرة آلاف[1] ، ومضى حتى نزل « مر الظهران » ، وعمى الله الأخبار عن قريش ، فهم على وجل وارتقاب .

عفو عمن ظلم :

ولقي رسول الله ﷺ ، في الطريق ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، فأعرض عنه ، لما كان يلقاه منه من شدّة الأذى والهجو ، فشكا ذلك إلى علي ، فقال له : ائت رسول الله ﷺ ، من قبل وجهه ، فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف . « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين » ، فإنه لا يرضى أن يكون أحد أحسن منه قولاً ، ففعل ذلك فقال له رسول الله : « لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين » ، وحسن إسلامه بعد ذلك ، وما رفع رأسه إلى رسول الله ﷺ ، منذ أسلم حياء منه[2] .

أبو سفيان بين يدي رسول الله ﷺ :

وأمر رسول الله ﷺ ، الجيش ، فأوقدوا النيران ، وخرج أبو سفيان بن حرب يتجسس الأخبار ، وهو يقول : « ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكراً » ، وكان العباس بن

---

(١) باب « غزوة الفتح في رمضان » صحيح البخاري .

(٢) زاد المعاد ؛ ج ١ ، ص ٤٢١ .

عبد المطلب ، قد خرج من مكة قبل ذلك بأهله وعياله مسلماً مهاجراً ولحق بالعسكر ، فعرف صوت أبي سفيان ، وقال : هذا رسول الله ﷺ ، في الناس ، واصباح قريش ! فأركبه في عجز بغلته ، وخشي عليه أن يدركه أحد المسلمين ، فيقتله ، وأتى به رسول الله .

فلما رآه رسول الله ﷺ ، قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله .

قال : بأبى أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ، والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عني شيئاً بعد .

قال : ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟

قال : بأبي أنت وأمي ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه و [illegible] في النفس منها حتى الآن شيئاً .

قال العباس : ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، قبل أن تضرب عنقك ، فأسلم وشهد شهادة الحق[1] .

---

(١) ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٠٣ ؛ وزاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٢ .

عَفْوٌ عام وأمن بسيط :

ووسّع رسول الله ﷺ ، في الأمن والعفو ، حتى أصبح أهل مكة لا يهلك منهم إلا من زهد في السلامة ، وكره الحياة ، فقال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن[1] »

ونهى رسول الله ﷺ ، جيشه عن أن يستخدموا السلاح عندما يدخلون مكة على أي إنسان إلا من اعترضهم وقاومهم ، وأمر بأن يعف الجيش عن أموال أهل مكة وممتلكاتهم وأن يكفوا أيديهم عنها[2]

أبو سفيان أمام موكب الفتح :

وأمر رسول الله ﷺ ، العباس بن عبد المطلب أن يجُلس أبا سفيان حيث تمر به كتائب الإيمان .

وتحّركت كتائب الفتح كأنها بحر يموج ، وكانت القبائل تمر على راياتها ، كلما مرت قبيلة سأل عباساً عنها وعن اسم القبائل ، فيقول : مالي ولبني فلان ؟ حتى مر رسول الله ﷺ ، في كتيبة خضراء ، فيها المهاجرون والأنصار ، لا يرى منهم إلا

---

(١) ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٠٣ ، والرواية في البخاري مختصرة ، باب « أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح » .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٠٩ .

الحدق من الحديد ، فقال : سبحان الله ! يا عباس من هؤلاء ؟ قال: هذا رسول الله ﷺ ، في المهاجرين والأنصار ، قال : ما لأحد بهؤلاء قِبَل ولا طاقة ، والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً ، قال: يا أبا سفيان ! إنها النبوة ، قال : فنعم إذاً[1] .

وقام أبو سفيان فصرخ بأعلى صوته : يا معشر قريش ! هذا محمد ، قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، قالوا : قاتلك الله ، ما تغني عنا دارك ؟ ، قال : ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد[2] .

دخول خاشع متواضع ، لا دخول فاتح متعال :

ودخل رسول الله ﷺ ، مكة ، وهو واضع رأسه تواضعاً لله ، حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، حتى إن ذقنه ليكاد يَمَسّ واسطة الرّحل ، ودخل وهو يقرأ سورة الفتح[3] .

وفي دخوله مكّة فاتحاً ـ وهي قلب جزيرة العرب ومركزها

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٠٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠٥ وزاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٣ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ؛ ص ٥٥٤ ، وجاء في صحيح البخاري رواية عن معاوية بن قرة ، رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح ؛ يرجّع.

الروحـــي والسياسي - رفـــع كل شعـــار من شعائـــر العـــدل والمساواة ، والتواضع والخضوع ، فأردف أسامة بن زيد[1] ، وهو ابن مولى رسول الله ﷺ ، ولم يردف أحداً من أبناء هاشم وأبناء أشراف قريش ، وهم كثير .

وكان ذلك صبح يوم الجمعـة لعشرين ليلـة خلـت من رمضان ، سنة ثمان من الهجرة .

وكلمه رجل يوم الفتح ، فأخذته الرعدة ، فقال : هوّن عليك فإني لست بملك ، وإنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد[2] .

مرحمة لا ملحمة :

ولما مرّ سعد بن عبادة بأبي سفيان في كتيبة الأنصار ، قال له : اليوم يوم الملحمة ، اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ، فلما حاذاه رسول الله ﷺ ، في كتيبته شكا إليه ذاك أبو سفيان ، قال : يا رسول الله ! ألم تسمـع ما قال سعـد ؟ ، قال : وما قال ؟ قال: كذا كذا .

فاستنكر رسول الله ﷺ ، مقالة سعد ، وقـال : « بـل

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج٣ ، ص ٥٥٦ .

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي ، باب «حجة الوداع » .

اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعز الله قريشاً ، ويعظم الله الكعبة[1] » ، وأرسل إلى سعد ، فنزع منه اللواء ، ودفعه إلى قيس ابنه ، ورأى أن اللواء لم يخرج عن سعد إذ صار إلى ابنه[2] .

ولم يزد الرسول الملهم أن أبدل حرفاً بحرف ، وأبا بابن ، فعالج نفس أبي سفيان المكلومة ـ وكان في حاجة إلى تأليف القلب ـ من غير أن يسيء إلى سعد ، صاحب سوابق في الإسلام .

مناوشات قليلة :

وكانت مناوشات قليلة بين صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل ، وسهيل بن عمرو ، وبين أصحاب خالد بن الوليد ، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً ، ثم انهزموا[3] ، وكان رسول الله ﷺ ، قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين يدخلون مكّة ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم[4] .

---

(١) رواه الأموي في المغازي (فتح الباري ، ج ٨ ؛ ص ٧) وروى البخاري القصة باختلاف بعض الألفاظ ، ومقالة سعد بن عبادة ورد النبي ﷺ ؛ في صحيحه ، والأموي هو يحيى بن سعيد بن أبان ، صدوق ، روى له الستة ، مات سنة ٩٤ هـ (راجع ج ٢ ، ص ٦١٣)

(٢) زاد المعاد ج ١ ؛ ص ٤٢٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ، ص ٤٠٧ ـ ٤٠٨ باختصار .

(٤) المصدر السابق، ص ٤٠٩ .

تطهير الحرم من الأوثان والأصنام:

ولما نزل رسول الله ﷺ ، واطمأنّ الناسّ ، خرج حتى جاء البيت ، فطاف به ، وفي يده قوس ، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنماً ، فجعل يطعُنها بالقوس ، ويقول : « جاء الحق وزهق الباطل ، إن الباطل كان زهوقاً ، وما يبدئ الباطل وما يعيد »، والأصنام تتساقط على وجوهها [1].

ورأى في الكعبة الصور والتماثيل ، فأمر بالصور ، وبالتماثيل فكسرت [2] .

اليوم يوم برّ ووفاء :

ولما قضى طوافه ، دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ، ففتحت له ، ودخل ، وكان قد طلب منه المفتاح يوماً قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فأغلظ له القول ، ونال منه ، فحلم عنه ، وقال : يا عثمان ! لعلك ترى هذا المفتاح يوماً بيدي ، أضعه حيث شئت، فقال لقد هلكت قريش يومئذ وذلت ، فقال : بل عمرت وعزّت يومئذ، ووقعت كلمته من عثمان بن طلحة موقعاً ، وظن أن الأمر سيصير إلى ما قال [3] .

---

(١) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٤ ؛ وراجع القصة في صحيح البخاري ، باب « أين ركز النبي ﷺ الراية يوم الفتح » .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٤١١ ، وزاد المعاد ج١ ؛ ص ٤٢٤ .

(٣) زاد المعاد، ج ١، ص ٤٢٥ ، وراجع القصة في صحيح البخاري .

فلما خرج من الكعبة ، قام إليه علي بن أبي طالب ، ومفتاح الكعبة في يده ﷺ ، قال لرسول الله ﷺ : إجمع لنا الحجابة مع السِّقاية ، صلى الله عليك وسلّم ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة فدُعيَ له ، فقال : هاك مفتاحك يا عثمان ! اليوم يوم بر ووفاء[1] ، خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم[2] .

الإسلام دين توحيد ووحدة :

وفتح رسول الله ﷺ ، باب الكعبة، وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ، ينتظرون ماذا يصنع ، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته ، فقال: « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصرعبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ألا كل مأثرة ومال أودم ، فهو تحت قدمي هاتين ، إلا سدانة البيت وسقاية الحاج » .

« يا معشر قريش ! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ، وتعظمها بالآباء ، الناس من آدم وآدم من تراب ، ثم تلا هذه الآية :

« يا أيّها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ق ٢ ، ص ٤١١ ـ ٤١٢ ملخصاً .

(٢) زاد المعاد؛ ج ١، ص ٤٢٥ ؛ نقلا عن طبقات ابن سعد.

شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير[1] » .

نبي المحبّة ورسول الرّحمة :

ثم قال رسول الله ﷺ : يا معشر قريش ! ما ترون أني فاعل بكم ؟

قالوا : خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم !

قال : فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته : « لا تثريب عليكم اليوم » اذهبوا فأنتم الطلقاء[2] .

وأمر بلالاً أن يصعد ، فيؤذن على الكعبة ، ورؤساء قريش وأشرافهم يسمعون كلمة الله تعلو ، ومكة ترتجّ بالأذان .

ودخل رسول الله ﷺ ، دار أم هانئ بنت أبي طالب ، فاغتسل ، وصلى ثماني ركعات صلاة الفتح شكراً لله عليه[3] .

لا تمييز في تنفيذ حدود الله :

وسرقت امرأة من بني مخزوم ـ اسمها فاطمة ـ في هذه

(١) سورة الحجرات ١٣ . زاد المعاد ؛ ج ١ ؛ ص ٤٢٤ .
(٢) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٤ .
(٣) رواه البخاري في باب منزل النبي ﷺ ، يوم الفتح ، وزاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٥ .

الغزوة ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد ، لمكانته عند رسول الله ﷺ ، يستشفعونه ، فلما كلم رسول الله ﷺ ، تلون وجهه ، وقال : أتكلمني في حد من حدود الله ؟! ، قال أسامة : استغفر لي يا رسول الله !

فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ، خطيباً ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، فإنما هلك الناس قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذي نفس محمد بيده ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » .

ثم أمر رسول الله ﷺ ، بتلك المرأة ، فقطعت يدها ، فحسنت توبتها بعد ذلك ، وتزوجت [1] .

عفو عن الأعداء الألدّاء :

ولما استقرّ الفتح ، وأمّن رسول الله ﷺ ، النّاس كلّهم ، إلاّ تسعة نفر ، أمر بقتلهم وإن وجدوا تحت أستار الكعبة ، منهم من ارتد عن دينه ، ومنهم من قتل مسلماً غيلة ، ومنهم من كان يشتغل ويتسلى بهجائه ويذيعه بين الناس ، وكان منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح وكان قد ارتدّ .

---

(١) رواه البخاري ومسلم (الجامع الصحيح للبخاري ؛ باب « مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح ») واللفظ للبخاري .

ومنهم عكرمة بن أبي جهل ، وكان قد خرج إلى اليمن كارهاً لدولة الإسلام وخائفاً على نفسه ، فاستأمنت له امرأته بعد أن فرّ ، فامنّه النبيﷺ ، وهو ابن أعدى عدو له في الدنيا - وثب إليه رسول اللهﷺ ، - وما عليه رداء ، فرحا به ، وترحيباً ، وأسلم عكرمة ، فسر به رسول اللهﷺ ، سروراً عظيماً ، وحسن إسلامه ، وكان له مواقف عظيمة في حروب الردة وحروب الشام .

ومنهم وحشي مولى جبير بن مطعم ، وقاتل عم الرسول وأسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب - وكان رسول اللهﷺ ، قد أهدر دمه - فأسلم ، وقبل رسول اللهﷺ ، إسلامه ، ومنهم هبّار بن الأسود ، وكان قد عرض لزينب بنت الرسول ، حين هاجرت ، فنخس بها حتى سقطت على صخرة ، وأسقطت جنينها ، ففرّ ، ثم أسلم ، وحسن إسلامه ، واستؤمن لسارة ولإحدى القينتين اللتين كانتا تغنيان بهجائه ، فأمنّهما فأسلمتا[1] .

بين هند بنت عتبة وبين رسول اللهﷺ :

واجتمع الناس بمكة لبيعة رسول اللهﷺ ، على

---

(١) زاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٥ .

الإسلام ، فجلس لهم ، على الصفا وأخذ على الناس السمع والطاعة لله ، ولرسوله ، فيما استطاعوا .

ولما فرغ من بيعة الرجال، بايع النساء وفيهن هند بنت عتبة زوج أبي سفيان متنقبة متنكرة لما كان من صنيعها بحمزة .

قال رسول الله ﷺ ، لهن : بايعنني على ألاَّ تشركن بالله شيئاً ، فقالت هند : والله إنك لتأخذ علينا ما لا تأخذ من الرجال .

« ولا تسرقن » ، فقالت : والله إني كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة ، وما كنت أدري أكان ذلك حلالاً أم لا ؟ ، فقال أبو سفيان ـ وكان شاهداً لما تقول : أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل ، فقال رسول الله ﷺ : « وإنكِ لهند بنت عتبة ؟ » ،قالت :نعم ، فاعف عما سلف ، عفا الله عنك .

ثم قال : « ولا تزنين » فقالت : يا رسول الله وهل تزني الحرة ؟[1] .

ثم قال : « ولا تقتلن أولادكن » ، قالت : ربيناهم

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ؛ ج ٣ ، ص ٦٠٣ .

صغاراً، وقتلتهم كباراً ، فأنت وهم أعلم[1] ، فضحك عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه حتى استغرق ثم قال: ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن .

فقالت : والله إن إتيان البهتان لقبيح ، ولبعض التجاوز أمثل .

ثم قال : « ولا يعصينني » ، فقالت : في معروف[2] .

المحيا محياكم والمهات مماتكم :

ولما فتح الله مكّة على رسوله ـ وهي بلده ووطنه ومولده ـ تحدث الأنصار فيما بينهم ، فقالوا : إن رسول الله ﷺ ، قد فتح الله عليه أرضه وبلده ، فهو مقيم بها ، لا يعود إلى المدينة .

وسأل رسول الله ﷺ ، الأنصار عن حديثهم ، ولا يعرفه غيرهم ، فاستحيوا ثم أقروا به ، فقال : معاذ الله ! المحيا محياكم والمهات مماتكم[3] .

كيف انقلب العدو محباً والماجن تقياً :

همّ فضالة بن عمير أن يقتل رسول الله ﷺ ، وهو يطوف

(١) السيرة الحلبية ج ٣ ، ص ١٠٩ .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٣ ، ص ٦٠٢ ـ ٦٠٣ ، بزيادة يسيرة من غير ابن كثير .

(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٤١٦ .

بالبيت ، فلما دنا منه قال له: أي فضالة ! قال : نعم يا رسول الله ! فقال : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟ ،قال : لا شيء ، كنت أذكر الله، فضحك النبي ﷺ ، ثم قال : أستغفر الله ، ثم وضع يده على صدره ، فسكن قلبه ، وكان فضالة يقول : والله ما رفع يده عن صدري ، حتى ما خلق الله شيئاً أحبّ إلي منه .

قال فضالة : فرجعت إلى أهلي ، فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها ، قالت : هلم إلى الحديث ، قال : يأبى الله عليك والإسلام[1] .

إزالة آثار الجاهليّة وشعائر الوثنيّة :

وبثّ رسول الله ﷺ ، سراياه إلى الأوثان التي كانت حول الكعبة ، فكسرت كلها ، منها اللاّت والعزّى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ونادى مناديه بمكّة :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يدع في بيته صنماً إلا كسره » ، وبعث رجالاً من أصحابه إلى القبائل ، فهدموا أصنامها[2]، قال جرير : كان بيت في الجاهلية يقال له « ذو

---

(١) سيرة ابن هشام ق٢ ؛ ص ٤١٧ ، وزاد المعاد ج ١ ، ص ٤٢٦ .

(٢) راجع للتفصيل زاد المعاد ج ١ ؛ ص ٤٢٦ .

الخلصة » « والكعبة اليمانية » و« الكعبة الشامية » ، فقال لي النبي ﷺ : ألا تريحني من « ذي الخلصة » ؟ يقول جابر : فنفرت في مائة وخمسين راكباً من أحمس ، (وكانوا أصحاب خيل) فكسرناه وقتلنا من وجدنا عنده ، فأتيت النبي ﷺ ، فأخبرته ـ فدعا لنا ولأحمس[1] .

وقام رسول الله ﷺ ، في مكة خطيباً ، فأعلن حرمة مكة إلى يوم القيامة : « لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً ، أو يعضد[2] بها شجرة » ، وقال : « لم تحلّ لأحد كان قبلي ولا تحلّ لأحد يكون بعدي » ، ثم انصرف راجعاً إلى المدينة[3].

أثر فتح مكة :

وكان لفتح مكة أثر عميق في نفوس العرب ، فشرح الله صدر كثير منهم للإسلام ، وصاروا يدخلون فيه أرسالاً ، وكانت عدة قبائل بينها وبين قريش حلف ، وكانت ممتنعة عن الدخول في الإسلام لمكانة هذا الحلف ، وكانت قبائل ترهب قريشاً وتجلّها ، فلما رأتهم استسلموا للإسلام ورغبوا فيه زال الحاجز ، وكانت قبائل تعتبر مكة لا يفتحها ولا يدخلها ملك

(١) الجامع الصحيح للبخاري ، باب «غزوة ذي الخلصة » .
(٢) يعضد : يقطع .
(٣) راجع زاد المعادج ١ ، ص ٤٢٥ ـ ٤٢٦ .

جبار أو من يريد لها سوءاً ، ولا يزال فيها من عاصر حادثة الفيل ، وشاهد ما فعل بأبرهة، فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبي صادق[1] .

فلما فتح الله لنبيه مكّة ، وخضعت قريش للإسلام طوعاً أو كرهاً ، أقبل العرب على الإسلام إقبالاً لم يعرف قبل ذلك ، وصاروا يدخلون في دين الله أفواجاً[2]، وصدق الله العظيم : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً » .

أمير شاب حديث السن :

وأمّر رسول الله ﷺ، قبل أن يغادر مكّة عتاب بن أُسيد[3]، يدبر أمورها ، ويقيم الموسم والحج بالمسلمين ، وهو دون العشرين سنة ، أو فوقها قليلاً ، وذلك بمحضر من أهل الأسنان والفضل ، فدلّ على أن المناصب على الجدارة والقوة ، وأقره أبو بكر في خلافته[4].

---

(١) راجع صحيح البخاري عن عمرو بن سلمة (باب مقام النبي ﷺ بمكة زمن الفتح) .

(٢) مستفاد من كتاب « رحمة للعالمين » لمؤلفه الشهير قاضي محمد سليمان المنصور بوري.

(٣) ابن هشام ، ق ٢ ، ص ٤٤٠ .

(٤) راجع الإصابة وأسد الغابة .

غَـزْوَة حُنَـيْن

محاولة أخرى لإطفاء نور الله بالأفواه :

وبعد أن تمّ فتح مكة ، وبدأ النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً ، أطلق العرب السهم الأخير في كنانتهم على الإسلام والمسلمين ، فكانت محاولة يائسة لمحاربة الرسولﷺ ، ووقف مدّ الإسلام في جزيرة العرب .

اجتماع هوازن :

وكانت هوازن قوّة كبيرة بعد قريش ، وكان بينها وبين قريش تنافس ، فلم تخضع لما خضعت له قريش ، وأرادت أن يكون لها الفضل والصيت في استئصال شأفة الإسلام ، فيقال : إن هوازن استطاعت ما لم تستطعه قريش .

قام مالك بن عوف النصري - سيد هوازن - فنادى بالحرب واجتمع إليه مع هوازن ثقيف كلها ، ونصر وجشم كلها ، وسعد بن بكر ، وتخلف عن هوازن كعب وكلاب ، وأجمع السير إلى رسول الله ﷺ ، وحط مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم ، ليثبتوا ويدافعوا عن الأهل والعرض .

وشهد الحرب دريد بن الصِّمّة ، وكان شيخاً ، كبير السن ، مجرباً ، له رأي وحكمة ، ونزلوا بـ « أوطاس »[١] ، وللبعير رغاء وللحمير نهاق ، وللشاء ثغاء ، وللصغار بكاء ، قال مالك للناس : إذا رأيتم المسلمين فاكسروا جفون سيوفكم ، ثم شدوا شدة رجل واحد[٢] .

وخرج رسول الله ﷺ ، ومعه ألفان من أهل مكّة ، ومنهم من هو حديث العهد بالإسلام ، ومنهم من لم يسلم ، وعشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه من المدينة فبلغ عددهم إلى ما لم يبلغه في غزوة قبل ذلك ، حتى قال أناس من المسلمين : لن نغلب اليوم من قلة ، وأعجبتهم كثرة الناس[٣] .

واستعار رسول الله ﷺ ، من صفوان بن أمية أدراعاً وسلاحاً ـ وهو مشرك ـ ومضى على وجهه يريد لقاء هوازن[٤] .

لا رجعة للوثنية :

قد خرج مع رسول الله ﷺ ، إلى حنين بعض حديثي العهد بالجاهلية وكانت لبعض القبائل شجرة عظيمة خضراء ،

---

(١) أوطاس : واد في ديار هوازن عند الطائف ، كانت فيه وقعة حنين .
(٢) ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٩ .
(٣) تفسير الطبري، ج ١٠؛ ص ٦٢ ـ ٦٣ .
(٤) ابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٤٤٠ .

يقال لها : « ذات أنواط » يأتونها كل سنة ، فيعلقون أسلحتهم عليها ، ويذبحون عندها ، ويعكفون عليها يوماً .

وبينما يسيرون مع رسول الله ﷺ ، إذ وقع بصرهم على الشجرة ، فتحلبت أفواههم على أعياد الجاهلية التي هجروها ، ومشاهدها التي طال عهدهم بها ، فقالوا : يا رسول الله ! اجعل لنا « ذات أنواط » كما لهم « ذات أنواط » ، فقال رسول الله ـ ﷺ ، : الله أكبر ! قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال : إنكم قوم تجهلون » لتركبن سنن من كان قبلكم[1] .

في وادي حنين :

واستقبل المسلمون وادي حنين ، وذلك في عاشر شوال ، سنة ثمان ، وهم ينحدرون فيه انحداراً في ظلام الصبح ، وكانت هوازن قد سبقتهم إلى الوادي ، وكمنوا لهم في شعابه وأحنائه ومضايقه ، فما راع المسلمين إلا أن رشقوهم بالنبال ، وأصلتوا السيوف ، وحملوا حملة رجل واحد وكانوا قوماً رماة[2] .

وانشمر عامة المسلمين راجعين ، لا يلوي منهم أحد

---

(١) سيرة ابن هشام، ق ٢، ص ٤٤٢ ، والرواية في الصحاح .
(٢) أيضا ، ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣ .

على أحد[1]، وكانت فترة حاسمة ، يوشك أن تدور الدائـرة على المسلمين ، فلا تقوم لهم قائمة بعد ذلك ، وكانت شبيهة بما وقع يوم أحد حين طار في الناس أن النبي قد قتل ، وانحسر عنه المسلمون .

شماتة الأعداء وتزلزل ضعاف الإيمان :

ولما رأى من كان مع رسول الله ﷺ ، من جفـاة أهـل مكة ، والذين لما يدخل الإيمـان في قلوبهـم ، هذه الهزيمـة ، تكلم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن، فقال بعضهم: « لا تنتهي هزيمتهم دون البحر» وقال بعضهم : ألا بَطَلَ السحر اليوم[2] .

الفتح والسّكينة :

ولما تم ما أراد الله من تأديب المسلمين الذين أعجبتهم الكثرة ، وأذاقهم الله مرارة الهزيمة بعد حلاوة الفتح ، ليقوى إيمانهم ، فلا يبطرهم الفتح ، ولا تؤيسهم الهزيمـة ، ردّ لهـم الكرة على الأعداء ، وأنزل السكينة على رسوله وعلى المؤمنين ، وكان رسول الله ﷺ ، واقفاً في موقفه ، على بغلته الشهباء ، غير وجل ولا هيّاب ، وقد بقي معه نفر من المهاجـرين والأنصـار

---

(١) زاد المعاد، ج ١؛ ص ٤٤٦ .

(٢) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ص ٤٤٢ ـ ٤٤٤ ، مختصراً .

وأهل بيته ، والعباس بن عبد المطلب آخذ بحكمة بغلته ، ورسول الله ﷺ ، يقول :

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب[1]

ولما استقبلته كتائب المشركين ، أخذ قبضة من تراب ، ورمى بها إلى عيون الأعداء إلى البعد فملأت أعين القوم .

ولما رأى انشغال الناس بأنفسهم ، قال : يا عباس ! إصرخ « يا معشر الأنصار ! يا معشر أصحاب السمرة ! » فأجابوا: لبيك لبيك ، وكان رجلاً صيِّتاً ، فيؤم الرجل الصوت ويقتحم عن بعيره ، ويأخذ سيفه وترسه ، حتى ينتهي إلى رسول الله ﷺ ، حتى إذا اجتمع إليه منهم طائفة ، استقبلوا الناس ، فاقتتلوا ، وأشرف رسول الله ﷺ ، في ركائبه ، فنظر إلى القوم يجتلدون ، فقال : « الآن حمي الوطيس »[2] ، ثم أخذ رسول الله ـ ﷺ ، حصيات فرمى بهن وجوه الكفار ، يقول عباس : « فما زلت أرى حدّهم كليلاً وأمرهم مدبراً »[3] .

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ؛ باب قوله تعالى : « إذ أعجبتكم كثرتكم الخ » وفيه « أن أبا سفيان بن الحارث آخذ بغلته البيضاء ، وراجع للتفصيل سيرة ابن هشام ق٢ ، ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ ، ورواه مسلم في صحيحه في باب « غزوة حنين » .

(٢) سيرة ابن هشام ؛ ق ٢ ، ص ٤٤ ؛ يعني : استعرت الحرب ، وهي من الكلم التي لم يسبق النبي اليها .

(٣) رواه مسلم .

واجتلد الناس ، فما رجعت راجعة الناس من هزيمتهم ، حتى وجدوا الأسارى مكتفين عند رسول الله ﷺ [1] ، وأنزل الله ملائكته بالنصر ، فامتلأ بهم الوادي [2] ، وتمت هزيمة هوازن ، وذلك قوله تعالى :

« لقد نصركم الله في مواطنَ كثيرة ، ويوم حنين ، إذ أعجبتكم كثرتكم ، فلم تغن عنكم شيئاً ، وضاقت عليكم الأرض بما رحُبَتْ ، ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وأنزل جنوداً لم تروها ، وعذب الذين كفروا ، وذلك جزاء الكافرين » [3] .

آخر غزوة ضدّ الإسلام والمسلمين :

وبغزوة حنين طفئت جمرة العرب ، فقد استفرغت قواهم ، واستنفدت سهامهم ، وأذلت جمعهم ، فانشرحت صدورهم للدخول في الإسلام .

في أوطاس :

ولما تمت الهزيمة لهوازن ، ذهبت فرقة منهم ـ فيهم الرئيس مالك بن عوف ـ فلجأوا إلى الطائف ، فتحصنوا بها ،

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٤٥ .
(٢) أيضاً ؛ ص ٤٤٩ ، ورواه مسلم مطولا في كتاب الجهاد والسير ، باب غزوة حنين .
(٣) سورة التوبة ٢٥ ـ ٢٦ .

وسارت فرقة ، فعسكروا بـ « أوطاس » فبعث إليهم رسول الله ـ ﷺ ، سرية من أصحابه ، عليهم أبو عامر الأشعري ، فقاتلوهم فغلبوهم [1]

وجمعت إلى رسول الله ﷺ ، سبايا حنين وأموالها ، فأمر بالسبايا والأموال إلى « الجعرانة » [2] فحبست بها [3] .

وكان السّبي ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفاً ، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، وكان أكبر مغنم غنمه المسلمون .

وكان رسول الله ﷺ ، قد نهى أصحابه يوم حنين ، أن يقتلوا وليداً ، أو امرأة ، أو أجيراً ، أو عبداً مستعاناً به ، وتأسف على امرأة قتلت في حنين [4] .

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ج ٣ ، ص ٦٤٠ .

(٢) يخفف ويثقل ، تقع على الطريق الشمالي الشرقي من مكة الى الطائف على مسافة أكثر من ٢٠ كيلو وهي خارج الحرم وقد أحرم منها رسول الله ﷺ للعمرة وعليها كان يلتقي الطريقان من مكة والمدينة الى الطائف في العهد النبوي (مقتبس من كتاب « الحج ومقامات الحج » للاستاذ محمد الرابع الندوي) .

(٣) ابن هشام ق ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٤) سيرة ابن كثير ؛ ج ٣ ، ص ٦٣٨ .

غَــزْوَةُ الطَّــائِفْ

فلول ثقيف :

وقـدم فلّ ثقيف الطّـائف ، وأغلقـوا عليهـم أبـواب مدينتها ، ورموا حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، وأعدوا للحرب عدتها ، فسار رسول الله ﷺ ، إليهم ، ومضى حتى نزل قريباً من الطائف ، ولم يقدروا على أن يدخلوه ، فقد أغلقوه دونهم ، ورمت ثقيف المسلمين بالنبل رمياً شديداً ، كأنه رجل جراد ، وكانوا رماة .

حصار الطّائف :

فنقل رسول الله ﷺ ، العسكر إلى مكان آخر ، وحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة ، وقاتلهم قتالاً شديداً ، وتراموا بالنبل ، واستخدم رسول الله ﷺ ، في هذا الحصار المنجنيق لأول مرة ، واشتد الحصار ، وقتل رجال من المسلمين بالنبل(١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٣ ، ص ٤٧٨ ـ ٤٨٣ باختصار ، وزاد المعاد ، ج ١ ، ص ٤٥٧ ملخصاً .

الرّحمة في ميدان الحرب:

ولمّا ضاق الحصار ، وطالت الحرب ، أمر رسول الله ﷺ ، بقطع أعناب ثقيف وهي مما يعتمدون عليها في معاشهم ، ووقع الناس فيها يقطعون ، فسألوه أن يدعها لله ، وللرحم ، فقال : فإني أدعها لله وللرحم .

ونادى منادي رسول الله ﷺ ، أيما عبد نكل من الحصن وخرج إلينا فهو حر ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، فيهم أبو بكرة ، فأعتقهم رسول الله ﷺ ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة[1] .

رفع الحصار :

ولم يؤذن لرسول الله ﷺ ، في فتح الطائف ، فأمر عمر ابن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأذن في الناس بالرحيل ، فضج الناس من ذلك ، وقالوا : نرحل ولم يفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ ، : فاغدوا على القتال : فغدوا ، فأصابت المسلمين جراحات ، فقال رسول الله ﷺ ، : إنا قافلون غداً إن شاء الله ، فسروا بذلك ، وأظعنوا ، وجعلوا يرحلون

---

(١) زاد المعاد ، ج ، ص ٤٥٧ ، نقلا عن ابن اسحاق .

ورسول الله ﷺ ، يضحك[١] .

سبايا حنين ومغانمها :

ونزل رسول الله ﷺ ، « الجعرانة » فيمن معه من الناس ، واستأنى بهوازن أن يقدموا عليه مسلمين بضع عشرة ليلة ، ثم بدأ بالأموال ، فقسمها ، وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس ، وأجزل لأبي سفيان بن حرب وابنيه : يزيد ومعاوية ، وأعطى حكيم بن حزام ، والنضر بن الحارث ، والعلاء ابن الحارثة ، وغيرهم من أشراف قريش ، فأكثر وأجزل ، ثم أمر بإحضار الغنائم والناس ، ففرضها عليهم[٢] .

حب الأنصار وإيثارهم :

وتقاول شباب من الأنصار في هذا الفرض الذي كان لأشراف قريش ومؤلفة القلوب ، النصيب الأكبر فيه ، ولم يكن للأنصار إلا نصيب ضئيل .

فأمر رسول الله ﷺ ، بالأنصار ، فجمعوا في حظيرة ، فخطب خطبة عظيمة مست قلوبهم ، ففاضت لها عيونهم وثار

---

(١) أيضاً ، والقصة في صحيح البخاري باب « غزوة الطائف » وفي صحيح مسلم ، باب « غزوة الطائف » .

(٢) زاد المعاد ج١ ، ص ٤٤٨ ، باختصار .

فيهم الحب والحنان ، قال فيها « ألم آتكم ضُلاّلاً ، فهداكم الله بي ، وعالـة فأغنـاكم الله بي ، وأعــداء فألّف الله بــين قلوبكم؟!» .

قالوا : الله ورسوله أمنّ وأفضل .

ولما سكتوا قال : ألا تجيبوني يا معشر الأنصار !

قالوا : بمـاذا نجيبـك يا رسـول الله ! لله ورسولـه المنّ والفضل .

قـال : « أمـا والله لو شئتــم لقلتــم ، فلصدقتــم ، ولصدقتــكم : أتيتنــا مكذبــاً ، فصدّقنــاك ، ومخــذولاً ، فنصرناك ، وطريداً ، فآويناك ، وعائلاً ، فواسيناك » .

ثم انعطف عليهم بكلمة فيها الثقـة ، وفيهـا الدالـة ، وفيهـا حكمـة هذا التفـاوت في الفـرض والعطـاء ، فقـال : « أوجدتم عليّ يا معشر الأنصار ، في أنفسكم، في لعاعة[1] من الدنيا ، تألفت بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم » .

ثم قال كلمة لم يتمالكوا أمامها ، فانفجر الإيمان والحنان في نفوسهم ، وتدفق ، قال :

---

(١) لعاعة ، بقلة خضراء وناعمة ، شبهٰ بها زهرة الدنيا ونعمها .

« ألا ترضون يا معشر الأنصار ! أن يذهب الناس بالشاء والبعير ، وترجعون برسول الله ﷺ ، إلى رحالكم ؟ فوالذي نفس محمد بيده ، لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به ، ولولا الهجرة لكنت أمرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً ووادياً ، وسلكت الأنصار شعباً ووادياً لسلكت شعب الأنصار وواديها ، الأنصار شعار ، والناس دثار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار » .

وبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم ، وقالوا : « رضينا برسول الله قسماً وحظاً »[1] .

ردّ السّبايا على هوازن :

وقدم وفد هوازن على رسول الله ﷺ ، وهم أربعة عشر رجلاً ، فسألوه أن يمنّ عليهم بالسبي والأموال ، فقال : « إن معي من ترون ، وإن أحبّ الحديث إليّ أصدقه ، فأبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم ؟ » .

قالوا : ما كنا نعدل بالأبناء والنساء شيئاً ، وقال : إذا صليت الغداة فقوموا وقولوا : إنا نستشفع برسول الله ﷺ ، إلى المؤمنين ونستشفع بالمؤمنين إلى رسول الله ﷺ ، أن يرد علينا

---

(١) أصل الرواية في الصحيحين ، وساقه ابن القيم في « زاد المعاد » أجمع وأشمل الطرق فاعتمدنا عليه ، راجع الجامع الصحيح للبخاري « باب غزوة الطائف » .

سبينا ، فلما صلى الغداة ، قاموا ، فقالوا ذلك فقال رسول الله ﷺ : « أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وسأسأل لكم الناس » فقال المهاجرون والأنصار : ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ .

وأبى ثلاثة من بني تميم ، وبني فزارة ، وبني سليم ، أن يتنازلوا عن سبيهم ، فقال رسول الله ﷺ : « إن هؤلاء القوم قد جاءوا مسلمين ، وقد كنت استأنيت بهم ، وقد خيرتهم ، فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئاً ، فمن كان عنده منهن شيء ، فطابت نفسه بأن يرده ، فسبيل ذلك، ومن أحب أن يستمسك بحقه ، فليرد عليهم ، وله فريضة ست فرائض ، من أول ما يفيء الله علينا » .

فقال الناس : قد طيبنا لرسول الله ﷺ ، فقال : « إنا لا نعرف من رضي منكم ممن لم يرض ، فارجعوا ، حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم ، ولم يتخلف منهم أحد ، وكسا رسول الله ﷺ ، السبي قبطية قبطية[1] .

رقّة وكرم :

وكان المسلمون قد ساقوا فيمن ساقوه إلى رسول الله

(1) زاد المعاد ج1 ؛ ص 449 ، وروى البخاري القصة في باب قوله تعالى : « ويوم حنين اذ أعجبتكم الخ » ، باختلاف بعض الألفاظ .

ﷺ ، الشيماء بنت حليمة السعدية ، أخت رسول الله ﷺ ، من الرضاعة ، وعنّفوا عليها في السّوق ، وهم لا يدرون فقالت للمسلمين : تعلمون والله اني لأخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ ، ولما انتهت الشيماء إلى رسول الله ﷺ ، قالت : يا رسول الله ! إني أختك من الرضاعة ، قال: ما علامة ذلك ؟ ، قالت: عضة عضضتنيها في ظهري، وأنا متوركتك[1]، وعرف رسول الله ﷺ ، العلامة ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، وخيرها، وقال: إن أحببت فعندي محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردني إلى قومي[2].

ومتعها رسول الله ﷺ ، فأسلمت ، ـ وأعطاها رسول الله ـ ﷺ ، ثلاثة أعبد وجارية ونعماً وشاء[3].

عمرة الجعرانة :

ولما انتهى رسول الله ﷺ ، من غزوة حنين ، وقسمت السبايا والمغانم في الجعرانة ، وهي على مرحلة من مكة وميقات أهل الطائف ، أحرم منها للعمرة ، واعتمر وانصرف راجعاً إلى

---

(١) يعني حاملتك على وركي .
(٢) ابن كثير ، ج ٣، ص ٦٨٩ .
(٣) زادالمعاد ، ج ١ ، ص ٤٤٩.

المدينة[1] ، وذلك في شهر ذي القعدة[2]، سنة ثمان .

طائعون لا كارهون :

ولما ارتحل المسلمون من الطائف ، واستقبلوا قال رسول الله ﷺ : قولوا آيبون ، تائبون ، عابدون لربنا حامدون ، قيل : يا رسول الله ! ادع الله على ثقيف ، قال : اللهم اهد ثقيفاً وائت بهم .

ولحق عروة بن مسعود الثقفي ، وأدرك رسول الله ﷺ ، قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم ، ورجع يدعو قومه إلى الإسلام ، وكان محبّباً إليهم ، صاحب منزلة فيهم ، فلما دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل ، فقُتل شهيداً .

وأقام ثقيف بعد قتله أشهراً ، ثم ائتمروا بينهم ، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب ، وقد بايعوا وأسلموا ، فأرسلوا وفداً إلى رسول الله ﷺ .

لا هوادة مع الوثنية :

وقدموا على رسول الله ﷺ ، وضرب عليهم قبة في ناحية

---

(١) ابن هشام ق ٢ ، ص ٥٠٠ .

(٢) الجامع الصحيح ، كتاب ؛ باب « غزوة الحديبية » .

مسجده ، وأسلموا وسألوا رسول الله ﷺ ، أن يدع لهم « اللات » لا يهدمها ثلاث سنين ، فأبى رسول الله ﷺ ، عليهم وما برحوا يسألونه سنة سنة ، ويأبى عليهم رسول الله ﷺ ، حتى سألوا شهراً واحداً بعد قدومهم ، فأبى عليهم إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب ، والمغيرة بن شعبة ـ وهو من قومهم ـ يهدمانها ، وسألوه أن يعفيهم الصلاة ، فقال : لا خير في دين لا صلاة فيه .

ولما فرغوا من أمرهم وتوجهوا إلى بلادهم راجعين ، بعث معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدمها المغيرة ، وانتشر الإسلام في ثقيف ، حتى أسلم أهل الطائف عن آخرهم[١] .

إسلام كعب بن زهير :

لما قدم رسول الله ﷺ ، من الطائف ، جاءه كعب بن زهير ـ الشاعر بن الشاعر ـ وكان قد هجا رسول الله ﷺ ، ثم ضاقت به الأرض ، وضاقت عليه نفسه ، وحثه أخوه « بجير » على أن يأتي رسول الله ﷺ ، تائباً مسلماً ، وحذّره من سوء العاقبة إن لم يفعل ذلك ، فقال قصيدته التي يمدح فيها رسول الله ﷺ ، والتي اشتهرت بـ «قصيدة بانت سعاد » .

(١) زاد المعاد ج ١ ؛ ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩ ملخصاً .

فقدم المدنية ، وغدا إلى رسول الله ﷺ ، حين صلى الصبح ، ثم جلس إليه ، ووضع يده في يده ، وكان رسول الله ﷺ ، لا يعرفه ، فقال لرسول الله ﷺ : إن كعب بن زهير جاء يستأمنك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه ؟ فوثب عليه رجل من الأنصار ،فقال : يا رسول الله دعني وعدو الله ، أضرب عنقه ، فقال : رسول الله ﷺ ، دعه عنك ، فقد جاء تائباً نازعاً ، وأنشد كعب قصيدته اللامية التي أولها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يفد مكبول

وقال مادحاً فيها :

إن الرسول لنور يستضاء به   مهند من سيوف الله مسلول

فخلع عليه رسول الله ﷺ ، بردته[1] .

---

(١) زاد المعاد ، ج١ ، ص ٤٦٦ ـ ٤٦٨ .

قال القسطلاني في المواهب في رواية أبي بكر بن الأنباري أنه لما وصل الى قوله : « إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول » ، رمى عليه الصلاة والسلام بردة كانت عليه ، وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف ؛ فقال : ما كنت لأوثر بثوب رسول الله ﷺ أحداً ؛ فلما مات كعب ، بعث معاوية الى ورثته بعشرين ألفا فأخذها منهم ، قال وهي البردة التي عند السلاطين (الزرقاني على المواهب ج ٣ ، ص ٧٠) .

غَـزْوَةُ تَـبُوك (١)

أثر غزوة تبوك النفسي وسببها :

كانت غزوة تبوك نظير فتح مكة في قذف الرعب في قلوب الأعداء ، ورفع الغشاوة عن عيون كثير من الذين كانوا يعتقدون أن الإسلام سراج يلتهب ثم ينطفىء أو سحابة صيف عن قليل تنقشع ، وكانت هذه الغزوة احتكاكاً بأعظم قوة وأكبر دولة في العصر ، وكانت عظيمة الشوكة مرهوبة الجانب في نظر العرب ، وقد قال أبو سفيان حين رأى اهتمام هرقل - الأمبراطور الرومي - بكتاب رسول الله ﷺ ، الذي بعثه مع دحية الكلبي ، وحسابه لظهور النبي في جزيرة العرب : « لقد أمِرَ ابن أبي كبشة ، أنه يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقناً أنه سيظهر ، حتى أدخل الله عليّ الإسلام(٢) » .

---

(١) موضع من بلاد العرب بين المدينة المنورة ودمشق على نصف الطريق ، واقع الى الجنوب الشرقي من أيلة ، وفي معجم البلدان لياقوت عن أبي زيد « تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر ؛ ويقال إن أصحاب الأيكة الذين بعث اليهم شعيب كانوا هناك » انتهى ؛ وتبوك على ست مراحل من بحر القلزم بين جبلي حسمي وشروى ، (ملخصاً من دائرة المعارف البستاني) وهي الآن ثكنة تابعة لإمارة المدينة في المملكة العربية السعودية على بعد ٧٠٠ كيلو تقريباً من المدينة المنورة .

(٢) الجامع الصحيح للبخارى ، باب كيف كان بدء الوحي الى النبي ﷺ .

وكانت العرب لا يحلمون بغزو الروم والزحف عليهم ، بل كانوا يخافون أن يغزوهم في عقر دارهم ، بل كانوا يرون أنفسهم أصغر من ذلك ، وكان المسلمون في المدينة إذا حزبهم أمر ، أو دهمهم خطر ابتدرت أذهانهم إلى هجوم غسان وغزوهم ، وهم تبع لقيصر ملك الروم وعماله ، جاء في قصة الإيلاء التي وقعت سنة ثمان ، يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ : « كان لي صاحب من الأنصار إذا غبت أتاني بالخبر ، وإذا غاب ، كنت آتيه بالخبر ، ونحن حينئذ نتخوف ملِكاً من ملوك غسّان ذكر لنا أنه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه ، فأتى صاحبي الأنصاري يدقّ الباب ، وقال افتح افتح ، فقلت : جاء الغساني ؟![1] » .

وقد كانت الدّولة الروميّة في أوجها ، وقد دحرت جيوشها في قيادة هرقل جيوش إيران وأوغلت في ديارها ، وهزمتها هزيمة منكرة ، ومشى هرقل من حمص إلى « إيلياء » في موكب الملك المنتصر، والقائد المظفّر شكراً[2] على هذا الانتصار الرائع ، وذلك سنة سبع للهجرة ، يحمل الصّليب الذي استردّه من الفرس، وقد بسطت له البسط ، ووزعت

---

(١) رواه البخاري في تفسير سورة التحريم ومسلم في كتاب الطلاق (باب بيان أن تخييره امرأة لا يكون طلاقاً) .

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجهاد والسير ، باب « كتاب النبي ﷺ الى هرقل يدعوه الى الإسلام » .

عليه الرياحين ، فمشى عليها[1]، فما مضى على هذا الانتصار الرائع عامان ، حتى خرج رسول الله ﷺ ، من المدنية يريد الروم.

وقد مهّد الله بهذا الغزو الّذي كان له أثر عميق في نفوس العرب ، لغزو المسلمين للشّام في عهد الخليفتين : أبي بكر وعمر ، وكان ذلك سنداً له .

ويقال في سبب هذه الغزوة أنّ رسول الله ﷺ ، اتصّل به نبأ تهيؤ الرّوم لغزو حدود العرب الشّمالية ، قال ابن سعد وشيخه الواقدي : « إنّ رسول الله ﷺ ، بلغه من أنباطٍ أنّ هرقل رزق أصحابه لسنة ، وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملة وغسّان ، وغيرهم من متنصرّة العرب ، وجاءت مقدمتهم إلى البلقاء[2] » .

وسواء صحّت هذه الرّواية أو لم تصحّ ، فقد كانت الغاية الحقيقيّة من هذه الغزوة إرهاب الدّولة المجاورة ، التّي كانت تخاف معرّتها على مركز الإسلام والمسلمين ، وعلى الدعوة الإسلامية الزاحفة وقوتها الناشئة ، ومنعها من أن تطمع في غزو المسلمين في عقر دارهم ، وأن تعتبرهم مالاً سائباً أو لقمة سائغة ، فمن كان هذا شأنه لا يتقدم بجيوشه إلى هذه

(١) فتح الباري ، ج١ ، ص ٣١ .

(٢) الزرقاني على المواهب ، ج ٣ ص ، ٦٣ ـ ٦٤ .

الأمبراطورية العظيمة ، ويدخل في حدودها متحدياً متهدداً ، وتلك هي الحكمة التي ذكرها القرآن في سياق الآيات التي نزلت في غزوة تبوك ، وقال : «يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين[1]» .

وقد تحقّقت هذه الغاية ، فلم يقابل الرّوم هذا الزحف بزحف مقابل . وبتحركات عسكرية ، بل كان هنالك نوع انسحاب مقابل هذا التحدي السّافر ، وصاروا يحسبون لهذه القّوة النّاشئة حساباً لم يحسبوه من قبل.

والحكمة الثّانية في هذه الغزوة الجريئة ، بل في هذه المغامرة الخطرة ، هي إدخال الرعب في قلوب القبائل العربية الّتي لم تدخل في الإسلام في جزيرة العرب، والقبائل العربية المتنصرة الخاضعة لنفوذ الأمبراطورية الرومانية ، والتابعة لها ، وإتاحة الفرصة لها للتفكير في أهمية الدين الإسلامي جدياً ، وأنه ليس من الفقاقيع والنفاخات التي تعلو سطح الماء ثم تغيب ، وأن له مستقبلاً زاهراً ، لعل ذلك يفتح لها الطريق في الدخول في الإسلام ، الذي ظهر في أرضهم وبلادهم ، وذلك ما أشار إليه القرآن بقوله في الذين خرجوا في هذه الغزوة :

---

(١) سورة البراءة ١٢٣ .

« ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالـون من عدو نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح [1] » .

وقد كان الرّوم لا يزالون يذكرون غزوة مؤتة التـي لم يقضوا منها حاجة في نفوسهم ولم يشفوها ، وقد أسفرت عن انسحاب كل فريق راضياً من الغنيمة بالإياب ، وقد أضعفت رهبة الدولة البيزنطية وجيوشها الجرارة في نفوس العرب .

وبالجملة فقد كانت لهذه الغزوة أهمية كبيرة في السـيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية وتحققت منهـا غايات كانـت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب ، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام .

زمن الغزوة :

وكانت هذه الغزوة في رجب سنة تسع [2] ، غزاها رسول الله ﷺ ، في حرّ شديد حين طابت الثمار والظـلال واستقبـل

---

(١) سورة البراءة ١٢٠ .

(٢) إنه من الصعب تحديد زمن غزوة تبوك ؛ طبق التقويم الشمسي الميلادي ، وتعيين الشهر الافرنجي الذي كان فيه الخروج من المدينة الى تبوك ؛ وقد جعل بعض مؤلفي السيرة شهر نوفمبر مقابل رجب سنة ٩ هـ ، منهم العلامة شبلي النعماني في كتابه الشهير « سيرة النبي » .

ولكن الشواهد الداخلية ، والتصريحات التي جاءت في نص الحديث الصحيح الـذي رواه الشيخان وغيرهما من أصحاب الصحاح والسنن ، تحتم أن تكون هذه الغزوة قد وقعت =

سفراً بعيداً ومفازاً[١] ، وعدوّا كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجهه الذي يريد[٢] ، وكان الزمن زمن عسرة الناس وجدب البلاد.

وتعلل المنافقون بعلل، وكرهوا الخروج مع رسول الله ﷺ ، إشفاقاً من العدو القوي القاهر، وفراراً من الحر الشديد، وزهادة في الجهاد، وشكّا في الحق، وفي ذلك يقول الله تعالى:

« فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا : لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون[٣] » .

= في زمن الصيف ، فقد جاء في صلب الحديث على لسان كعب بن مالك « أن رسول الله ﷺ غزاها في حر شديد حين طابت الثمار والظلال » ، فليكن ذلك هو الميزان والحاكم في تحديد زمن هذه الغزوة ؛ وكل ما لا يتفق معه لا يعول عليه .

وفي رواية ابن عقبة عن ابن شهاب : « في قيظ شديد في ليالي الخريف والناس خارفون في نخيلهم » ، وأكثر من كل ذلك قول المنافقين الذي نقله القرآن في سورة البراءة ، ثم رده عليهم ، فقال ؛ « وقالوا لا تنفروا في الحر ، قل نار جهنم أشد حراً لو كانوا يفقهون » (آية - ٨١) وشهر نوفمبر في المدينة والحجاز ، مبدأ الشتاء ، وتطبيق التقويمين الشمسي الميلادي ، والهلالي الهجري ، من الأمور الصعبة ، وقد كثر فيه الاضطراب لاختلاف أهل السير في مبدأ التقويم الهجري ، هل كان من ربيع الأول أو من المحرم .

وقد توصل الأستاذ اسحاق الرامفوري بعد استعراض طويل للحوادث والغزوات ، وتطبيق بين التقويمين ، أنه كان شهر ابريل(نيسان) ولا يبعد عن الصواب ، لأنه مبدأ الصيف في المدينة ، الا أنه ذكر انه كان ذلك في سنة ٦٣٠م والعلامة شبلي النعمان عينها بسنة ٦٣٥م ؛ والله أعلم .

(١) مفاز فلاة لا ماء فيها.

(٢) مقتبس من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه الذي رواه الشيخان.

(٣) سورة التوبة ٨١ .

تنافس الصّحابة في الجهاد والمسير:

وجدّ رسول الله ﷺ ، في سفره ، وأمر الناس بالجهاز ، وحضّ أهل الغنى على النفقة في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى، واحتسبوا، وجهز عثمان بن عفان جيش العسرة، وأنفق ألف دينار، ودعا له رسول الله ﷺ، واستحمل رجال رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة فاعتذر رسول الله ﷺ، لعدم وجود الظهر ، فاشتد حزنهم على ذلك، وأسقط الله عنهم الحرج، يقول الله تعالى:

« ولا على الّذين اذا ما أتوك لتحملهم ، قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألّا يجدوا ما ينفقون[1] » .

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم النية ، حين تخلفوا عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب .

مسير الجيش الى تبوك :

خرج رسول الله ﷺ، في ثلاثين ألفا من الناس من المدينة الى تبوك، وكان أكبر جيش خرج به في غزوة، وضرب عسكره على ثنية الوداع، واستعمل على المدينة محمد بن مسلمة

(١) سورة التوبة ٩٢ .

الأنصاري، وخلف على أهله علي بن أبي طالب، وقال له حين شكا اليه إرجاف المنافقين وقالتهم: « أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنه ليس نبي بعدي [1] » .

ونزل بِ « الحجر » ديار ثمود، وأخبرهم بأنها ديار المعذبين، وقال: لا تدخلوا بيوت الذين ظلموا أنفسهم إلا وأنتم باكون خوفا أن يصيبكم ما أصابهم[2] ، وقال: لا تشربوا من مائها شيئاً، ولا تتوضؤا منه للصلاة، وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه الابل، ولا تأكلوا منه شيئاً.

وأصبح الناس ولا ماء لهم ، فشكوا ذلك الى رسول الله ﷺ ، فدعا ، فأرسل الله سبحانه سحابة ، فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء[3] .

تخوّف العرب من الرّوم:

وكان رهط من المنافقين يشيرون الى رسول الله ﷺ، وهو منطلق الى تبوك ، فيقول بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال[4] .

---

(١) صحيح البخاري باب « غزوة تبوك » .
(٢) زاد المعادج ٣ ص٣-٤ ؛ وسيرة ابن هشام ق٢ ص ٥٢٢ ، ومعناه في الصحيحين .
(٣) سيرة ابن هشام ق ٢ ؛ ص٥٢٢ .
(٤) نفس المصدر ص ٥٢٤ ـ ٥٢٦ .

الصّلح بين الرّسول وأصحاب أيلة:

ولما انتهى رسول الله ﷺ ، الى تبوك أتاه يوحنّا بن رؤبه صاحب أيلة ـ وهو أحد الأمراء المقيمين بالحدود ـ فصالح رسول الله ﷺ ، وأعطاه الجزية، وأتاه أهل « جرباء »، و« أذرح » وكتب لهم رسول الله ﷺ ، كتاب أمن ، كان فيه كفالة الحدود وتأمين المياه ، والطرق البرية والبحرية ، والضمان لسلامة الفريقين ، وأكرمه رسول الله ﷺ ،(1) .

عودة الرسول الى المدينة:

وهنا بُلِّغ خبر انسحاب الروم وعدولهم عن فكرة الزحف واقتحام الحدود، فلم ير رسول الله ﷺ ، محلا لتتبعهم داخل بلادهم، وقد تحقق الغرض. وكان أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني أمير دومة(2) ، وكان ردءاً لجيوش الروم، إذ جاءت من ناحيته، فبعث رسول الله ﷺ ، اليه خالد بن الوليد في خمسمائة فارس، وأسر خالد اكيدر، وبعث به الى رسول الله

---

(1) نفس المصدر ، ق ٢ ، ص ٥٢٥ ـ ٥٢٦ .

(2) دومة الجندل كانت قرية عامرة ، يقصدها الأعراب للبيع والشراء ، كانت قد خربت علي مر الزمن ، فنزل بها « أكيدر » فأعاد اليها رواءها ، وغرس الزيتون بها ، فتوافد اليها الأعراب ؛ يحميها سور قديم ؛ وفي داخل السور حصن منيع ، اشتهر بين أعراب الشمال ، بذلك اكتسبت المدينة أهمية « استراتيجية » ، وكان أكثر سكانها من كلب ، وكان « أكيدر » يلقب نفسه ، بلقب ملك ، على عادة ذلك الوقت ؛ وكان أهل دومة على النصرانية في ذلك الحين . (راجع تاريخ العرب قبل الإسلام ») .

ﷺ ، فحقن له دمه، وصالحه على الجزية ، وخلى سبيله[1] .

وأقام رسول الله ﷺ ، بـ « تبوك » بضع عشرة ليلة ، ثم انصرف قافلا الى المدينة [2] .

في جنازة مسلم مسكين :

ومات عبد الله ذو البِجادَيْن في « تبوك » ، وكان ينازع الى الاسلام ، فيمنعه قومه من ذلك ، ويضيقون عليه ، حتى تركوه في بجاد ـ وهو الكساء الغليظ ـ ليس عليه غيره ، فهرب منهم الى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريباً منه ، شق بجاده باثنين ، فاتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فقيل له : « ذو البِجادَيْن » ولما مات في تبوك شيعه رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر في ظلام الليل ، وفي يد بعضهم مشعل ، يسيرون في ضوئه ، وقد حفروا له ، ونزل رسول الله ﷺ ، في حفرته ، وأبو بكر وعمر يدليانه اليه ، وهو يقول : أدنيا الي أخاكما ، فدلياه اليه ، فلما هيأه لشقه ، قال : اللهم ! اني أمسيت راضياً عنه ، فارض عنه ، قال عبد الله بن مسعود : يا ليتني كنت صاحب الحفرة[3] .

---

(١) نفس المصدر ص ٥٢٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٢٧ .
(٣) نفس المصدر ق ، ص ٥٢٧ ـ ٥٢٨ .

ابتلاء كعب بن مالك ونجاحه فيه:

وكان من بين من تخلّف عن هذه الغزوة من غير شك ولا ارتياب ، كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكانوا من السابقين الأولين ، ولهم حسن بلاء في الإسلام ، وكان مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، ممن شهد بدراً ، ولم يكن التخلف عن الغزوات من خلقهم وعادتهم ، ولم يكن ذلك إلا من حكمة الهية ، وتمحيصاً لأنفسهم ، وتربية للمسلمين ، وانما هو التسويف ، وضعف الارادة ، والاعتماد الزائد على الوسائل الموجودة ، وعدم الجِدّ والإسراع في الأمر ، وكم جنى ذلك على أناس لم يكونوا أقل من إخوانهم ايماناً وحباً لله ولرسوله ، وذلك ما عبر عنه ثالث ثلاثتهم كعب بن مالك بقوله :

« فطفقت أغدو لكي أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً ـ فأقول في نفسي : وأنا قادر عليه ، ولم يزل يتمادى بي ، حتى اشتد الجِدّ ، فأصبح رسول الله ﷺ ، والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازي شيئاً ، فقلت أتجهز بعده بيوم أو يومين ، ثم ألحقهم ، فغدوت ـ بعد أن فصلوا ـ لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت فرجعت فلم أقض شيئاً .

فلم يزل بي حتى أسرعوا ، وتفارط الغزو ، وهممت أن

أرتحل فأدركهم ، وليتني فعلت، فلم يُقدّر لي ذلك[1] » .

وقد امتحن الله إيمان هؤلاء الثلاثة ، ومدى حبهم للرسول ﷺ ، ووفائهم للإسلام ، والبقاء عليه في السرّاء والضراء ، واكرام الناس وجفوتهم ، وفي حال إقبال رسول الله ﷺ ، واعراضه ، امتحاناً قل نظيره في تاريخ المجتمعات البشرية التي تقوم على أساس الإيمان والعقيدة والحب والعاطفة .

وقد صدقوا رسول الله ﷺ ، حين كذب الناس، وشهدوا على أنفسهم، حين برأها المنافقون، يقول كعب بن مالك في حديثه البليغ الطويل :

« جاءه المخلفون، فطفقوا يعتذرون اليه ويحلفون ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ ، علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم الى الله فجئته ، وسلمت عليه ، فلما سلمت عليه ، تبسم تبسم المغضب ثم قال : تعال، فجئت أمشي ، حتى جلست بين يديه فقال لي : ما خلفك ؟ ، ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله ؟ إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا ، لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ،

---

(١) صحيح البخارى ، كتاب المغازى .

ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ، ليوشكن الله أن يسخطك علي ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليّ فيه ، إني لأرجو فيه عفو الله ، والله ما كان لي من عذر ، والله ما كنت أقوى ولا أيسر من حين تخلفت عنك » .

وجاءت الساعة الرهيبة ، فنهى رسول الله ﷺ ، عن كلامهم ، وما كان من المسلمين إلا السمع والطاعة ، فاجتنبهم الناس وتغيروا لهم ، حتى تنكرت في نفوسهم الأرض ، فما هي التي يعرفونها ، ولبثوا على ذلك خمسين ليلة ، فأما مرارة بن الربيع وهلال بن أمية ، فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان ، وأما كعب بن مالك ، فكان أشب الثلاثة وأجلدهم ، وكان يخرج فيشهد الصلاة مع المسلمين ، ويطوف في الأسواق ولا يكلمه أحد[1] .

وكل ذلك لم يؤثر في رابطة الحب والولاء ، التي كانت تربطه برسول الله ﷺ ، ولم يؤثر كذلك في عطف رسول الله ﷺ ، عليه ورأفته به ، بل لم يزده هذا العتاب الا رسوخاً في المحبة ، ولوعة وجوى ، يقول:

« وآتي رسول الله ﷺ ، فأسلّم عليه ، وهو في مجلسه

---

(١) مقتبس من حديث كعب بن مالك نصه وهو يصور الحال ويذكر القصة .

بعد الصلاة ، فأقول في نفسي : هل حرك شفتيه بردّ السلام أم لا ، ثم أصلي قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي أقبل علي ، واذا التفت نحوه ، أعرض عني » .

فتنكرت له الدنيا واعرض عنه من كانت له دالة عليه ، يقول : « حتى طال علي ذلك من جفوة الناس ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة ، وهو ابن عمي وأحب الناس الي ، فسلمت عليه ، فوالله ما ردّ علي السلام ، فقلت : يا أبا قتادة ! أنشدك بالله هل تعلمني أحب الله ورسوله ؟ ، فسكت فعدت له ، فنشدته ، فسكت ، فقال : الله ورسوله أعلم ، ففاضت عيناي ، وتوليت حتى تسورت الجدار[1] » .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تعدى الى أزواج هؤلاء الثلاثة ، فأمروا أن يتعتزلوهن ، ففعلوا .

وجاءت أدقّ مرحلة من مراحل هذا الامتحان للحب والوفاء ، والثبات والاستقامة وذلك حين خطب ودّه ملك غسّان ، الذي كانت منادمته ، وحضور مجلسه شرفاً يتنافس فيه المتنافسون ، ويتغنى به شعراء العرب سنين طوالا[2] ، فجاءه

---

(١) حديث كعب بن مالك في صحيح البخاري.

(٢) اقرأ قصيدة حسان بن ثابت الأنصاري في مدح آل جفنة ، يقول فيها :

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلق في الزمان الأول
يسقون من ورد البريص عليهم بردى يصفق بالرحيق السلسل

(وهو في ضيق النفس ، وجفوة الناس ، واعراض رسول الله ﷺ ، عنه) رسول ملك غسّان ، فيدفع اليه كتاباً منه يقول فيه : « إنه قد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ، ولا مضيعة فالحق بنا ، نواسك » ، فتثور في كعب الغيرة ، ويهيج الحنان ، فيقصد تنّورا ، ويرمي هذا الكتاب فيه .

ولما تم ما أراده الله من تمحيص هؤلاء الثلاثة المؤمنين ، وتخليد ذكرهم في القرآن ، ودرسهم للمسلمين الى آخر الأبد ، وإقامة برهان على قوّة إيمان وحسن إسلام ، وقد ضاقت عليهم أنفسهم ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، أفرج عنهم ، وأنزل توبتهم من فوق سبع سماوات .

ولم يفردهم بالتوبة حتى يشعروا بغربتهم وبكونهم شامة بين الناس ، بل مهد لتوبتهم التوبة على سيد الأنبياء والمهاجرين والأنصار الذين لم يتخلفوا ، تكريماً لهم ، وجبراً لخاطرهم ، ورفعاً لمكانتهم ، فقال :

« لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار الّذين اتبعوه في ساعة العسرة ، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ، ثم تاب عليهم ، إنّه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الّذين خُلِّفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ، وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ اليه ، ثم تاب

عليهم ليتوبوا ، إنّ الله هو التواب الرحيم[1] » .

نظرة على الغزوات :

وبغزوة تبوك التي كانت في رجب سنة تسع للهجرة انتهت الغزوات النبوية ، التي بلغ عددها سبعاً وعشرين غزوة ، والبعوث والسرايا التي بلغ عددها ستين[2] ، ولم يكن في كلها قتال.

وقد أريق في جميع هذه الغزوات والسرايا التي بعثها النبي ﷺ ، أقل دم عرف في تاريخ الحروب والغزوات ، فلم تتجاوز قتلى كلها ١٠١٨ قتيلاً من الفريقين[3] ، وكانت حاقنة لدماء لا يعلم عددها إلا الله ، عاصمة لنفوس وأغراض لا يحصيها احصاء ، باسطة الأمن في أرجاء الجزيرة حتى استطاعت الظعينة أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلا الله[4] ، والمرأة من القادسية على بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف[5] ، بعد ما كانت الجزيرة كلها كفة حابل ، وشبكة دقيقة من تراث وثارات ، وحروب وغارات ،

---

(١) سورة التوبة ١١٧ ـ ١١٨ .

(٢) على تحقيق ابن القيم في «زاد المعاد» .

(٣) كما حققها مؤلف السيرة الشهيرة القاضي محمد سليمان المنصور فوري في الجزء الثاني من كتابه : « رحمة للعالمين » ، وهو مبني على استقراء دقيق .

(٤) صحيح البخاري ، باب « علامات النبوة » .

(٥) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ؛ ص ٥٨١.

لا تمشي فيها قوافل الحكومات الكبيرة إلا بخفارة ساهرة ، وبدرقة ماهرة .

وكانت هذه الحروب مؤسسة على الأصلين القرآنيّين الحكيمين : « والفتنة أشد من القتل » و« ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب » ، موفرة على النوع الانساني والمجتمع البشري قدراً كبيراً من الوقت والجهد في تغيير الأحوال ودرء الأخطار ، وكانت خاضعة لآداب خُلُقية وتعليمات رحيمة جعلتها أشبه بعملية التأديب ، منها بعملية التعذيب.

أما بالنسبة الى نجاح العملية وسرعتها فقد استمر التوسيع بنسبة ٢٧٤ ميلا مربعاً في ظرف عشر سنوات ولم يخسر المسلمون فيها الا بنسبة شخص واحد في الشهر ، وكان أقصى خسائر العدو في النفوس ١٥٠ شخصاً فلما اكتملت السنوات العشر خضع أكثر من مليون ميل مربع للحكم الاسلامي[1] .

فكان رسول الله ﷺ، اذا ودع جيشاً ، قال:

« أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيراً ، اغزوا باسم الله ، في سبيل الله ، من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولا تغلّوا ، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ، ولا كبيراً فانياً ، ولا منعزلاً بصومعة ، ولا تقربوا نخلا ، ولا تقطعوا

(١) مستفاد من كتاب « حديث دفاع » اللواء محمد أكبر خان ص ٢٧٢ .

شجراً ، ولا تهدموا بناءً[١] » .

قارن ذلك بقتلى الحربين العالميتين : الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨م والثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م ، فقد ذكر الكاتب المحقق في دائرة المعارف البريطانية في هذا الموضوع ، أن عدد المقتولين في الحرب العالمية الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس (٦,٤٠٠,٠٠٠)[٢] وعدد المقتولين في الحرب العالمية الثانية بين خمسة وثلاثين مليوناً وستين مليون نفس (بين ٣٥,٠٠٠,٠٠٠ و٦٠,٠٠٠,٠٠٠)[٣] .

ولم تخدم هاتان الحربان ـ كما يعلم الجميع ـ مصلحة انسانية ، ولم يستفد منهما العالم البشري في قليل أو كثير.

وقد بلغ عدد ضحايا محاكم التفتيش في أوربا في القرون الوسطى ، والاضطهاد الكنسي الى اثني عشر مليوناً (١٢,٠٠٠,٠٠٠) نفس[٤] .

أول حج في الإسلام:

وفرض الحج سنة تسع[٥] ، وبعث رسول الله ﷺ ، أبا

(١) رواه الواقدي عن زيد بن أرقم في غزوة مؤتة .
(٢) ج ١٩ ، ص ٩٦٦ .
(٣) ص ١٠١٣ ، طبعة ١٩٧٤ م) .
(٤) John Davenport : Apology For Muhammad and Quran
(٥) ذهب بعض العلماء الى أن فرض الحج كان في السنة السادسة من الهجرة ، واختاره العلامة الشيخ محمد الخضري في « تاريخ التشريع الإسلامي » ص ٥٢ .

بكر أميراً للحج هذه السنة ، ليقيم للمسلمين حجهم ، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجّهم[1] ، وخرج مع أبي بكر من أراد الحج من المسلمين في ثلاثمائة رجل من المدينة[2] .

ونزلت براءة على رسول الله ﷺ ، فدعا علي بن أبي طالب ، فقال له : اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذن في الناس يوم النحر ـ اذا اجتمعوا بمنى ـ أنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان له عند رسول الله ﷺ ، عهد فهو له الى مدّته ، فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ ، العضباء ، حتى أدرك أبا بكر بالطريق ، قال : أمير أم مأمور ؟ فقال : بل مأمور ، ثم مضيا ، فأقام أبو بكر للناس الحج ، حتى إذا كان يوم النحر ، قام علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فأذن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ ،[3] .

---

(١) ابن هشام ق ٢ ؛ ص ٥٤٣ .
(٢) زاد المعاد ج ٢ ، ص ٢٤ .
(٣) ابن هشام ق ٢ ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٦ .

عـام الوفـود

تقاطُر الوفود الى المدينة وأثرها في الحياة:

وبعد أن فتح الله مكة ، وعاد نبيه من تبوك ، سالماً غانماً ، وكان قد كتب قبل ذلك الى الملوك والأمراء ، كتبا دعاهم فيها الى الإسلام ، فلقي من بعضهم الاستجابة الكريمة ، ومن بعضهم رداً رقيقاً رفيقاً ، ووقف بعضهم أمامها خاشعاً متردداً ، وردّها بعضهم ردّاً قبيحاً ، وتلقاها بالإهانة والكبر ، فلقي عقوبة عاجلة أطاحت ملكه ونفسه ، وقد تسمع بذلك العرب كلهم وتحدثوا به.

وكان لفتح مكّة ـ عاصمة الجزيرة الروحية والاجتماعية ـ ودخول رؤساء قريش في الإسلام ، وسقوط أكبر حصن من حصون المقاومة أمام دين الله ، أثر عميق في نفوس المترددين والمتربصين من العرب ، فزال الحاجز بينهم وبين الإسلام ، وطويت المسافة بينهم وبين قبوله.

قال العلامة محمد طاهر الفتني (م ٩٨٦ هـ) في السير من كتابه « مجمع بحار الأنوار » :

« وهذه السّنة سنة الوفود ، فإنّ العرب تربصوا بالإسلام أمر قريش ، لأنهم إمام الناس ، وأهل بيت الله ، فلما دانوا ، وفتح مكة ، وأسلم ثقيف عرفوا أنه لا طاقة بهم ، ووفدت الوفود من كل وجه يدخلون في دين الله أفواجاً[1] » .

فكان لكل ذلك أثره الطبيعي في النفس ، فتح الطريق للدخول في الإسلام ، ولقاء رسول الله ﷺ ، في المدينة ، وتقاطرت وفود هداية واستطلاع الى مركز الإسلام كأنها عقد انفرط ، فتساقطت لاليه في حجر الإسلام .

وكانت تعود الى مراكزها تحمل روحاً جديدة ، وشحنة ايمانية ، وحماساً في الدعوة الى الإسلام ، وكراهة شديدة للوثنية وآثارها ، والجاهلية وشعائرها.

كان من هذه الوفود وفد بني تميم ، فيه أشراف قومهم المشهورون ، جرت مساجلة بين خطيبهم وشاعرهم ، وبين خطيب المسلمين وشاعرهم ، ظهر فيها فضل الإسلام وتفوق خطيبه وشاعره ، أقرّ بذلك رؤساؤهم وأسلموا ، وأجازهم رسول الله ﷺ ، فأحسن جوائزهم[2] .

وقدم وفد بني عامر ، وقدم ضمام بن ثعلبة وافداً عن بني

(١) « مجمع بحار الأنوار » ج ٥ ، ص ٢٧٢ .

(٢) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص ٥٦٠ ـ ٥٦٨ .

سعد بن بكر ، ورجع الى قومه داعياً ، فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست « اللّات » و« العزّى » ، قالوا : مه يا ضمام! اتق البرص، اتق الجذام ، واتق الجنون ، وقال : ويلكم ! إنهما والله لا يضران ولا ينفعان إنّ الله قد بعث رسولا ، ونزّل عليه كتاباً استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده ، بما أمركم به وما نهاكم عنه ، فما أمسى من ذلك اليوم في حيّه رجل ولا امرأة إلا مسلماً[1] .

وقدم وفد بني حنيفة ، معهم مسيلمة الكذاب ، وأسلم وارتدّ ، وتنبّى وتكذّب لهم ، وكان مثير فتنة الردة ، وقُتل فيها.

وقدم وفد بني طي ، وفيهم زيد الخيل ـ الفارس المشهور ـ وسماه رسول الله ﷺ ، « زيد الخير » ، وحسن إسلامه .

وقدم عديّ بن حاتم ـ ابن الجواد المشهور ـ وأسلم بعد ما رأى أخلاق رسول الله ﷺ ، وتواضعه ، حتى قال : والله ما هذا بأمر ملك.

وقدم وفد من بني زبيد ، وفيهم فارس العرب المشهور عمرو بن معد يكرب ، ووفد كندة فيهم الأشعث بن قيس ، ووفد من الأزد ، ورسول ملوك حمير بكتابهم يخبرون فيه

(١) سيرة ابن هشام ، ق ٢ ، ص ٥٧٤ .

باسلامهم .

وبعث رسول الله ﷺ ، معاذ بن جبل وأبا موسى إلى اليمن ، للدّعوة الى الإسلام ، وأوصاهما ، وقال : يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ، ولا تنفرا[1] .

وبعث فروة بن عمرو الجذامي الى رسول الله ﷺ ، رسولا باسلامه ، وكان عاملا للروم على العرب في « معان » وما حولها من أرض الشام.

وأسلم بنو الحارث بن كعب بـ « نجران » على يد خالد بن الوليد ، وأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام ، وأقبل خالد ومعه وفد بني الحارث وعادوا الى بلادهم ، فبعث اليهم عمرو ابن حزم ليفقههم في الدين ، ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ، ويأخذ منهم صدقاتهم ، وقدم وفد همدان[2] .

وبعث رسول الله ﷺ ، المغيرة بن شعبة ، فكسر « اللاّت » ، ثم علا أعلى سورها وعلا الرجال معه ، فما زالوا يهدمونها حجراً حجراً ، حتى سووها بالأرض ، وأقبل الوفد حتى دخل على رسول الله ﷺ ، من يومه ، وحمده[3] .

---

(١) الجامع الصحيح للبخاري (كتاب المغازي ، باب « بعث معاذ وأبي موسى إلى اليمن »)

(٢) ابن هشام ق ٢ ، ص ٥٧٥ ـ ٥٩٦ .

(٣) سيرة ابن كثير ج ٤ ؛ ص ٦٢ ـ ٦٣ .

وقدم وفد عبد القيس ، ورحب بهم رسول الله ﷺ ، وأمرهم ، ونهاهم عن الأوعية التي يسرع فيها الإسكار ، سداً للذرائع ، ولأنهم كانوا يكثرون منها[1] .

وقدم وفد الأشعريين وأهل اليمن ، وكانوا يرتجزون « غداً نلقى الأحبة : محمداً وحزبه[2] »، وقال رسول الله ﷺ : أتاكم أهل اليمن ، هم أرق أفئدة وألين قلوباً ، الايمان يمان ، والحكمة يمانية[3] .

وبعث رسول الله ﷺ ، خالد بن الوليد الى أهل اليمن ، يدعوهم الى الإسلام في نفر من المسلمين ، فأقاموا ستة أشهر ، يدعوهم خالد الى الإسلام ، فلم يجيبوه ، ثم بعث رسول الله ﷺ ، علي بن أبي طالب ، فقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ ، فأسلمت همدان جميعاً ، فكتب علي - رضي الله عنه - الى رسول الله ﷺ ، يخبره باسلامهم فلما قرأ رسول الله ﷺ ، الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه ، وقال : السّلام على همدان السّلام على همدان[4] .

وقدم وفد مزينة في أربعمائة رجل ، وقدم وفد نصارى

(١) زاد المعاد؛ ج ٢ ص ٢٨ ، والحديث في الصحيحين عن ابن عباس.
(٢) زاد المعاد ج ٢ ، ص ٣٢ .
(٣) رواه البخاري في باب « قدوم الأشعريين وأهل اليمن » وفي رواية زيادة « الفقه يمان » .
(٤) زاد المعـاد ، ج ٢ ، ص ٣٣، نقلا عن صحيح البخاري.

نجران وهم ستون راكباً ، منهم أربعة وعشرون رجلا من أشرافهم ، فيهم أبو حارثة ـ أسقفهم وحبرهم ـ وكانت ملوك الروم قد شرفوه ، ومولوه، وأخدموه، وبنوا له الكنائس ، ونزلت فيهم آيات كثيرة من القرآن[1] .

وكتب رسول الله ﷺ ، الى أهل نجران كتاباً ، يدعو فيه الى الإسلام ، فلما قرأوه بعثوا وفداً الى رسول الله ﷺ ، وسألهم وسألوه ، ونزلت في جواب أسئلتهم آيات كثيرة من سورة آل عمران ، وأراد رسول الله ﷺ ، أن يباهلهم ، وأبى شرحبيل ذلك ، وخاف ، فلما كان من الغد أتوه ، فكتب لهم كتاباً ، وضرب عليهم الخراج ، وبعث معهم رسول الله ﷺ ، أبا عبيدة ابن الجراح ، وقال : هذا أمين هذه الأمة[2] .

وقدم وفد تُجيب ، وسرّ بهم رسول الله ﷺ ، وأكرم منزلهم وسألوا رسول الله ﷺ ، أشياء ، فكتب لهم بها ، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد بهم رسول الله ﷺ ، رغبة ، وأمر بلالا أن يحسن ضيافتهم ، وأقاموا أياماً ، ولم يطيلوا اللبث فقيل لهم : ما يعجلكم؟ قالوا : نرجع الى من وراءنا ، فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ ، وكلامنا إياه ، وما

---

(١) اقرأ للتفصيل زاد المعاد ج ٢ ، ص ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٧ .

(٣) ابن كثير ج ٤ ، ص ١٠٠ ورواه البخاري مختصراً في باب « قصة أهل نجران » .

رد علينا ، وانطلقوا راجعين ، ثم وافوا رسـول الله ﷺ ، في الموسم بـ « منى » سنة عشر[1] .

وكان من ضمن الوفود وفد بني فزارة ووفد بني أسد ، ووفد بهراء ، ووفد عُذرة ، وأسلموا وبشرهم رسول الله ﷺ ، بفتح الشام ، ونهاهم عن سؤال الكاهنة ، وعن الذبائح التي كانوا يذبحونها ، وأخبرهـم أن ليس عليهـم إلا الأضـحية ، ووفد بلى ، ووفد ذي مرة ، ووفد خولان ، وسألهم رسول الله ﷺ ، عن صنم لخولان[2] ، الذي كانوا يعبدونه قالوا : أبشر ، بدلنا الله به ما جئت به ، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير ، وعجوز كبيرة ، متمسكون به ولو قدمنا عليه لهدمنـاه ان شاء الله[3] ، ووفـد محـارب ، ووفـد غسـان وغامـد ، ووفـد النخع[4] .

وكانت الوفـود تتعلـم الإسـلام ، وتتفقـه في الـدّين ، ويشهدون أخلاق رسـول الله ﷺ ، وعِشْرة أصحابـه ، وقـد تضرب لهم خيم في فناء المسجد ، فيسمعون القرآن ، ويرون المسلمين يصلون ، ويسألون رسـول الله ﷺ ، عما يجـول في خاطرهم في بساطة وصراحة ، ويجيبهـم رسـول الله ﷺ ، في

---

(١) زاد المعاد ، ج٢ ، ص ٤٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ ـ ٤٧ .
(٣) أيضاً ص ٤٧ .
(٤) أيضاً ، ص ٤٧ ـ ٥٥ .

بلاغة وحكمة ، ويستشهد بالقرآن ، فيؤمنون ، ويطمئنون .

بين وثني جاهل وبين نبي معلم:

وهذا حديث دار بين كنانة بن عبد ياليل وبين رسول الله ﷺ :

كنانة : أفرأيت الزنا ، فانا قوم نعتزب ، ولا بد لنا منه؟

رسول الله ﷺ : هو عليكم حرام ، وان الله تعالى يقول : « ولا تقربوا الزنا ، إنه كان فاحشة ، وساء سبيلا »[1] .

كنانة : أفرأيت الربا فانه أموالنا كلها؟ .

رسول الله ﷺ : لكم رؤوس أموالكم ، إن الله تعالى يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقي من الرّبا ان كنتم مؤمنين[2] » .

كنانة : أفرأيت الخمر فانها عصير أرضنا لا بدّ لنا منها؟ .

رسول الله ﷺ : ان الله قد حرّمها : « يا أيها الذين آمنوا

---

(١) سورة بني اسرائيل ٣٢ .
(٢) سورة البقرة - ٢٧٨ .

إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون[1] ».

كنانة : أفرأيت الرّبّة ، ما نصنع فيها؟

رسول الله ﷺ : اهدموها.

كنانة وقومه : لو تعلم الرّبة أنك تريد هدمها لقتلت أهلها ، وهنا تدخل عمر بن الخطاب في الحديث ، فقال : ويحك ، يا ابن عبد ياليل ، ما أجهلك! انما الربة حجر.

كنانة وقومه : إنا لم نأتك يا ابن الخطاب ، وقال لرسول الله ﷺ : تولّ أنت هدمها، فأما نحن فانا لا نهدمها أبداً.

رسول الله ﷺ : سأبعث اليكم من يكفيكم هدمها ، وأذن لهم رسول الله ﷺ ، في الرجوع ، وأكرمهم وحيّاهم.

وقالوا : يا رسول الله! أمر علينا رجلا يؤمنا من قومنا ، فأمر عليهم عثمان بن أبي العاص ، وكان أصغرهم سناً ، لما رأى من حرصه على الاسلام ، وكان قد تعلم سوراً من القرآن قبل أن يخرج[2] .

---

(١) سورة المائدة ٩٠ .

(٢) زاد المعاد، ج ٢ ، ص ٢٥ .

فرض الزكاة والصدقات :

وفي السنة التاسعة للهجرة فرضت الـزكاة[1] ، وبعـث رسول الله ﷺ ، أمراءه وعماله على الصدقات الى كل ما دخل فيه الإسلام من البلدان.

(١) تاريخ الطبري ج ٤ ، ص ١٧٢٢ .

حجّة الوَداع

حجة الوداع وأوانها:

ولما تم ما أراده الله ، من تطهير نفوس الأمة ، من شوائب الوثنية ، وعادات الجاهلية ، وإنارتها بنور الإيمان ، وإشعال مجامرها بالحبّ والحنان ، وتم ما أراده الله ، من تطهير بيته من الرجس والأوثان ، وتاقت نفوس المسلمين الذين بعد عهدهم عن حج البيت ، وطفحت كأس الحب والحنان ، حتى فاضت ودنت ساعة الفراق ، وألجأت الضرورة الى وداع الأمة آذن الله لنبيه في الحج ، ولم يكن قد حج النبي ﷺ في الإسلام.

قيمتها البلاغية والتربوية:

فخرج من المدينة ليحج البيت، ويلقى المسلمين ، ويعلمهم دينهم ومناسكهم ، ويؤدي الشهادة ، ويبلغ الأمانة ، ويوصي الوصايا الأخيرة ، ويأخذ من المسلمين العهد والميثاق ، ويمحو آثار الجاهلية ، ويطمسها ، ويضعها تحت قدميه ، وكانت هذه الحجة تقوم مقام ألف خطبة وألف درس ، وكانت مدرسة متنقلة ومسجداً سياراً ، وثكنة جوالة ، يتعلم فيها

الجاهل وينتبه الغافل ، وينشط فيها الكسلان ، ويقوى فيها الضعيف ، وكانت سحابة رحمة تغشاهم في الحل والترحال ، وهي سحابة صحبة النبي ﷺ ، وحبه وعطفه ، وتربيته واشرافه .

تسجيل دقائق حجّة النّبي :

وقد سجل الرواة العادلون من الصحابة كل دقيقة من دقائق هذه الرحلة ، وكل حادث من حوادثها الصغيرة ، تسجيلا لا يوجد له نظير في رحلات الملوك والعظماء ، والعلماء والنبغاء[1] .

سياق حجته ﷺ ، إجمالياً :

ونحن نلخص[2] هذه الحجة التي سميت بـ « حجة الوداع » و« حجة البلاغ » و« حجة التمام » وكانت كل ذلك أو أكثر ، وحج معه أكثر من مائة ألف انسان[3] .

كيف حج النبي ﷺ :

عزم رسول الله ﷺ ، على الحج ، وأعلم الناس أنه

(١) اقرأ كتاب « حجة الوداع وجزء عمرات النبي ﷺ » للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وتقديمه بقلم كاتب هذه السطور (طبع بيروت) .

(٢) اعتمدنا في هذا التلخيص على كتب « زاد المعاد » النفيس؛ للعلامة ابن قيم الجوزيه المتوفى عام ٧٥١ هـ ، وقد استوعب الموضوع رواية وتاريخاً وفقها .

(٣) روي عددهم من مائة وأربعة وعشرين ألفاً الى مائة وثلاثين ألفاً .

حاج ، فتجهزوا للخروج معه .

وسمع بذلك من حول المدينة ، فقدموا يريدون الحج مع رسول الله ﷺ ، ووافاه في الطريق خلائق لا يحصون ، فكانوا من بين يديه ، ومن خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله ، مدّ البصر ، وخرج ، من المدينة نهاراً بعد الظهر لخمس بقين من ذي القعدة يوم السبت ، بعد أن صلى الظهر بها أربعاً ، وخطبهم ، قبل ذلك خطبة علمهم فيها الاحرام وواجباته وسننه .

ثم سار وهو يلبي ، ويقول : « لبيك ، اللهم لبيك ، لبيك ، لا شريك لك لبيك أن الحمد والنعمة لك ، والملك لا شريك لك » والناس معه يزيدون وينقصون ، وهو يقرهم ، ولا ينكر عليهم ، ولزم تلبيته ، ثم سار حتى نزل بـ « العرج » وكانت زاملته وزاملة أبي بكر واحدة .

ثم مضى حتى أتى « الأبواء » فوادي « عسفان » فـ « سرف » ، ثم نهض الى أن نزل بـ « ذي طوى » فبات بها ليلة الأحد ، لأربع خلون من ذي الحجة ، وصلى بها الصبح ، ثم اغتسل من يومه ، ونهض الى مكة ، فدخلها نهاراً من أعلاها ، ثم سار ، حتى دخل المسجد ، وذلك ضحى ، فلما نظر الى البيت أن قال: اللهم زد بيتك هذا تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابة » ويرفع يديه ويكبر ويقول : اللهم أنت السلام ،

ومنك السلام ، حينا ربنا بالسلام .

ولما دخل المسجد عمد الى البيت ، فلما حاذى الحجر الأسود ، استلمه ، ولم يزاحم عليه ، ثم أخذ عن يمينه ، وجعل البيت عن يساره ، ورمل في طوافه هذا ثلاثة الأشواط الأول.

وكان يسرع في مشيه ، ويقارب بين خطاه ، واضطبع بردائه ، فجعله على أحد كتفيه ، وأبدى كتفه الآخر ومنكبه ، وكلما حاذى الحجر الأسود ، أشار اليه ، واستلمه بمحجنه ، فلما فرغ من طوافه ، جاء الى خلف المقام ، فقرأ « واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى[1] » فصلى ركعتين ، فلما فرغ من صلاته ، أقبل الى الحجر الأسود فاستلمه ، ثم خرج الى الصفا من الباب الذي يقابله ، فلما قرب منه قرأ « ان الصفا والمروة من شعائر الله » ، أبدأ بما بدأ الله به ، ثم رقي عليه ، حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة ، فوحد الله وكبره ، وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده.

وأقام بمكة أربعة أيام : يوم الأحد ، والاثنين ،

(١) سورة البقرة ١٢٥ .

والثلاثاء ، والأربعاء ، فلما كان يوم الخميس ضحى ، توجه بمن معه من المسلمين الى منى نزل بها ، وصلى بها الظهر والعصر، وبات بها ، وكان ليلة الجمعة ، فلما طلعت الشمس ، سار منها الى عرفة ، ووجد القبة قد ضربت له بنَمِرة ، فنزل بها ، حتى إذا زالت الشمس ، أمر بناقته القصواء ، فرحلت، ثم سار ، حتى أتى بطن الوادي من أرض عرفة فخطب الناس وهو على راحلته ، خطبة عظيمة قرر فيها قواعد الإسلام ، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية ، وقرّر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها ، وهي : الدماء والأموال والأعراض ، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه ، ووضع ربا الجاهلية كله ، وأبطله ، وأوصاهم بالنّساء خيراً ، وذكر الحق الذي لهن وعليهن ، وأن الواجب لهن الرزق والكسوة بالمعروف.

وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله ، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به ، ثم أخبر أنهم مسئولون عنه ، واستنطقهم بماذا يقولون وبماذا يشهدون؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت ، فرفع إصبعه الى السماء واستشهد الله عليهم ثلاث مرات ، وأمرهم أن يبلغ شاهدهم غائبهم ، فلما أتم الخطبة ، أمر بلالا ، فأذن ثم أقام الصلاة ، فصلى الظهر ركعتين ، ثم أقام فصلى العصر ركعتين أيضاً ، وكان يوم الجمعة .

فلما فرغ من صلاته ركب حتى أتى الموقف ، فوقف وكان على بعيره ، فأخذ في الدعاء والتضرع والابتهال الى غروب الشمس ، وكان في دعائه رافعاً يديه الى صدره ، كاستطعام المسكين ، يقول فيها : « اللهم ! انك تسمع كلامي ، وترى مكاني ، وتعلم سري وعلانيتي ، لا يخفى عليك شيء من أمري ، أنا البائس الفقير ، المستغيث المستجير ، الوجل المشفق ، المقر المعترف بذنوبي ، أسألك مسألة المسكين ، وأبتهل اليك ابتهال المذنب الذليل ، وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، من خضعت له رقبته وفاضت له عيناه ، وذل جسده ، ورغم أنفه لك ، اللهم ! لا تجعلني بدعائك رب شقياً ، وكن لي رؤوفاً رحيماً ، يا خير المسئولين ، ويا خير المعطين! » .

هنالك أنزلت عليه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً[1] » . فلما غربت الشمس ، أفاض من عرفة ، وأردف أسامة بن زيد خلفه ، وأفاض بالسكينة ضم اليه زمام ناقته ، حتى إن رأسها ليصيب طرف رحله ، وهو يقول : أيها الناس عليكم السكينة ، وكان يلبي في مسيره ذلك ، لا يقطع التلبية حتى أتى المزدلفة ، وأمر المؤذن بالأذان فأذن ، ثم أقام ، فصلى المغرب قبل حط الرحال

(١) سورة المائدة : ٣ .

وتبريك الجمال ، فلما حطوا رحالهم ، أمر ، فأقيمت الصلاة ثم صلى العشاء ، ثم نام ، حتى أصبح .

فلما طلع الفجر صلاها في أول الوقت ، ثم ركب حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة ، وأخذ في الدعاء والتضرع ، والتكبير والتهليل والذكر ، حتى أسفر جداً ، وذلك قبل طلوع الشمس ، ثم سار من مزدلفة ، مردفاً للفضل ابن عباس ، وهو يلبي في مسيره ، وأمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار سبع حصيات ، فلما أتى بطن محسر ، حرك ناقته ، وأسرع السير ، فان هنالك أصاب أصحاب الفيل العذاب ، حتى أتى منى ، فأتى جمرة العقبة ، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس ، وقطع التلبية .

ثم رجع الى منى ، فخطب الناس خطبة بليغة ، أعلمهم فيها بحرمة يوم النحر وتحريمه ، وفضله عند الله ، وحرمة مكة على جميع البلاد ، وأمر بالسمع والطاعة لمن قادهم بكتاب الله ، وأمر الناس بأخذ مناسكهم عنه ، وأمر الناس ألاّ يرجعوا بعده كفاراً ، يضرب بعضهم رقاب بعض ، وأمر بالتبليغ عنه ، وقال في خطبته تلك :

« اعبدوا ربكم ، وصلوا خمسكم ، وصوموا شهركم ، وأطيعوا ذا أمركم ، تدخلوا جنة ربكم » ، وودّع الناس حينئذ فقالوا : « حجة الوداع » .

ثم انصرف الى المنحر بمنى ، فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده ، وكان عدد هذا الذي نحره عدد سني عمره ، ثم أمسك وأمر عليا أن ينحر ما بقي من المائة ، فلما أكمل -ﷺ ، نحره استدعى بالحلاق ، فحلق رأسه ، وقسم شعره بين من يليه ، ثم أفاض الى مكة راكباً ، وطاف طواف الإفاضة ، وهو طواف الزيارة ، ثم أتى زمزم ، فشرب وهو قائم ، ثم رجع الى منى من يومه ذلك ، فبات بها ، فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله الى الجمار ، فبدأ بالجمرة الأولى ، ثم الوسطى ، ثم الجمرة الثالثة ، وهي جمرة العقبة ، وخطب الناس بمنى خطبتين : خطبة يوم النحر ، وقد تقدمت ، والخطبة الثانية في ثاني يوم النحر.

وتأخر حتى أكمل رمي أيام التشريق الثلاثة ، ثم نهض الى مكة ، فطاف للوداع ليلاً سحراً ، وأمر الناس بالرحيل ، وتوجه إلى المدينة[1] .

ولما وصل الى غدير خم[2] ، خطب ﷺ ، وذكر فيها فضل علي - رضي الله عنه - وقال : « من كنت مولاه فعلي

---

(١) ملخصاً من « زاد المعاد » ومقتبساً منه ج ١ ، ص ١٨٠ - ٢٤٩ ، بحذف المباحث التي توسع فيها المؤلف وأفاض ، ومواضع الخلاف بين الفقهاء والمحدثين .

(٢) غدير بين مكة والمدينة ؛ بينه وبين الجحفة ميلان .

مولاه ، اللهم ! وال من والاه وعاد من عاداه[1] » .

فلما أتى « ذا الحليفة » بات بها ، فلمّا رأى المدينة ، كبّر ثلاث مرّات ، وقال : لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آيبون تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربّنا حامدون ، صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دخلها نهاراً[2] .

خطبة النبي ﷺ ، في حجّة الوداع :

ونذكر هنا نص الخطبة التي خطبها رسول الله ﷺ ، يوم عرفة ، ونصّ الخطبة التي خطبها في أوسط أيام التشريق ، للموعظة البليغة ، والفوائد الكثيرة التي تشتمل عليها هاتان الخطبتان العظيمتان .

فقال في خطبة عرفة :

« إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا كلّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإنّ

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٤١٥ - ٤١٦ . نقلا عن الامام أحمد والنسائي ، وسبب ذلك أن بعض الناس كانوا قد اشتكوا عليا وعتبوا عليه ، وتكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن بسبب ما كان صدر منه اليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً ، وتضييقاً وبخلاً ؛ والصواب كان مع علي في ذلك (ابن كثير ، ج٤ ص ٤١٤) .

(٢) زاد المعاد ج ١ ؛ ص ٢٤٩ .

أوّل دم أضعه من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل ، وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع من ربانا ربا العبّاس بن عبد المطلب ، فإنّه موضوع كله ، فاتقوا الله في النّساء ، فإنكم أخذتموهنّ بأمانة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله ، ولكم عليهنّ ألاّ يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فان فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهنّ عليكم رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ان اعتصمتم به كتاب الله وسنّة بنية ، وأنتم تسألون عنّي ، فماذا أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأدّيت ونصحت ، فقال بإصبعه السبابة يرفعها الى السماء وينكبها الى النّاس : اللهم أشهد ثلاث مرات[1] » .

وهذا نص الخطبة التي خطبها ﷺ ، في أوسط أيام التشريق :

« يا أيها النّاس ! هل تدرون في أيّ شهر أنتم وفي أيّ يوم أنتم وفي أيّ بلد أنتم؟ فقالوا : في يوم حرام ، وبلد حرام ، وشهر حرام ، قال : فإنّ دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا ، وفي بلدكم هذا ، الى يوم تلقونه ، ثم قال : اسمعوا

(١) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما عن جابر ، ورواه مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جابر .

منّي تعيشوا ، ألا ! لا تظلموا ، ألا ! لا تظلمـوا ، ألا ! لا تظلموا ، إنّه لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا ! وان كل دم ومال ومأثرة كانت في الجاهلية تحـت قدمـي هذه ، الى يوم القيامة وإنّ أوّل دم يوضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بنـي ليث فقتلتـه هذيل ، ألا ! وإنّ كل ربا في الجاهليّة موضـوع ، وان الله عز وجـل قضى أنّ أوّل ربا يوضع ربا العبّاس بن عبد المطلـب ، لكم رءوس أموالكم ، لا تَظلِمون ولا تُظلَمون ، ألا ! وإنّ الزّمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض ،ثم قرأ« إنّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات والأرض ، منها أربعة حرم ، ذلك الدين القيّم ، فلا تظلموا فيهن أنفسكم »، ألا ! لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض، ألا ! إنّ الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون ، ولكنه في التحـريش بينـكم ، واتّقـوا الله في النسـاء ، فإنهّـن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً ، وإن لهنّ عليكم حقاً ، ولكم عليهن حقاً ألاّ يوطئن فرشكم أحداً غيركم ، ولا يأذنّ في بيوتكم لأحد تكرهونه ، فإن خفتـم نشوزهـنّ ، فعظوهـنّ ، واهجروهنّ في المضاجع واضربوهنّ ضرباً غـير مبـرح ، ولهـنّ رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف ، وإنّما أخذتموهـنّ بأمانـة الله ، واستحللتم فروجهنّ بكلمة الله عزّ وجلّ ، ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدّها الى من ائتمنه عليها وبسط يديه ، وقال : ألا !

هل بلّغت؟ ألا ! هل بلّغـت ، ثم قال : ليبلّـغ الشّاهـد الغائب ، فإنّه ربّ مبلّغ أسعد من سامع[1]

(١) رواه الإمام أحمد عن أبي حرة الرقاشي عن عمه .

الوَفَـــاة

كمـــال مهّمة التبليغ والتشريع ودنوّ ساعة اللقاء :

ولما بلغ هذا الدّين ذروة الكمال ، ونزل قوله تعـالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممـت عليكم نعمتـي ورضيت لكم الإسلام ديناً[1] » .

وبلّغ رسول الله ﷺ ، الرسالة ، وأدّى الأمانة ، وجاهد في الله حق جهـاده ، وربّـى أمـة تقلّـدت مهـام النبـوة ومسئولياتها ، من غـير نبوّة ، وكلّفـت النهوض بالدعـوة ، وصيانة الدين من التحريف ، فقال الله تعالى :

« كنتم خير أمّة أخرجت للنّاس ، تأمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله[2] » .

وضمن الله لهذا القرآن الذي هو أساس هذا الـدين ، ومصدر الإيمان واليقين ، بالبقاء والنّقاء ، فقال : « إنا نحـن

(١) سورة المائدة ٣.

(٢) سورة آل عمران ١١١ .

نزلنا الذكر وانا له لحافظون[1]» .

وأقرّ الله عين نبيه بدخول النّاس في هذا الدّين أفواجاً ، وبدت طلائع انتشاره في العالم ، وظهوره على الأديان كلّها .

فقال : « إذا جاء نصر الله والفتح ، ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً ، فسبح بحمد ربّك واستغفره ، إنّه كان تواباً[2] » .

مدارسة القرآن ومضاعفة اعتكاف رمضان :

وكان النبي ﷺ ، يعتكف في كلّ رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين[3] .

وكان جبريل يلقاه في كل ليلة من رمضان ، فيدارسه القرآن ، ولكنّه ﷺ ، قال ذلك العام « إنه عارضني المرّتين ، ولا أُراه إلا حضر أجلي[4] » .

أذن الله لنبيه باللقاء الذي لم يكن أحد أشدّ شوقاً له منه ، وقد أحبّ الله لقاءه كما هو أحبّ لقاءه .

---

(١) سورة الحجر ٩ .

(٢) سورة النصر ١ ـ ٣ .

(٣) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاعتكاف، باب « الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان » .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب المناقب، باب « علامات النبوة » .

وقد هيّأ الله الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ الذين لم يكن أحد أشدّ حباً له منهم ، لسماع نبأ وفاته ، واحتمال فراقه الذي لم يكن بدّ منه ، مهما تأخّرت ساعة الفراق ، ففوجئوا بنبأ شهادته في معركة أحد ، ثم تحقّق أنه كان إرجافاً من الشّيطان ، وأنّ الله ممتعهم بحياة نبيهم الى حين ، ولكن لا بد من وقوع هذا الحادث ، وقال : « وما محمّد إلا رسول قد خلت من قبله الرّسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين[1] » .

فكان المسلمون ـ الّذين أحسن رسول الله ـ ﷺ ، تربيتهم ، وربط قلوبهم بالله تعالى ، وشغلهم بتبليغ رسالة الإسلام الى أقصى الحدود وأبعد الأمم ، وإخراج الناس من عبادة العباد الى عبادة الله وحده ـ على يقين بأنّ رسول الله ـ ﷺ ، مودّعهم في يوم من الأيّام ، ومفارق لهذا العالم الفاني ، وراجع الى ربّه ، ليجزيه الجزاء الأوفى ، فلما نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح » فهم منها الصحابة أنّه إيذان بدنوّ ساعة الفراق ، فقد تمّت المهمة ، وجاء نصر الله والفتح[2] .

(١) سورة آل عمران ـ ١٤٤ .

(٢) يقول ابن عباس : « هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه له» ؛ وروى الامام أحمد بسنده عن ابن عباس ، قال ؛ لما نزلت « إذا جاء نصر الله والفتح » قال رسول الله ﷺ : « نعيت الى نفسي » راجع تفسير ابن كثير .

وقد استشعر كبار الصّحابة وفاته حين نزلت الآية « اليوم أكملت لكم دينكم [١] » .

الشوق الى لقاء الله وتوديع الدّنيا :

وقد ظهر من رسول الله ﷺ ، بعدما عاد من حجّة الوداع الّتي أشار فيها الى دنوّ أجله [٢] ، ما يدلّ على التأهب للسّفر ، واللحوق بالرفيق الأعلى ، فصلّى على قتلى أحد ، كأنه مودّع أصحابه عن قريب ـ بعد ثماني سنين ـ كالمودّع للأحياء والأموات ،ثم طلع المنبر ، فقال : « إنّي بين أيديكم فرط ، وأنا عليكم شهيد ، وإنّ موعدكم الحوض ، وإنّي لأنظر إليه من مقامي هذا وإنّي قد أعطيت مفاتيح خزائن الأرض ، وإنّي لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخشى عليكم الدّنيا أن تنافسوا فيها فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم [٣] » .

شكوى رسول الله ﷺ :

وقد ابتدأ شكوى رسول الله ﷺ ، في آخر شهر صفرٍ [٤] ، وكان مبدأ ذلك أنّه ﷺ ، خرج الى « بقيع الغرقد »

---

(١) راجع ابن كثير ، ج ٤ ؛ ص ٤٢٧ .

(٢) روى مسلم في صحيحه عن جابر أن رسول الله ﷺ . وقف عند جمرة العقبة وقال لنا ؛ « خذوا عني مناسككم فلعلي لا أحج بعد عامي هذا » .

(٣) حديث متفق عليه .

(٤) على القول الراجح وتتبع الأحاديث ، والمرجح انه كان يوم الاثنين .

من جوف الليل، فاستغفر لهم ، ثم رجع الى أهله ، فلمّا أصبح ابتدىء بوجعه من يومه ذلك[١] .

وقالت عائشة ـ أمّ المؤمنين رضي الله عنها: رجع رسول الله ، من البقيع فوجدني وأنا أجد صداعاً في رأسي ، وأنا أقول : وارأساه ، فقال : بل أنا ، والله يا عائشة وارأساه[٢] ، واشتدّ به وجعه ، وهو في بيت ميمونة ، رضي الله عنها ـ فدعا نساءه ، فاستأذنهن في أن يمرّض في بيت عائشة ، فأذنّ له ، وخرج يمشي بين رجلين من أهله ، أحدهما فضل بن عباس ، والآخر علي ابن أبي طالب ، عاصباً رأسه ، تخطّ قدماه ، حتى دخل بيت عائشة رضي الله عنها[٣] .

تقول عائشة ـ رضي الله عنها: وكان يقول في مرضه الذي مات فيه . « يا عائشة ! ما أزال أجد ألم الطّعام الذي أكلت بـ« خيبر » فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري[٤] من ذلك السّم[٥] .

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ؛ ص ٦٤٢ ، وابن كثير ج ٤ ص ٤٤٣ .

(٢) ابن هشام ق ٢ ، ص ٦٣٣ .

(٣) صحيح البخاري (باب مرض النبيﷺ ووفاته (.

(٤) ابهر: عرق مستبطن بالصلب يتصل بالقلب فاذا انقطع مات صاحبه .

(٥) رواه البخاري معلقاً (باب « مرض النبيﷺ ووفاته) وأسنده الحافظ البيهقي عن الحاكم عن الزهري به (راجع ابن كثير؛ ج ٤ ، ص ٤٤٩) .

آخر البعوث :

وبعث رسول الله ﷺ ، أسامة بن زيد بن حارثة الى الشّام ، وأمره أن يوطىء الخيل تخوم البلقاء و« الداروم »[1] من أرض فلسطين .

وانتدب كثير من الكبار من المهاجرين والأنصار في جيشه ، كان من أكبرهم عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ بعثه رسول الله ﷺ ، واشتدّ به المرض ، وجيش أسامة مخيم بـ« الجرف »[2] نفّذ أبو بكر جيش أسامة بعد وفاة الرسول ﷺ ، تحقيقاً لرغبته وإكمالا لمراده .

الاهتمام ببعث أسامة :

واستبطأ رسول الله ﷺ ، النّاس في بعث أسامة بن زيد وهو في وجعه ، فخرج عاصباً رأسه ، حتى جلس على المنبر ، وقد كان النّاس قالوا في إمرة أسامة : أمَّر غلاماً حدثاً على جلّة المهاجرين والأنصار ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل له ، ثم قال : أيهّا الناس أنفذوا بعث أسامة ، فلعمري لئن قلتم في إمارته لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله ، وإنّه لخليق للإمارة ، وان كان أبوه لخليقاً لها ، ثم نزل رسول الله ﷺ ، وأسرع

(١) ابن هشام ق ٢ ، ص ٦٤٢ .
(٢) ابن كثير ج ٤ ص ٤٤١ .

النّاس في جهازهم ، وثقل برسـول الله ﷺ ، وجعـه ، خرج أسامة بجيشه حتى نزلـوا « الجـرف» من المدينـة على فرسـخ فضرب به عسكره ، حتى تتامّ اليه النّاس .

وثقل رسـول الله ﷺ ، فأقام أسامة والناس ينظـرون ما الله قاض في رسول الله ﷺ [1] .

وأوصى المسلمين في مرضه أن يجيزوا الوفد بنحوٍ ممّا كان يجيزهم وألاّ يتركوا في جزيرة العرب دينين ، قال : « أخرجوا منها المشركين » . [2]

دعاء للمسلمين وتحذير لهم عن العلوّ والكبرياء :

وفي يوم من أيّام شكواه اجتمع نفر من المسلمين في بيت عائشة ، فرحّب بهم رسول الله ﷺ ، وحيّاهم ، ودعـا لهـم بالهدى والنّصر والتّوفيق ، وقال : أوصيكم بتقوى الله وأوصي الله بكم ، وأستخلفه عليكم ، إنّي لكم منه نذير مبين ألاّ تعلو على الله في عباده وبلاده ، فإنّ الله قال لي ولكم : « تلك الدّار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوّاً في الأرض ولا فساداً ،

---

(١) سيرة ابن هشام ق ٢ ، ص : ٦٥ ، ورواه البخاري في كتاب المغازي؛ باب « غزوة زيد بن حارثة » وفيه : « ان تطعنوا في امارته فقد طعنتم في امارة أبيه من قبله ؛ وايم الله لقد كان خليقاً للامارة ، وان كان من أحب الناس الي، وان هذا لمن أحب الناس الي بعده » .

(٢) راجع صحيح البخاري (باب « مرض النبي ﷺ ووفاته) .

والعاقبة للمتقين[1]»، وقال: «أليس في جهنم مثوى للمتكبرين»[2].

زهد في الدّنيا وكراهة لما فضل من المال :

قالت عائشة : قال رسول الله ﷺ ، في مرضه الذي مات فيه : «يا عائشة ما فعلت الذّهب ؟ » ، فجاءت ما بين الخمسة الى السّبعة أو الثّمانية أو التّسعة ، فجعل يقلبها بيده ، ويقول : «ما ظنّ محمّد بالله عزّ وجلّ ، لو لقيه ، وهذه عنده ، أنفقيها» .[3].

اهتمام بالصّلاة وإمامة أبي بكر :

وثقل برسول الله ﷺ ، وجعه ، فقال : أصلّى الناس ؟ ، قلنا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! فقال : ضعوا لي ماء في المخضب ، ففعلوا ، فاغتسل ثم ذهب لينوء ، فأغمي عليه ، ثم أفاق ، فقال : أصلىّ الناس ؟ قالوا : لا ، هم ينتظرونك يا رسول الله ! والنّاس عكوف في المسجد ينتظرون رسول الله ﷺ ، لصلاة العشاء ، فأرسل رسول الله ﷺ ، إلى أبي بكر بأن يصلي بالناس ، وكان أبو بكر رجلاً

---

(١) سورة القصص ٨٣ .

(٢) وسورة الزمر ٦٠ .

(٣) رواه الحافظ البيهقي (السيرة النبوية لابن كثير ، ج ٤ ، ص ٥٠٢)

(٤)مسند الامام أحمد ؛ ج ٦ ، ص ٤٩ .

رقيقاً ، فقال: يا عمر صلّ بالنّاس ، فقال : أنت أحق بذلك منّي ، فصلّى بهم تلك الأيّام .

ثم إنّ رسول الله ﷺ ، وجد خفة ، فخرج بين رجلين ، أحدهما العبّاس ، والآخر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ لصلاة الظّهر ، فلما رآه أبو بكر ، ذهب ليتأخر فأومأ اليه ألاّ يتأخّر ، وأمرهما ، فيجلساه الى جنبه فجعل أبو بكر يصليّ قائماً ، ورسول الله ﷺ ، يصلي قاعداً.

وعن أمّ الفضل بنت الحارث ، قالت : « سمعت رسول الله ﷺ ، يقرأ في المغرب بالمرسلات عرفاً ، ثم ما صلّى لنا بعدها ، حتى قبضه الله[1] ».

خطبة الوداع :

وكان فيما تكلم[2] به رسول الله ﷺ ، وهو جالس على المنبر ، عاصباً رأسه : « أن عبداً من عباد الله ، خيرّه الله بين

---

(١) رواه البخاري في صحيحه ، في باب « مرض النبي ﷺ ، ووفاته ».

(٢) يدل التتبع للأحاديث أنها كانت الخطبة الأخيرة ، وقد ذهب الحافظ بن حجر الى أنها كانت يوم الخميس قبل الوفاة بخمسة أيام ، والمرجح أن هذه الصلاة كانت صلاة الظهر ، وكل ما روي من خطب مختلفة في فضل أبي بكر رضي الله عنه ، وسد الأبواب النافذة في المسجد إلا خوخة أبي بكر ، وفضل الأنصار والوصية لهم ، قطع من هذه الخطبة ؛ رواها الصحابة مفردة ، وكانت هذه الصلاة الصلاة الأخيرة التي صلاها النبي ﷺ ، جماعة وهو إمام ، ولم يحضر صلاة المسلمين في المسجد بعد هذه الصلاة ، وبذلك تجمع الأقوال والروايات المختلفة (مستفاد من « أصح السير » للشيخ عبد الرؤوف الدانا بوري ٢١).

الدّنيا وبين ما عنده ، فاختار ما عند الله » وفهم أبو بكر معنى هذه الكلمة ، وعرف أنّ رسول الله ﷺ ، يعني نفسه ، فبكى ، وقال : بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا.

فقال : على رسلك يا أبا بكر ! إنّه ليس من النّاس أحد أمنّ على نفسه وماله من أبي بكر ، ولو كنت متّخذاً من النّاس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا ، ولكن خلّة الاسلام أفضل[1] .

وقال: سدّوا عنّي كل خوخة[2] في المسجد ، غير خوخة أبي بكر[3] .

وصيّة للأنصار :

وكان أبو بكر وعبّاس - رضي الله عنهما - مرّا بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون ، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا : ذكرنا مجلس النبي ﷺ ، منا وأخبر النبي ﷺ ، بذلك ، فخرج النبي ﷺ ، وقد عصب على رأسه حاشية برد ، فصعد المنبر[4] ولم

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الصلاة ، باب الخوخة والممر في الصلاة) .

(٢) الباب الصغير.

(٣) صحيح البخاري (كتاب الصلاة ؛ باب الخوخة والممر في الصلاة) .

(٤) المرجح أنه كانت هذه الخطبة الأخيرة يوم الخميس بعد صلاة الظهر ، لأن راوي الحديث وهو أنس بن مالك ، قال : « صعد المنبر ، ولم يصعده بعد ذلك اليوم ؛ فحمد الله وأثني عليه بما هو أهل له » .

يصعده بعد ذلك اليوم ، فحمد الله ، ثم أثنى عليه ، ثم قال :

« أوصيكم بالأنصار فانهم كرِشي وعيبتي ، وقد قضوا الذي عليهم ، وبقي الذي لهم ، فاقبلوا من محسنهم ، وتجاوزوا عن مسيئهم » [1] .

آخر نظرة إلى المسلمين وهم صفوف في الصّلاة :

وكان أبو بكر يصليّ بالمسلمين ، حتى إذا كان يوم الاثنين ، وهم صفوف في صلاة الفجر ، كشف النبي ﷺ ، ستر الحجرة ، ينظر الى المسلمين ، وهم وقوف أمام ربهم ، ورأى كيف أثمر غرس دعوته وجهاده ، وكيف نشأت أمّة تحافظ على الصّلاة ، وتواظب عليها بحضرة نبيّها وغيبته ، وقد قرّت عينه بهذا المنظر البهيج ، وبهذا النّجاح الّذي لم يقدر لنبيّ أو داعٍ قبله ، واطمأنّ إلى أنّ صلة هذه الأمّة بهذا الدين وعبادة الله تعالى ، صلة دائمة ، لا تقطعها وفاة نبيّها ، فملىء من السّرور ما الله به عليم ، واستنار وجهه وهو منير ، يقول الصّحابة ـ رضي الله عنهم ـ :

« كشف النبي ﷺ ، ستر حجرة عائشة ، ينظر الينا وهو

---

(١) صحيح البخاري (فضائل أصحاب النبي ﷺ ، باب قول النبي ﷺ : « اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم ») .

قائم ، كأنّ وجهه ورقة مصحف ، ثم تبسّم يضحك ، فهممنا أن نفتتن من الفرح ، وظننّا أنّ النبي ﷺ ، خارج الى الصّلاة ، فأشار الينا أن أتموا صلاتكم ، وأرخى السّتر، وتوفي من يومه ﷺ .[1]

تحذير من عبادة القبور واتخاذها مساجد :

كان آخر ما تكلّم به رسول الله ﷺ ، أن قال: قاتل الله اليهود والنّصارى ، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، لا يبقين دينان على أرض العرب[2] .

تقول عائشة وابن عبّاس - رضي الله عنهما - لّما نزل برسول الله ، طفق يطرح خميصة[3] له على وجهه ، فاذا اغتمّ كشفها عن وجهه ، فقال وهو كذلك : « لعنة الله على اليهود والنّصارى ، اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يحذّر ما صنعوا[4] .

الوصيّة الأخيرة :

كانت عامّة وصيّة رسول الله ﷺ ، حين حضرته الوفاة

---

(١) رواه البخاري (باب « مرض النبي ﷺ ، ووفاته ») .
(٢) رواه الامام مالك في الموطأ ، ابن كثير ج٤ ، ص ٤٧١ .
(٣) الخميصة: كساء أسود، مربع له علمان.
(٤) رواه البخاري (باب « مرض النبي ﷺ ، ووفاته ») .

«الصّلاة وما ملكت أيمانكم» حتى جعل يغرغر بها صدره، وما يكاد يفيض بها لسانه [1].

يقول علي - رضي الله عنه - : أوصى رسول الله ﷺ، بالصّلاة والزّكاة وما ملكت أيمانكم [2].

وتقول عائشة - رضي الله عنها - : ذهبت أعوده، فرفع بصره الى السّماء وقال: في الرّفيق الأعلى، في الرّفيق الأعلى.

ودخل عبد الرحمن بن أبي بكر، وبيده جريدة رطبة، فنظر إليها، فظننت أنّ له بها حاجة قالت: فأخذتها، فنفضتها، فدفعتها اليه، فاستن بها أحسن ما كان مستناً، ثم ذهب يناولنيها فسقطت من يده. [3]

قالت: وبين يديه ركوة أو علبة فيها ماء، فجعل يدخل يده في الماء، فيمسح بها وجهه ثم يقول: لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات، ثم نصب إصبعه اليسرى، وجعل يقول: في الرّفيق الأعلى، في الرّفيق الأعلى، حتى قبض ومالت يده في الماء. [4]

---

(١) رواه البيهقي وأحمد (ابن كثير؛ السيرة النبوية، ٤، ص ٤٧٣).

(٢) رواه الإمام أحمد (ابن كثير، ج٤؛ ص ٤٧٣).

(٣) سيرة ابن كثير، ج٤ ص ٤٧٤ - ٤٧٥ والرواية في البخاري (باب مرض النبي ﷺ، ووفاته).

(٤) رواه البخاري (باب مرض النبي ﷺ، ووفاته).

وقالت: نزل برسول الله ﷺ ، ورأسه على فخذي ، غشي عليه ساعة ، ثم أفاق فأشخص بصره الى سقف البيت ، فقال : اللّهم الرفيق الأعلى ، وكانت آخر كلمة تكلم بها رسول الله ﷺ [1] .

كيف فارق رسول الله ﷺ الدُّنيا :

فارق رسول الله ﷺ ، الدّنيا ، وهو يحكم جزيرة العرب ، ويرهبه ملوك الدّنيا ، ويفديه أصحابه بنفوسهم وأولادهم وأموالهم ، وما ترك عند موته ديناراً ولا درهماً ، ولا عبداً ولا أمة ، ولا شيئاً ، إلاّ بغلته البيضاء ، وسلاحه ، وأرضاً جعلها صدقة [2] .

وتوفي ودرعه مرهونة عند يهودي بثلاثين صاعاً [3] من شعير ، ما وجد ما يفك به ، حتى مات ﷺ [4] .

وأعتق رسول الله ﷺ ، في مرضه هذا أربعين نفساً ، وكانت عنده سبعة دنانير أو ستة ، فأمر عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن تتصدق بها [5] .

---

(١) المصدر السابق.
(٢) أيضاً.
(٣) أيضا.
(٤) رواه البيهقي، ص ٥٦٢.
(٥) « السيرة الحلبية »، ج٣، ص ٣٨١.

تقول عائشة - أمّ المؤمنين - رضي الله عنها - : توفّي رسول الله ﷺ ، وما في بيتي شيء يأكله ذو كبد ، إلا شطر شعير في رفّ لي ، فأكلت منه حتى طال فكلته ففني[1] .

وكان ذلك يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول ، سنة ١١ للهجرة بعد الزّوال ، وله ﷺ ، ثلاث وستون[2] ، وكان أشد الأيام سواداً ووحشة ومصيبة على المسلمين ، ومحنة للإنسانية ، كما كان يوم ولادته أسعد يوم طلعت فيه الشمس.

يقول أنس وأبو سعيد الخدري - رضي الله عنهما - كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ ، المدينة أضاء منها كلّ شيء فلمّا كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء ، وبكت أم أيمن ، فقيل لها ما يبكيك على النّبي ﷺ ، قالت : إنّي قد علمت أنّ رسول الله ﷺ ، سيموت ولكن إنّما أبكي على الوحي الذي رفع عنا[3] .

كيف تلقى الصّحابة نبأ الوفاة؟ .

ونزل وفاة رسول الله ﷺ ، على الصّحابة كالصاعقة ، لشدّة حبهم له ، وما تعودوه من العيش في كنفه ، عيش الأبناء

---

(١) متفق عليه (البخاري ، كتاب الرقاق ، باب الفقر) ومسلم ، كتاب الزهد.
(٢) على أرجح الأقوال.
(٣) « السيرة النبوية » لابن كثير؛ ج٤؛ ص ٥٤٤ - ٥٤٦.

في حجر الآباء ، بل أكثر من ذلك قد قال الله تعالى :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم»[1] .

وقد كان كلّ واحد منهم يحسب أنّه أكرم عليه وأحبّ لديه من صاحبه ، ولم يكد بعضهم يصدّق بنبأ وفاته ، وكان في مقدّمتهم عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ فأنكر على من قال : مات رسول الله ، وخرج الى المسجد وخطب النّاس ، وقال : إنّ رسول الله ﷺ ، لا يموت حتى يفني الله المنافقين .[2]

موقف أبي بكر الحاسم :

وكان أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ وهو الّذي هيّأه الله لخلافة النّبوة والوقوف موقف العزيمة والحكمة ـ رجل السّاعة المطلوب والجبل الراسي الذي لا يحول ولا يزول ، فأقبل من منزله حين بلغه الخبر ، حتى نزل على باب المسجد ، وعمر يكلّم الناس ، فلم يلتفت الى شيء ، حتى دخل على رسول الله ، في بيت عائشة وهو مسجى[3] ، فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه فقبّله ثم قال : بأبي أنت وأمّي ، أمّا الموتة الّتي كتب الله

---

(١) سورة التوبة ١٢٨ .

(٢) سيرة ابن كثير ج٤ ، ص ٤٧٩ .

(٣) مغطى ببرد.

عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً ، وردّ البرد على وجهه ﷺ .

ثم خرج وعمر يكلّم الناس ، فقال : على رسلك يا عمر ! وأنصت ، فأبى إلا أن يتكلّم ، فلماّ رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على النّاس ، فلما سمع كلامه أقبلوا عليه ، وتركوا عمر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

أيها النّاس ! إنّه من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله ، فإنّ الله حيّ لا يموت ، ثم تلا هذه الآية :

« وما محمّد إلا رسول ، قد خلت من قبله الرّسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضرّ الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين »[1] .

يقول من شهد هذا الموقف : والله كأنّ النّاس لم يعلموا أنّ هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ ، وأخذها النّاس عن أبي بكر ، فإنّما هي في أفواههم ، ويقول عمر : والله ما هو إلاّ أن سمعت أبا بكر تلاها ، فعقرت[2] حتى وقعت الى الأرض ، ما تحملني رجلاي ، وعرفت أنّ رسول الله ﷺ ، قد

---

(١) سورة آل عمران ١٤٤ .

(٢) تحيرت ودهشت .

مات .[1]

بيعة أبي بكر بالخلافة :

وبايع المسلمون أبا بكر بالخلافة ، في سقيفة بني ساعدة ، حتى لا يجد الشّيطان سبيلاً إلى تفريق كلمتهم ، وتمزيق شملهم ، ولا تلعب الأهواء بقلوبهم ، وليفارق رسول الله ﷺ ، هذه الدّنيا وكلمة المسلمين واحدة ، وشملهم منتظم ، وعليهم أمير يتولّى أمورهم ، ومنها تجهيز رسول الله ﷺ ، ودفنه .

كيف ودّع المسلمون رسولهم وصلّوا عليه :

وهدأ النّاس ، وانجلى عنهم ما كانوا فيه من حيرة وغمرة ، وتشاغلوا بما علّمهم رسولهم من عملهم لمن فارق الدّنيا .

ولما فرغ من غسله وتكفينه ﷺ ، وقد تولّى ذلك أهل بيته ، وضع سريره في بيته ، وحدّثهم أبو بكر أنّه سمع رسول الله ﷺ ، يقول : ما قبض نبيّ إلاّ دفن حيث قبض ، فرفع فراش رسول الله ﷺ ، الذي توفي فيه وحفر له تحته ، وتولّى ذلك أبو طلحة الأنصاري.

(١) سيرة ابن هشام، ق٢ ص ٦٥٥ - ٦٥٦ ورواه البخاري. « مطولا في باب مرض النبي ﷺ ، ووفاته » .

ثم دخلوا يصلّون عليه أرسالا ، دخل الرّجال حتى إذا فرغوا أدخل النّساء ، حتى إذا فرغ النساء ، أدخل الصبيان ، ولم يؤمّ الناس على رسول الله ﷺ ، أحد[1] .

وكان ذلك يوم الثلاثاء[2] .

وكان يوماً حزيناً في المدينة ، وأذّن بلال بالفجر ، فلمّا ذكر النبي ﷺ ، بكى وانتحب ، فزاد المسلمين حزناً ، وقد اعتادوا أن يسمعوا هذا الأذان ورسول الله ﷺ ، فيهم ، تقول أم سلمة ـ أم المؤمنين : يا لها من مصيبة ، ما أصابنا بعدها بمصيبة إلاّ هانت ، اذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ[3] ، وقد قال النبي ﷺ ، بنفسه : يا أيها الناس أيّما أحد من الناس (أو من المؤمنين) أصيب بمصيبة فليتعزّ بمصيبته بي ، عن المصيبة الّتي تصيبه بغيره ، فإنّ أحداً من أمتي لن يصاب بمصيبة بعدي أشدّ عليه من مصيبتي[4] .

وقالت فاطمة رضي الله عنها ـ حين دفن النّبي ﷺ : يا أنس أطابت أنفسكم ، أن تحثوا على رسول الله ﷺ ، التراب[5] ، لكن مع تعلقهم به لم يُنح عليه ، فقد نهى عن النّياحة أشدّ النّهي .

(١) سيرة ابن هشام ق٢ ، ص ٦٦٣ .
(٢) طبقات ابن سعد ، نقلا عن السيرة النبوية لابن كثير ؛ ج٤ ؛ ص ٥٠٧ . رواية عن الأوزاعي وابن جريج وأبي جعفر) .
(٣) السيرة النبوية لابن كثير؛ ج٤ ؛ ص ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
(٤) نفس المصدر ج٤ ص ٥٤٩ ، نقلا عن ابن ماجه .
(٥) صحيح البخاري (باب مرض النبي ﷺ ووفاته) .

أزواجه أمّهات المؤمنين وأولاده وأسباطه ﷺ

أولاهنّ خديجة بنت خويلد القرشيّة الأسديّة ـ رضي الله عنها ـ تزوّجها قبل النّبوة ولها أربعون سنة ، وهي التي وازرته على النّبوة وجاهدت معه ، وواسته بنفسها ومالها ، وماتت قبل الهجرة بثلاث سنين، وجميع أولاده ﷺ ، (غير سيدنا إبراهيم) منها ، وكان دائم الذّكر لها ، والاعتراف بفضلها ، وربمّا إذا ذبح الشّاة يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ـ رضي الله عنها ـ[1] .

ثم تزوّج بعد موتها بأيّام سودة بنت زمعة القرشية ، ثم تزوّج بعدها عائشة الصّديقة حبيبة رسول الله ﷺ، وهي أفقه نساء الأمة وأعلمهنّ ، وكان الأكابر من أصحاب النبيّ ﷺ، يرجعون إلى قولها ، ويستفتونها ، ثم تزوّج حفصة بنت عمر ابن الخطّاب رضي الله عنهما ، ثم تزوّج زينب بنت خزيمة ، وتوفيت عنده بعد شهرين ، ثم تزوّج أمّ سلمة هند بنت أبي أميّة حذيفة بن المغيرة القرشية المخزومية وهي آخر نسائه موتاً ، ثم تزوّج زينب بنت جحش وهي ابنة عمته أميمة ، وتزوّج

(١) متفق عليه ، ومما جاء في رواية عائشة فيها : « ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ، ما غرت على خديجة ؛ وما رأيتها قط» .

جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقيّة ، ثم أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان صخر بن حرب ، ثم صفيّة بنت حيي بن أخطب سيّد بني النّضير ومن ولد هارون بن عمران أخي نبي الله موسى ، ثم ميمونة بنت الحارث الهلالية ، وهي آخر من تزوّج بها .

ولا خلاف أنّه ﷺ ، توفي عن تسع زوجات وهنّ من ذكرنا ، غير خديجة وزينب بنت خزيمة ، فقد توفيتا في حياته ﷺ ، وكلّهنّ ثيّبات غير عائشة[1] .

وتوفي عن سريتين : مارية بنت شمعون القبطية المصريّة ، أهداها اليه ﷺ ، المقوقس عظيم مصر ، وهي أم ولده إبراهيم ـ عليه السلام ـ وريحانة بنت زيد من بني النّضير[2] أسلمت فأعتقها ثم تزوجها[3] .

وحرّم الله زواجهن بعد وفاة رسول الله ﷺ ، لأنهنّ أمهات المؤمنين وفي ذلك حفظ للصّلة الدقيقة الحساسة التي تربط الأمة بنبيها ﷺ ، فقال تعالى : « وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده ، أبداً ، إنّ ذلكم كان عند الله عظيماً »[4] .

(١) ملخصاً من زاد المعاد لابن قيم ؛ ج١ ص ٢٦ ـ ٢٩ .
(٢) ويقال من بني قريظة .
(٣) ابن كثير ج٤ ، ص ٦٠٤ ـ ٦٠٥ .
(٤) سورة الأحزاب ـ ٥٣ .

قال ابن كثير في تفسير الآية :

« أجمع العلماء قاطبة على أنّ من توفي عنها رسول الله ﷺ ، من أزواجه أنّه يحرم على غيره تزوّجها من بعده ، لأنهّن أزواجه في الدنيا والآخرة وأمهات المؤمنين . »[1]

وقفة قصيرة عند تعدّد الزّوجات :

قضى رسول الله ﷺ ، شطراً من عمره في العزوبة، مدة خمسة وعشرين عاماً ، وهي فترة الشّباب التي استوفت أفضل شروطه وصفاته ، وكان مثلاً للفتوّة الإنسانية العربية السّليمة ، والصّحة التي كان فيها نصيب للنشأة في البادية ، والبعد عن أدواء المدنيّة ، والتحليّ بأفضل صفات الفروسيّة والرّجولة التي تفاخر بها العرب ، وأشاد بها علماء النفس والأخلاق ، ولم يجد أشدّ أعدائه له مغمزاً في هذه الفترة الحاسمة الدّقيقة في حياته قبل النبوّة وبعد النّبوّة إلى هذا اليوم ، فكان مثالا للطّهر والعفاف والنّزاهة والبراءة والعزوف عن كلّ ما لا يليق به .

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة تزوّج خديجة بنت خويلد ، وهي أيّم ، قد بلغت من عمرها أربعين سنة ، وقد تزوجت قبله برجلين ، ولها أولاد ، وبينه وبينها من التّفاوت في السنّ ١٥ سنة على القول المشهور ـ ثم تزوج بعدها ـ وقد جاوز

---

(١) . ابن كثير ج٤ ، ص ٤٩٣ (دار الأندلس) .

الخمسين ـ سودة بنت زمعة ، وقد توفيّ زوجها في الحبشة مسلماً ، مهاجراً ، ولم يتزوج ﷺ ، بكراً إلاّ عائشة بنت أبي بكر ، وما تزوّج زوجاً إلاّ ولهذا الزّواج مصلحة راجحة من مصالح الدّعوة والإسلام ، أو المروءة ومكارم الأخلاق ، أو جلب منفعة عامّة ، ودرء خطر اجتماعي كبير ، فقد كان للأرحام والمصاهرة تأثير كبير في حياة العرب القبلية ، والاجتماعية ، وقيمة ليست في أمّة أخرى ، فكانت لهذه المصاهرة أثرها البعيد في تاريخ الدّعوة الإسلامية ، والمجتمع الإسلامي المثالي ، وحقن الدّماء والتوقّي من معرّة القبائل العربية .

ولم تكن حياته معهنّ حياة ترف ورفاهية ، وتوسّع في المطاعم والمشارب وخفض العيش ـ وتلك غاية تعدد الزّوجات في نظر كثير من الناس ـ بل كانت حياة زهد وتقشّف ، وإيثار وقناعة ، لا يطيقها أعاظم الرّجال وكبار الزّهاد في القديم والحديث ، ويمر شيء منها بالقارىء في جزء الأخلاق والشّمائل ، وحسب القارىء المنصف أن يقرأ قوله تعالى : « يا أيها النّبي قل لأزواجك إنْ كنتنّ تردن الحياة الدّنيا وزينتها ، فتعالين أمتّعكنّ وأسرحكنّ سراحاً جميلاً ، وإن كنتنّ تردن الله ورسوله والدّار الآخرة فإنّ الله أعدّ للمحسنات منكنّ أجراً عظيماً[1] » .

---

(١) سورة الأحزاب ٢٨ ـ ٢٩ .

وكان من أثر هذه الغاية المتوخّاة ، والنّفسية السّامية ، والتّربية العميقة المؤثرة ، ان اخترن كلّهن ـ رضي الله عنهن وأرضاهنّ ـ من غير استثناء وتلكؤ الله ورسوله والدّار الآخرة ، ويكفي مثالاً ، ما أجابت به عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلما تلا رسول الله ﷺ ، هذه الآية ، وقال لها : لا عليك ألاّ تستعجلي حتّى تستأمري أبويك ، قالت له : أفي هذا استأمر أبويّ ؟ ، فإنّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة[1] ، قالت : ثم فعلت أزواج النبي ﷺ ، مثل ما فعلت[2] .

ولم يشغل رسول الله ﷺ ، تعدد الزوجات ، وما يستلزم ذلك نفسياً واقتصادياً واجتماعياً ، عن النهوض بأعباء الدعوة ، والجهاد والتقشف ، والحياة المثالية ، والقيام بالأمور الجسام ، برهة من الزمان ، بل زاده ذلك نشاطاً وقوة ، وكن أعواناً له على القيام بما أكرمه الله به ، من تبليغ الرسالة ، وأداء الأمانة ، وتعليم المسلمين دينهم ، ذكوراً وإناثاً ، وكن يرافقنه في الحروب والغزوات ، فيداوين الجرحى ويمرضن المرضى ، ويشرن بالخير ، ويواسين في الشدة ، وبهن قام نحو ثلث الدين ـ مما يتعلق بحياته المنزلية والعشرة وكثير من الأحكام ـ تعلمها

---

(١) رواه البخاري في الجامع الصحيح عن عائشة .

(٢) رواه البخاري؛ ورواه ابن أبي حاتم وأحمد .

المسلمون منهنّ ، وحفظوه ونشروه[1] .

وناهيك بأمّ المؤمنين : عائشة ـ رضي الله عنها ـ فقد قال إمام علم الرجال والطبقات الحافظ أبو عبدالله شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨ هـ) في كتابه المشهور « تذكرة الحفاظ » :

« كانت أكبر فقهاء الصحابة ، كان فقهاء أصحاب رسول الله ﷺ ، يرجعون اليها ، يروى عن قبيصة بنت ذؤيب ، قالت : كانت عائشة أعلم الناس ، يسألها أكابر الصحابة ، وقال أبو موسى ما أشكل علينا ـ أصحاب محمد ﷺ ، حديث قط ، فسألنا عائشة ، إلا وجدنا عندها منه علماً ، وقال حسان : ما رأيت أحداً من الناس أعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بحلال وحرام ولا بشعر ولا بحديث العرب ولا النسب من عائشة رضي الله عنها[2] .

وأما مكارم الأخلاق ، وعلو الهمة ، والجود ، والمواساة ، فعن البحر حدث ولا حرج ، وحسبك ما رواه هشام عن أبيه : أن معاوية بعث الى عائشة مائة ألف ، فوالله

(١) وقد أحسن الكلام في موضوع تعدد الزوجات وما كان فيه من حكم ومصالح وما يحيط به من أحوال وظروف ؛ مؤلف السيرة الهندي القاضي محمد سليمان المنصور فوري في ج٢ من كتابه النفيس « رحمة للعالمين » راجع ص ١٤١ ـ ١٤٤ ؛ والكاتب المصري الكبير الأستاذ عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية محمد» ، تحت عنوان «تعدد الأزواج» وعنوان «أسباب تعدد زوجاته» .

(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ، ص ٢٧ ـ ٢٨ ، طبعة دار إحياء التراث العربي.

ما غاب علينا الشهر حتى فرقتها ، فقالت مولاةٌ لها لو اشتريت لنا من ذلك بدرهم لحماً ، فقالت : ألا ذكرتني[1] ، وكانت صائمة[2] .

وقد نشأت « مشكلة تعدّد الزوجات في حياة محمد ﷺ » وشغلت عقول كثير من الباحثين الغربيين وأقلام الكتاب المستشرقين ، وكثر التساؤل عنها ، بسبب اخضاعهم الحياة الزوجية في بلاد العرب وفي الشريعة الاسلامية ، وفي العصر الذي ظهر فيه الاسلام ، للقيم والتصورات والأعراف الغربية ، وتسليط الموازين والمقاييس الغربية (التي ما أنزل الله بها من سلطان ـ وإنما هي وليدة حضارة خاصة ومجتمع خاص) على ما تقبله الفطرة السليمة والبيئة العربية ، وتقتضيه المصالح الخلقية والاجتماعية ، ويأذن به الله ، وتلك نقطة ضعف في التفكير الغربي وفي الكتابات الغربية يجعلون الغرب هو الميزان ، ثم يطلقون أحكاماً قاسية على كل ما جانبه أو اختلف عنه ، فيخلقون مشكلة ثم يعالجونها ، وما هي الا نتيجة كبريائهم ، وتقديسهم الزائد للقيم والمثل الغربية وقد كان مؤلف السيرة الانجليزي المستر R.V.C.BODLEY. منصفاً وجريئاً في نقد هذا الشعور الغربي نحو تعدد الزوجات في حياة

---

(١) نفس المصدر، ص ٢٨ .

(٢) زيادة من رواية أم ذرة (المصدر السابق) .

النبي ﷺ ، يقول في كتابه محمد الرسول » :

« إنه لا داعي الى قياس حياة محمد الزوجية بالمقاييس الغربية ولا الحكم عليها من وجهة نظر التقاليد والقوانين التي سنتها المسيحية في الغرب ، فلم يكن أولئك الرجال - العرب - غربيين ولا مسيحيين ، انما نشأوا في بلاد وفي عصر كان يسود عليه نظامهم الخلقي الخاص ، ورغم كل ذلك لا مبرر لتفضيل النظام الخلقي الأمريكي أو الأوربي على النظام الخلقي العربي ، ان الغربيين لا يزالون في حاجة الى بحث دقيق وتمحيص كبير لتفضيل نظامهم الخلقي وطريقة حياتهم على غيرها ، فعليهم أن يتجنبوا الطعن في ديانات أخرى ومدنيات اخرى[1] .

وليست « شناعة » تعدد الزوجات (التي تخيلها الغرب ، وآمن بها أبناؤه في تقليد وحماس واعتبروها حقيقة بديهية مسلمة ، وجسمها كتابه ومشرعوه) ، شناعة دائمة على مر العصور والأجيال ، قائمة على أسس علمية ثابتة ، أو الفطرة الإنسانية السليمة ، بل هي شناعة خيالية عاطفية ، ناتجة عن دعاية قوية متحمسة ، تخف وقد تزول مع الزمان بتغير الاتجاهات والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتربوية[2] » .

(١) R.V.C.Bodley: The Messenger - The Life of Mohammad, London, 1946— pp.202-203.

(٢) والى ذلك اشار الكاتب الغربي العصري «Alwin Totler» في كتابه الحديث «Future Schock» الذي أحدث دوياً في الأوساط العلمية أخيراً : اقرأ (على سبيل المثال) ص ٢٢٧ - ٢٣٢ ، (طبع لندن ١٩٧٥ م) .

أولاده وأسباطه ﷺ :

ولدت له خديجة القاسم ، وبه كان يكنى ، ومات طفلا ، ثم زينب ثم رقية وأم كلثوم وفاطمة ، واختلفوا في عبد الله ، والطيب ، والطاهر ، فعدهم بعضهم ثلاثة أولاد ، والصحيح عند ابن قيم أن الطيب والطاهر لقبان لعبد الله ، وهؤلاء كلهم من خديجة ـ رضي الله عنها ـ[1] .

أما فاطمة فهي أحب بناته اليه ، وأخبر بأنها سيدة النساء لأهل الجنة[2] ، وقال : فاطمة بضعة منى ، يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها[3] ، وهي أول أهل بيته لحوقاً به .

وولدت له مارية القبطية ابراهيم ، فتوفي وقد ملأ المهد ، وقد قال ﷺ ، حين توفي : « تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وانا بك يا ابراهيم لمحزونون[4] وكسفت الشمس يوم موته ، فقال الناس : كسفت الشمس لموت ابراهيم ، فخطب رسول الله ﷺ ، فقال : ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته[5] .

---

(١) زاد المعاد ج١ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) جامع الترمذي ج٢ ؛ ص ٢٢١ (الطبعة الهندية) .
(٣) حديث متفق عليه .
(٤) رواه مسلم في صحيحه عن أسماء بنت يزيد بن السكن مطولا .
(٥) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الكسوف.

وولدت زينب ـ وقد تزوجها أبو العاص بن الربيع وهو ابن أخت خديجة ـ ابناً اسمه علي ، وبنتاً اسمها أمامة ، وتزوج رقية عثمان بن عفان ، فولدت له ابنه عبد الله ، وماتت ورسول الله ﷺ ، ببدر ، وكان عثمان قد أقام عندها يمرضها ، وتزوج بعدها بأختها أم كلثوم ، ولهذا كان يقال له « ذو النورين » وتوفيت عنده أيضاً في حياة رسول الله ﷺ .

وتزوجت فاطمة علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ابن عم رسول الله ﷺ ، فولدت له حسنا ، وبه كان يكنى ، وحسيناً وفيهما قال رسول الله ﷺ : « هما ريحانتاي من الدنيا[1] » وفيهما قال : « الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[2] » .

وقد بارك الله في ذريتهما ، ونفع بها الاسلام والمسلمين ، وكان منهم سادة وقادة ، وأئمة في العمل والدين والجهاد والزهادة .

وولدت فاطمة لعلي زينب وأم كلثوم ، وتزوج زينب ابن عمها عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، أحد أجواد العرب في الاسلام ، وولدت له علياً وعوناً ، وتزوج أم كلثوم بنت علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فولدت زيداً ومات

(١) الجامع الصحيح للبخاري، (كتاب المناقب، باب «مناقب الحسن والحسين») .
(٢) رواه الترمذي ج٢ ؛ ص ٢٢١ (الطبعة الهندية) .

عنها[1] .

وكل أولاده ﷺ ، توفي قبله إلا فاطمة ، فانها تأخـرت بعده بستة أشهر[2] .

---

(1) مقتبس من «السيرة النبوية» لابن كثير وغيره ج٤، ص ٥٨١ ـ ٥٨٢.
(2) زاد المعاد لابن قيم الجوزية، ج١، ص ٢٦ .

الأخلاق والشمائل

صفة رسول الله ﷺ، خلقاً وخلقاً :

وصفه ﷺ ، هند بن أبي هالة (ابن خديجة أم المؤمنين وخال الحسن والحسين رضي الله عنهما) وكان رجلا وصافاً ، فقال:

« كان رسول الله ﷺ ، متواصل[١] الأحزان ، دائم الفكرة ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة ، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه[٢] ، ويتكلم بجوامع الكلم ، كلامه فصل[٣] ، لا فضول ولا تقصير ، ليس بالجافي[٤] ، ولا المهين[٥] ، يعظم النعمة وإن دقت[٦] ، لا يذم

(١) أي لا ينفك حزن عن حزن يعقبه.

(٢) جمع شدق (بالكسر): طرف الفم، أي إنه يستعمل جميع فمه للتكلم؛ ولا يقتصر على تحريك شفتيه كفعل المتكبرين.

(٣) الفاصل بين الحق والباطل.

(٤) الغليظ الطبع السيء الخلق.

(٥) يروى بضم الميم أو بفتحها، فالضم على الفاعل من «أهان» أي لا يهين من يصحبه، والفتح على المفعول من المهانة؛ أي الحقارة والابتذال؛ فالمعنى لم يكن غليظ الخلق ولا ضعيفه، بل كان معتدلا بين أنواع المهابة والوقار والجلالة»

(٦) صغرت وقلت.

منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً[1] ، ولا يمدحـه ، ولا تغضبه الدنيا ، ولا ما كان لها[2] ، فاذا تعدى الحق ، لم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصرله ، لا يغضب لنفسه ولا ينتصرلها ، اذا أشار أشار بكفه كلها ، واذا تعجب قلبها ، واذا تحدث اتصل بها ، وضرب براحته اليمنى بطـن ابهامـه اليسرى واذا غضب أعرض وأشاح [3] واذا فرح غض طرفه.

حل [4] ضحـكه التبسـم ، يفتـر [5] عن مثـل حب الغمام[6]

ووصفه علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو من أعرف الناس به ، وأكثرهم عشرة له ، وأقدرهم على الوصف والبيان ، فقال :

« لم يكن فاحشاً[7] متفحشاً[8] ، ولا صخابـاً[9] ، في

---

(١) المأكول والمشروب، فعال بمعنى المفعول من الذوق.

(٢) أي ولا يغضبه أيضاً ما كان له علاقة بالدنيا.

(٣) جد في الأعراض وبالغ فيه.

(٤) معظمه وأكثره.

(٥) من أفتر: ضحك ضحكا حسنا حتى بدت أسنانه من غير قهقهة.

(٦) بفتحتين: البرد.

(٧) أي ذو فحش من القول والفعل، وان كان استعماله في القول أكثر منه في الفعل والصفة.

(٨) أي ولا المتكلف به، أي ولم يكن الفحش له خلقيا ولا كسبيا.

(٩) أي صياحا.

الأسواق ، ولا يحكي السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويصفح[1] ، ما ضرب بيده شيئاً قط ، إلا أن يجاهد في سبيل الله ، ولا ضرب خادماً ولا امرأة ، وما رأيته منتصراً[2] من مظلمة ظلمها قط ما لم ينتهك من محارم الله تعالى شيء ، فاذا انتهك من محارم الله ، كان من أشدهم غضباً ، وما خير بين أمرين الا اختار أيسرهما ، واذا دخل بيته كان بشراً من البشر ، يفلي[3] ثوبه ، ويحلب شاته ويخدم نفسه.

كان يخزن لسانه إلاّ فيما يعنيه ، ويؤلفهم ولا ينفرهم ، ويكرم كريم كل قوم ، ويوليه عليهم ، ويحذر الناس ، ويحترس منهم ، من غير أن يطوي على أحد منهم بشره[4] ، ولا خلقه ، ويتفقد[5] أصحابه ، ويسأل الناس عما في الناس ، ويحسن الحسن ويقويه ، ويقبح القبيح ويوهيه[6] ، معتدل الأمر غير مختلف ، ولا يغفل مخافة أن يغفلوا ويملوا ، لكل حال عنده عتاد[7] ، ولا يقصر عن الحق ، ولا يجاوزه ، الذين يلونه من الناس خيارهم ، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة ، وأعظمهم

---

(١) صفح عنه : أعرض عنه وتركه ، بابه فتح .

(٢) منتقماً .

(٣) فلي يفلي فلياً رأسه أو ثوبه ، نقاهما من القمل .

(٤) بالكسر: طلاقة الوجه وبشاشته .

(٥) أي يتعرف ويطلب من غاب منهم .

(٦) بتشديد الهاء وتخفيفها من التوهية والايهاء: يضعفه .

(٧) بالفتح هو العدة والتأهب مما يصلح لكل ما يقع ؛ ج أعتد ، وعتد ، وأعتدة .

عنده منزلة ، أحسنهم مواساة[١] ومـوازرة[٢] ، ولا يقـوم ولا يجلس الا على ذكر ، واذا انتهى الى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، ويأمر بذلك ، يعطي كل جلسائه نصيبه ، لا يحسب جليسه أن أحداً أكرم عليه منه، من جالسه أو فاوضه[٣] في حاجة صابره حتى يكون هو المنصرف ، ومن سأله حاجته ، لم يرده إلاّ بها أو بميسور من القول ، وقد وسع النـاس بسطـه وخلقه ، فصار لهم أباً وصاروا عنده في الحق سواء ، مجلسـه مجلس علم وحياء وصبر وأمانة ، ولا ترفع فيه الأصوات ، ولا تؤبـن[٤] فيه الحـرم ، ولا تنثى[٥] فلتاتـه[٦]، متعادلـين[٧] يتفاضلون فيه بالتقوى ويوقـرون فيه الكبـير ، ويرحمـون فيه الصغير ، ويؤثرون ذا الحاجة ، ويحفظون الغريب » .

وقـال : « كان دائـم البشر ، سهـل الخلـق ، لـين[٨] الجانـب ، ليس بفـظ[٩] ، ولا غليظ ، ولا صخـاب ، ولا

(١) المدارة وهي اصلاح أحوال الناس بالمال والنفس .

(٢) المعاونة .

(٣) عامله في حاجة أو خالطه .

(٤) بضم التاء وسكون الهمزة من الأبن وهو العيب والتهمة ؛ أي لا تقذف ولا تعاب .

(٥) بضم التاء وسكون النون وفتح المثلثة أي لا تشاع ولا تذاع .

(٦) أي زلاته ومعايبه على تقدير وجود وقوعها؛ جمع فلتة وهي ما يصدر من الرجل من سقطة .

(٧) متساوين .

(٨) أي سريع العطف، كثير اللطف، جميل الصفح ، وقليل الخلاف وقيل: كناية عن السكون والوقار والخشوع والخضوع .

(٩) الغليظ السيء الخلق ، الخشن الكلام ،ج أفظاظ وفي القرآن « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك» .

عياب ، ولا مشاح[1] يتغافل عما لا يشتهي ، ولا يؤيس منه ، ولا يجيب فيه [2] ، قد ترك نفسه من ثلاث « المراء[3] ، والاكبار ، وما لا يعنيه » ، وترك الناس من ثلاث : كان لا يذم أحداً ولا يعيبه ، ولا يطلب عورته ، ولا يتكلم الا فيما رجا ثوابه ، واذا تكلم أطرق[4] جلساؤه ، كأنما على رؤوسهم الطير ، فاذا سكت تكلموا ، لا يتنازعون عنده الحديث ومن تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ ، حديثهم عنده حديث أولهم[5] يضحك مما يضحكون ، ويتعجب مما يتعجبون ، ويصبر للغريب على الجفوة في منطقه ومسألته ، حتى كان أصحابه يستجلبونهم ، ويقول : إذا رأيتم طالب حاجة يطلبها فأرفدوه[6] ، ولا يقبل الثناء إلا من مكافىء[7] ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يجوز[8] فيقطعه بنهي أو قيام » .

« أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس لهجة[9] ،

---

(١) اسم فاعل من المفاعلة من الشح ؛ وهو البخل ؛ وقيل أشده .

(٢) أي لا يجيب أحداً فيما لا يشتهي بل يسكت عنه عفواً وتكرماً .

(٣) الجدال .

(٤) أمالوا رأسهم ، وأقبلوا ببصرهم الى صدورهم .

(٥) أي حديث أفضلهم وكأول تكلمهم ؛ أي لا عن ملال وسآمة .

(٦) الارفاد الاعطاء والاعانة .

(٧) أي مقارب في مدحه ، لا يجاوز به عن حد مثله ، ولا مقصر به عما رفعه الله اليه من علو مقامه .

(٨) أي يتجاوز عن الحد والحق .

(٩) اللسان .

وألينهم عريكة[1] ، وأكرمهم عشيرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه ، يقول ناعته : لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ [2] » .

وقد كسا الله نبيه لباس الجمال ، وألقى عليه محبة ومهابة منه ، وصفه هند بن أبي هالة ، فقال :

« كان فخماً [3] مفخماً [4] ، يتلألأ [5] وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر [6] » .

ووصفه البراء بن عازب ـ رضي الله عنه ـ فقال : « كان رسول الله ﷺ ، مربوعاً[7] ، وقد رأيته في حلة حمراء ، ما رأيت شيئاً قط أحسن منه[8] » ، ووصفه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ فقال : « كان ربعة[9] ، وهو الى الطول أقرب ، شديد البياض ، أسود شعر اللحية ، حسن الثغر ، أهدب[10] أشعار العينين ، بعيد ما بين المنكبين (الى أن قال) : « لم أر مثله

---

(١) الطبيعة ؛ ج عرائك .
(٢) ملتقطاً من جزء الشمائل للترمذي.
(٣) بفتح الفاء وسكون الخاء: أي عظيماً في نفسه .
(٤) أي المعظم في الصدور والعيون .
(٥) أي يستنير.
(٦) عن الحسن بن علي عن خاله هند بن أبي هالة (الشمائل للترمذي) .
(٧) وسيط القامة .
(٨) متفق عليه .
(٩) الوسيط القامة .
(١٠) الطويل الأشعار.

قبل ولا بعد[1] » ويقول : أنس - رضي الله عنه - : « ما مسست ديباجاً ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ ، ولا شممت رائحة قط أطيب من رائحة رسول الله ﷺ [2] » .

مع الله تعالى :

كان رسول الله ﷺ ، مع ما أكرمه الله به من الرسالة والخلة والاصطفاء وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أعظم الناس اجتهاداً في العبادة ، وحرصاً عليها ، وولعاً بها.

يقول المغيرة بن شعبة : « قام النبي ﷺ ، حتى تورمت قدماه ، فقيل له : وقد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً [3] ؟ » .

وقالت عائشة - رضي الله عنها : « قام النبي ﷺ ، بآية من القرآن ليلة [4] » .

وقال أبو ذر : « قام رسول الله ﷺ ، حتى أصبح بآية ، والآية : « ان تعذبهم فانهم عبادك، وان تغفر لهم فانك أنت

---

(١) الأدب المفرد للبخاري « باب اذا التفت التفت جميعاً» .

(٢) متفق عليه (البخاري في كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ ، ومسلم في كتاب القضائل؛ ؛ باختلاف يسير) .

(٣) رواه البخاري في تفسير سورة الفتح ومسلم والترمذي والنسائي في باب «احياء الليل» .

(٤) رواه الترمذي.

العزيز الحكيم[1] » .

وعن عائشة أيضاً: « كان يصوم حتى نقول : لا يفطر ويفطر حتى نقول : لا يصوم » .

وقال أنس : « كان لا تشاء أن تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ، ولا نائماً إلا رأيته[2] » .

وعن عبد الله بن الشّخّير ، قال : « أتيت رسول الله ﷺ ، وهو يصلي ، ولجوفه أزيز كأزيز المرجل ، من البكاء[3] » .

وكان لا يكاد يتسلى عن الصلاة ، ويرغب عنها الى غيرها ، فيقول : « وجعل قرة عيني في الصلاة[4] » .

ويقول الصّحابة ـ رضي الله عنهم : كان اذا حزبه أمر صلى[5] ، وعن أبي الدرداء ـ رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ ، اذا كان ليلة ريح شديدة، كان مفزعه الى المسجد ، حتى تسكن الريح ، واذا حدث في السماء حدث من خسوف شمس

(١) رواه النسائي في باب « ترديد الآية » ؛ وابن ماجة في باب «ما جاء في القراءة في الليل» .

(٢) رواه البخاري في صحيحه في باب «قيام النبيﷺ ، ونومه» من كتاب التهجد.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل.

(٤) رواه النسائي (كتاب عشرة النساء، في باب «حب النساء») .

(٥) رواه أبو داود.

أو قمر ، كان مفزعه الى الصلاة حتى ينجلي[1] » .

وكان يحن الى الصلاة ، ويتحينها ، فلا يهدأ له بال ، ولا يقر له قرار ، حتى يقبل عليها ، وكان يقول أحياناً لمؤذنه بلال : يا بلال ! أقم الصلاة ، أرحنا بها[2] .

نظرته ﷺ ، الى الحياة وزهده فيها !

أما نظرته الى الدينار والدرهم ، والمال والمتاع ، فأكبر مجموعة من الألفاظ ، وقدرة بيانية لا تفي بالغرض ، فان تلاميذ مدرسته الإيمانية الربانية ، وتلاميذ تلاميذهم من العرب والعجم ، في مشارق الأرض ومغاربها ، نظروا الى الدينار والدرهم كالخزف والحصا والرمل والتراب ، وروى عنهم من الزهادة في الدنيا ، والاستهانة بزخارف الحياة ، والغرام بانفاق المال على غيرهم ، وإيثارهم عليهم ، والقناعة بالكفاف وأقل من الكفاف ، ما يحيّر الألباب[3] ، فكيف بالرسول الأعظم ﷺ ، الذي كان قدوتهم في كل خير وفضل ، وإمامهم ومعلمهم ، ولكننا نترك ما رواه الصحابة - رضي الله عنهم - في هذا الباب ، وما جرى على لسانه من الأقوال ينطق بذلك ، فلا

---

(١) رواه الطبراني في الكبير.

(٢) رواه أبو داود(كتاب الأدب ، باب «في صلاة العتمة») .

(٣) وليراجع في ذلك الكتب التي ألفت في هذا الموضوع ، ككتاب الزهد لعبد الله بن المبارك ، و«صفوة الصفوة» لابن الجوزي ، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم .

كلام أبلغ من الحوادث والأخبار ، ولا أنطق منها.

كان قوله المأثور المشهور ، وبه كان عمله، وعليه تدور حياته ﷺ ، « اللهم لا عيش الا عيش الآخرة »، وكان ﷺ ، يقول : « مالي وللدنيا ، وما أنا والدنيا الا كراكب استظل تحت شجرة ، ثم راح وتركها[1] » .

ورآه عمر مضطجعاً على رمال حصير ، قد أثر في جنبه ، فهملت عينا عمر ، فقال : « ما لك ؟ » فقال : « يا رسول الله ! أنت صفوة الله من خلقه ، وكسرى وقيصر فيما هما فيه » فاحمر وجهه ، وقال:« أو في شك أنت يا ابن الخطاب؟ » ثم قال : « أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا[2] » .

وكان لا يحب هذا الطراز من المعيشة لنفسه فقط ، بل كان يحبه لأهله وعياله ، ويؤثره لهم ، فروي عنه أنه قال : « اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً[3] » وقال أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ « والذي نفس أبي هريرة بيده ، ما شبع نبي الله وأهله ثلاثة أيام تباعاً من خبز حنطة حتى فارق الدنيا[4] » ،

---

(١) رواه أبو داود الطيالسي في مسنده.
(٢) راجع الحديث بطوله في الصحيحين.
(٣) متفق عليه، البخاري (كتاب الرقاق) ومسلم (كتاب الزهد).
(٤) رواه البخاري وأحمد، واللفظ لأحمد؛ ورواه مسلم في كتاب الزهد.

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : « ان كنا آل محمد ليمر بنا الهلال ما نوقد ناراً ، إنما هو الأسودان : التمر والماء[1] » .

وقد كانت له درع عند يهودي ، فما وجد ما يفكها ، حتى مات[2] ، وانه ﷺ ، حج حجة الوداع ، والمسلمون معه مد البصر ، والجزيرة خاضعة له ، على رحل رث ، عليه قطيفة ، لا تساوي أربعة دراهم ، فقال : « اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة [3] » .

وقد قال ﷺ ، لأبي ذر ـ رضي الله عنه : ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً ، تمضي عليّ ثلاثة أيام ، وعندي منه دينار ، إلا شيء أرصده لدين ، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا ، وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله وعن خلفه[4] .

ويقول جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ : « ما سئل رسول الله ﷺ ، عن شيء ، فقال : لا[5] » : وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : كان النبي ﷺ ، أجود الناس بالخير من الريح المرسلة[6] » ، وعن أنس ـ رضي الله عنه ـ « أن رجلاً

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الترمذي.

(٣) رواه الترمذي في الشمائل عن أنس.

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري (كتاب الرقاق، باب «قول النبي ﷺ ، : ما أحب أن لي أحداً ذهبا»).

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب «حسن الخلق».

(٦) صحيح البخاري، باب «بدء الوحي».

سأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع الى بلاده ، وقال : أسلموا ، فان محمداً يعطي عطاء من لا يخشى فاقة ، وحمل اليه ﷺ ، تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام اليها يقسمها ، فما رد سائلاً حتى فرغ منها.

مع الناس :

وكانت لا تمنعه هذه العبادة والزهد في الدنيا ، والاقبال الى الله بقلبه وقالبه ، والاشتغال به ، ومناجاته ، عن دوام البشر ، وطلاقة الوجه ، وتفقد القلوب ، وملاطفة الناس ، وإيتاء كل ذي حق حقه ، وذلك شيء لا يقوى عليه غيره ، وقد كان يقول : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً[1] ».

وقد كان أوسع الناس صدراً ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشيرة ، وكان يمازح أصحابه ، ويخالطهم ويحادثهم ، ويداعب صبيانهم ، ويجلسهم في حجره ، ويجيب دعوة الحر والعبد ، والأمة والمسكين ، ويعود المرضى في أقصى المدينة ، ويقبل عذر المعتذر[2] ، ولم ير مادّاً رجليه بين أصحابه حتى يضيق بهما على أحد.

---

(١) متفق عليه.

(٢) من كلام أنس بن مالك رضي الله عنه، رواه أبو نعيم في الحلية.

يقول عبد الله بن الحارث ـ رضي الله عنه: ما رأيت أكثر تبسما من رسول الله ﷺ [1] ، وعن جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ قال : جالست رسول الله ﷺ ، أكثر من مائة مرة ، فكان أصحابه ـ يتناشدون الشعر ، ويتذاكرون أشياء من أمر الجاهلية ، وهو ساكت وربما تبسم معهم .

ويقول الشريد : « استنشدني نبي الله شعر أمية بن أبي الصلت فأنشدته[2] » .

وكان حنوناً ودوداً ، تجلت فيه العواطف الإنسانية ، والمشاعر اللطيفة في أسمى مظاهرها وأجملها ، يقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه : « كان رسول الله ﷺ ، يقول لفاطمة : ادعى لي ابنيَّ (يعني الحسن والحسين رضي الله عنهما) فيشمهما ويضمهما اليه[3] ، ودعا سبطه حسن بن علي مرة ، فجاء يشتد ، فوقع في حجر رسول الله ﷺ ، ثم أدخل يده في لحيته ثم جعل النبي ﷺ ، يفتح فاه ، فيدخل فاه في فيه[4] .

وتقول عائشة ـ رضي الله عنها ـ : قدم زيد بن حارثة

---

(١) الترمذي في الشمائل.

(٢) الأدب المفرد للبخاري؛ ص ١٢٧ .

(٣) رواه الترمذي في أبواب المناقب، باب «مناقب الحسن والحسين».

(٤) الأدب المفرد للبخاري ص ١٧٣ .

(وهو مولى رسول الله ﷺ) المدينة ، ورسول الله ﷺ ، في بيته ، فأتاه ، فقرع الباب ، فقام اليه النبي ﷺ ، عريانا ، يجر ثوبه ، فاعتنقه وقبله[1] .

وعن أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن ابنة لرسول الله ـ ﷺ ، أرسلت اليه أن ابني قد احتضر ، فاشهدنا ، فأرسل يقرأ السلام ، ويقول : « إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى ، فلتصبر ولتحتسب ، فأرسلت اليه تقسم عليه ، فقام وقمنا معه ، فلما قعد رفع اليه ، فأقعده في حجره ، ونفس الصبي تقعقع ، ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ ! ، قال : « هذه رحمة يضعها الله في قلوب من يشاء من عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء[2] » .

ولما شد وثاق العباس في أسرى بدر ، فسمعه رسول الله ﷺ، يئن لم يأخذه النوم، فبلغ الأنصار ، فأطلقه الأنصار ، ولم تحمله تلك الشفقة على التمييز بينه وبين سائر أسرى بدر ، فلما فهم الأنصار رضا رسول الله ﷺ ، بفك وثاقه ، سألوه أن

---

(١) رواه الترمذي في أبواب الاستيذان، باب «ما جاء في المعانقة».

(٢) رواه البخاري (كتاب المرضى؛ باب «عيادة الصبيان») وفي (كتاب الجنائز، باب «قول النبي ﷺ؛ يعذب الميت ببكاء أهله»).

يتركوا له الفداء طلبا لتمام رضاه ، فلم يجبهم الى ذلك[١] .

وجاء أعرابي الى رسول الله ﷺ ، فقال : أتقبلون الصبيان؟ فما نقبّلهم ، فقال النبي ﷺ ، « أو أملك لك اذا نزع الله من قلبك الرحمة؟[٢] » .

وكان عطوفاً على الصبيان ، رفيقاً بهم ، روي عن أنس ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ، مر على صبيان يلعبون ، فسلم عليهم[٣] ، يقول أنس بن مالك : كان النبي ﷺ ، ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير « يا أبا عمير! ما فعل النغير؟ »[٤] .

وكان شديد الرأفة بالمسلمين ، كثير المراعاة لاختلاف أحوالهم ، وما يعتري النفوس من فتور وملل.

يقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: « كان رسول الله ﷺ ، يتخولنا بالموعظة كراهة السآمة علينا ، وكان مع شدة ولعه بالصلاة يتجوزها اذا سمع بكاء صبي ، فقد روي عنه أنه قال : إني لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهية أن أشق على أمه[٥] .

(١) «فتح الباري ج٨؛ ص ٣٢٤، (الطبعة المصرية).
(٢) عن عائشة رضي الله عنها، رواها البخاري في كتاب الأدب، باب رحمة الولد.
(٣) رواه البخاري في كتاب الاستيذان.
(٤) الأدب المفرد، ص ٤٠.
(٥) رواه البخاري في كتاب الصلاة (باب « من أخف الصلاة ») .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أن رجلا قال : « والله يا رسول الله ! إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا ، فما رأيت رسول الله ﷺ ، في موعظة أشد غضباً منه يومئذ ، ثم قال : « ان منكم منفرين ، فأيكم صلى بالناس فليتجوز ، فان فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة[1] » .

ومن ذلك أن أنجشة كان يحدو بالنساء ، وكان حسن الصوت ، والابل تسرع اذا سمعت الحداء ، فيشق ذلك على النساء ، فقال النبي ﷺ : « يا أنجشة ! رويدك سوقك بالقوارير[2] » .

وقد برأه الله من الحقد ، ومن أن يضمر لأحد سوءاً ، روي عنه أنه كان يقول : لا يبلغني أحد منكم من أصحابي شيئاً ، فاني أحب أن أخرج اليكم ، وأنا سليم الصدر[3] .

وكان لهم أبا رحيما ، وأصبح المسلمون كلهم له عيالا ، يحنو عليهم حنو المرضعات على الفطيم ، لا شأن له بما متعهم الله به من مال ، ووسع لهم في الرزق ، أما ديونهم ، وما يثقل كواهلهم ، فكان يستثقل به ، ويقول : من ترك مالا فلورثته

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأذان «باب تخفيف الامام القراءة» .

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ص ١٨٥ ؛ ورواه البخاري ومسلم في صحيحهما .

(٣) «كتاب الشفاء» ، ص ٥٥ ، رواه عن طريق أبي داود.

ومن ترك كَلاّ فالينا[1] ، وفي رواية أنه قال : « ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة »، اقرؤا ان شئتم : « النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم : فأيما مؤمن مات ، وترك مالا فليرثه عصبته من كانوا ، ومن ترك دينا أو ضياعا ، فليأتني فأنا مولاه[2] » .

اعتدال الفطرة وسلامة الذوق:

وقد خلقه الله في أتم خَلْقٍ وخُلُقٍ ، واليه المنتهى - عبر القرون والأجيال - في اعتدال الفطرة ، وسلامة الذوق ، ورقة الشعور ، والسداد والاقتصاد ، والبعد عن الافراط والتفريط ، تقول عائشة - رضي الله عنها - : ما خيّر رسول الله ﷺ ، في أمرين قط الا اختار أيسرهما ، ما لم يكن اثما ، فان كان اثما ، كان أبعد الناس[3] .

وكان أبعد الناس عن التكلف ، والمغالاة في الزهد ، وحرمان النفس حقوقها ، روي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ ، قال : « إن الدّين يسر ، ولن يشاد الدّين أحد إلا غلبه ، فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا

---

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب الاستقراض ، باب «الصلاة على من ترك ديناً» .
(٢) المصدر السابق .
(٣) رواه مسلم في باب « مباعدته - ﷺ - للآثام .

بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة[١] » ، وقال : « مه عليكم بما تطيقون، فوالله ما يمل الله حتى تملوا » ، وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال : سئل النبي ﷺ ، أي الأديان أحب الى الله؟ قال: الحنيفية السمحة[٢] .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : قال النبي ﷺ ، «هلك المتنطعون»[٣] وقال لبعض من بعثهم للدعـوة والتعليم : « يسرا ولا تعسرا ، وبشرا ولا تنفرا » ، وعن عبدالله بن عمرو ابن العاص، قال: قال رسول الله ﷺ : « ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده[٤] » .

في منزله ومع أهله وعياله :

وكان في منزله بشرا من البشر ، كما تقول عائشة ـ رضي الله عنها : كان يفلي ثوبه ، ويحلب شاتـه ، ويخـدم نفسـه ، وقالت : كان يرقع الثوب ، ويخصف النعل ، ونحو هذا وقيل لعائشة ـ رضي الله عنها: ما كان رسـول الله ﷺ ، يصنـع في أهله ؟ ، قالت : « كان في مهنة أهله فاذا حضرت الصلاة ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الايمان باب «الدين يسر» .
(٢) الأدب المفرد ص ٨١ (طبع المطبعة السلفية) .
(٣) أي المتشددون المتعمقون، رواه مسلم .
(٤) رواه الترمذي في أبواب الآداب؛ باب «ان الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده» .

خرج الى الصلاة[1] » .

وفي رواية « كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه ، كما يعمل أحدكم في بيته[2] » وقالت عائشة : كان ألين الناس ، وأكرم الناس ، وكان ضحاكا بساما[3]. وعن أنس - رضي الله عنه - قال : ما رأيت أحداً كان أرحم بالعيال من رسول الله ﷺ ،[4] . وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت : قال رسول الله ﷺ « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي[5] » . وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : ما عاب رسول الله ﷺ ، طعاماً قط ، ان اشتهاه أكله ، وان كرهه تركه [6] .

تقديم الأقربين في المخاوف والمغارم وتأخيرهم في الرخاء والمغانم :

وكان شعاره الدائم في أهل بيته وعياله ، وأقرب الناس إليه تقديمهم في المخاوف والمغارم ، وتأخيرهم في الرخاء

---

(١) رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب «من كان في حاجة أهله» ورواه أحمد وعبد الرازق في المصنف.

(٢) رواه عبد الرزاق في المصنف رقم الحديث ٢٠٤٩٢ ، ج١١، ص ٢٦٠

(٣) ابن عساكر.

(٤) رواه أحمد في مسنده عن أنس، ورواه مسلم.

(٥) رواه ابن ماجه في باب «حسن معاشرة النساء».

(٦) متفق عليه؛ رواه البخاري في كتاب الأطعمة، باب «ما عاب النبي ﷺ ، طعاما» ورواه مسلم في صحيحه.

والمغانم ، طلب عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ وهم كانوا من أبطال العرب المرموقين ـ من يبارزهم من قريش ، وممن فارق دينهم من أهل مكة ، وهاجر منها ، وكان رسول الله ﷺ ، من أعرف الناس بمكانتهم وبغنائهم في الحرب وكان في قريش من ينهض لذلك من الأبطال والفرسان ، فلم يزد أن قال : قم يا حمزة ! قم يا علي ! قم يا عبيدة ؟ ، وهم من أقرب الناس إليه رحماً ودماً ، وأحبهم إليه ولم يؤثر أحداً عليهم ، ضناً بحياتهم وإبقاء عليهم ، وكان من صنع الله تعالى أن كتب لهم الغلبة والانتصار على منافسيهم ، ورجع حمزة وعلي سالمين مظفرين ، وحمل عبيدة جريحاً .

ولما أراد أن يحرم الربا ، ويهدر دم الجاهلية القديمة ، بدأ بعمه العباس بن عبد المطلب ، وابن أخ له من بني هاشم ، ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، فقال في خطبته في حجة الوداع : « وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا : ربا عباس بن عبد المطلب ، ودماء الجاهلية موضوعة ، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ربيعة بن الحارث[1] »

أما في الرخاء وعند المغانم ، فكان دائماً يؤخرهم ويؤثر عليهم غيرهم ـ خلافاً للملوك والقادة والزعماء ـ يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه ـ : إن فاطمة ـ عليها السلام ـ

(١) رواه مسلم في كتاب الحج ؛ باب «حجة النبي ﷺ وأبو داود عن جابر بن عبد الله .

اشتكت ما تلقى من الرحى مما تطحن ، فبلغها أن رسول الله ﷺ ، أتى بسَبْيٍ ، فأتته تسأله خادماً ، فلم توافقه ، فذكرت لعائشة ، فجاء النبي ﷺ ، فذكرت عائشة له ، فأتانا ، وقد دخلنا مضاجعنا ، فذهبنا لنقوم ، فقال : على مكانكما ، حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أدلكما على خير مما سألتماني ، إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعاً وثلاثين ، واحمدا ثلاثاً وثلاثين ، وسبحاً ثلاثاً وثلاثين ، فإن ذلك خير لكما مما سألتماني[1] ، وفي رواية في هذه القصة أنه ﷺ ، قال : والله لا أعطيكم وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيعهم ، وأنفق عليهم أثمانهم[2]» .

رقة الشعور الإنساني ونبل العاطفة :

كان رسول الله ﷺ ، مع أعباء النبوة والدعوة ، وهم الإنسانية والأحزان والأثقال التي لا تحملها الجبال الراسيات ـ قد تجلى فيه الشعور الإنساني الرقيق ، والعاطفة الإنسانية النبيلة ، في أجمل مظاهرهما ، فمع صرامته وقوة عزيمته التي يمتاز بها الأنبياء، والتي كانت لا تقيم في سبيل الدعوة وإعلاء

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد، باب «الدليل على أن الخمس لنوائب رسول الله ﷺ .

(٢) أخرجه أحمد (فتح الباري ج٧، ص ٢٣ ـ ٢٤).

كلمة الله ، وامتثال أوامره لشيء قيمة أو وزناً ، لم ينس أصحابه الأوفياء الذين لبوا دعوته، وبذلوا في سبيل الله مهجهم وأرواحهم ، واستشهدوا في معركة أحد إلى آخر يوم من أيام حياته ، فكان يذكرهم ، ويدعو لهم ، ويزورهم ، وسرى هذا الحب إلى المكان الذي قامت فيه هذه المعركة ، والجبل الذي شاهدها ، والبلد الذي احتضنه ، فروى عنه الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أنه قال : « هذا جبل يحبنا ونحبه »[1] وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ ، طلع له أحد ، فقال : هذا جبل يحبنا ونحبه ، وعن أبي حميد قال : « أقبلنا مع النبي ﷺ ، من غزوة تبوك حتى إذا أشرفنا على المدينة ، قال : « هذه طابة ، وهذا جبل يحبنا ونحبه[2] » .

وعن عقبة أن رسول الله ﷺ ، خرج يوماً ، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت[3] ، وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول إذا ذكر أصحاب أحد : أما والله ، لوددت أني غودرت مع أصحابه بحصن[4] الجبل[5] .

(١) الجامع الصحيح للبخاري؛ كباب المغازي؛ باب «أحد يحبنا».
(٢) صحيح البخاري (كتاب المغازي) قصة تبوك.
(٣) نفس المصدر.
(٤) سفح الجبل.
(٥) تفرد به أحمد، (ابن كثير، ج٣؛ ص ٨٩).

وقد احتمل شهادة عمه وأخيه من الرضاعة، والذي غضب له ، ودافع عنه بمكة ، واستشهد في معركة أحد ، ومثل به تمثيلاً لم يمثّل بأحد من القتلى ، فاحتمل كل ذلك في صبر أولي العزم من الرسل ، ولكنه لما دخل المدينة راجعاً من أحد ، ومر بدار بني عبد الأشهل فسمع البكاء ، ونوائح على قتلاهم ، فحرك ذلك في نفسه الشعور الإنساني النبيل ، فذرفت عيناه ، ثم قال : لكن حمزة لا بواكي له[1] .

ولكن هذا الشعور الإنساني النبيل لم يستطع أن يقهر الشعور بمسئولية النبوة والدعوة والوقوف عند حدود الله ، فقد روى أصحاب السير أنه لما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير - رضي الله عنهما - إلى دار بني عبد الأشهل أمرا نساءهم أن يتحزمن ، ثم يذهبن ، ويبكين على عم رسول الله ﷺ ، ففعلن ، ولما سمع رسول الله ﷺ ، بكاءهن على حمزة ، خرج عليهن ، وهن في باب المسجد يبكين ، فقال : « إرجعن يرحمكن الله ، فقد آسيتن بأنفسكن » وروي أنه قال : ما هذا ؟ فأخبر بما فعلت الأنصار بنسائهم ، فاستغفر لهم ، وقال لهم خيراً ،وقال: ما هذا أردت ، وما أحب البكاء ونهى عنه[2] وأدق من هذه المواقف كلها موقف وقفه مع وحشي ، قاتل أسد

---

(١) ابن كثير ج٣، ص ٩٥، وقد أسنده الامام أحمد عن ابن عمر، قال ابن كثير: « وهذا على شرط مسلم» .

(٢) ابن كثير ج٣ - ص ٩٦ .

الله وأسد رسوله حمزة - رضي الله عنه ، فلما فتح الله للمسلمين مكة ، ضاقت عليه المذاهب ، وفكر في اللحوق بالشام واليمن وببعض البلاد ، وأظلمت عليه الدنيا ، فقيل له : ويحك إنه رسول الله ﷺ، ما يقتل أحداً من الناس دخل في دينه ، فتشهد شهادة الحق ، وقدم على رسول الله ﷺ ، فقبل منه الإسلام ، ولم يفزعه ، وسمع منه قصة قتل حمزة ، فلما فرغ عن حديثه تحرك فيه ذلك الشعور الإنساني الرقيق ، من غير أن يزاحم طبيعة منصب النبوة الرفيع ، فيرفض إسلامه أو يثور فيه الغضب ، فيقتله شفاء للنفس ، ولم يزد أن قال : ويحك غيب عني وجهك ، فلا أرينك ، قال وحشي : وكنت أتنكب رسول الله ﷺ ، لئلا يراني ، حتى قبضه الله ﷺ[1] .

وفي رواية البخاري : فلما رآني قال : أنت وحشي ؟ قلت : نعم قال : أنت قتلت حمزة ؟ قلت : قد كان من الأمر ما بلغك ، قال : فهل تستطيع أن تغيب وجهك عني ؟[2] .

ومن مظاهر هذا الشعور الإنساني الرقيق ، والعاطفة النبيلة أنه ﷺ ، انتهى إلى رسم قبر فجلس ، وأدركته الرقة ، فبكى ، وقال : هذا قبر آمنة بنت وهب ، وذلك ، حين مضت على وفاتها مدة طويلة[3] .

(١) ابن هشام ق ٢ ؛ ص ٧٢ ، وروى البخاري هذه القصة في كتاب المغازي، باب قتل حمزة رضي الله عنه.

(٢) الجامع الصحيح للبخاري، باب قتل حمزة.

(٣) رواه البيهقي عن طريق سفيان الثوري مطولا ، راجع ابن كثير ج١ ، ص ٢٣٦ .

كرمه وحلمه :

وقد كان رسول الله ﷺ ، إمام الخلق أجمعين ، ومعلّمهم في حسن الخلق وكرم النفس ، والتواضع ، لقد قال الله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم » ، وقد قال ﷺ : « أدبني ربي فأحسن تأديبي » ، وعن جابر أن النبي ﷺ ، قال : « إن الله بعثني لتمام مكارم الأخلاق ، وكمال محاسن الأفعال [1] » ، وسئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلقه ، فقالت : كان خلقه القرآن » [2]

وكان في العفو والحلم ورحابة الصدر وقوة الاحتمال ، حيث لا يبلغه ذكاء الأذكياء ، وخيال الشعراء ، ولولم يروعن طريق لا يتطرق إليه شك ، ولا ترتقي إليه شبهة ، لما قبلته أذهان الناس ، ولكن روي بأسناد صحيحة متصلة ونقل عادل عن عادل ، وتواتر ، واستفاض ذلك ، فكان أثبت من التاريخ الثابت الأمين ، ونحن هنا نكتفي بقليل مما روي في هذا الباب .

فمن كرمه ﷺ ، وعفوه عن أشد أعدائه وإحسانه إليه أنه أتى عبد الله بن أبي [3] ـ رأس المنافقين ـ بعدما أدخل

---

(١) رواه في شرح السنة ، مشكاة المصابيح ، ص ٥١٤ .

(٢) رواه الامام مسلم في صحيحه ، من حديث عائشة بطوله .

(٣) وهلك سنة تسع في ذي القعدة بعد الانصراف من تبوك (الزرقاني ؛ ج٣ ؛ ص ١١٢ ـ ١١٣) .

حفرتـه ، فأمـر به رسـول الله ﷺ ، فأخـرج ، فوضعـه على ركبتيه ، ونفث فيه من ريقه ، وألبسه قميصه[1] .

وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : كنت أمشي مع رسول الله ﷺ ، وعليه برد نجراني ، غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابي ، فجبذه بردائه جبـذة شديدة ، فنظـرت إلى صفحـة عاتق النبي ﷺ ، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته ، ثم قال : يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفـت إليه ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء[2].

وجاء زيد بن سعنة قبل إسلامـه يتقاضـاه دينـاً عليه ، فجبذ ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثوبه ، وأغلظ له ، ثم قال : إنكم يا بني عبد المطلب مطل ، فانتهره عمر ، وشدد له في القول ، والنبي ﷺ ، يتبسم ، فقال رسول الله ﷺ : أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك يا عمر ! ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضي ، ثم قال : لقد بقي من أجلـه ثلاث ، وأمر عمر يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعاً لما روعه ، فكان سبب إسلامه[3] .

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، ملخصاً .

(٢) رواه البخاري في كتاب الجهاد ؛ باب «ما كان النبي ﷺ ، يعطي المؤلفة قلوبهـم ، ورواه الامام أحمد في المسند ، ج٣ ص ١٥٣ باختلاف في اللفظ .

(٣) رواه البيهقي مفصلا وابن حبان والطبراني .

يقول أنس ـ رضي الله عنه : إن ثمانين رجلاً من أهل مكة هبطوا على رسول الله ﷺ ، من جبل « التنعيم » متسلحين ، يريدون غرة النبي[1] ، فأخذهم سلماً[2] فاستحياهم[3] .

وعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال : غزونا مع رسول الله ﷺ ، غزوة نجد ، فأدركته القائلة ، وهو في واد كثير العضاة ، فنزل تحت سمرة ، واستظل بها ، وعلق سيفه ، فتفرق الناس في الشجر يستظلون ، وبينا نحن كذلك ، إذ دعانا رسول الله ﷺ ، فجئنا ، فإذا أعرابي قاعد بين يديه ، فقال : إن هذا أتاني وأنا نائم ، فاخترط سيفي ، فاستيقظت ، وهو قائم على رأسي مخترط صلتا ، قال: من يمنعك مني ؟ قلت : الله ! فشامه[4] ، ثم قعد ، فهو هذا ،قال :ولم يعاقبه رسول الله[5] .

وقد كان حلمه يسع ما لا يسعه حلم الصحابة ـ وهم أصحاب حلم وأناة ـ وكان في كل ذلك معلماً رفيقاً ، ومصلحاً

(١) الغرة: الغفلة.

(٢) السلم: الأسر.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير، باب «قول الله: وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم».

(٤) أي رده الى غمده، وقيل: هو بمعنى سلّه ونظر إليه (مجمع بحار الأنوار، ج٣)

(٥) صحيح البخاري (كتاب المغازي، باب غزوة بني المصطلق»).

رحيماً ، من ذلك ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : بال أعرابي في المسجد فقام الناس إليه ، ليقعوا فيه ، فقال النبي ﷺ ، دعوه ، وأريقوا على بوله سجلاً من الماء ، أو ذنوباً من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ، ولم تبعثوا معسرين [1]

وعن معاوية بن الحكم بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ ، إذ عطس رجل من القوم ، فقلت : يرحمك الله ! فرماني القوم بأبصارهم ، فقلت : واثكل أمياه ! ما شأنكم تنظرون إلي » ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، فلما رأيتهم يصمتونني لكني سكت ، فلما صلى النبي ﷺ ، فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً منه ، فوالله ما نهرني ، ولا ضربني ، ولا شتمني ، فقال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن » [2].

ويقول أنس بن مالك ـ رضي الله عنه : كان النبي ﷺ ، رحيماً ، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده، وأنجز له ، إن كان عنده ، وأقيمت الصلاة ، وجاء اعرابي ، فأخذ ثوبه فقال : إنما بقي من حاجتي يسيرة ، وأخاف أنساها ، فقام معه ، حتى فرغ من حاجته ، ثم أقبل فصلى .

(١) القصة رواها البخاري في كتاب الوضوء.
(٢) رواه مسلم في باب تحريم الكلام في الصلاة.

ومن أمثلة قوة احتماله ، وسعة صدره ، وعظم صبره ، ما شهد به خادمه أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ وقد كان حديث السن ، قال : خدمت النبي ﷺ ، عشر سنين فما قال لي : أف ولا لمَ صنعت ، ولا ألا صنعت! [1].

وروى سعاد بن عمر ، قال : أتيت النبي ﷺ ، وأنا متخلق ، فقال : ورس ، ورس ، حط ، حط، وغشيني بقضيب في يده بطني ، أوجعني ، فقلت : القصاص يا رسول الله فكشف لي [2].

تواضعه ـ ﷺ ـ :

أما تواضعه ﷺ ، فقد بلغ الغاية فيه ، فلم يكن يحب التمييز في شيء ، ولا أن يقوم له الناس ، وأن يبالغوا في مدحه ، فيطروه ، كما أطرت الأمم السابقة أنبياءها ، أو أن يرفعوه من منزلة العبودية والرسالة ، قال أنس : لم يكن شخص أحب إلينا من رسول الله ﷺ ، وكنا إذا رأيناه ، لم نقم لما نعلم من كراهيته لذلك [3] ، وقيل له : يا خير البرية ! فقال : ذاك إبراهيم ـ عليه السلام ـ [4] .

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفضائل، باب «حسن خلقه ﷺ »

(٢) كتاب الشفاء.

(٣) رواه الترمذي (باب «ما جاء في كراهية قيام الرجل للرجل)؛ ورواه أحمد في المسند ج٣؛ ص ١٣٢.

(٤) رواه مسلم في كتاب الفضائل (باب «من فضل ابراهيم الخليل ﷺ »).

وروي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ : لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى بن مريم ، فإنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله [1]

وعن ابن عبدالله بن أبي أوفى قال: كان رسول الله ﷺ ، لا يستنكف أن يمشي مع العبد ، ولا مع الأرملة ، حتى يفرغ لهم من حاجتهم [2] ، وعن أنس قال : كانت الأمة من اماء المدينة لتأخذ بيد النبي ﷺ ، فتنطلق به حيث شاءت [3] .

ولما قدم عليه عدي بن حاتم الطائي ، دعاه إلى منزله ، فألقت إليه الجارية وسادة يجلس عليها ، فجعلها بينه وبين عدي ، وجلس على الأرض ، قال عدي : فعرفت أنه ليس بملك [4] .

وعن أنس - رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ ، يعود المريض ، ويشهد الجنازة ، ويركب الحمار ، ويجيب دعوة العبد [5] .

وعن جابر- رضي الله عنه - قال : كان رسول الله ﷺ ،

---

(١) رواه البخاري في كتاب الأنبياء.

(٢) رواه البيهقي في باب تواضع رسول الله ﷺ .

(٣) رواه أحمد في المسند ج٣، ص ١٩٨ - ٢١٥ ، وجمع الفوائد ج٢ ، كتاب المناقب باب صفاته وأخلاقه ﷺ.

(٤) زاد المعاد ج١ ، ص ٤٣ .

(٥) رواه الترمذي في الشمائل؛ باب «تواضع النبي ﷺ .

يتخلف في المسير فيزجي[1] الضعيف ويدعو له[2].

وعن أنس - رضي الله عنه - أنه كان ﷺ، يدعى إلى خبز الشعير والإهالة[3] السنخة، فيجيب[4]

وروي عنه أنه قال: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد[5]، ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص: دخل عليّ رسول الله ﷺ، فألقيت له وسادة من أدم حشوها ليف، فجلس على الأرض، وصارت الوسادة بيني وبينه[6].

وكان ﷺ، يقمّ البيت، ويعقل البعير، ويعلف ناضحه، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق[7].

شجاعته وحياؤه :

وقد كان يجمع بين الحياء والشجاعة، وقد اعتبرهما كثير

---

(١) أي يسوق.

(٢) رواه المنذري في «الترغيب والترهيب».

(٣) الاهالة: كل شيء من الأدهان مما يؤتدم به؛ والسنخة؛ المتغيرة الريح.

(٤) رواه الترمذي في الشمائل في باب «تواضع النبي ﷺ» ورواه أحمد في المسند ج٣ ص ٢١١.

(٥) الشفاء ص ١٠١.

(٦) الأدب المفرد ص ١٧٢.

(٧) كتاب الشفاء، ص ١٠١، رواية عن البخاري.

من الناس من الأضداد ، أما الحياء فقد روي عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أنه كان أشد حياء من العـذراء في خدرها وكان إذا كره شيئاً عرفناه في وجهه [1] ، وكان يمنعه الحياء عن أن يواجه أحداً بما يكرهه ، فيكل إلى غيره ، روى أنس رضي الله عنه ـ أنه كان عنده ﷺ ، رجل له أثر صفرة ، فكان ﷺ ، لا يكاد يواجه أحداً بشيءٍ يكرهه ، فلما قام ، قال للقوم : لو قلتم : يدع هذه الصفرة [2].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت : كان النبي ﷺ ، إذا بلغه عن أحد ما يكرهه ، لم يقل ما بال فلان يقول كذلك ، ولكن يقول : ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا ينهى عنه، ولا يسمي فاعله [3] .

أما الشجاعة ، فناهيك بشهادة علي فارس الفرسان ، وفتى الفتيان ، قال ـ رضي الله عنه ـ : إنا كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله ﷺ ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ، ولقد رأيتني يوم بدر، ونحن نلوذ بالنبي ﷺ ، وهو أقربنا إلى العدو [4] .

يقول أنس ـ رضي الله عنه : كان النبي ﷺ ، أحسن

(١) رواه البخاري في كتاب المناقب؛ باب «صفة النبي ﷺ » .
(٢) رواه الترمذي في الشمائل، باب «خلق رسول الله ﷺ» .
(٣) معني الحديث في سنن أبي داود، باب « حسن العشرة» .
(٤) الشفاء ص ٨٩.

الناس ، وأجود الناس وأشجع الناس ، ولقد فزع أهل المدينة ذات ليلة ، فانطلق الناس قبل الصوت ، فاستقبلهم النبي ﷺ ، قد سبق الناس إلى الصوت ، وهو يقول : لن تراعوا لن تراعوا ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، ما عليه سرج ، وفي عنقه السيف ، فقال : لقد وجدته بحراً ، أو إنه لبحر[1] .

وقد ثبت في معركة أحد ، ويوم حنين ، حين انكشف عنه الشجعان ، وخلا الميدان ، وهو ثابت على بغلته ، كأن لم يكن شيء ويقول :

أنا النبي لا كذب ... أنا ابن عبد المطلب

رأفة عامة ورحمة واسعة :

وكان مع شجاعته هذه ، رقيق القلب ، سريع الدمعة ، يرق للضعفاء ، ويرحم الحيوانات والدواب ، ويوصي بالرفق بها ، يروي عنه شداد بن أوس ، فيقول : قال رسول الله ﷺ : إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة ، وليحدّ أحدكم شفرته ، وليرح ذبيحته[2] .

---

(١) رواه البخاري في الأدب المفرغ ؛ ص ٤٦ ، ورواه الشيخان في الصحيحين.
(٢) رواه مسلم في باب «الأمر باحسان الذبح (كتاب الذبائح).

وروي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ أن رجلاً أضجع شاة وهو يحد شفرته ، فقال النبي ﷺ : أتريد أن تميتها موتتين ؟ هلا أحددت شفرتك قبل أن تضجعها[1] .

وقد أوصى أصحابه بالإحسان في علف الدابة وسقيها وعدم إرهاقها وتكليفها ما لا تطيق وعدم اتخاذها غرضاً ، ونوه بما في إزالة الكربة عن الحيوانات وإراحتهم من الأجر والثواب والقرب عند الله ، روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش ، فوجد بئراً فنزل فيها ، ثم خرج ، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي ، فنزل البئر فملأ خفه ، ثم أمسكه بفمه ، فسقى الكلب ، فشكر الله له ، فغفر له ، قالوا : يا رسول الله ! وإن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال : في كل ذات كبد رطبة أجر[2] .

وعن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : عذبت امرأة في هرة لم تطعمها ، ولم تسقها ، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض[3] .

وعن سهل بن عمرو (وقيل سهل بن الربيع بن عمرو)

---

(١) رواه الطبراني والحاكم، وقال صحيح على شرط البخاري.

(٢) رواه البخاري في كتاب المساقاة، باب «فضل سقي الماء»، ومسلم في باب «فضل سقي البهائم».

(٣) وهي هوام الأرض وحشراتها، ذكره النووي، رواه مسلم.

قال : مرّ رسول الله ﷺ ، ببعير قد لحق ظهره ببطنه ، فقال : اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة ! فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[1] .

وعن عبد الله بن جعفر ـ رضي الله عنهما ـ قال : دخل رسول الله ﷺ ، حائطاً لرجل من الأنصار ، فإذا فيه جمل ، فلما رأى رسول الله ﷺ ، حنّ وذرفت عيناه ، فأتاه النبي ﷺ ، فمسح سراته[2] ، وذفراه ، فسكن ، فقال: من رب هذا الجمل ؟ ، لمن هذا الجمل ؟فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هذا لي يا رسول الله ! قال : أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها ؟ ، فإنه يشكو إليّ أنك تجيعه وتدئبه[3] .

وروى أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ ، إذا سافرتم في الخصب ، فأعطوا الإبل حظها من الأرض ، وإذا سافرتم بالجدب ، فأسرعوا عليها السير ، وبادروا بها نقيها ، وإذا عرستم فاجتنبوا الطريق ، فإنها طريق الدواب ومأوى الهوام بالليل[4] .

وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه قال : كنا مع رسول

---

(١) رواه أبو داود في باب «ما يؤمر به من القيام على الدواب» .
(٢) أي سنامه .
(٣) رواه أبو داؤود في باب « ما يؤمر به من القيام على الدواب » .
(٤) رواه مسلم في باب «مراعاة مصلحة الدواب» .

الله ﷺ ، في سفر ، فانطلق لحاجته ، فرأينا حمرة ، معها فرخان ، فأخذنا فرخيها ، فجعلت تعرّش ، فجاء النبي ﷺ ، فقال : من فجع هذه بولدها ردوا ولدها إليها ،ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال : من حرق هذه ؟ فقلنا نحن، قال : إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار[1] .

هذا فضلاً عمّا أوصاه للخادم والأجير ، وهما بشر من البشر، ولهما فضل على السيد والمستأجر ، فقد أوصى ﷺ ، بالخدم والعبيد خيراً ، روى جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه كان النبي ﷺ ، يوصي بالمملوكين خيراً ، ويقول : أطعموهم مما تأكلون وألبسوهم من لبوسكم ، ولا تعذبوا خلق الله عز وجل[2] - إن إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم[3]، فمن كان أخوه تحت يديه فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم ما يغلبهم فأعينوهم .

وروي عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : جاء أعرابي إلى النبي ﷺ ، فقال يا رسول الله ! كم أعفو عن الخادم كل يوم ؟! قال : سبعين مرة[4] .

(١) رواه أبو داود في كتاب الجهاد، باب «كراهية حرق العدو بالنار» .

(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد» ص ٣٠.

(٣) رواه البخاري في صحيحه في باب «قول النبي ﷺ ، العبيد إخوانكم» وأبو داود في باب «حق المملوك.» .

(٤) رواه الترمذي وأبو داود.

وعن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال : قال رسول الله ﷺ ، أعطوا الأجير أجره قبل أن يجفّ عرقه[1] .

أسوة كاملة وقدوة عامة :

ونختم هذا الفصل بقطعة جميلة نقتبسها من كتاب « الرسالة المحمدية » لمؤلف السيرة النبوية الشهير ، أستاذنا العلامة السيد سليمان الندوي ، ذكر فيها كيف كان النبي ﷺ ، أسوة لجميع طبقات البشر ، ويصلح أن يكون قدوة لجميع أفراد بني آدم ـ على اختلاف صنائعهم ومهنهم وظروفهم وبيئاتهم ـ في كل زمان ؟ ، يقول ـ رحمه الله ـ :

« لقد مثلت حياة النبي ﷺ ، أعمالاً كثيرة متنوعة ، بحيث تكون فيها الأسوة الصالحة ، والمنهج الأعلى ، للحياة الإنسانية في جميع أطوارها ، لأنها جمعت بين الأخلاق العالية والعادات الحسنة ، والعواطف النبيلة المعتدلة ، والنوازع العظيمة القويمة .

إذا كنت غنياً مثرياً، فاقتد بالرسول ﷺ ، عندما كان تاجراً يسير بسلعه بين الحجاز والشام ، وحين ملك خزائن البحرين ، وإن كنت فقيراً معدماً فلتكن لك أسوة به وهو

---

(١) رواه ابن ماجة في أبواب الرهون (باب أجر الأجراء).

محصور في شعب أبي طالب ، وحين قدم إلى المدينة مهاجراً إليها من وطنه ، وهو لا يحمل من حطام الدنيا شيئاً ، وإن كنت ملكاً فاقتد بسننه وأعماله حين ملك أمر العرب ، وغلب على آفاقهم ، ودان لطاعته عظماؤهم وذوو أحلامهم ، وإن كنت رعية ضعيفاً ، فلك في رسول الله أسوة حسنة أيام كان محكوماً بمكة في نظام المشركين ، وإن كنت فاتحاً غالباً ، فلك من حياته نصيب أيام ظفره بعدوه في بدر وحنين ومكة ، وإن كنت منهزماً ـ لا قدر الله ذلك ـ فاعتبر به في يوم أحد وهو بين أصحابه القتلى ورفقائه المثخنين بالجراح ، وإن كنت معلماً ، فانظر إليه وهو يعلم أصحابه في صفة المسجد ، وإن كنت تلميذاً متعلماً ، فتصور مقعده بين يدي الروح الأمين جاثياً مسترشداً ، وإن كنت واعظاً ناصحاً ومرشداً أميناً ، فاستمع إليه وهو يعظ الناس على أعواد المسجد النبوي ، وإن أردت أن تقيم الحق وتصدع بالمعروف ، وأنت لا ناصر لك ولا معين ، فانظر إليه وهو ضعيف بمكة ، لا ناصر ينصره ، ولا معين يعينه ، ومع ذلك فهو يدعو إلى الحق ويعلن به ، وإن هزمت عدوك وخضدت شوكته ، وقهرت عناده ، فظهر الحق على يديك ، وزهق الباطل ، واستتب لك الأمر ، فانظر إلى النبي ﷺ ، يوم دخل مكة ، وفتحها وإن أردت أن تصلح أمورك ، وتقوم على ضياعك ، فانظر إليه ﷺ ، وقد ملك ضياع بني النضير وخيبر ، وفدك ، كيف دبر أمورها ، وأصلح

شؤونها ، وفوضها إلى من أحسن القيام عليها، وإن كنت يتيماً ، فانظر إلى فلذة كبد آمنة وزوجها عبد الله ، وقد توفيا ، وابنهما صغير رضيع ، وإن كنت صغير السن ، فانظر إلى ذلك الوليد العظيم حين أرضعته مرضعته الحنون حليمة السعدية ، وإن كنت شاباً فاقرأ سير راعي مكة ، وإن كنت تاجراً مسافراً بالبضائع ، فلاحظ شئون سيد القافلة التي قصدت « بصرى » ، وإن كنت قاضياً أو حكماً فانظر إلى الحكم الذي قصد الكعبة قبل بزوغ الشمس ليضع الحجر الأسود في محله ، وقد كاد رؤساء مكة يقتتلون ، ثم ارجع البصر إليه مرة أخرى ، وهو في فناء مسجد المدينة يقضي بين الناس بالعدل ، يستوي عنده منهم الفقير المعدم ، والغني المثري ، وإن كنت زوجاً ، فاقرأ السيرة الطاهرة والحياة النزيهة لزوج خديجة وعائشة ، وإن كنت أبا أولاد ، فتعلم ما كان عليه والد فاطمة الزهراء ، وجد الحسن والحسين ، وأياً من كنت ، وفي أي شأن كان شأنك ، فإنك مهما أصبحت أو أمسيت ، وعلى أي حال بت أو أضحيت ، فلك في حياة محمد ﷺ ، هداية حسنة ، وقدوة صالحة تضيء لك بنورها دياجي الحياة ، وينجلي لك بضوئها ظلام العيش ، فتصلح ما اضطرب من أمورك ، وتثقف بهديه أودك ، وتقوم بسننه عوجك ، وإن السيرة الطيبة الجامعة لشتى الأمور هي ملاك الأخلاق ، وجماع التعاليم ، لشعوب الأرض ، وللناس كافة ، في أطوار الحياة كلها ،

وأحوال الناس على اختلافها وتنوعها ، فالسيرة المحمدية نور للمستنير ، وهديها نبراس للمستهدي وإرشادها ملجأ لكل مسترشد[1] .

(١) « الرسالة المحمدية» ؛ ص ١٣٥ ـ ١٣٧ . (تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي) .

فضل البعثة المحمدية على الإنسانية ومنحها العالمية الخالدة[1]

إعلان فريد في تاريخ الرسالات والديانات :

قال الله تعالى مخاطباً لنبيه محمد ﷺ : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[2] » ، هذا إعلان فريد من نوعه ، جاء في كتاب خالد قدر الله سبحانه وتعالى له أن يتلى في كل مكان وزمان ، ويبلغ عدد قرائه ملايين الملايين ، وقال عنه : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[3] .

إن سعة هذا الإعلان ، وإطاره الكبير ، ومساحته بحساب الزمان والمكان ، تجعلان هذا الإعلان خارقاً للعادة لا يمكن أن يمر به الإنسان الواعي مراً عابراً سريعاً ، فإن مساحته

---

(١) محاضرة القاها المؤلف في ٢٠ من ربيع الآخر ١٣٩٥هـ (٢/ ٥/ ١٩٧٥م) في قاعة المحاضرات الكبرى بمدينة لكهنئو ـ الهند، حضرها جمّ غفير من المثقفين من جميع طبقات الشعب ؛ ومن المسلمين وغير المسلمين؛ نقلها الى العربية الأستاذ محمد الحسني رئيس تحرير مجلة « البعث الاسلامي » وتناولها المحاضر بالتنقيح والتهذيب وبشيء من الحذف والزيادة؛ ولما كانت هذه المحاضرة وثيقة الصلة بالسيرة النبوية ، وفضلها علي الانسانية والمدنية ، جعلها المؤلف الفصل الأخير لهذا الكتاب .

(٢) سورة الأنبياء ـ ١٠٧ .

(٣) سورة الحجر ـ ٩

الزمنية تحوي جميع الأجيال ، والأدوار التاريخية التي تتلو البعثة المحمدية ، ومساحته المكانية تسع العالم كله ، فإن الله سبحانه وتعالى لم يقل إننا أرسلناك رحمة لجزيرة العرب ، أو للشرق أو الغرب أو لقارة ، مثل آسيا مثلاً ، بل إنه قال : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

الحق إن سعة هذا الإعلان وشموله ، وعظمته وسموه ، واستمراره وخلوده ، كل ذلك يقتضي أن يقف عنده مؤرخو العالم وفلاسفته ، ونوابغه ، وأذكياؤه ، حيارى مشدوهين ، بل يقف أمامه الفكر الإنساني كله حائراً مشدوهاً ، وينقطع إليه كلياً - ردحة من الزمن - يبحث في مدى صدق هذا الإعلان ، أو صحة هذا الواقع ، لأننا لم نجد في تاريخ الأديان والنحل ، وفي تاريخ الحضارات والفلسفات ، وتاريخ الحركات الإصلاحية والمحاولات الثورية ، بل في تاريخ العالم كله ، وفي المكتبة الإنسانية بأسرها مثل هذا الإعلان المحيط بالكون كله ، والأجيال البشرية كلها ، والأدوار التاريخية بأجمعها حول أي شخصية من شخصيات العالم ، حتى إن خلاصة تعاليم الأنبياء السابقين ، ونبذة من أحوالهم وسيرتهم التي وصلت إلينا هي أيضاً مجردة عن مثل هذا الإعلان .

أما اليهودية - وهي ديانة قديمة مشهورة - فإنها تنظر إلى الله كربّ بني إسرائيل ، وإله بني إسرائيل في الغالب ، إن

صحف العهد القديم ، والكتب المقدسة الدينية عند اليهود تخلو من ذكر الله كربّ العالمين ، وربّ الكون بتاتاً ، ولذلك فالبحث في سيرة نبي من أنبيائهم ، مثل موسى وهارون ، أو داود وسليمان ، عن مثل هذا الإعلان ، عبث وإضاعة وقت فإن هذه الديانة لم تكن - في أي مرحلة من مراحلها - رسالة رحمة ومساواة للجيل الإنساني كله ، من غير تمييز عنصري ولم تشجع فيها الدعوة إلى هذه الديانة خارج شعب إسرائيل أبداً[1] .

أما المسيحية التي عرفت بتسامحها وحماسها للدعوة ، وعطفها على الإنسانية ، فإن نبيها - المسيح عليه السلام - صرح بأنه لم يبعث إلا ليرعى خراف بني إسرائيل الضالة[2] . وحين لفت نظره إلى بعض المرضى الذين لم تكن لهم صلة رحم ونسب ببني إسرائيل اعتذر وقال : « إني لست ذلك الرجل الذي يعطي خبز الأولاد للكلاب[3] » .

أما الديانات الشرقية والآسيوية الأخرى ، وخاصة الهندكية فإنها لا تختلف كثيراً عن النموذج السابق ، بل إنها

---

(١) أنظر للتوسع والتفصيل في هذا الموضوع كتاب المهتدية الأمريكية الفاضلة مريم جميلة :

« Islam Versus Ahl-E-Kitab, Past and Present 22-23

(٢) انجيل متى ، باب ١٥ - آية ٢٤ ، وباب ١٠ - آية ٦ - ٧

(٣) متى ، باب ١٥ - آية ٢٦ .

تسبق الديانات السابقة أحياناً في تقديس النسب والسلالـة ، وتوزيع الناس في طبقات توزيعاً ظالماً جائراً ، لا يعرف اللين والمرونة ، فقد كان المنبوذون في المجتمع الهندي محرومـين من كل نوع من التكريم والشرف والمساواة ، ومـن أولى حقـوق الإنسان ، وأبسط مبادئ الإنسـانية ، لا يجـوز لهـم تحصيل العلم ، والتعليم والتدريس ، والتطلع إلى الهضبة الروحية ، فقد خص دراسة « ويدا » وتقديم القرابين ، والنذر لآلهتهـم وأوثانهم ، بالبراهمة فحسب[1]، وكان النظر في كتب « ويدا » ودراستها مقصـوراً على فئـة الشتـرى والـويش[2] وقـد صرح «منوشاشتر » أن المنبوذين لم يخلقهم الله إلا لغرض واحـد ، وهو خدمة الطبقات الثلاث التي مضى ذكرها[3] ، إن أهل الهند القدامى لم يكونوا يعرفون وراء جبال « هملايا » دنيا ، لا صلة لهم بالعالم الخارجي ، وبالشعوب الأخرى ، ولا رغبة لهم في الإطلال عليها ، لذلك فإن البحث عن مثل هذا الإعلان عن نبي أو ولي أو مصلح فيهم عبـث وإضاعـة جهـد ووقـت ، الحقيقة أن البحث عن نبي يكون رحمة للعالمين في ديانة لا تحمل عقيدة « رب العالمين » غير معقول وغير منطقي .

---

(١) منوشاشتر؛ الباب الأول ـ ٨٨.

(٢) الباب الأول ـ آية ٨٩ ـ ٩٠.

(٣) الباب الأول ـ ٩١.

قيمة الرحمة التي اقترنت بالبعثة المحمدية كمّا وكيفا :

إن لتقدير شيء ووضعه في محله المناسب ومكانه اللائق مقياسين بصورة عامة ، الأول مقداره وحجمه الذي يعبر عنه في المصطلح الحديث بالكمية Quantity والثاني جوهره ووصفه الذي يقال له الكيفية Quality وهذا الإعلان الذي نادى به القرآن يشمل هذين النوعين ، ويجمع بين الناحيتين ، فإن بعثته ﷺ ، وشخصه العظيم ، وتعاليمه السامية الخالدة ، أفاضت على الإنسانية مسحة جديدة من الحياة والنشاط ، وكانت السبب المباشر في شفائها من أسقامها وعلاّتها ، وفي حل معضلاتها ، ونهاية آلامها وأحزانها ، وهطول أمطار الرحمة والبركة ، واليمن والسعادة ، والخير والفلاح على أرضها المجدبة القاحلة ، وكانت هذه المعطيات المحمدية الغالية منقطعة النظير بحساب السعة والوفرة ، والحجم والكمية Quantity وبحساب النفع والإفادة والجوهر والكيفية Quality أيضاً .

« الرحمة » لفظ شاع استعماله في حياتنا اليومية ، وهو يطلق على كل شيء ينال به الإنسان نفعاً وراحة ، أما أنواع الرحمة وأقسامها ، ودرجاتها ومدارجها ، فلا حصر لها ، يقدم أحدنا الماء البارد إلى أخيه العطشان ، ويدل المسافر والغريب

على الطريق ، ويحرك له المروحة في يوم صائف ، شديد الحر ، الأم تحنو على طفلها ، الأب يربي ولده ويعلمه ، ويزوده بحاجيات الحياة ، المدرس يدرس تلاميذه ،ويمنحهم ما عنده من نعمة العلم ، وهكذا إطعام الجائع المسكين ، وإكرام الضيف ، وكساء العريان ، كل ذلك من مظاهر الرحمة العامة ، وألوانها المختلفة الزاهية ، وهي تستحق منا كل تقدير ، واعتراف وشكر .

ولكن أكبر مظهر من مظاهر الرحمة ، وأروع صورة من صورها الجميلة أن ينقذ أحدنا أخاه من مخالب الموت ، هناك طفل صغير بريء نراه في حالة الاحتضار ، كاد يلفظ نفسه الأخير ، الأم تقف إلى جواره تبكي ، قد أظلمت الدنيا في ناظريها ، وانقطع أملها في فلذة كبدها ، ومأوى حنانها وحبها ، الأب يسعى هنا وهناك هائماً على وجهه ، فلا يجد راقياً وأنيساً ، هناك يأتي طبيب حاذق ، كما ينزل الملك من السماء ويقول مهلاً . . . لا داعي للقلق ، ولا موجب لليأس ، ولا يلقي في فم الطفل قطرات قليلة من الدواء حتى يفتح عينيه وينشط ، تصور ماذا يقال لهذا الطبيب ، ألا يقال له انه ملك الرحمة ، أرسله الله لإنقاذ هذا الطفل ، وإعادة الحياة إليه ، هنالك تتلاشى كل هذه الأنواع من الرحمة التي قدمناها أولاً ، وتذوب أمام هذا المظهر الرائع الأخاذ من الرحمة ، إنها ليست منة على الطفل فقط ، بل على أسرته كلها .

نرى أعمى يمشي متوكئاً على عصاه ، قد شارف هوة عميقة أو بئراً ، قد تكون خطوته التالية خطوة الموت ، فيهرول إليه عبد من عباد الله ويأخذ بحجزه ويمنعه عن الوقوع في هذه الهوة ، أفلا نسميه ملك الرحمة ؟ .

هذا شاب يافع ، قرة عين أبويه ، وكفيل عائلته الفقيرة قد أشرف على الغرق في نهر فائض يحاول أن يطفو على الماء، ولكن بدون جدوى ، فيقفز إليه رجل مجازفاً بحياته ، ويأخذ به إلى ساحل النجاة ، فيحمله رب الأسرة أو إخوة هذا الشاب ، على أعناقهم ويضمونه إلى صدورهم ، بحرارة وحب، ولا ينسون فضله على أسرتهم الصغيرة مدى الدهر ؟ ترى هل تساوي مظاهر الرحمة الأولى ، هذه الرحمة العظيمة الغالية ؟ .

البعثة المحمدية أنقذت الجيل البشري من الشقاء والهلاك :

ولكن آخر مظهر من مظاهر الرحمة وقمتها وذروة سنامها ، هي أن ينقذ رجل الإنسانية كلها من الهلاك ، وهناك فرق عظيم بين هلاك وهلاك ، وبين خطر وخطر ، ذلك هلاك محدود سطحي ، وخطر عابر قد يزول ، وهذا هلاك أبدي ، وخطر مستمر لا يزول ، لذلك فان رحمة الأنبياء بالنوع البشري

لا تقاس أبداً على هذه الرحمات ، رغم أهميتها وعظمتها .

وإن أمامنا بحراً هائجاً من الحياة لم يلتقم الأفراد والآحاد فحسب ، بل انه ابتلع الأمم والبلاد ، وهضم الحضارات والمدنيات ، ترتفع أمواجه العاتية الهائلة ، كأفواه التماسيح الفاغرة ، وتنقض على الجماعات البشرية كالأسد الضاري ، والمشكلة أنه كيف نعبر هذا البحر الهادر الزاخر الذي لا يعرف الرحمة ، وكيف ننزل بسفينة الإنسانية على بر الأمان ، ولا يكون صاحب الفضل الأكبر في هذا المجال ، ولا يعتبر أكبر منقذ للإنسانية وصاحب المنة عليها ، والاحسان اليها ، الا من يجدف هذه السفينة ، التي تلعب بها العواصف الهوجاء ، والأمواج الهائلة كالجبال ، والتي غصت بركابها ، وغاب الملاح والربان - ثم يوصلها بسلامة الى ساحل النجاة !

إن النوع البشري شاكر لهؤلاء الذين منحوه هدية العلم ، ويشكر هؤلاء الذين جمعوا له هذه الأكداس من المعلومات ، ويشكر الذين هيأوا له كل هذه التسهيلات ، وزودوه بوسائل الراحة والرخاء ، وذللوا صعاب الحياة ، واقتحموا عقباتها وشعابها ، انه لا يبخس حق أحد من هؤلاء ، ولا ينكر فضلهم عليه ، ولكن قضيته الكبرى ، ومشكلته الأولى هي أنه كيف ينقذ نفسه من أعدائه الذين وقفوا له بالمرصاد ، وأحاطوا به من كل جانب ، وكيف يصل بسفينته

الى بر السلامة والأمان .

فما هي أمواج هذا البحر ، وما هي تماسيحه الضارية الشرسة؟ .

إنها الجهل عن خالق هذا الكون ورب العالمين ، وعن صفاته العليا ، وأسمائه الحسنى والوقوع في حبائل الشرك والوثنية ، وعبادة الأصنام ، والاسترسال مع الخرافات والأوهام ، إنها بلادة حسّ الإنسانية ، وذهولها عن نفسها ، وغفلتها عن خالقها وبارئها.

إنها عبادة المادة والمعدة ، وتعدي الحدود ، وانتهاك الحرمات ، وسورة النفس الأمارة بالسوء ، والتهرب من أداء الواجبات والحقوق ، والإصرار على المنافع والحظوظ .

إن أكبر خطر على الإنسانية أن يحدث في بنائها خلل ، وتحيد لبنتها الأساسية عن مكانها الصحيح ، فينسى الانسان قيمته ومداركه ، وغاية حياته ، ويظن نفسه ذئباً مفترساً ، أو أفعى أو ثعباناً ، فحين يذهب الانسان عن هذه الحقائق الكبرى يتحول بحر هذه الحياة الى نار متأججة ، ولهب مرتفعة ، هنالك يزدرد الانسان أخاه ، ويفترسه ، ولا يحتاج الى الثعابين ، والعقارب ، والذئاب ، والفهود . . . فقد ينقلب الانسان أكبر ذئب في هذه الغابة الإنسانية . . . تخجل

أمامه ذئاب، ويتحول شيطاناً مارداً ، تستحي منه الشياطين ، هنالك يحترق الانسان ، ويشوى في ناره التي أشعلها بنفسه ، ولا يحتاج الى أن يستوردها من الخارج .

في هذه الفترة الرهيبة المظلمة تهب نفحة من نفحات الرحمة الالهية ، وتنعش رفات الإنسانية الخامدة الهامدة ، وتزودها بملاحين يجدفون سفينتها بنجاح ومهارة .

مهمّة النّبوة ودورها في الإنقاذ والإسعاد وطبيعة عمل الأنبياء :

وأضرب ـ لتوضيح مهمة النبوة ، وطبيعة عمل الأنبياء مثلا سوف نفهم به مهمة النبوة وموقفها من غير دلائل فلسفية دقيقة .

يحكى أن فريقاً من تلاميذ المدارس ركبوا سفينة للنزهة في البحر ، أو للوصول الى البر ، وكان في النفس نشاط وفي الوقت سعة ، وكان الملاح المجدّف الأمي خير موضوع للدعابة والتنادر ، وخير وسيلة للتلهي ، وترويح النفس، فخاطبه تلميذ ذكي جريء وقال : يا عم ماذا درست من العلوم ؟ قال الملاح : ولا شيء يا عزيزي ! ، قال : أما درست العلوم الطبيعية يا عمي ؟ قال ، كلا وما سمعت بها.

وتكلم أحد التلاميذ ، فقال : ولكنك لا بد درست

علم الأقليدس والجبر والمقابلة! قال : وهذا أغرب ، وتصدقون أني أول مرة أسمع هذه الأسماء الهائلة الغريبة .

وتكلم ثالث « شاطر » فقال : ولكني متأكد من أنك درست الجغرافية والتاريخ ؟ فقال : هل هما اسمان لبلدين ، أو علمان لشخصين ؟ .

وهنا لم يملك الشباب نفوسهم المرحة، وعلا صوتهم بالقهقهة، وقالوا : ما سنك يا عم ؟ قال أنا في الأربعين من سني ! قالوا: لقد ضيعت نصف عمرك يا عمنا ! ، وسكت الملاح الأمي على غصص ومضض ، وبقي ينتظر دوره ، والزمان دوار .

وهاج البحر وماج ، وارتفعت الأمواج ، وبدأت السفينة تضطرب ، والأمواج فاغرة أفواهها لتبتلعها ، واضطرب الشباب في السفينة ـ وكانت أول تجربتهم في البحر ـ وأشرفت السفينة على الغرق .

وجاء دور الملاح الأمي ، فقال في هدوء ووقار : ما هي العلوم التي درستموها يا شباب ؟ وبدأ الشباب يتلون قائمة طويلة للعلوم والآداب التي درسوها في الكلية ، ويتوسعون فيها في الجامعة ، من غير أن يفطنوا لغرض الملاح الجاهل ، الحكيم ، ولما انتهوا من عدّ العلوم المرعبة أسماؤها ، قال في وقار تمزجه نشوة الانتصار : لقد درستم يا أبنائي هذه العلوم

الكثيرة فهل درستم علم السباحة؟ ، وهل تعرفون إذا انقلبت هذه السفينة ـ لا قدر الله ـ كيف تسبحون وتصلون الى الساحل بسلام؟ ، قالوا : لا والله يا عم ، هو العلم الوحيد الذي فاتتنا دراسته والإلمام به .

هنالك ضحك الملاح ، وقال اذا كنت ضيعت نصف عمري ، فقد أتلفتم عمركم كله ، لأن هذه العلوم لا تغني عنكم في هذا الطوفان ، إنما كان ينفعكم العلم الوحيد ،وهو علم السباحة الذي تجهلونه[1] .

هذه مهمة النبوة ودورها في إنقاذ البشرية المشرفة على الغرق ، وهذه طبيعة عمل الأنبياء والرسل ، وامتيازه عن سائر أصناف التعليم والتربية ، والترويح والتسلية ، يمنحون الجيل البشري « علم النجاة » ويعلمونه فن السباحة ، وتجديف سفينة الحياة .

إن التاريخ الإنساني يدل دلالة واضحة على أنه لما غرقت سفينة الحياة لفساد أخلاق الناس ، وسيئات أعمالهم ، غرقت بكل ما فيها من مجموعة بشرية ، ورصيد حضاري ، ومحصول فكري ، وإنتاج علمي وفلسفي ، وبكل ما فيها من روائع الشعر والأدب والبيان ، وان هذه السفينة لم تغرق أبداً من أجل الانحطاط الأدبي ، وقلة المدارس والجامعات ، وفقدان

(١) القصة مقتبسة من كتاب المؤلف« النبوة والأنبياء في ضوء القرآن » .

التعليم العالي ، أو من قلة المال وانخفاض مستوى المعيشة ، إنها غرقت لأن الإنسان أعدّ نفسه للانتحار ، إنه صار معولا هداماً لذلك البناء الذي فيه متاعه وأهله ، إن التاريخ يدلنا على أن الفكر الإنساني أصيب في كثير من الأحيان بنوبات عصبية دفعته الى التدمير ، والإبادة بدلا من التعمير والبناء ، فقد رأينا مستغربين مأخوذين بالحيرة والدهشة ، ورأينا بأم أعيننا ، ونحن لا نكاد نصدق هذا الواقع لهول المنظر وبشاعة الوضع ، أن الانسان قام يهدم أساسه بكل قوة وحماس ، ذلك الأساس الذي قام عليه صرحه الحضاري ، والفكري العظيم ، وظل مشتغلا بهذه العملية المجنونة بكل شوق ورغبة ، كأنها عملية بناءة ومأثرة إنسانية رائعة ، وخدمة ممتازة وصار يلح على الوقوع في خندق الموت ، وقد تملكته السآمة من الحياة ، واستبد به الشوق الى الهلاك ، كأن الحياة عذاب وجحيم ، والهلاك جنة ونعيم .

تصوير العصر الجاهلي وتهيؤه للانهيار والانتحار :

ذلك هو الوضع الذي ساد على العالم في القرن السادس المسيحي ، فاننا نجد هناك استعدادات عامة للانتحار الاجتماعي العام ، لم يكن النوع البشري في ذلك الزمان راضياً بالانتحار فحسب ، بل كان يتساقط عليه ، ويتهالك فيه ، كأنه نذر به وحلف ، فيريد أن يفي بنذره ولا يحنث في قسمه ، ولقد

صور القرآن العظيم هذا المنظر وهذا الوضع تصويراً دقيقاً ، لا يصوره أي رسام أو أديب ، أو روائي أو مؤرخ :

« واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها[1] » .

رحم الله المؤرخين ، ورواة السيرة فانهم لم يصوروا الجاهلية حين سردوا لنا وقائع البعثة المحمدية ـ تصويراً صحيحاً دقيقاً ، وهم معذورون ومأجورون ، مثابون ومشكورون ، فان ذخيرة الأدب واللغة لا تسعفهم كل الاسعاف ، الحقيقة أن هذا الوضع في قمة من الهيبة والفظاعة ، وفي منتهى الدقة والتعقيد ، لا يمكن وصفه بريشة قلم ، والتعبير عنه بأي قدرة بيانية ، وصلاحية لغوية .

هل كان العصر الجاهلي ـ الذي بعث فيه محمد ﷺ ـ قضية انحطاط اجتماعي أو خلقي ، هل كان قضية وثنية مجردة ، أو قضية خمر وقمار ، وعبث واستهتار أو ظلم واستبداد ، قضية قوانين اقتصادية جائرة ، وتعسف الحكام الغاشمين ، هل كان قضية وأد البنات ، كلا ، إنه كان قضية وأد الإنسانية كلها .

---

(١) سورة آل عمران ١٠٣ .

لقد انتهى هذا الدور، وانقرض هذا الجيل ، وغاب هذا التصوير البشع عن أعين الناس فكيف نعيده ونمثله ، ونجعله حسياً شاخصاً تراه الأبصار ، وتلمسه البنان ، وجل ما نستطيع أن نقول ، إنه عصرجاهلي لا يفهمه حق الفهم الا من عاش فيه واكتوى بناره ، ولوكان لمصور يحاول التصوير يمكن أن يمثل البشرية في صورة إنسان في غاية الجمال والصحة ، والأناقة وحسن الهندام ، الانسان الذي هو نموذج بديع فريد ، لصنع الله الذي أتقن كل شيء ، والذي هو محسود الملائكة ، وغاية الخلق ، الذي كللّه الله بتاج خلافته ، فصار زينة الوجود ، ولب لباب الحقيقة والعرفان ، وبه تحولت هذه الأرض الخراب اليباب الى روضة غناء ، وحديقة فيحاء ، ثم يصور هذا الانسان يريد أن يقفز في خندق عظيم هائل ترتفع منه ألسنة اللهيب ، وقد تحفز واستجمع قواه ، وجمع ثيابه ، ورفع رجله في الفضاء فعلا ، وكاد يقع فيه ، وما هي الا دقائق وثوان حتى يغيب في هذا الظلام المهيب ، ظلام الموت ، فلعل هذا التصوير يصور بعض الجانب من العصر الجاهلي عند بعثة النبي ﷺ ، وقد أشار القرآن الى هذه الحقيقة ، فقال في ايجاز وفي اعجاز: «وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها» ، وذلك ما شرحه لسان النبوة بمثال رائع بليغ ، فقال عليه الصلاة والسلام :

« مثلي كمثل رجل استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله

جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها وجعل يحجزهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وأنتم تقحمون فيها ، وقال في آخرها : فذلك مثلي ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، هلم عن النار ، فتغلبوني وتقحمون فيها[1] » .

لقد كانت القضية الكبرى في هذه القصة كلها، أن تصل سفينة الإنسانية بسلامة الله وفي حفظه ورعايته الى شاطىء النجاة، لأنه حين يستوي الإنسان ويعتدل طبعه ، وتتحلى الحياة بالاقتصاد والاتزان ، وتنفعه ، اذا كل هذه المشروعات البنائية والانمائية ، أو الأدبية والعلمية التي يؤتي مواهبها كثير من أصدقاء الإنسانية وأنصارها ، ومن هنالك ، فإن الإنسانية كلها مدينة للأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لأنهم أنقذوها من تلك الأخطار المحدقة التي سلطت على رأسها كالسيف المصلت ، ولا يتحرر من منتهم وفضلهم مشروع علمي ،وتخطيط اجتماعي ، ولا مدرسة فكرية ، أو فلسفية كما أن العالم المعاصر مدين لهم في هذا البقاء والاستمرار ، وجدارة الحياة، لأن الإنسان اعترف ـ أحياناً كثيرة ـ بلسان حاله ، ان لم يقل بلسان مقاله، أنه فقد حق البقاء في هذه الأرض ، وانه لا يحمل الآن أي رحمة وبركة ،

(١) متفق عليه، برواية أبي هريرة رضي الله عنه.

وفيض وإفادة ، ودعوة ورسالة للإنسانية ، انه رفع الدعوى في المحكمة الالهية ضد نفسه ، وشهد عليه، لقد كانت ملفاته مهيأة للحكم العادل الأخير ، وقد نصب الإنسان نفسه لأكبر عقوبة تتصور ، بل لعقوبة الإعدام ، ولا عجب في ذلك ، فحينا تتعدى المدنية حدودها الطبيعية وتخرج من طورها ، وتنسى القيم الخلقية كلياً : أو تكفر بها صراحة وعلناً ، ويتغافل الإنسان عن كل غاية نبيلة ، ومقصد شريف، وعن كل واقع وحقيقة غير الحقائق المادية ، وتحقيق مآربه الجسدية ، وإرواء ظمئه الحيواني ، وحينا يحل محل القلب الإنساني قلب الذئب والنمر ، والفهد وتتكون في جسمه معدة خيالية أو صناعية ، ونفس أمارة بالسوء ، لا يقر لها قرار ، ولا يضبطها وازع أو رادع ، وحينا تصيب الإنسانية نوبة شديدة من الجنون ، يبعث الله لها جماعة من الجراحين ، أو عصابة من السفاحين ، وتأتي لأورامها المتنفخة سكاكين من ظهر الغيب تقضي عليها وتقطع دابرها وتستأصل شأفتها .

إن فساد المدنية وهوسها وجنونها أشد من جنون الملكية والحكم الشخصي ، وأوسع منه شراً لأنه حين يجن جنون شخص ضعيف نحيل واحد يقض مضاجع أهل الحارة كلها ، وينغص عيشهم الهادىء ، تصور ماذا يحدث في العالم ، اذا جن جنون النوع البشري أجمع ، وتنخر هيكل المدنية وتعفن ، وفسدت طبيعة الإنسانية ؟ هل له من رقية أو علاج ؟ .

إلاَّ أنه لم تفسد المدنية فحسب في العصر الجاهلي ، بل تفسخت جثتها ، وتعفنت ونشأت فيها ديدان قذرة ، وأصبح الانسـان يقتنص الانسـان ويصطـاده ، ويتلذذ بسكراتـه وشدائده عند الموت ، ويتمتع بحالة الاحتضـار ، كما يتمتـع أحدنا بمنظر البساتين والأشجار ، والورود والأزهار ويطرب ويهتز لاضطرابه وتقلبه على الحجـر ، ويفـرح بأنـين المصـاب والمريض والمنكوب ، وصراخـه وعويلـه ، كما يفـرح بالشراب الهنيء ، والطعام الشهي أو بالمنظر السار الجميل .

سرح طرفك في تاريخ رومة التي تغنت أوربا ـ ولا تزال ـ بفتوحها وبطولاتها ، وأمجادها وتشريعهـا وحضارتهـا ، تجـد نموذجاً حياً للقسوة البشرية التي بلغت قمتها في هذا العصر يقول « ليكي » في كتابه « تاريخ أخلاق أوربـا » يصـور جانبـاً من همجية الانسان وضراوته ، ووحشيته النادرة ، يقول :

إن أكثر المناظر سحراً على نفوس أهل رومة ، وأعظـم تسلية ومتعة لهم ، كان حين يسقط الجـريح في مبـارزة أحـد الأبطال من بني جنسه ، أو مصارعـة سبـع ضار يتشحـط في دمه ، هنالك كان يفلت الزمام ، ويغلب الناس على أمرهم ، ويفقدون رشدهم ، فيتهالك الحشد الحاشـد ـ وفيه النسـاء والأطفـال ، والشيوخ العجـز ـ على الدنـو من هذا المنظـر الرهيب ، والانسان البائس الشقي ، وهـو من بنـي جلدتهـم

وأبناء بلادهم ليمتعوا نفوسهم بمشاهدة احتضاره ، ولـيرن في آذانهم رنين أنينه فقـد كان أجمـل من كل غنـاء وموسيقـى ، وسجع الطيور ، وكان رجال الشرطة الـذين كان من واجبهـم المحافظة على النظام، يقفون مشدوهين مكتـوفي الأيدي أمـام هذه الموجة العارمة من المتعة الظالمة الآثمـة ، لا يملـكون من أمرهم شيئاً[١] » .

لقد كانت قصة الجاهلية الأولى أن حجرهـا الأسـاسي حاد عن موضعه، بل تحطم وتهشم ولم يبق أمل في اصلاحه ، ووضعه في محلـه الصـحيح ، ووقف الإنسـان أمـام المحكمـة الالهية ينتظر الحكم النهائي الأخير في مصيره ، هنـالك بعـث محمد ﷺ ، ونادى صوت السماء : « ومـا أرسلنـاك الا رحمـة للعالمين » .

العالم الجديد في حساب البعثة المحمدية ومنحها :

الحقيقة التي لا مراء فيها أن هذا الدور الذي نعيشه ، وما يليه من الأدوار التاريخية القادمة ، كلها في حساب البعثة المحمدية ، ودعوته العامة الخالدة ، وجهوده المشكورة المثمرة ، لأنه رفع ـ أولا ـ هذا السيف المصلت على رقاب الإنسانية الذي كاد يقضي عليه ، ثم أغناها بمنـح غالية ومعـطيات خالـدة ،

---

(١) راجع «تاريخ أخلاق أوربا» للمؤلف الانجليزي «ليكي» ج١، ص ٢٣٠

وهدايا طريفة جديدة ، بعث فيها الحيوية والنشاط، والهمة والطموح ، والعزة والكرامة ، والهدف الصحيح ، والغاية النبيلة ، واستهل ـ بفضل هذه المنح والمعطيات ـ عهد جديد من السموّ الإنساني ، والثقافة والمدنية ، والربانية والإخلاص ، وإنشاء الإنسان وتكوينه الخلقي والاجتماعي .

منح البعثة المحمدية الستة ، وأثرها في تاريخ الانسان:

ونذكر الآن ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ ستة من معطياته الهامة ، ومنحه الأساسية الغالية التي كان لها الدور الأكبر في توجيه النوع البشري ، واصلاحه وارشاده، ونهضته وازدهار ه والتي خلقت عالماً مشرقاً جديداً لا يشبه العالم الشاحب القديم في شيء.

عقيدة التوحيد النقية الواضحة :

مأثرته الأولى ﷺ ، أنه منح الإنسانية عقيدة التوحيد الصافية الغالية ، فهي عقيدة ثائرة معجزة متدفقة بالقوة والحياة ، مقلبة للأوضاع ، مدمرة للآلهة الباطلة لم تنل ولن تنال الإنسانية مثلها الى يوم القيامة .

هذا الإنسان الذي يحمل دعاوى فارغة ، ومزاعم جوفاء من الشعر والفلسفة والسياسة والاجتماع ، والذي استعبد الأمم

والبلاد مراراً كثيرة ، والذي حوّل الأحجار الصماء أزهاراً عبقة فيحاء ، وفجر الأنهار من بطون الجبال، والذي ادّعى الربوبية أحياناً ، هذا الإنسان كان يسجد لأشياء تافهة لا تضر ولا تنفع ، ولا تعطي ولا تمنع ، « وان يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب[1] ، وكان يركع أمام أشياء صنعها بنفسه ، ويخافها ، ويرجو منها الخير ، إنه لم يخر ساجداً للجبال والأنهار ، والأشجار والحيوانات ، والأرواح والشياطين، وسائر مظاهر الطبيعة فحسب ، بل سجد للحشرات والديدان أيضاً ، وقضى حياته كلها بين هواجس ووساوس ، وبين أخيلة وأوهام ، وأمان وأحلام كانت نتيجته الطبيعية الجبن والوهن ، والفوضى الفكرية ، والقلق النفسي وفقدان الثقة ، وعدم الاستقرار ، فأغناه ﷺ ، بعقيدة صافية نقية سهلة سائغة ، حافزة للهمم ، باعثة للحياة، فتخلص من كل خوف ووجل ، وصار لا يخاف أحداً إلا الله ، وعلم علم اليقين ، أنه وحده ، هو الضار والنافع ، والمعطي والمانع ، وأنه وحده الكفيل لحاجات البشر ، فتغير العالم كله في نظره بهذه المعرفة الجديدة ، والاكتشاف الجديد ، وصار مصونا عن كل نوع من العبودية والرق ، وعن كل رجاء وخوف من المخلوق ، وعن كل ما يشتت البال ، ويشوش الأفكار ، فقد شعر بوحدة في هذه الكثرة ، واعتبر نفسه أشرف خلق

---

(١) سورة الحج ٧٣.

الله ، وسيد هذه الأرض ، وخليفة الله فيها يطيع ربه وخالقه ، وينفذ أوامره ، ويحقق بذلك هذا الشرف الإنساني العظيم ، والعظمة الإنسانية الخالدة التي حرمتها الدنيا منذ زمن بعيد.

انها البعثة المحمدية التي أتحفت الإنسانية بهذه التحفة النادرة ـ عقيدة التوحيد ـ التي كانت مجهولة مغمورة ، مظلومة مغبونة ، أكثر من أي عقيدة في العالم ، ثم ردّد صداها العالم كله ، وتأثرت بها الفلسفات العالمية والدعوات العالمية كلها في قليل أو كثير.

ان بعض الديانات الكبيرة التي نشأت على الشرك وتعدد الآلهة ، وامتزجت به لحماً ودماً ، اضطرت في الأخير الى أن تعترف ـ ولو بصوت خافت ، وهمسة في الآفان ـ ان الله واحد لا شريك له وأرغمت على تأويل معتقداتها المشركة تأويلاً فلسفياً يبرئها من تهمة الشرك والبدعة ، وتجعلها متشابهة بعقيدة التوحيد في الاسلام بقدر ما ، وبدأ رجالها وسدنتها ، يستحيون من الاعتراف بالشرك ويخجلون من ذكره ، وأصيبت هذه الأنظمة المشركة كلها بمركب النقص ، والشعور بالصغار والهوان Inferiority Complex فكانت هذه التحفة أغلى التحف التي سعدت بها الإنسانية بفضل بعثته ﷺ.

مبدأ الوحدة الانسانية والمساواة البشرية :

ومأثرته الثانية العظيمة ، ومنته الباقية السائرة في

العالم ، هو تصور الوحدة الإنسانية . كان الإنسان موزعاً بين قبائل وأمم وطبقات بعضها دون بعض ، وقوميات ضيقة ، وكان التفاوت بين هذه الطبقات تفاوتاً هائلاً كتفاوت بين الإنسان والحيوان، وبين الحر والعبد ، وبين العابد والمعبود، لم تكن هناك فكرة عن الوحدة والمساواة إطلاقاً ، فأعلن النبي ﷺ بعد قرون طويلة من الصمت المطبق ، والظلام السائد ، ذلك الاعلان الثائر ، المدهش للعقول ، المقلب للأوضاع : « أيها الناس ان ربكم واحد ، وان أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى[1] » .

وهذا الإعلان يتضمن إعلانين ، هما الدعامتان اللتان يقوم عليهما الأمن والسلام ، وعليهما قام السلام في كل زمان ومكان ، وهما وحدة الربوبية والوحدة البشرية ، فالإنسان أخو الانسان من جهتين ، والإنسان أخو الإنسان مرتين ، مرة « وهي الأساس » لأن الرب واحد ، ومرة ثانية لأن الاب واحد : «يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام ان الله كان عليكم رقيباً[1] » ، « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً

---

(١) كنز العمال.

(٢) سورة النساء ١.

وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير[1] » .

إنها كلمات خالدة جرت على لسان النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في حجة الوداع وحينما قام النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ بهذا الإعلان التاريخي العظيم ، لم يكن العالم في وضع طبيعي هادىء يسيغ فيه هذه الكلمات الجريئة الصريحة ، ويطيقها ، إن هذا الإعلان لم يكن أقل من زلزال هائل عنيف ، ان هناك أشياء قد نتحملها بصورة تدريجية ، أو من وراء ستار ، مثل الستار الكهربائي ، فقد نلمسه اذا كان مغطى أو داخلا في باطن الاسلاك . . . ولكننا اذا لمسناه عارياً أصابتنا صدمة عنيفة ، أو قضى علينا بتاتاً .

إن هذه الأشواط البعيدة ، والمسافات الشاسعة من العلم والفهم ، والفكر الإنساني التي قطعتها الإنسانية اليوم بفضل الدعوة الإسلامية ، وظهور المجتمع الإسلامي ، وبجهود الدعاة ، والمصلحين والمربين ، جعلت هذا الاعلان الهائل ، والثائر الفائر ، والمزلزل لأوكار الجاهلية ، ومعاقل الشرك والوثنية والعنصرية ، حقيقة يومية عادية ، تنادي بها اليوم كل مؤسسة سياسية واجتماعية في العالم ، ومنها ميثاق حقوق الانسان Hunam Rights Charter الذي حملت لواءه الأمم

(١) سورة الحجرات ١٣ .

المتحدة ، وتصريحات تقوم بها كل جمهورية وكل مؤسسة عن الحقوق الإنسانية ، والمساواة الإنسانية ، فلا يستغربها أحد، ولكن أتى على الانسان حين من الدهر ، سادت فيه عقيدة أشرفية بعض الأمم والأسر وكونها فوق مستوى البشر ، وكانت بعض الأسر والسلالات تعزو نسبها الى الشمس والقمر ، والى الله سبحانه ، « تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً » ان القرآن حكى لنا قول اليهود والنصارى فقال : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه[1] » ، وكان فراعنة مصر يزعمون أنهم تجسيد لاله الشمس « رع » (Ray) ومظهر له .

وأما في الهند فقد عرفت فيها أسرتان سميتا « سورج بنسي » يعني أبناء الشمس ، و« جندر بنسى » أبناء القمر ، أما في ايران فقد كانت أكاسرتها يزعمون أنه يجري في عروقهم الدم الالهي ، وكان أهل البلاد ينظرون اليهم نظرة تقديس وتأليه ، وكان من ألقاب كسرى ابر ويز (٥٩٠ ـ ٦٢٨) ووصفه « في الآلهة إنسان غير فان ، وفي البشر اله ليس له ثان ، علت كلمته ، وارتفع مجده ، يطلع مع الشمس بضوئه وينير الليالي المظلمة بنوره[2] » .

---

(١) سورة المائدة ١٨ .

(٢) ايران في عهد الساسانيين ص ٦٠٤.

وكذلك كانت القياصرة آلهة ، فكان كل من تملك زمام البلاد كان إلها ، وكان لقبهم August يعني « المهيب الجليل[1] » .

أما الصينيون فكانوا يعتبرون الأمبراطور إبن السماء ويعتقدون أن السماء ذكر والأرض أنثى وباتصالهما خلق هذا الكون ، وأن الامبراطور ختا الأول هو بكر هذين الزوجين[2] .

أما العرب فكانوا يعتبرون كل من سواهم « العجم » وكانت قبيلة قريش ترى نفسها أشرف قبائل العرب ، وتحافظ على امتيازها في الموسم ، فلا تشارك الناس في مواقفهم ومساكنهم[3] ولم تكن تدخل عرفات مع الحجيج ، بل تبقى في الحرم وتقف بالمزدلفة[4] ، وتقول نحن أهل الله في بلدته ، وقطان بيته ، وتقول نحن حمس[5] .

إعلان كرامة الإنسان وسموّه :

والمنة الثالثة العظيمة على النوع البشري ، هو اعلان

---

(١) راجع العالم الروماني «The Roman World» : تأليف Victor Chopart ص ٤١٨ .

(٢) أنظر «تاريخ الصين» بقلم جيمس كار كرن .

(٣) أنظر كتب الحديث والسيرة .

(٤) عرفات خارج الحرم .

(٥) رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنهما .

كرامة الإنسان وسموه ، وشرف الإنسانية وعلو قدرها ، لقد بلغ الإنسان قبل البعثة المحمدية إلى حضيض الذل والهوان ، فلم يكن على وجه الأرض شيء أصغر منه وأحقر ، وكانت بعض الحيوانات « المقدسة » وبعض الأشجار «المقدسة » التي علقت بها أساطير ومعتقدات خاصة ، أكرم وأعز عند عبادها ، وأجدر بالصيانة ، والمحافظة عليها من الإنسان ، ولو كان ذلك على حساب قتل الأبرياء ، وسفك الدماء ، وكانت تقدم لها القرابين من دم الإنسان ولحمه من غير وخز ضمير ، وتأنيب قلب ، وقد رأينا بعض نماذجها وصورها البشعة في بلاد متقدمة راقية ، كالهند في القرن العشرين ، فأعاد سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، إلى الإنسانية كرامتها وشرفها ، ورد إليها اعتبارها وقيمتها ، وأعلن أن الإنسان أعز وجود في هذا الكون وأغلى جوهر في هذا العالم ، وليس هنا شيء أشرف وأكرم ، وأجدر بالحب ، وأحق بالحفاظ عليه من هذا الإنسان ، إنه رفع مكانته حتى صار الإنسان خليفة الله ونائبه ، خلق له العالم ، وهو خلق لله وحده ، « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً[١] » وأنه أشرف خلق الله ، وفي مكان الرئاسة والصدارة ، « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً[٢] » .

(١) سورة البقرة ٢٩ .
(٢) سورة الاسراء ٧٠ .

وليس أدل على كرامته والاعتراف بعظمتـه من قولـه : « الخلـق عيال الله ، فأحـب الخلـق إلى الله من أحســن إلى عياله [1] » .

وليس هنا أبلغ في الدلالة على سمو الإنسانية ، والتقرب إلى الله بخدمتها ، والعطف عليها ، من الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ ، قال : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة ، يا ابن آدم مرضت فلم تعدني ! قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ، قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ! أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده ، يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني ! قال : يا رب كيف أطعمك وأنت رب العالمين ، قال : أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه ، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي ، يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني ! قال : يا رب كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟ ، قال : استسقاك عبدي فلان فلم تسقه ، أما علمت أنك لو سقيته لوجدت ذلك عندي [2] » .

هل يتصور إعلان أوضح وأفصح بسمو الإنسانية ، وعلو مكانة الإنسان من هذا الإعلان وهل فاز الإنسان بهذه

---

(١) رواه البيهقي.

(٢) رواه مسلم في صحيحه.

المكانة السامقة ، والشرف العالمي في أي ديانة وفلسفة في العالم القديم والحديث ؟

إنه ﷺ ، جعل الرحمة على بني آدم الشرط اللازم لجلب رحمة الله ، فقال عليه السلام : « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء[1] » .

ترى ما كان عليه وضع العالم ، وحالته الإجتماعية والسياسية ، قبل أن ينهض النبي ﷺ ، بهذه الدعوة دعوة الوحدة الإنسانية ، والكرامة الإنسانية ، ويجاهد في سبيلها أبلغ جهاد .

لقد كان ثمن شهوة فرد واحد ، وهوى شخص واحد ، قبل بعثته ﷺ ، أكبر ، وأغلى من أرواح الآلاف ومئات الآلاف من البشر ، ينهض ملك واحد ، وأمبراطور واحد ، فيكتسح البلاد ، ويستبعد العباد ، ويضرب الرقاب ، ويهلك الحرث والنسل ، ويأتي على الأخضر واليابس لتحقيق مأرب حقير في نفسه ، ويزحف الإسكندر حتى يبلغ الهند ، ويدمر في طريقه حضارات ومدنيات ، وينهض سسرو ويقتنص الفئات البشرية ، كما يقتنص أحدنا حيوانات الغابة ، وأندلعت في زماننا حربان عالميتان ذهب ضحيتهما ملايين ، ولم يكن ذلك

---

(١) رواه أبو داود.

إلا نتيجة صلف قومي ، وأنانية فردية ، وشهوة الحكم ، والسيطرة على الأسواق التجارية العالمية .

محاربة اليأس والتشاؤم ، وبعث الأمل والرجاء ، والثّقة والاعتزاز في نفس الإنسان :

المأثرة الرابعة أن أكثر أفراد النوع الإنساني كانوا مصابين باليأس من رحمة الله ، وبسوء الظن بالفطرة الإنسانية السليمة ، وكان في إيجاد هذا الجو الخاص ، والحالة العقلية الخاصة دور كبير لبعض الديانات الشرقية القديمة ، والمسيحية المحرفة في أوروبا ، وفي الشرق الأوسط ، فقد دانت الديانات القديمة في الهند بعقيدة التناسخ ، وفلسفته التي لا مجال عندها في إرادة الإنسان وتصرفه مطلقاً، وأن كل إنسان مضطر لا محالة لنيل عقوبة ما ، لما قدمت يداه في حياته الأولى ، وذلك بالظهور في شكل سبع مفترس ، أو دابة سائمة ، أو حيوان خسيس ، أو إنسان شقي معذب .

بينما نادت المسيحية بأن الإنسان عاص ومذنب بالولادة والفطرة ، والمسيح صار كفارة وفداء له عن هذه الذنوب ، فأنشأت هذه العقيدة ـ بطبيعة الحال ـ في نفوس الملايين في العالم المتمدن المعمور الذين اعتنقوا المسيحية ، سوء ظن بنفوسهم ، ويأساً من مستقبلهم ، ومن الرحمة الألهية .

هنالك أعلن النبي ﷺ ، بكل قوة وصراحة : أن فطرة الإنسان هي كاللوح الصافي ، الذي لم يكتب عليه بعد ، ويمكن أن ينقش فيه أروع نقش ، ويحرر فيه أجمل تحرير ، وأن الإنسان يستهل حياته بنفسه ، ويستحق الثواب والعقاب ، والجنة والنار بعمله ، وهو غير مسئول عن عمل غيره ، فقد ذكر القرآن في مواضع كثيرة ، أن الإنسان مسئول عن عمله فحسب ، وأنه مثاب ومشكور على سعيه : « ألاّ تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى[1] » .

هذا الإعلان أعاد إلى الإنسان ثقته المفقودة بفطرته ومواهبه الطبيعية ، وانطلق إلى الأمام بعزم قوي ، وحماس زائد ، وعاطفة جياشة ليصنع مصيره ومصير الإنسانية ، ويجرب حظه وقدرته في تلك الإمكانيات الهائلة ، والفرص الغالية .

إن محمداً ﷺ ، قرر أن المعاصي والذنوب ، والأخطاء والزلات فترة عابرة ، زائلة ، في حياة الإنسان ، يقع فيها الإنسان بجهله وغروره ، وقصر نظره حيناً ، وبإغواء الشيطان ، واغراء النفس بعض الأحيان ، وأن الصلاح والصلاحية ، والاعتراف بالذنب والندامة أصل من أصول

---

(١) سورة النجم ٣٨ ـ ٤٠ .

فطرته ، وجوهر إنسانيته ، وأن الابتهال إلى الله ، والتضرع اليه ، والعزم الأكيد على عدم العودة إلى الذنب ، دليل على شرف الانسان ، وأصالة معدنه ، وهو ميراث آدم عليه السلام .

إن محمداً ﷺ ، فتح أمام المذنبين الخطائين ، الغارقين في حمأة المعصية والرذيلة إلى آذانهم ، باباً واسعاً للتوبة ، ودعا إليها الناس دعوة عامة ، وشرح فضل التوبة شرحاً وافياً ، وأفاض فيه إفاضة نستطيع بها القول بأنه أحيا هذا الركن الخاص العظيم من الدين ولذلك سمي « بنبي التوبة » من بين أسمائه الجميلة الأخرى ، إنه ما دعا إلى التوبة كوسيلة اضطرارية يتدارك بها الإنسان ما فاته فحسب ، بل إنه رفع من شأنها حتى صارت من أفضل العبادات ، والقربات عند الله ، وصارت طريقاً سهلاً للوصول ـ في أقرب وقت ـ إلى أقصى درجات القرب والولاية ، يغبط عليها النساك والزهاد ، والأبرياء والأطهار من عباد الله .

إن القرآن شرح فضل التوبة وسعتها ، ونقاء الإنسان من أكبر ذنب ، وأعظم معصية ، يتصورها الإنسان ، وذلك بأسلوب جميل يستهوي القلوب ، ودعا العصاة والمذنبين ، وصرعى النفس والشيطان إلى اللجوء إلى الله سبحانه ، والفرار إليه ، والتفيؤ بظلال رحمته ، والترامي في أحضان رأفته وعطفه وصور بحار رحمته الزاخرة ، الواسعة الأرجاء ، المحيط

بالأنفس والآفاق ، تصويراً رائعاً جميلاً ، شائقاً مثيراً ، يبدو منه أن الله سبحانه وتعالى ليس حليماً رحيماً ، وجواداً كريماً فحسب ، بل إنه - إذا صح هذا التعبير - يحب التوابين ، ويشتاق إليهم ، ويشكر سعيهم البليغ ، ويقدّره كل التقدير ، اقرأ الآيات التالية ، وتذوق أسلوب هذا اللطف والعطف ، وجو الود الذي يغشى هذه الآيات :

« قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنّه هو الغفور الرحيم[1] » .

وأكثر من ذلك وأروع ما نجد في الآية التالية حيث ذكر الله سبحانه جماعات مختلفة من عباده الصالحين ، فاستهل هذه القائمة المشرقة النورانية بالتائبين ، إنها آية من سورة « التوبة » :

« التائبون العابدون الحامدون ، السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ، وبشر المؤمنين[2] » .

هذا التكريم وتبرئة العبد التائب من ذنبه ، وإظهار الثقة به تجلّى واضحا حين أعلن القرآن قبول توبة ثلاثة من أصحاب

(١) سورة الزمر ٥٣

(٢) سورة التوبة ١١٢ .

النبي ﷺ ، الذين تخلفوا عن غزوة تبوك[1] ، من غير عذر صحيح مقبول ، وبقوا في المدينة ، فبدأ القرآن بذكر النبي ﷺ ، والمهاجرين والأنصار ، الذين لم يتخلفوا عن هذه الغزوة ، ثم ثنى بهؤلاء الثلاثة الذين خُلّفوا ، حتى لا يشعر هؤلاء المخلّفون بإفرادهم بالتوبة ويكونوا بمعزل عن الشعور بالهوان ، وما يسمى في علم النفس « بمركب النقص » ، ويتضح للمؤمنين إلى يوم القيامة أن مكانتهم الطبيعية في الصف الأول من الصادقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، فلا داعي للاستحياء ، ولا مكان للعار .

هل هنا مثال أروع وأجمل ، وأدق وأعمق ، وأحلى وأزهى لقبول التوبة ، وتكريم التائب ، ومسح غاشية الكآبة عنه بلطف وود ، وحب وحنو في تاريخ الأديان والأخلاق ، والتربية والإصلاح ، من هذا المثال ؟ .

اقرأ معي الآيات التالية :

« لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار ، الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنّه بهم رؤوف رحيم ، وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم

(١) اقرأ للتفصيل كتب السيرة، والتفسير، والحديث : « غزوة تبوك » وقد مرت القصة في هذا الكتاب في موضعها.

أنفسهم وظنوا إن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا ، إن الله هو التواب الرحيم[1] » .

ثم أعلن أيضاً كمبدأ عام أن رحمة الله تسع كل شيء ، وتسبق غضبه وجلاله ، يقول القرآن : « ورحمتي وسعت كل شيء[2] » ، وجاء في حديث قدسي : « إن رحمتي سبقت غضبي » إنه جعل اليأس مرادفاً للكفر والجهل والضلال ، وبين ذلك على لسان يعقوب عليه السلام : « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون[3] » ، وذكر في موضع آخر قول ابراهيم ـ عليه السلام ـ فقال : « ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون[4] » .

وهكذا أسعف النبي ﷺ ، بهذه الدعوة المفتوحة العامة إلى التوبة وبيان فضائلها ، وسعتها وشمولها ، الإنسانية المذعورة الخائفة التي كانت تئن تحت وطأة اليأس ، والقنوط ، وترتعد فرائصها بإنذارات العقاب والعذاب ، ومظاهر الغضب والجلال ، وقد كان في ذلك لعلماء اليهود، وشراح الكتب المقدسة ، ورهبان المسيحية الغلاة المتطرفين أكبر نصيب ، ومنحها فرصة جديدة جميلة من الحياة ، ونفخ في قلبها الضعيف

(١) سورة التوبة ١١٧ـ ١١٨ .

(٢) سورة الاعراف ١٥٦ .

(٣) سورة يوسف ٨٧ .

(٤) سورة الحجر ٥٦ .

المتواني ، وجسدها الهامد البارد روحاً جديدة، وحرارة جديدة، وهيأ لجروحها بلسماً ، ورفعها من حضيض التراب إلى أوج العزة والسيادة ، والثقة والاعتزاز ، والاعتداد بالنفس ، والاعتماد على الله .

الجمع بين الدّين والدّنيا ، وتوحيد الصفوف المتنافرة ، والمعسكرات المتحاربة :

لقد وزعت الدّيانات القديمة خاصة المسيحية الحياة الإنسانية في قسمين ، قسم للدين ، وقسم للدنيا ، ووزعت هذا الكوكب الأرضي في معسكرين : معسكر رجال الدين ، ومعسكر رجال الدنيا ، وما كان هذان المعسكران منفصلين فحسب ، بل حال بينهما خليج كبير ووقف بينهما حاجز سميك ، وظلاّ متشاكسين متحاربين وكان كل واحد يعتقد أن هناك خصومة وعداء بين الدين والدنيا ، فإذا أراد إنسان أن يتصل بأحدهما ، لزم عليه أن يقطع صلته بالآخر ، بل يعلن الحرب عليه ، فلا يمكنه ـ على حد قولهم ـ أن يركب سفينتين في وقت واحد ، وأنه لا سبيل إلى الكفاح الاقتصادي ورخائه من غير غفلة عن الدار الأخرة ، واعراض عن فاطر السماوات والأرض ، ولا بقاء لحكم أو سلطة من غير إهمال التعاليم الدينية والخلقية ، والتجرد عن خشية الله ، ولا إمكان للتدين من غير رهبانية ، وقطع صلة عن الدنيا وما فيها .

المعلوم المقرر أن الإنسان محب لليسر مجبول عليه ، وكل فكرة دينية لا تسمح بالاستمتاع المباح ، والنهضة ، والعزة ، والحصول على القوة والحكم ، لا تصلح للنوع البشري في الغالب ، إنه صراع مع الفطرة السليمة وكبت للغرائز الطبيعية البريئة ، في الإنسان ، وكانت نتيجة هذا الصراع أن العدد الأكبر من أصحاب الفطنة والذكاء ، والكفاءات العلمية ، آثر الدنيا على الدين ، ورضي بها ـ كحاجة اجتماعية ، وواقع حي ـ وأطمأن إليها ، وعكف على تحسين هذه الحياة ، والحصول على ملذاتها ، ولم يبق له أمل في الرقي الديني ، والتقدم الروحي .

وأكثر الذين هجروا الدين بصورة عامة ، هجروه على أساس هذا التناقض الذي حسبوه حقيقةً بديهية مسلمة ، وثار البلاط الذي كان يتزعم الحكم الدنيوي ، على الكنيسة التي كانت تمثل الدين، وتجرد عن سائر قيوده ، فصارت الحكومات ـ بطبيعة المنطق ـ كفيلٍ هائج مائج ، تخلص من سلاسله وقيوده ، أو كجملٍ هائم حبله على غاربه ، هذا الانفصال النكد بين الدين والدنيا ، وذلك العداء المشئوم بين « رجال الدين ورجال الدنيا » فتح الباب على مصراعيه للالحاد واللادينية ، وكانت فريسته الغرب أولاً ، والأمم التي دانت له في الفكر والعلم والثقافة ، أو عاشت تحت رايته ثانياً .

وزاد الطين بلة دعاة المسيحية المتطرفون ، والمفرطون

الذين كانوا يعتبرون الفطرة البشرية أكبر عائق في التزكية الروحية والاتصال بالسماء الذين لم يدخروا وسعاً في إذلالها وتعذيبها بأنواع من الأحكام القاسية والتعاليم الجائرة[1] ، وقدّموا صورة وحشية ، كالحة مفزعة للدين تقشعر منها جلود الذين آمنوا وآل الأمر في نهاية الشوط إلى تقلص ظل الدين ، وبلغت عبادة النفس والهوى - في أوسع معناها - إلى ذروتها ، وأصبحت الدنيا تتأرجح بين طرفي نقيض ، ثم سقطت أخيراً بضعف الوازع الديني أو فقدان الحاسة الدينية في هوة عميقة من اللادينية ، والفوضى الخلقية العامة[2] .

وأعظم هدية للبعثة المحمدية ، ومنتها العظيمة ونداؤها الذي دوت به الآفاق أن أساس الأعمال والأخلاق ، هو الهدف الذي ينشده المرء ، والذي عبر عنه الشارع بلفظ مفرد بسيط ، ولكنه واسع عميق « النية »، فقال : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى[3] » .

---

(١) أنظر «تاريخ أخلاق اوروبا» ج٢ ، لمؤلفه ليكي .

(٢) اقرأ للتفصيل كتاب « الصراع بين الدين والعلم». لدرابر

(Conflict Between Religion and Science

أو « ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين » .

الباب الرابع «العصر الأوربي» .

(٣) الحديث الصحيح الذي بلغ عند بعض المحدثين حد الاستفاضة والشهرة، والذي افتتح به الامام البخاري كتابه «الجامع الصحيح» ، وتمام الحديث«انما الأعمال بالنيات، وانما لكل امرىء ما نوى؛ فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» (حديث متفق عليه) .

وإن كل عمل يقوم به الإنسان ابتغاء مرضاة الله، وبدافع الإخلاص، وامتثال أمره وطاعته، هو وسيلة إلى التقرب إلى الله، والوصول إلى أعلى مراتب اليقين، ودرجات الإيمان وهو دين خالص لا تشوبه شائبة، ولو كان هذا العمل جهاداً وقتالاً وحكماً وإدارة، وتمتعاً بطيبات الأرض، وتحقيقاً لمطالب النفس، وسعياً لطلب الرزق والوظيفة، واستمتاعاً بالتسلية البريئة المباحة، والحياة العائلية والزوجية، وكل عبادة وخدمة دينية ـ بالعكس من ذلك ـ تعتبر دنيا اذا تجردت من طلب رضا الله سبحانه، والخضوع لأوامره ونواهيه، وغشيتها غاشية من الغفلة، ونسيان الآخرة، ولو كانت صلوات مكتوبة، ولو كانت هجرة وجهاداً وذكراً وتسبيحاً وقتالاً في سبيل الله، ولا يثاب عليه العامل، والعالم، والمجاهد، والداعي، بل قد تعود تلك الأعمال والخدمات عليه وبالاً، وتكون بينه وبين الله حجاباً[1] .

إن المأثرة الخامسة من مآثر سيدنا محمد ﷺ، أنه ملأ هذه الفجوة الواسعة بين الدين والدنيا، وجعل هذين المتنافرين المتباعدين، اللّذين عاشا في خصام دائم، وعداء سافر، وحقد مستمر، يتعانقان في إلف وود، ويتعايشان في سلام ووئام، إنه ﷺ، رسول الوحدة، وبشير ونذير في الوقت

(١) كتب الحديث زاخرة بالآثار الدالة على ذلك، أنظر أبواب الأخلاص والنية، والايمان؛ والاحتساب.

ذاته ، إنه أخذ النوع البشري من المعسكرين المتحاربين إلى جبهة موحدة ، من الإيمان، والاحتساب ، والعطف على البشرية ، وابتغاء رضوان الله ، وعلمنا هذا الدعاء الجامع ، المعجز الواسع « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار[1] » .

إنه أعلن بالآية القرآنية : « إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين[2] »، إن حياة المؤمن ليست مجموع وحدات متفرقة مضادة ، بل هي وحدة تسيطر عليها روح العبادة والاحتساب ، ويقودها الإيمان بالله والإسلام لأوامره ، وهي تشمل شعب الحياة كلها ، وميادين الكفاح كلها ، وأصناف العمل كلها ، إذا تحقق الأخلاص ، وصحت النية ، وأريد بها وجه الله ، وكانت على المنهج الصحيح الذي جاء به الأنبياء فدل ذلك على أنه رسول الوحدة والوئام والانسجام بالكمال والتمام، وأنه البشير والنذير في نفس الوقت ، إنه قضى على نظرية الانفصال بين الدين والدنيا ، فجعل الحياة كلها عبادة، وجعل الأرض كلها مسجداً ، وأخذ بيد الانسان من معسكرات متحاربة متصارعة، إلى جبهة واحدة واسعة من العمل الصالح ، وخدمة الانسانية النافعة ، وابتغاء مرضاة

---

(١) سورة البقرة ٢٠١ .

(٢) سورة الانعام ١٦٢ .

الله ، فترى هناك ملوكاً في أطمار الفقراء ، وزهاداً في زي الملوك والأمراء ، جبال حلم وينابيع علم ، عباد ليل وأحلاس خيل ، من غير تناقض او صعوبة ، واختلال أو تعسف .

تعيين الأهداف والغايات وميادين العمل والكفاح :

المأثرة السادسة ، أو الانقلاب السادس الذي أحدثه محمد ﷺ ، في الحياة البشرية أنه هدى الإنسان إلى محل لائق كريم يصرف فيه قواه ، ورفعه إلى أجواء فسيحة عالية يحلق فيها .

كان الانسان قبل البعثة المحمدية جاهلاً لهدفه الحقيقي ، لا يدري إلى أين يتجه ، وإلى أين المصير؟ ، وما هو المجال الأفضل والحقيقي لمواهبه وطاقاته وجهوده ؟

إنه وضع لنفسه مقاصد وهمية صناعية ، وحصر نفسه في دوائر ضيقة محدودة ، كانت تستنفد قواه وطاقاته وذكاءه وكان المثل الأعلى عنده للرجل الناجح واللامع من يكون اكثر جمعاً ومالاً ، وأوسع نفوذاً وقوة ، متحكماً في أكبر مجموعة من البشر ، وأوسع بقعة من بقاع المعمورة ، كان هناك ملايين لم يزد طموحهم على التمتع بألوان زاهية ، وأصوات مطربة ، وأطعمة لذيذة ، وأكثر من تقليد البلبل في صوته ، أو الطاووس في لونه ، بل أكثر من مسايرة الماشية والغنم ،

والأنعام والدواب ، كان هناك آلاف عاشوا دائماً بين بلاط الملوك ، وحاشيتهم ، وبذلوا نبوغهم وذكاءهم في التزلف إلى الأمراء ، والتملق أمام الأغنياء ، أو الخضوع للجبابرة ، والأقوياء ، أو التسلي بالأدب الفارغ الذي لا قيمة له في الدنيا والآخرة ، فجاء محمد ﷺ ، وجعل غايته الأخيرة الحقيقة ، وهدفه الأعلى المنشود نصب عينيه ، وأرسخ في قلب الإنسان ، أن المجال الحقيقي لجهده واجتهاده ، ومواهبه وأشواقه ، وطموحه وسموه وطيرانه وتحليقه ، هو معرفة فاطر السماوات والأرض واطلاع على صفاته ، وقدرته وحكمته ، وسعة ملكوت السماوات والأرض وعظمتها وخلودها ، والحصول على الإيمان واليقين والفوز برضوان الله وحده ، والرضا به وبقدره ، والبحث عن وحدة تؤلف بين الأجزاء المتناثرة أحياناً ، والمتناقضة أحياناً أخرى ، وتنمية قواه الباطنة ، ومداركه الروحية ، للوصول إلى درجات القرب واليقين ، والحث على خدمة الانسانية ، والإيثار والتضحية ، والوصول بذلك إلى مكان لا تصل إليه الملائكة المقربون ، وتلك السعادة هي الحقيقية للإنسان ، ونهاية كماله ، ، ومعراج قلبه وروحه .

ولادة عالم جديد ، وإنسان جديد :

لقد تغيرت الدنيا بعد بعثة النبي ﷺ ، وبفضل تلك التعاليم السامية ، كما يتغير الطقس ، وانتقلت الانسانية من

فصل كله جدب وخريف ، وسموم وحميم ، إلى فصل كله ربيع ، وجنات تجري من تحتها الأنهار، وتغيرت طباع الناس ، وأشرقت القلوب بنور ربها ، وعمّ الإقبال على الله ، واطلع الانسان على طعم جديد لم يألفه ، وذوق لم يجربه ، وهيام لم يعرفه من قبل .

انتعشت القلوب الخاوية الضامرة الباردة الهامدة ، بحرارة الإيمان وقوة الحنان ، استضاءت العقول بنور جديد ، وسكرت النفوس بنشوة جديدة، وخرجت الانسانية أفواجاً تطلب الطريق الصحيح ومحلها الرفيع، وتحنّ إلى مكانتها السامقة العالية ، فلا ترى أمة من الأمم ، وبلداً من البلاد ، إلاّ وهو يريد السباق في هذا المضمار ، ويتنافس فيه، فما ترى العرب والعجم ، ومصر والشام ، وتركستان وايران ، والعراق وخراسان ، وشمالي أفريقية ، والأندلس ، وبلادنا الهند ، وجزائر شرق الهند ، إلاّ سكارى هذا الحب العلوي، والفيض السماوي ، وعشاق هذا الهدف السامي ، وفقراء على هذا الباب العالي .

كان يبدو أن الإنسانية أفاقت واستيقظت ، وفتحت عيونها بعد سبات عميق طويل ، دام قروناً طويلة ، فأرادت أن تتدارك ما فاتها حتى عمر كل جزء من أجزائها ، وكل ركن من أركانها بدعاة ربانيين مخلصين ، مجاهدين مصلحين، مربين ، عارفين بالله . . . متحرقين لخلق الله ، باذلين نفسهم

ونفيسهم لخير الإنسانية ، وإنقاذها من الخطر المحدق بها من كل جانب ، رجال تحسدهم الملائكة ، فأشعلوا مجامر القلوب الباردة ، وأزكوا شعلة الحب الآلهي ، وفجروا أنهار العلوم والآداب ، والحكم والمعارف ، وفتحوا ينبوعاً فياضاً ، متدفقاً من العلم والعرفان ، والإيمان والحنان ، وأنشأوا في نفوس البشر مقتاً شديداً للظلم والجور ، والعدوان والبغضاء، ولقنوا الشعوب المضطهدة ، المهانة الذليلة دروس المساواة ، وضموا المنبوذين والمهجورين ، والمساكين الذين لفظهم المجتمع ، وطردهم أهلهم وعشيرتهم إلى صدورهم العامرة بالحب والحنان ، إنك تجد آثارهم وتلمس آياتهم على كل جزء من أجزاء البسيطة كمواقع القطر ، لا يخلو منها بيت وبر ، ولا مدر.

وانظر في جوهر أعمالهم وكيفيتها Quality فضلاً عن كميتها Quantity وشاهد سمو أفكارهم ، وتحليقها في أجواء وآفاق رفيعة ، وانظر شعورهم المرهف ، وروحهم اللطيفة الوادعة الرقيقة ، وذكاءهم الوقاد ، وطبعهم السليم ، وكيف كانوا يتوجعون للإنسانية ويذوبون لها كالشمعة ، وكيف كانت نفوسهم وأرواحهم تتلوى وتذوب في نار الأسى ، والإشفاق ، والعطف على الخلق ، والحرص على ما فيه نفعه وصلاحه ، كيف كانوا يقعون في المهالك ، ويرحبون بالخسائر لإنقاذ الناس ، ودفع البلاء عنهم ،وكيف كان حكامهم وولاة

أمورهم ، يصرفون الأمور ، ويشعرون بالمسئولية ، يعسون بالليل ويترابطون على الثغر ، وكيف كان الشعب منسجماً معهم ، مطيعاً لأوامرهم ، واقرأ - أيضاً - أخبار عبادتهم ، وزهدهم ، وحالتهم في الدعاء ، ومكارم أخلاقهم ، وشهادتهم على نفوسهم ، واحتسابهم لها، وحبهم للصّغار، والضّعفاء ، ولين قلوبهم مع الإخوان والأصدقاء ، وكرمهم وسماحهم، وعفوهم وصفحهم عن الأعداء ، سوف ترى أن أحلام الشعراء والأدباء ، وخيالهم الخصيب ، وقريحتهم الفياضة ، لا تصل إلى تلك القمة العالية التي وصل إليها هؤلاء في عالم الحقيقة والواقع ، ولولا تواتر ما جاء في هذا الباب واستفاضته ، ولولا شهادات التاريخ الموثوق بها ، بدت هذه الأخبار كقصص وأساطير نسجها الخيال .

إن هذا الانقلاب العظيم ، والدور الزاهر الجديد معجزة من معجزات محمد ﷺ ، ومأثرة من مآثر بعثته ، ونفحة من نفحات الرّحمة الإلهية التي عمت الأمكنة كلها ، والأزمنة كلها .

وصدق الله العظيم :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

فهرس الأعلام

(أ)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ذ)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)

(هـ)

(و)

(ي)

فهرس القبائل والأقوام والديانات

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

خزيمة بن مدركة ـ ١٠٧

خولان ـ ٤٣٧

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

(ي)

فهرس الأماكن والبلاد

(ت)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(ص)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

فهرس المراجع العربية والأردوية

القرآن الكريم :

كتب الحديث :

الجامع الصحيح	للامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري
الصحيح لمسلم	للامام أبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري
الجامع للترمذي	للامام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي
سنن أبي داود	للامام أبي داؤد سليمان بن الأشعث السجستاني
سنن النسائي	للقاضي أحمد بن شعيب بن علي النسائي
سنن أبي ماجه	للعلامة أبي عبدالله محمد بن يزيد بن ماجه الزويني
موطأ الإمام مالك	للامام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي
مسند أحمد	للامام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني
السنن الكبرى للبيهقي	للعلامة أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي
سنن الدارمي	للعلامة أبي محمد عبدالله بن عبد الرحمن الدارمي
المستدرك للحاكم	للحافظ أبي عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بالحاكم النيسابوري
الأدب المفرد	للامام أبي عبدالله محمد بن اسماعيل البخاري
شمائل الترمذي	للامام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي
شرح معاني الآثار	للامام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي
مشكل الآثار	للامام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة الطحاوي
مسند أبي داؤد	للحافظ أبي داؤد الطيالسي

شرح السنة	للعلامة ابن محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي
المصنف	للحافظ أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني
مشكاة المصابيح	للعلامة أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي والشيخ ولي الدين محمد الخطيب التبريزي
الترغيب والترهيب	للحافظ زكي الدين عبد العظيم بن عبد القوي المنذري
زاد المعاد	للعلامة شمس الدين بن قيم الجوزية
كنز العمال	للعلامة علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين البرهان بوري
شرح مسلم	للعلامة محيي الدين أبي زكريا يحيى بن شرف النووي
فتح الباري	للعلامة الحافظ أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني
عمدة القاري	للعلامة بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني
جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد	للعلامة محمد بن محمد بن سليمان بن الفاسي المغربي
(المعجم الكبير	للعلامة سليمان بن أحمد بن أيوب الشامي الطبراني
المواهب اللدنية	للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد بن محمد القسطلاني
شرح المواهب اللدنية	للعلامة محمد بن عبدد الباقي الزرقاني
مجمع بحار الأنوار	للعلامة محمد طاهر الفتني
التراتيب الادارية	للعلامة عبد الحي الكتاني
حلية الأولياء	للعلامة أبي نعيم الأصبهاني

كتب التفسير :

جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الطبري)	للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري
تفسير القرآن العظيم	للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير

(تفسير ابن كثير)

تفسير ماجدي	للأستاذ الكبير عبد الماجد الدريابادي (اللغة الأردوية والانجليزية)

كتب السيرة النبوية : ـ

السيرة النبوية	للعلامة أبي القاسم عبد الرحمن بن عبدالله بن هشام
كتاب الشفاء	للقاضي أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي
السيرة النبوية	للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير
السيرة الحلبية	للشيخ علي بن برهان الدين الحلبي الشافعي
المغازي	للعلامة محمد بن عمرو الواقدي
الروض الآنف	للحافظ عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي المغربي
كتاب الفصول	للعلامة محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري
الخصائص الكبرى	للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد السيوطي
امتاع الأسماع ، بما للرسول من الأنباء والأحوال والحفدة والمتاع	للعلامة تقي الدين أبي محمد المقريزي
الرسالة المحمدية	للعلامة السيد سليمان الندوي (تعريب الأستاذ محمد ناظم الندوي)
خاتم النبيين	للعلامة محمد أبو زهرة المصري
عبقرية محمد	للأستاذ عباس محمود العقاد
الرسول القائد	للركن المتقاعد محمود شيت الخطاب
حجة الوداع وجزء عمرات النبي	للعلامة الشيخ محمد زكريا الكاند هلوي
غزوة الأحزاب	للأستاذ أحمد باشميل
سيرة النبي	للعلامة شبلي النعماني (اللغة الأردوية)

رحمة للعالمين — للقاضي محمد سليمان المنصور فوري (اللغة الأردوية)

أصح السير — للشيخ عبد الرؤوف الدانابوري (اللغة الأردوية)

عهد نبري كي ميدان جنك ساحات القتال في العهد النبوي) — للدكتور حميد الله الحيدر بادي المقيم بباريس (اللغة الأردوية)

حديث دفاع — للواء محمد أكبر خان الباكستاني (اللغة الأردوية)

محمد رسول الله — للدكتور حميد الله الحيدر آبادي المقيم بباريس (اللغة الانجليزية)

كتب التاريخ والتراجم والأخبار

طبقات ابن سعد

تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري) — للعلامة أبي جعفر محمد بن جرير الطبري

البداية والنهارية — للعلامة الحافظ عماد الدين بن كثير

الكامل — للامام فخر الدين بن الأثير الجزري

فتوح البلدان — للعلامة أحمد بن يحي بن جابر الشهير بالبلاذري

تاريخ ابن خلدون — للعلامة عبد الرحمن بن محمد بن خلدون

تاريخ الخميس — للقاضي حسين بن محمد بن الحسن الدياربكري المالكي

الاستيعاب في معرفة الأصحاب — للعلامة الحافظ ابن عبد البر المالكي الأندلسي

الأصابة في تمييز الصحابة — للعلامة أحمد بن علي بن محمد المعروف بابن حجر العسقلاني

أسد الغابة — للعلامة عز الدين أبي الحسن علي بن محمد الجزري

المعروف بابن الأثير

صفة الصفوة	للعلامة الحافظ عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي
تذكرة الحفاظ	للعلامة الحافظ شمس الدين أبي عبدالله الذهبي
كتاب الزهد	للامام عبدالله بن المبارك
الشعر والشعراء	لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
أهل كتاب صحابة وتابعين (الصحابة والتابعون من أهل الكتاب)	للأستاذ مجيب الله الندوي (الأردوية)
الأغاني	لأبي الفرج الأصبهاني

تاريخ البلاد والأمم :

معجم البلدان	للامام شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت الحموي البغدادي
النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة	للعلامة الأمير يوسف بن تغري بردي
المغانم المستطابة في معالم طابة	للعلامة مجد الدين الفيروز آبادي
وفاء الوفاء في أخبار دار المصطفى	للعلامة علي بن عبدالله بن أحمد السمهودي الشافعي
بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب	للسيد محمود شكري الآلوسي
أخبار مكة	للامام أبي الوليد محمد الأزرقي
تاريخ مكة	للأستاذ أحمد السباعي
منزل الوحي	للدكتور محمد حسين هيكل
حج ومقامات حج	للأستاذ محمد الرابع الندوي (اللغة الأردوية)
آثار المدينة المنورة	للأستاذ عبد القدوس الأنصاري

مكة والمدينة في الجـاهلية	
وعهد الرسول	للأستاذ أحمد إبراهيم الشريف
تاريخ العرب قبل الإسلام	للدكتور جواد علي
تاريخ اليهود في بلاد العرب	
في الجاهلية وصدر الإسلام	للدكتور اسرائيل ولفنسون (أبو نؤيب)
(إيران في عهد الساسانيين)	(اللغة الأردوية)
تاريخ ايران	لشاهين مكاريوس
نامه ء تنسر	(وثيقة ايرانية تاريخية ـ طبع مينوى)
تاريخ جين (تاريخ الصين)	لجمس كاركرن
بنو اسرائيل في القرآن	
والسنة	للدكتور محمد سيد الطنطاوي
هندوستاني تمدن	
(الهند القديمة)	لأشور آتوبا (اللغة الأردوية)

كتب الشريعة الإسلامية والأديان والمذاهب

حجة الله البالغة	لشيخ الإسلام أحمد وليّ الله بن عبد الرحيم الدهاوي
تاريخ التشريع الإسلامي	للعلامة الشيخ محمد الخضري
فقه الزكاة	للأستاذ يوسف القرضاوي
الكنز المرصود في قواعد	
التلمود (اليهود على حسب التلمود)	للدكتور يوسف حنا نصرالله
الكتاب المقدس	
الإنجيل	
التوراة	
ستيارته بركاش	

(في الديانة الهندكية)　　لديانندسرسوتي (اللغة الأردوية)
منوشا ستر

المعاجم ؛ وكتب الأدب والمحاضرات والموسوعات :

لسان العرب	للعلامة أبي الفضل جمال الدين محمد المعروف بابن منظور المصري
المخصص	للعلامة أبي الحسن علي بن اسماعيل النحوي المعروف بابن سيدة
أدب الكاتب	لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري
فقه اللغة	للعلامة الشيخ أبي المنصور الثعالبي
فرهنك عميد	لأستاذ عميد (اللغة الفارسية)
شرح السبع المعلقات	للعلامة أبي عبدالله الحسين بن أحمد بن الحسين الزوزني
ديوان الحماسة	لأبي تمام حبيب بن اوس الطائي
العقد الفريد	للعلامة الشيخ شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي
حسن المحاضرة	للعلامة جلال الذين محمد بن أحمد السيوطي
دائرة المعارف للبستاني	للمعلم بطرس البستاني .

دائرة معارف القرن الشعرين للأستاذ محمد فريد وجدي

BIBLIOGRAPHY

Alwin Toffler, Future Shock, London, 1975

Bodley, R.V.C. The Messenger: The Life of Mohammed, London, 1946

Bosworth Smith, Mohammed and Mohammedanism, London, 1976

Briffault, Robert, The Making of Humanity.

Butler, Alfred J., The Arab Conquest of Egypt and the Last Thirty years of the Roman Dominion, Oxford 1902

Cambridge History of Islam, Vol. 1, Cambridge 1970

Christensen, A. L'Iran Sous les Sassanides (Urdu Trans. Muhammad Iqbal)

De Lacy, O' Leary, Arbia Before Muhammad, London, 1927

Drapper, John William, Conflict Between Religion and Sciencee, London, 1910

Dutt, R.C., Ancient India, Vol. 3, 1891

Encyclopaedia Britannica, Vol. XII, Ninth Edition

Encyclopaedia of Religion and Ethics, 1939

Georges Roux, Ancient Iraq, 1972

Gibbon, Edcard, The Decline and Fall of Roman Empire, London, 1911

Hamidullah, Dr,Muhammad, Muhammad Rasulallah, Hyderabad, 1974

(The) History of Christianity in the Light of Modern Knolweldge, Glasgow, 1929

Hitti, P.K., History of Syria, London, 1951

James Mackinon, From Christi to Constantine, London, 1936.

Jewish Encyclopedia, Vol. XII, 1916

John Davenport, Apology for Muhammad and The Quran, London, 1869

Jones, A.H.M., and Elizabeth Monroe, A History of Abyssinia, Oxford, 1935

Lamartine, Histoire de la Turquie, Vol. II

Lecky. W.E.H., History of European Morals, New York, 1855

Maryam Jameelah, Islam Versus Ahl-Kitab-Past and Present, Lahore, 1968

Montgomery Watt, W.Muhammad, Prophet and Statesman, London, 1961
Muir, Sir William, Life of Mahomet, Vol, I, London, 1856
Nehru, Jawahar Lal, Discovery of India, Calcutt, 1948
(The) New Catholic Encyclopaedia, Vol. 14, 1967
O'Malley L.S.S., Popular Hinduism - The Religion of the Masses, Cambridge, 1935
Thilly, Prof. Frank, History of Philosophy, New York, 1945
Vaidya, C.V., History of Madiaeval Hindu India, Vol. I, Poona, 1921
Victor Chaport, The Roman World, London, 1928
Vidyadhar Mahajan, Muslim Rule in India, New Delhi, 1970
Wallbank, T.Walter and Alastair M.Taylor, Civilization — Past and Present (Scott Foresment and Co.) 1954
Wells, H.G., A Short History of the World, London, 1924
Williams Henry Smith, Historians' History of the World, V Ed. 1926
Zaki Ali, Dr., Islam in the World, Lahore, 1947

فهرست

في المدينة ٢١٨ - ٢٣٩

معركة بدر الحاسمة ٢٤٠ - ٢٥٦

غزوة أحد ٢٥٧ ـ ٢٧٨

غزوة الخندق أو غزوة الأحزاب ٢٧٩ ـ ٢٩١

غزوة بني قريظة ٢٩٢ ـ ٣٠٨

صلح الحديبية ٣٠٩ ـ ٣٢٢

دعوة الملوك والأمراء إلى الإسلام ٣٢٣ ـ ٣٥٠

غزوة خيبر ٣٥١ ـ ٣٦٤

غزوة مُؤتة ٣٦٥ ـ ٣٧١

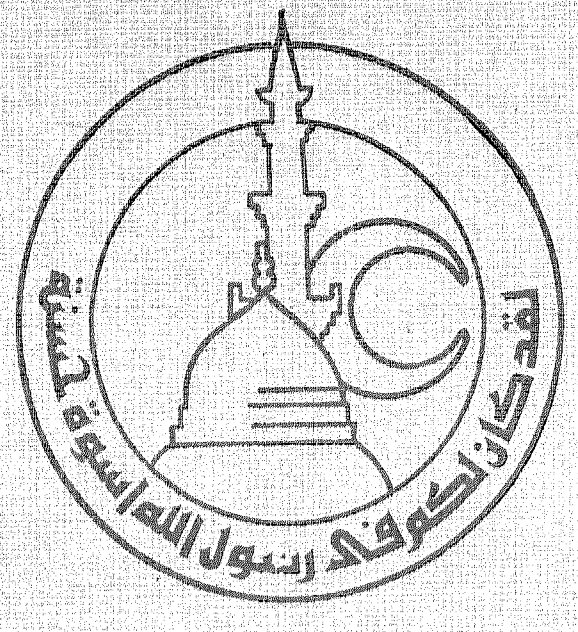
فتح مكة ٣٧٢ ـ ٣٩٤

غزوة حنين ٣٩٥ ـ ٤٠١

الوفاة ٤٥٣ ـ ٤٨٢

الأخلاق والشمائل ٤٨٣ ـ ٥٢٢

فضل البعثة المحمـدية على الانسـانية ومنحها العالمية الخالدة ٥٢٣ ـ ٦١٤



المؤتمر العالمي الثالث للسيرة والسنة النبوية

الدوحة محرم ١٤٠٠هـ